



أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

هكذا علمني ورزقني

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م
جدة - المملكة العربية السعودية

صوره الفقير إلى عفو ربه :
أحمد العنقري

twitter : ianqri

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الناشر
تهامة

ص.ب ٥٤٥٥
جسدة ٢١٤٢٦
ماتف ٦٤٤٤٤٤٤
للمملكة العربية السعودية



هڪڙا علمي
وَرْدِ زُورِ پُ

الاستفتاح والابتهاد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وعلى سائر النبيين والمرسلين .
اللهم ارض عن أتباعهم إلى يوم الدين ، واجعلنا اللهم منهم .
اللهم عفوك وغفرانك عن مواليج من اللهو المباح إن شاء الله ، كتبتهما تقربا واستئناسا لجيل
طغت فيه قيمة الجمال والمتعة على قيمتي الحق والخير .
أهدي هذا السفر إلى الأستاذ الجليل والمحب الكريم أحمد محمود رئيس تحرير جريدة المدينة
الذي جعل من جريدته نبعا ثرا لما نكتبه من أسفار تحت عنوان (الفنون الصغرى) .
والله المستعان ...

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

فلسفة الإهداء

يحسب بعض الناس أن كلمات الإهداء التي يصدر بها المعاصرون مؤلفاتهم من الوثنية ومن البدع المستحدثة!

قال أبو عبد الرحمن محمد: لست أحصي الكتب القديمة التي يقدمها مؤلفوها لصديق أو أمير، أو وزير، أو أستاذ.. إلخ.

أما كلمة الإهداء فبحسب النية وبحسب موضوع الكتاب:

فإن كان الموضوع دنيوياً كالبحث عن الترجية عند أبي نواس، فلا مدخل للنية ثم.

وإن كان الموضوع قرابة لا بد أن يراد به وجه الله فلا معنى للإهداء عند خالص النية إلا أحد أمرين.

أحدهما: أن يكون المهدى إليه مراداً بالخطاب أو ببعضه:

إما لأنه موافق، وإما لأنه مخالف، وإما لأنه سبب في التأليف وإما.. وإما.. إلخ.

قال ابن عمر: على هذا الوجه يكون معنى الإهداء: أن هذا كتاب قصدت به وجه الله ورجوت من الله ثوابه.

ومن هذا القصد نشرت الكتاب ليقراه من يستفيد منه، وأنت أيها المهدى إليه أولى

من يستفيد منه ويسعد به، لأنك أستاذي، أو لأنك حضرتي.. أو إلخ، فأنا أهدي إليك

إتاحة قراءته بنشره!

وثانيهما: أن يهدي ثواب عمله لشخص ما، وهذا لا يضر النية.

فلسفة الفنون الصغرى

مواد هذه الفنون لا يجمعها موضوع واحد، ولم يراع في ترتيبها مناسبة معينة، بل تجد المسألة الفقهية بجانب المسألة الأدبية.. وهكذا.

وقد انتفعت في هذا المنهج بمنهج أبي إسحاق الحصري في كتابه «زهر الآداب». قال الحصري عن هذا المنهج:

وقد نزعنا فيما جمعت عن إبعاد الشكل عن شكله، وإفراد الشيء عن مثله، لتظهر في التجميع إفادة الاجتماع وفي التفريق لذادة الامتاع^(١). اهـ.

إلا أن «زهر الآداب» في متفرقات الأجناس الأدبية، وهذه الفنون في متفرقات المعارف بما فيها الأجناس الأدبية.

وإنما أردت بهذا إحياء سنة الأسلاف، فقد رغب المعاصرون عن تأليف كتب المتفرقات سوى الكتب، التي يجمع فيها بعض المعاصرين مقالاتهم الصحفية وكلماتهم الإذاعية، وهذه تختلف عن متفرقات القدماء في تحقيقاتها، وعمق مادتها، لأن الغالب على كتابات الصحف والإذاعة التأمل المجرد، والأسلوب الإنشائي دون رجوع إلى المصادر، أو برجوع طفيف.

وقد أردت أن تكون هذه المواد من التأليفات السبعة النافعة، والأغلب في مباحث هذه الأسفار:

١ — نقد حكم شائع، تناقله المؤلفون دون تمحيص.
٢ — الاستدراك على بعض المؤلفين في نقد حكم، أو تحرير محل نزاع، أو لفت النظر إلى فرق دقيق، أو معارضة استدلال ما بإشكال لا مفك منه أو تمحيص نص شرعي، أو أدبي.. إلخ ثبوتاً ودلالة.

٣ — إيراد ما يلفت، ويندر بتعليق، ودون تعليق.
وهذه الأمور حصيدة قراءة، وتتبع، وقد نهجت في هذه المواد الأسلوب العلمي، أسلوب السلف من علماء المسلمين المتقدمين، وهو يتميز بالترقيم والتقسيم والحصص والاقتصاد في

(١) زهر الآداب ٢/١.

العبرة إلا لضرورة دون تزويق، وليس الغرض من أسلوب هذه المواد الإثارة، الأدبية، الفنية.

وإنما الغرض منه التفهيم، وإقناع العقل.

٤ — تأملات، وانفعالات عاطفية، ومصدر هذه القراءة والمشاهدة اليومية العابرة وأحاديث المجالس، وهذه حاولت أن أكتبها حسب الطاقة بنثر فني يرضي العقل، والخيال والعاطفة وتشنف الأسماع موسيقى كلماته.

ومثل هذا الأسلوب تكتب الروايات، والقصص لأن المقصود في الدرجة الأولى الإثارة الفنية.

وأحسب بعد هذا أنني برهنت على أنني أعي الأسلوب الذي أكتب به وأنه لا تعجزني لغة النثر الفني!

ولكنني أكتب كل فن بلفته!

وقد تميز هذا الجزء وهو السفر الأول من الفنون الصغرى بتغليب الجانب الفني والأدبي انطلاقاً من قصيدة سترها لورد زورث تتحدث عن الطفل الكبير!

وأحسب أن الطفل الكبير هو من سلمت برأيه من الأوخاز.

والله المستعان.

مقدمة الطبعة التي لم تنشر !!

يمثل هذا الكتاب السفر الأول من موسوعة الفنون الصغرى إلا أنني ميزته بعنوان خاص هو (هكذا علمني ورد زورث) .

وهذا العنوان وحي مصادفة محضة لقصيدة لورد زورث تجدونها في هذا السفر خيّل إليّ — وإن كان أسبق مني زماناً — أنه إياي يعني .

وجدته يبارك عملاً جليلاً كبيراً لطفل .

قلت : لعل ما يبرجه الظاهري هو العمل الكبير، ولعل ذلك الظاهري هو الطفل ذلك أنني أرسيت كتاباتي على قيم ثلاث : الحق — الخير — الجمال .

فآثار قيمتي الحق والخير مما يرضى به الكبار .

وآثار الجمال مما يفرض به الأطفال ، فإن ظل الكبير متعلقاً بمتعة الجمال فهو طفل كبير .

وهكذا كانت قيمة الجمال هي السيطرة على هذا السفر من ألفه إلى يائه ، مما يدل على أن موشي بردته طفل كبير .

يدور هذا السفر على الموضوعات التالية :

١ — اعترافات ذاتية لم يكن الباعث لها شهوة الحديث عن النفس لأن أكثر هذه الاعترافات مما لا يفخر به الفاعلون ، وإنما باعثها أن الصدق العاطفي أحد ظاهرات الجمال ، وهو خير مسجل لعبث الأطفال الكبار .

٢ — دراسات أدبية ، ومعايشت ثقافية تنطلق من معايير النقد للجمال .

وربما تغلغلها جد كردي على أهل الحلول ووحدة الوجود ، والدافع لذلك أنني بهذا الرد أنفي قبحا عن جمال الأدب ، فلم أخرج عن معيار الجمال وأنتم تعلمون — حفظكم الله — أن متغيرات الأدب الحديث تماوجت منذ حملت مجلة « الآداب » أعباء الأدب الحديث الذي توقفت عنده مجلة « الرسالة » .

وآرائني النقدية هنا نتيجة لتتلمذ على مجلة الرسالة التي كانت تزن العمل الأدبي بالمعيار الجمالي والنفسي ، ولدي آراء نقدية خافتة نتيجة لتتلمذي بآخرة على مجلة « الآداب » التي

كانت تزن العمل الأدبي بتقنية الرؤيا .
هذه الآراء الأخيرة ترد مبثوثة في السفر الثاني من هذه الموسوعة وترد تطبيقيا في دراستي
التي أفردتها لشعر أحمد عبدالمعطي حجازي .
ورأيت أوجزه هنا في ملمحين :
أولهما : أن أعمال تقنية الرؤيا إذا خليت من الجمال فهي ثقافة أزنها بـمعيار المنطق واللغة
والتاريخ .. إلخ .
ولا أدخلها في حظيرة الفن ، لأن من شرط الفن الجمال .
وثانيهما : أن جماليات الرسالة (المجلة) غير مستغنى عنها في دراسة الأعمال الأدبية التي
سبقت تقنية الرؤيا الحديثة .
٣ — دراسات ومعاينات فنية عن الأفلام والأنغام والحب وجمال الصورة، وورود هذه الأمور لا
يحتاج إلى توضيح لأنها فنون جميلة .
وفي الختام أقدم خالص الامتنان والتقدير للأستاذ محمد سعيد طيب الذي أتاح لهذا السفر
الانبثاق عبر مؤسسة تهامة الخيرة .
جزاه الله عن صالحك الأدب خير الجزاء .
والله المستعان ..

المقدمة

فرغت من هذا الكتاب في ٢٠ / ١ / ١٤٠١ هـ وتوالت إعلانات مؤسسة تهامة عن نشره وأنه تحت الطبع إلا أن بعض الغيورين على سمعة مؤلفه وقفوه ملحين على حذف يجب أن يكون، وعلى تعديل ينبغي، لأن صغار طلاب العلم كبائر لما يفترض فيهم من حسن الأسوة والقُدوة.

ومؤلف هذا الكتاب من حلة العلم الشرعي فكيف يكتب عن فنان وفنانة وفيلم وسينما؟ والواقع أنني متعمد هذا لأن الفن والفيلم واجهة إعلامية تثقيفية ترفيهية خطيرة يجب أن يساهم طالب العلم في استصلاحها بتوعيته وتوجيهه لتكون وسائل الترفيه والتسلية التي دخلت بيوت المسلمين بريئة من الفجور والميوعة المفرطة المتردية!!

وفي دماء المسلمين جمهور من هواة الترفيه أحب أن أتظرف لهم لأكبهم إلى الحرف المضيء الجاد ليكونوا من هواة أيضاً.

وثمة عبارات وجل لاحظتها الرقابة فلما تأملتها خجلت من كتابتي لها فطمست معالمها . وعند تعديلي للكتاب أهتلت الفرصة فأضفت موضوعات اخترتها مما نشر لي في الصحف أخيراً.

فإلى القائمين على رقابة المطبوعات خالص شكري وامتناني وشكر القارئ أيضاً . وحرام على أي قارئ أو ناقد أن يعتبر ما في هذا الكتاب من إحاض تناقضا مني لأن كل ما في هذا الكتاب من جد أو عبث لا يخرج عن اطراد فكري ومنهج يحكم الجمع بين الجد والعبث بالقدر الذي يحكم به الجمع بين الواجب والمباح في حالات مطردة غير متناقضة . وصلى الله على محمد .

حرر في ١٢ / ٧ / ١٤٠٣ هـ

التأليف السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها

- إما شيء يختصره لم يسبق إليه .
- وإما شيء ناقص يتمه .
- وإما شيء مستغلق يشرحه .
- وإما شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه .
- وإما شيء أخطأ فيه صاحبه يصلحه .
- وإما شيء متفرق يجمعه .
- وإما شيء مختلط يرتبه .

أبو محمد بن حزم الظاهري

الطفل الكبير وكفر أبي صير

أبوصير ريف يرح على ضفاف إحدى الترع المناسبة من النيل الخالد .
والريف صومعة من صوامع الرومانسيين ومن سحره عرفت شيئا من أسرار العواطف !!
كيف لا والتربع على غلاته طفل كبير!
إنه يتكلم بلحمة و يسمع بشحمة!
رأى أترابه ولداته منذ مدرسة ابن حنطي رحمه الله إلى أن زاحمهم على الدكتوراه وهم رجال عقلاء
يحنون التحفظ !
فاقتنع بأنه كبير!!
ولو حاول الحيدة لخائته طلائع الوقار والإنذار.
ولكنه ينعم بحياة طفولية لم يحلم بها الرومانتيكيون إلا اقتسارا .
طفل كبير!
طفل عمره خمس وأربعون سنة !!
ما هذا؟!
ألا يكون هذا مقدمة للإيمان بالأفكار الماركسية؟
الأفكار التي تجمع بين المتناقضات والمتعارضات والمتضادات؟
أو لم بين الرفاق فلسفتهم على وجود المتناقضات ثم تصارعها في الذات والأفكار والطبيعة
والمجتمع؟!
إن جورج بولينزر، وجي ييس، وموريس كافين — فلسفوا فكرة المتناقضات في كتابهم عن
أصول الفلسفة الماركسية .
ومثل هذا فعل شيطانهم الكبير ستالين في كتابه عن المادية الجدلية والمادية التاريخية .
ورجيمهم الأكبر ماوتسي تنج في بحث له حول التناقض في الكراسية الشيوعية .
ولكن الطفل الكبير لا يخاف هذه اللفظة!
لأن هذا الكبير الطفل قرأ النظرية الماركسية من وجهة نظر فلسفية فأعلن للناس متحدياً أن
اجتماع المتناقضات فكرة متكلفة غير صادقة، بل غير متصورة، وإن ما يحبه الماركسيون تناقضا

مجتمعا ليس في الحقيقة تناقضا، لأن لهوية المتناقض ثمانية شروط وهي وحدة الهوية والكيفية والزمان والمكان.. إلخ.

والمتناقضات الماركسية مختلفة الشروط .

إذن الماركسية لم تفهم منطق الميتافيزيقا !

والطفل الكبير مؤمن موحد ذو عواطف .

ولكن أدب العواطف متخلف في صفوف المعسكر الأحمر، فلا يوجد وراء الستار الحديدي أو الجليدي طفل كبير.

هذا الكبير الطفل من مدرسة فكرية قرطبية تعصم الفكر البشري بثلاثة قوانين فطرية أحدها ضرورة تخلف الوسط المرفوع: أي ألا يكون تناقض!

ولكنه رغم ذلك طفل كبير!

كيف يفكر بعقل ومنطق في الدرب الضاحك شارع رمسيس وربما قطع تفكيره لوحات دعائية للفرن تقول:

إنهم يقتلون الحمير!

أو خلي بالك من زوزو!

أو أعطني حبا!!

وربما فاجأه الزحام برموش تضحك، ونظرات تسبح، وئدي تأهب!!

العقل والوازع كبير بحمد الله، والقلب طفل والله الحمد أكثر.

فمن يحمل ذاك العقل وهذا القلب طفل كبير.

صدقوا هذا الطفل أنه قمص شخصية (حيص بيص) الرجل الكبير— فقال في غمرة الزحام:

وكم زورة قابلتها بتجنب ومبذول وصل رعته بالقطائع

وسكرى من الوجد الدخيل أبحتها عفاف تقي لا عفاف مخادع

كان طفلاً ولم يكن كبيراً عندما كان اللعوبان المتمجرفان غذاءاً لأمعانه يفتقنها وينشران العظم.

وكان كبيراً طفلاً عندما نشر عظمه وكان اللعوبان غذاءاً لقلبه!

كان طفلاً عندما كان يرضع!

كان طفلاً كبيراً عندما كان يعض!!

كان طفلاً ولم يكن كبيراً عندما كان واضحاً دون تفكير!
وكان كبيراً طفلاً عندما كان واضحاً وهو يحسن التفكير براءة بلا سذاجة!
أو سذاجة عن براءة!!
وثق أنه لا نصيب للطفولة في حياة أناس ابتلعهم المتر المربع وسعرهم الصفق بالعرض الزائل.
حانا الله وإياكم من غنى مطغ وفقر مذل.
وكفر أبي صير ريف لأسر من القبائل العربية الأصيلة المهاجرة من الجزيرة العربية وبلاد
الرافدين.

اتخذته مخدعاً للحب المحفوف بكلمة الله وخطبة ابن معود!
إذا غادرت مودعا أرض الكنانة مستقبلاً تنائف نجد تمثلت بقول أبي الطيب:
أحبك يا شمس البلاد و بدرها وإن لامني فيك الهوى والفراق
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد!
فإذا أوحشتنا ملامح أبي صير قلنا:
أيامنا في حبكم أفراح وجميع أيام الملاح صلاح
وإذا عدنا والعود أهد قلنا كما قال ابن المنقار الحلبي:
وسقى الإله ديار مصر وأهلها أنواء سحب من يديك عظام
إذا حللت بها تضاحك نورها فرحاً وبدل نقصها بتمام
قال أبو عبد الرحمن: ولست أحصي أشواق الأدياء والعلماء والفنانين والظرفاء إلى أرض
الكنانة.

ولعل رسالة ابن أبي الصلت تعقب بضميمة من ذلك، وما كفر أبي صير إلا معقد العبق من تلك
الأرجاء الفئانة الفينانة.

ولا يلام المتغزلون بأرض الكنانة، فهي كما قال بلدية بن حجة:
ولولا بقايا طعمهم في مذاقتي لما ظهرت هذي الحلاوة في شعري!
ومن كفر أبي صير عرفت الفرق الدقيق بين فلسفتي الذات والموضوع في ماهية الجمال.
إنك إذا رأيت ماصة قلت: إن هذه مستطيلة.
والطول صفة موضوعية، موجودة في الماصة نفسها، وليس صفة ذاتية، موجودة في رؤيتي فقط.
وإذا أكلت تفاحة قلت: إن هذه حلوة!

والخلاوة صفة يزعم جون لوك : أنها ذاتية لا موضوعية .

أي أن الخلاوة موجودة في لساني لا في التفاحة !!

فقال العقلاء لجون لوك : هات برهانك إن كنت صادقاً ؟

فقال : إن التفاحة تكون حلوة مرة ، وتكون غير حلوة مرة !

فالخلاوة تتوقف على إدراكنا الذاتي !!

وحينما أكون في كفر أبي صير فأسمع ثغاء الجواميس وأتناغم مع لثغة تقلب الجيم قافاً وأرى بشرات تتصاحك فيها النعمة وتبكي حولها القلوب فإنني أفر من ثيابي : يا ضيعة الشباب : إنها متعة العمر !!

بر بكم أتدرون ماذا يقول جون سانتيانا ؟ !

يقول المخبول : هذا الفرح والمرح ليس صفة موضوعية توجد في كفر أبي صير .

إذن ماذا يا سانتيانا ؟

يقول : إن الفرح والمرح في ذاتك في حسك الباطن ، لأن ذاتك هي التي خلعت الفرح والمرح على كفر أبي صير !!

لهذا فأنا على حق عندما قلت في بعض المرات : هل أنا في الكون ، أم الكون في ؟ !

وعلى أي حال فجورج سانتيانا معذور غير مأجور أجرين ، لأنه ضاع بين أمرين لا يميز بينهما إلا خيط دقيق جداً .

واليكم البيان :

١ — إن متعتي وانفعالي أمر ذاتي لأن البهجة بهجة قلبي واللذة لذة حسي !

فالفرح الذي فرحته بكفر أبي صير هو استجابتي الذاتية ، وانفعالي الخاص .

٢ — ولكن تعشقي الذاتي للمتعة والجمال لا يتم إلا وفق مقاييس ومواصفات يعرفها قلبي — أعني

شعوري الباطن — وإن لم يعرفها لساني أو عقلي أو قلبي !

وهذه المواصفات والمقاييس يا جورج سانتيانا وجدتتها في كفر أبي صير .

فأجواء كفر أبي صير خلعت عليّ الفرح والمرح .

وأنا خلعت عليها الرضى والتفدية !

قال أبو عبد الرحمن : ولقد عزفت عن شعر كثير يدعي فيه أصحابه الرومانسية و يتكلفون

مذهبها ، غير أن البراهين اللاتعة تدل على أنهم لصقاء أدياء !

فالرومانسية في الحب على سبيل المثال غير مقبولة ولا مستساغة ممن يقال له يوم القيامة :

(أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا) [سورة الأحقاف / ٢٠] بل كان العذريون في القديم

رومانسين بلا اصطلاح!

ولكن قد توجد قرائن تستثني من هذه القاعدة ولا تخرمها .

أذكر أنموذجا لذلك القروي حين ينشأ في ريف محافظ ، ليس الحب فيه لياليا حراء وإنما
اللمحة السريعة العاجلة أعلى وأبعد مطامحه !

وكذلك الكلمة الطيارة ، ولوبرد تحية !

فإذا جاء هذا القروي المطبوع على جو القرية التقي النقي ، ورأى المواخير في الملتويات
المظلة والترنحات غير الواعية : فلا تستغرب عليه وإن كان أفسق من قرد أو جرد أن يكون
رومانيا حزينا باكيا يحن لصحراء الريف ، وسمائه البكر ، ونخيله الفارعة ، ولياليه
المقمرة ، وحكايات عجائزه في العلال!

ولا تستغرب أن يلعن المواخير وإن كان منغمسا !

وكلنا أبناء القرية إن لم تكن شعراء رومانسيون في ظاهرات ريفية افتقدناها في
مدينتنا ، ولا نزال رومانسين ما ظل الحنين إلى هذه الظاهرات قويا صادقا !
وإنما الأعمال الأدبية تبرز رومانيتنا .

وخير أنموذج لهذه الرومانسية أبيات كتبها بدرشاكر السياب في ١٤ / ١٢ / ١٣٤٦ هـ .
وقد تبدت في هذه الأبيات سحنات قريته جيكور .

فهو يسلب الدهاليز الحمراء نعمة العواطف ، و يصورها بهذه الوحشية :

كأسان ملؤهما طلى عصرت من مهجتين رماهما الحب
أو غلبان عليهما مزق حراء تزعم أنها قلب !

وقد نفص السياب لذة القبله بهذا البيت :

غرس يد الحمى على فمها زهراً بلا شجر فلا سقيا ؟
تم هذا الوعد الصادق إن شاء الله :

وليسق من دمعك الخبيث غدا دوح تعشعش فوقه الغرب
تأوي الصلال إلى جوانبه غرثي و يعوي تحته الكلب ؟

إن كل قروي يردد مع السياب :

لعناتي الخنقات ما برحت تعتاد خدرك والظلام معا

قال أبو عبد الرحمن : و بهذا تعرف أصالة الريفي في رومانيته .

و يشدني إلى كفر أبي صير بعد هذا معنى لوح إليه ابن مطروح عندما قال :

وأقول يا أخت الغزال ملاحه فتقول لا عاش الغزال ولا بقى !
ولهذا رددت :

وخشيت من قلبي الفرار إليهم حتى لقد طالبت به بضمين !
و يوحني أنني :

أبكى إنساء شبيبة في وقت ما امتلاً انكفا !
إذن الطبيعة وهى الريف والربيع والزهور والورود ماذا تعني ؟

إنها الألوان ذات التأثير السيكولوجي المشهور !

وفي منهج السيكولوجيين أن تأثيرات الألوان قميئة بتطبيب الأمراض العصبية !
الطبيعة يغلب في ألوانها ما يسمى بالألوان الباردة المنتسبة إلى الزرقة والخضرة ، وهى ذات تأثير هادىء .

وإذا كان الرومانتيكيون يجمعون على أنفسهم في مجالي الطبيعة ، فقد قال هؤلاء السيكولوجيون :
كلما زاد اللون في برودته ودكانته زاد تأكيد تهديته للأعصاب ، وقد يصل بها إلى درجة الانقباض .
فهل تظن بعد هذا أن اتخاذ الريف والطبيعة مولدأ للموهبة الأدبية : يعنى أن ذلك مذهبا
رومانتيكياً في الأدب ؟

كلا- ولكنها ظاهرة اجتماعية لفتتين :

- ١- فئة تتطب بالطبيعة من آلام اجتماعية وسياسية وشخصية ، وترى فيها إلى بهجة الألوان
استعادة لحياة الطفولة لكي ينسوا بها تاريخ العنفوان أو الكهولة .
- ٢- فئة ما بها من ألم ، ولكنها تكثر رصيدها من اللذة بمجالي الطبيعة .

إذن هذه الظاهرة في حياة الناس ومنهم الأدباء ليست ظاهرة في الأدب إلا أن يوجد شاعريقصر
شعره أو جله في الطبيعة !

فتقول : هذه ظاهرة في الأغراض الشعرية .

ستقول : بل المذهب الأدبي الاتحاد مع الطبيعة !

والحلولية الاتحادية في أدبنا الصوفي أكفر من حلولية النصارى .

يقول ابن عربي وهوباطني في العقيدة ظاهري في الفقه ويا ليت لم يكن ظاهرياً :

ليس لأنواره ظهـور إلا بنا إذ لنا الظهـور
فنحن مجمل لكل شىء يظهـر في عينه الأمـور

يقولون ونعوذ بالله مما يقولون: ليس في الوجود آلهة متعددة كما يقول الوثنيون: ليس في الوجود خالق ومخلوق كما يقول الموحدون!

بل الوجود واحد: الذات ومظهر الذات كجرم الشمس وشعاعها!

وبناء على هذا الكفر قالوا: الله في كل شيء في النسيم العليل، وفي تفتح الزهر... إلخ.

وقد ألزمهم شيخ الإسلام ابن تيمية — وهو أنجب تلميذ لكتب ابن حزم — بحجج تشوه ما يسمونه جمالا حلولا، وذلك عندما قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه

فلفت أنظارهم إلى نبح الكلاب!!

إذن حب الطبيعة حب اتحاد وحلول ظاهرة فلسفية لا أدبية.

وقد وجد عباد للطبيعة من الغربيين من أمثال بيرون، وشيلي يزعمون أنهم يرون الله في الأشجار والرياح والصخور والأزهار والبسات والأموج، ثم توسع مجلى أنهم بالطبيعة إلى الألوان والريح والصخر والضباب والغيوم وقوس قزح وصوت الكروان!

وقالوا: إن الطبيعة تهذب وتعلم لأنهم يرون فيها قدسية سببها الحلول والاتحاد أولأنها تطيب للموهبة فهم ينجحون إلى الطبيعة لأنهم مظهر لتلك الصوفية، ولأنها مهد أثير للأحلام واللاوعي، وفي الرومانتيكية تقديم العواطف على الأفكار.

ولا ريب أن الطبيعة مجلى للفكر والعاطفة معا، ولكنها مجلى للعاطفة من أول نظرة فأدبهم الكافر تسببح لا تفكير!

إنني من خلال هذه الملامح أقرر أن ما يسمى مذهبا هو ما كان من صميم المقاييس الجمالية للأدب وكل ما خرج عن الملمح الجمالي فليس من ضمن الأدب.

وهذا انطلاق من المدلول العرفي للشعر، وهو أبرز أجناس الأدب، كما أنه انطلاق من تصنيف العلماء للأدب في الفنون الجميلة، وهو أمر دعمته بأدلة قوية في عدد من أعداد «قافلة الزيت».

أما استخدام الأديب موهبته في أجواء معينة أو استهلاكها في أغراض مخصوصة:

فليس ذلك باتجاه أدبي، وإنما هو ظاهرة اجتماعية تتعلق بالأديب لا بأدبه.

والمذهب الرومانتيكي في الأدب يجب أن يمحصر في لغة الأدب ومقاييسه الجمالية للمعني والخيال.

فقد يكون رومانتيكيا من تنسك في مجلى الطبيعة وإن لم يقل أدبا، ولكنه يكون أدبيا إذا أثر في المقاييس الجمالية للأدب بوحى من صومعته!

إذن هناك رومانتيكية للأدب.

ورومانتىكية للفلسفة .

ورومانتىكية للسياسة إلخ .. إلخ .

وبهذا التعريف نستطيع في يسر تحديد عناصر كل جنس من أجناس الرومانتىكية في المتغيرات التاريخية سيرة وفكراً .

هكذا علمني ورد زورث

أخجل تواضعي الشاعر العالمي الكبير وليم ورد زورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠ م) بقصيدة وجهها إليّ معاباً يقول فيها :

أنت يا من زيه الظاهري يخدع الناس عن حقيقة روحه العظيمة .

أيها الفيلسوف الأكبر الذي لم يفرط بشيء من تراثه .

أيها المبصر بين العميان .

أنت أيها الأصم الأكمم .

الذي تقرأ العميق الخالد .

ذاك الذي يراوحه العقل الأزلي و يغاديه أبدا .

أيها المبارك البصير .

الذي عنده الحقائق تستريح .

ونحن نكدح طوال حياتنا لنلقاها .

فنضيع في الظلام في ظلام الضريح .

أنت يا من يلازمه خلوده .

كالنهار تلازم سيد وعبد .

شاهداً لا يريد أن يبرح .

يا طفلاً وإن كنت عزيزاً بقوة .

الحرية بنت السماء التي تحمل في شامخ كيانك .

لماذا تستثير سنوات العمر بآلام جاهدة .

تحت النير المحتوم .

فتظل في نزاع مغلق من بركاتك ؟ اهـ .

شكراً شكراً يا مستر وليم ورد زورث .

لقد أحجبت تواضعي ممن يهجونني في كل زمان ومكان .

لقد علمتني أنني طفل كبير .

لهذا كانت هذه الضميمة :

إنها تهومات تدل على أن كاتبها طفل
وإما إيجابيات تدل على أن كاتبها كبير.
فهل هذا تناقض؟ كلا.

ليعرف الناس: أن للإنسان ميولا متضادة غير متناقضة.
والضدان يرتفعان ولا يجتمعان.
والنقيضان لا يرتفعان، ولا يجتمعان.

إنما جاز ارتفاع الضدين لوجود الوسيط غير المرفوع كما يقول فلاسفة الاستمولوجيا، وميول ابن
حواء المتضادة لا يرضيها ويجدها في وقتها الخاص بها إلا تلون في الحياة وتجدد في الأسلوب تلونا
وتجداً بعيداً عن الرتابة وعن الحياة العادية المستهلكة.

قال أبو عبد الرحمن: وعندي أن الذي لا يجرب الخير والشر سينطوي على بعض العقد في الحياة
الدنيوية الفاتنة الغانية، بيد أن من لم يجرب إلا الخير هو المجدود السعيد في حياة المعاد الأبدية،
لأنه الشاب الذي لا صبوة له، وقد عرفتم في مآثور النصوص الشرعية فضل هذا الصنف ونرجو الله أن
يجعل ذريتنا من هؤلاء، أما نحن فحسبنا أن نتدارك فضلة العمر بعد أن تضاحك الفودان، وتقوس
المرفقان.

قال أبو عبد الرحمن: نعود حيث بدأنا فنقول:

لا بد من التلون في الحياة.

ولا بد من الأسلوب المتجدد.

ولكن ماذا سيقول عنا هؤلاء الفضوليون الذين يطؤون طرف الرءاء حالما نوليهم أعقابنا ونلقي
عليهم تحية وداع وربما جلدوا المثرر. أسبل الله علينا وعليهم ستر العافية.

ألم نقل في صلب كل صلاة عند مناجاتنا لربنا: اللهم استر عورتي في الدنيا والآخرة.

يا إلهي إنهم أعيونا رغم التعاوذة!

سيقول هؤلاء الفضوليون: إن التلون نفاق.

وسيقول الأريحيون من الشباب: إن التجدد النشيط انفصام في الشخصية.

وسيقول المتفلسفون: إن استهلاك العمر في التجارب المتضادة قلق وضيع.

قال أبو عبد الرحمن: نقول لمن يحضرنا من الطوائف الثلاث: كل ما تخوفتم منه لا ينسحب على
التلون والتجدد والتجربة اللواتي نريدهن وإليكم البيان:

لسنا نريد بالتلون والتجدد أن تعامل ربنا في الخفاء بمعصية غير الطاعة التي نعلنها، ولسنا نريد
بذلك أن نطيع حيث كانت الطاعة علنا ونعصي حيث كانت المعصية علنا، فوالذي نفس محمد بن

عمر بيده: إن من ارتكس في الكبائر الموبقة لقمين أن يعاقبه الله بالفتنه والاستدراج فيحال بينه وبين التوبة ويموت على غير الفطرة .

نسأل الله الغوث والسلامة .

وإنما نريد بالتلون والتجدد أن نوازن بين ميول النفس البشرية المضنية فثمة ميول عقلية تطمح إلى الحياة الجادة في شدة الكدح والعرق لبلغة العيش وشدة العزعة في العبادة .
والعابد في عصرنا هذا هو من يؤدي الصلاة في وقتها و يتجنب الموبقات .

أما سيرة الصحابة وأحمد بن حنبل وابن المبارك فتعتبر اليوم من الأساطير، ولا عجب فإننا في ذنب الدنيا، فهذا الدرب الشموس الذي يحتاج إلى رياضة نفسية يقتحمه من اكتنفته متطلبات الوظيفة والبيت والأهل، ثم للنفس البشرية الضعيفة ميول بعد هذا خيالية وعاطفية لا تطيق الاستمرار على الحياة الجادة .

أما الخيال فهو انشغال ببعض التوافه من المباحات .

وأما العواطف فأعظمها عاطفة الحب فقد خلقنا الله من دم يفور في الوجنة، ومن عيون تنظر فسبح وقبح .

والناس يعلمون أن العيون الزرق، أو الحدق التي ترمي بحور تبلع العقول وإذا غاب العقل تعطلت الحياة الجادة وكم من غريق في بحر العيون نحبه يحسن السباحة نرجوه الشهادة .

فحري بمن لا عقل له ولا قود في الدنيا الفانية أن يحظى بالشهادة إذا لم يحظ بالوصال، وغلبه خوف الله عن الجموح .

وقد قلت في أكثر من مناسبة :

إن من رمضته شمس بودلير الحمراء : لابد أن يتسلى بحياة رخوة غير جادة في بعض اللحظات، ويكون تسليمه بنوع من المزاح، أو اللهو المباشر، وإن وقع في شيء من اللمم فقمين أن يغفر له إذا سارع إلى الخيرات في حياته الجادة .

والذي يراوح الحياة الجادة بلحظات لاهية متلون بلا شك، متجدد في أسلوب حياته ولكنه غير منافق ولا عاص، لأنه يتسلى بالمباح، ولا يقع في اللمم إلا على غرة ثم ينسحب مذعورا .

وإنما المنافق حقا من يظهر سمنا وحوقة ويتستر بلبهوه المباح .

ونحن معشر الظاهريين أمة فيها دعاية وسلوة ظهر ذلك عند مشايخنا محمد بن داوود، ونفطويه، ومنذرين سعيد، وابن دحية والإمام الأجل أبو محمد بن حزم رضي الله عنهم .

قال أبو عبد الرحمن : ولقد اعتدنا على أن نجعل كفر أبي صير بقاهرتنا المحروسة مستراحا لهمومنا في لحظات لا تبلغ الثلث من عامنا .

ولوبلغته لقلنا : الثلث كثير .

وبكفر أبي صير نجدد أسلوب حياتنا بما لا ريبة فيه غاية ما هنالك أننا ننسحب من العقلانية الخائفة إلى شيء من أدب العواطف والخيال إلى شيء من الرومانتيكية .

ولا تعجبوا أن يعيش بعض الظاهرين طفلاً كبيراً بكفر أبي صير المحروس يمتطي صهوات حروفه كما يقول حمد القاضي ويجلد الغيد بسياط حبه .

ما علمت لهذا الآدمي العجيب شبيهاً إلا ذلك الطفل البريء الذي ينجيه ورد زورث بقصيدته الآنفة الذكر .

صدقني يا مستر ورد زورث أنني طالما حققت أمنيته بكفر أبي صير عندما أنشدت في بعض اللحظات قول زميلك بايرون :

(ليست المعرفة سعادة ، وما العلم سوى استبدال جهل بجهل) .

قاتله الله ما أصيده لحبات القلوب ؟ !

إنه صاحب الفلسفة الشهيرة في القبلية الذي أراد أن يستريح .

أولم يقل زميلك الآخر والت وايتمان : إنه أصبح مرهقاً معيلاً لأجل أرقام الأزياء ؟ !

ألم يجد اليقظة الطفولية الحاملة في هواء الليل السديمي الرطب ؟

أقول يا مستر ورد زورث : يفديك شعراء الغرب كلهم عن بكرة أبيهم إن كان لأبيهم بكرة ، لأنك حببت إليّ الريف عندما قلت :

نبضة واحدة من غابة مخضرة قد تكشف لنا خبايا النفس الإنسانية وعن جانب الخير والشر أكثر مما يستطيع الحكماء مجتمعين .

عذب هو الكنز الذي تقدمه الطبيعة ، إلا أن ذكاءنا المتطفل يشوه أشكال الأشياء الجميلة .

كفانا علماً وفناً .

أغلق تلك الصفحات المجدية .

تعال ومعك قلب .

يرى ويكتنز ما يرى . اهـ .

ولا يحسن اللماعون الغربيون أن شرقنا خلي من الأطفال الكبار .

أولم يقل أحد الشرقيين :

ما العيش إلا أن تحب وأن يحبك من تحبه ؟ !

إن هذا شرقي وهو طفل كبير، أما التجربة فلا نعني بها ممارسة كل شيء حتى الخطيئة، وإنما نعني الملاحظة وأن نعرف لغة كل قوم لغة الفقيه والفنان.

أنا مقرب والراصلون لهمو !!

أجد في مسجد بحي شعبي رجلا أو رجلين ، وأجد في القرية بضعة رجال ممن استولوا على السبعين أو الثمانين فيخفق قلبي طربا ، ثم تضطرب جوانحي فرقا !!
أرى شيبة الحمد تتألق في أعبائه وضعفه فطرة النشأة وحلاوة الإيمان وصدق الطوية .
ما يحمله جسم أحدهم من لباس زهيد الثمن جدا ، ولكنهم ممن يرجى له الثواب و يتوقع له ثقل الوزن عند ربه .
لا يتأنقون بالأطياب والأصباغ والمطهرات ، ولا يؤمنون بالعدوى ولكنهم أظهر ظاهرا وأزكى باطنا .

تعودوا إسباغ الوضوء خمس مرات في اليوم واللييلة وتعودوا الغسل يوم الجمعة فأسبغ ذلك عليهم طهرا ونورا !!

تظن أن أحدهم — بعد ما حشرجت في تجاعيده السنين — لا يستطيع تحريك رداءه ولكنهم والله أصلب عزيمة ، لأن مواظبتهم على طرق بيوت العبادة خمس مرات في اليوم واللييلة — فيهن حر الهجير ، ورخاوة الغلس منذ كانت أعمارهم سبع سنين — علمهم الدقة والنظام والعزيمة .

لقد شاهدت احتضار عدد من هؤلاء الأشياخ المباركين وقد اسودت بشراتهم من الأمراض والهموم والحرفة والكبر فإذا بوجوههم بعد صعود الروح تتألق بياضا ونورا ، وإذا القلب الذي يرحمهم حال الاحتضار عاد يغبطهم .

اللهم فلا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم .
حينما يدرکہم الضعف البشري في حياتهم وينسون العزيمة و يقتفرون الذنب فماذا تجد عندهم ؟!

إنهم لا يعرفون الفواحش مطلقا ، وإن وقع واحد في المليون في الخطيئة لمغريات قهرت إرادته في صلف شبابه عذبه ضميره مدى عمره ، وغمر خطيئته بالחסنات .

لا يهجرون مجتمعات أهل الالتزام للإسلام إلى بلاد الحرية الظالمة والعبودية للشهوات العارمة .
لا يعرفون الربا ولا يقبلونه ، وإن أكل الجيفة أسهل عليهم من ذلك .

ولا مدلول للرشوة (البخشيـش) عندهم إلا مـمازحة حينما يتلطف أحدهم لأخيه المسلم بكلام حلـو مهذب توسلا إلى حاجة منه .

وإن والله تلطفهم لا يخرج إلا عن قلوب سليمة .

يحلون من المشاكل بالعرف والشيعة والحياء الاجتماعي ووساطة أهل الخير والاحتساب للأجر مالا يحله غيرهم بالقضاء والترافع .

لا يعرفون حمامة ولا صكوكا ولا تمييزا ولا لوائح اعتراض ، بل يلتزمون بكلمة شفهية من قاضي البلد مدى العمر .

وإذا مزحوا وتظرفوا لم تجد عندهم فحشا ولا كلاما ملحدا ولا قبحا ، ولا ينسون كفارة المجلس تذكـرهم إذا نسوا .

إذا تحدث أحدهم في دارج كلامه قال : إن شاء الله نلتقي غدا ، وسأكمل اللـازم بحول الله وقوته ، مالك عن المكتوب ، المقسوم لا بد منه .

بل يغفلون غفلا مليحا يشبه غلط من قال : اللهم أنت عبيدي وأنا ربك ، فيقول أحدهم عن ضالته إذا وجدها : هذه لله الكريم ثم لي وإن كانت فردة من نعال .

و ييصقون على كل نكتة أو جمال أدبي على حساب العقيدة أو الشريعة أو الخلق .

ليست عندهم بنوك أو مصارف وإنما يبذلون مازاد عن الحاجة في معاملة شرعية شريفة أو في التوسعة على المسلم قرضا أو معونة يعبرون عنها بقولهم : (تلف ما هوب سلف !!) .

والمنافع بينهم متبادلة يبذلون الماعون والخلي والدابة واللباس للإعارة .

وإذا هم أحدهم ببناء بيت أو حفر بئر أو ما أشبه ذلك خرج إليه أهل البلد زرافات ووحدا نا تطوعا فأنجزوا في يوم واحد مالا يتم في شهر .

المادة عندهم وسيلة لا غاية ، والكرم جلبة في نفوسهم أخذوه من دين الله دينونة لربهم وربما غلوا في الكرم جلبة عربية .

المفرق منهم في العامة أفعه من مثقف العصر الحديث في أمور دينه فأحكام العبادات والمعاملات والنكاح بديهية في أعرافهم .

وهم على صلة بربهم دائما يستحضرون الأدعية والأذكار في دخول البيت والمسجد والسوق والخلاء والخروج منهم ، يسلمون على أنفسهم تحية طيبة مباركة ، و يستحضرون ما وصاهم به ربهم من دعاء عند اللباس والنظر في المرأة وعند البناء بالعروس وعند الجماع وعند السفر والعودة وعند الحزن والمصيبة والتعيم ، يكثرثون من قول : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وحبنا الله ونعم الوكيل .

ولهذا قويت قلوبهم وأهين الشيطان في قريتهم ، وإذا قابلوا حاكما أو أميرا أو وجيها خاطبوه خطابا عاديا ، بل كان صقرا الجزيرة فردا عاديا بينهم يقول الوافد منهم : يا عبد العزيز ولا يزيدون .
لا يعرفون تقبيل يد ، ولا يتملقون بالألقاب ، فإن فعلوا فمن صدق .

وإذا تكرموا بتقبيل رأس أو بتبجيل في العبارة فإنما يقدمون ذلك شكراً صادقاً لمن قدم لدين الله وعباد الله وبلادهم خدمة جليلة من حاكم أو أمير أو ثري أو فارس كما يقدمون ذلك تقرباً لله في تكزمة عالم شرعي ، أو رجل صالح عابد ، أو أب أو عم أو من . إن تقبيلهم وألقابهم وسائل شكر وليست وسائل توصل !

رضي الله عنهم وأرضاهم .

إذا دخل شهر رمضان أخذت المساجد زينتها بالرجال والنساء والذرية فلا تسمع إلا بكاء وخنينا !

وإذا أشرق يوم الجمعة أخذت القرية زينتها وتوافد أهل العوالي والمساجد منذ الصباح إلى المسجد ، وبعضهم تحكمه ظروف عمله عن التبكير فيرسل ولده مبكراً ليحمي مكانه في المسجد بعضاً أو كيسة (بقشة) أو مروحة (مهقة) ويحيون السنة فعلاً بلبس ثوبين نظيفين .

يدخر الجمال والحداد والفلاح قوت شهر رمضان ليقعد في القرية و يقلل من الحرفة ليستكثر من العبادة .

يفرحون بقدوم رمضان و يتألمون عند تصرمه .

كانت أخبار الهلال تتأخر لضعف المواصلات فربما دق الطبل أو قرعت التنكة ضحى أو عصرًا أو ظهراً ليقول المنادي :
أفطروا أو أمسكوا .

أدركت أشياء من منهم في مسجد الحسيني بشقراء يتضجرون في المسجد آخر ليلة من رمضان و يستحثون الإمام على التراخي أو القيام إشفاقاً من مفاجأة الخبر برؤية هلال شوال .
فإن فوجئوا بالخبر خرجوا تتخاط أرجلهم لهم بكاء وخنين كأنما رزوا مصاباً .

يتنفل أحدهم بعد صلاة العشاء الآخرة وهو يغالب النعاس ثم يرقى إلى سطح بيته ليوزع على أهله وولده فذات تمر أو عنيقدات عنب ثم يشرب من شن معلق و ينام على فرش غير وثير ليصحو قبيل أذان الأول فيقدم التهجد ثم الفريضة ثم يبدأ حرفته وقت تقسيم الأرزاق لا يعرفون ليالي حرراء ولا فضول الشهر .

رضي الله عنهم وأرضاهم .

فمن طلب منهم العلم — شرعياً أو دنيوياً — لم يكن الانسلاخ الراهن ثمرة علمه .

إنما يكونون ذوي قيادة دنيوية ، وهداية شرعية .

وتصرفاتهم العاقلة الحكيمة لم تكن ثمرة الذكاء الحاد فكم من ذكي حاد الذكاء ضرره أكثر من نفعه ، وإنما سداد تصرفهم من التجربة الحسية ومن التعقل (وهو غير الذكاء) وملازمة الاهتداء من هدي الله والتماس المدد منه .

قابلت أحد هذه الوجوه النيرة في قريتي وقد أناف على السبعين وقد غبت عنه عشرين عاما وهو من المغربين في الأمية فقال لي بعد الحفاوة والسؤال عن كل صغيرة وكبيرة :
(إنا لله وإنا إليه راجعون لقد خالطكم الأجانب فأفسدوا عليكم دينكم وفطرتكم) .

لقد طن في أذني صدى هذه العبارة كلما تخيلت خنفسا يقود سيارته وعيونه شاخصة من استعمال الحبوب المخدرة .

وكلما تخيلت النظام غير الطبيعي لوقت نومنا و يقظتنا .

وكلما تخيلت وسائل التسلية وإضاعة الوقت التي شغلنا عن التزود للحياة الأبدية .

إن خلطتنا بأعداء ديننا وقتلنا أمتنا ومدبري المؤامرات على مصالحنا خلطة غير مباركة لسبيين خائبين :

أولهما : أننا نتأثر ولا نؤثر .

ثانيهما : أن تأثرنا بكل ما يزيدنا استعبادا للعدو الأقوى .

لقد كنت فيما مضى أتحسر على واقع أمتنا المادي ، ثم بدا لي اليوم أن التفوق المادي ليس هو أول أساسياتنا ، وأن من الخير أن نستعلي على كثير من الماديات ، وأن يكون بقية العزائم المادية جزءا من برنامجنا لا كل برنامجنا .

وأن منطلقنا من صلاح حكوماتنا وقياداتنا ، وصلاح الراعي إنما هو من صلاح الرعية ، وتنشئة الأفراد على هداية الله .

فإذا اجتمعت الأمة على هداية الله وصدقوا كما صدق جيل الصحابة رضوان الله عليهم الذين هدوا أركان الطغيان وهم غزاة يتزودون بجراب تمر منهم الرجل والراكب والرديف .

وقد يجعل الله سبب قوة الأمة الصادقة بسبب مادي غير عادي ، وقد يكون بإبطال السبب المادي المعادي .

وأحداث التاريخ براهين فكرية قطعية وقد شهدت بالعناية الربانية للمستضعفين الصادقين .

إن القوة النووية بيد أعداء الله ، ولكن آثارها ليست بأيديهم ، بل يزعمها الله كما يشاء ودفع الله الناس بعضهم ببعض من صرائح القرآن الكريم .

وقد يوجه كيدها كما يشاء ، وقد يصرف كيدها عما يشاء .

وفي عقيدتي أنه أقوى من كل قوي في الأرض وجود ملائكة شداد غلاظ خلقهم الله وكلفهم حفظ ما كلفوا به من شمس وقمر ونار وماء .

إنه لا يكون في كون الله إلا ما أراد الله .

إن من بيدهم القوة اليوم أعداء الله مستكبرون على منهج الله متمردون على أبسط قواعد العدالة والإحسان .

ولن نذل المستكبرين على منهج الله إلا بالاعتصام بمنهج الله واتخاذ الوسائل المادية أسبابا .

ولئن فسح الله في الدنيا وأدال الدول كما شاء فستأتي أجيال تلعن أمريكا وروسيا ومعسكرات الشرق والغرب وتعددهم من الجبابرة البرابرة .

وتعد أدنى أنموذج للحكومات الإسلامية من حسنات التاريخ .

و بإيجاز فإن من ذكرتهم من جيل العامة غرباء في عصرنا ، و بقيتهم نشار في تاريخنا .

وما الراحلون إلا نحن !

إن حنيني إلى معاودة العيش مع هؤلاء الأبرار— لو أمكن — أعظم من حنين الرومانتيكيين إلى الريف .

وإن رحلتي عن هذا الجيل الغريب شكلت في ذوقي وحيي وفكري أعظم من كل غربة يزعمها أدعياء الأدب والفكر .

إن رحلتي عن الغرباء هي الغربة حقا ، فقد برمت بكل متقفي هذا الجيل إلا من شاء الله .

برمت بهم فكرا وظرفا وذوقا وجدانا !!

إنني غريب بينهم ، لأنني رحلت عن الغرباء .

إنني غريب بينهم والراحلون هم ، وإن تغير هوية الأمة يكون خلال أجيال إلا في هذا العصر فإن ثلاثين عاما فقط فصلت فصلا نهائيا بين جيل موجود وجيل بقي منه أشياخ قلة وعلى ذلك تبدلت الحياة تبدا نهائيا في المأكل والمشرب والملبس والمركب والمسكن والأثاث والآنية والآلة وتبدلت الأخلاق والشيم .

كيف نبرهن على التجربة ؟!

يعتقد أن فلسفة (ديفيد هيوم) آخر سهم في جعبة التجريبية !!
و يعتقد ثانية أن فلسفة (ليبنتز) هي كل ما يمكن أن يقوله العقليون !!
و يعتقد ثالثة أن فلسفة (أما نوثيل كانت) انتفعت بإيجابيات الطرفين !!
وأعتقد أن أسرع منهج يلقي بعض الضوء على إيجابيات كل مذهب أن نستعرض حكما تجريبييا منذ الملاحظة إلى نهاية البرهنة ، ونشخص عناصر الثقة أو اليقين بالتجربة لنعرف إلى أين تنتسب التجربة ومن ثم عموم المعرفة .
كان الاعتقاد السائد أن الدود يتولد في اللحم الفاسد .
وذات مرة رأى (فرنسكوريدى) ذبابا يبيض على اللحم ثم يفقس بيضه ، فلما رأى الدود في اللحم بعد ذلك أعتقد أن الدود يتولد من بيض الذباب لا من مجرد اللحم ذاته .
إلا أن هذه ملاحظة يكون فيها الحكم ظنيا إلى أبعد حد ، ولا يكون تجريبييا إلا بتكرار الفعل بصيغ مختلفة في ظروف واحدة ومن جميع الملاحظات يكون الحكم .
لابد من البرهنة على أن بيض الذباب هو المولد للدود .
ولابد من برهان يوضح العلاقة بين الدود والفساد ، أو يوضح أنه لا علاقة .
فيحتمل أن اللحم يفسد قبل خروج الدود ، وحيثذ يحتمل أن يكون الفساد باعئا والدود نتيجة .
ومحتمل أن اللحم يفسد بعد خروج الدود فيكون الفساد نتيجة لا باعئا .
ومحتمل أن اللحم يفسد ولا يكون دود ، وحيثذ يكون الفساد غير باعئ ولا نتيجة .
وإذا صبح أن فساد اللحم غير باعئ للدود لأنه لا علاقة بين الفساد والدود أولأن العلاقة علاقة نتيجة لا سبب فمن المحتمل أن يكون وجود الدود من غير الذباب ، وأن الذباب لا أثر له ، ومن المحتمل أن يكون الذباب أحد عناصر الباعئ ، ومن المحتمل أن يكون الذباب هو الباعئ الوحيد .
هذه الاحتمالات المحصورة التي لا يتصور العقل غيرها هي الصيغة الكاملة لجميع أشواط التجربة .

والتجربة التي لا تشمل جميع عناصر هذه الصيغة لا تكون يقينية، بل يدخلها من الاحتمال بمقدار الاحتمالات التي لم تدخلها التجربة في نطاقها .

فلنرصد الملاحظات من خلال كل شوط .

وهذه هي الأشواط المميزة بعلامة نجمة هكذا (*) .

(*) لاحظ فرنسكوريدى أن الذباب يبيض على اللحم و يفقس بيضه، ثم وجد الدود بعد ذلك .

إذن أنتجت هذه الملاحظة أنه من بين الاحتمالات الكثيرة أن الدود في اللحم الفاسد بسبب الذباب .

ولكن هذا الاحتمال لا يكفي بل لابد من برهان على أن هذا الاحتمال هو الاحتمال الواقعي .

(*) لابد من شوط آخر نلغي فيه وجود الذباب لنرى هل الدود إيجابا وسلبا يدور مع الذباب إيجابا وسلبا؟

وضع فرنسكو قطع اللحم في قبابات زجاج محكم لا يدخلها الذباب وبعد أيام كثيرة استخرج اللحم فاسداً ولم يجد فيه دودا .

إذن نتج من هاتين الملاحظتين حكم تجريبي وهو أن الدود في اللحم يوجد حيث وجد الذباب ويتخلف حيث تخلف .

فالحكم الأول بأن الدود يوجد في اللحم حيث فقس بيض الذباب فيه حكم معين، لأن الدود وجد فعلا .

ولا معنى هنا لاحتمال: أنه قد يوجد فقس بيض الذباب في اللحم ولا يوجد الدود لأن شرطي التجربة وجود المقتضى وتخلف المانع .

ولا يبحث عن المانع إلا إذا تخلف أثر المقتضى .

وفي الملاحظة الأولى وجد أثر المقتضى وهو الدود من الذباب ولم يوجد المانع من تحقيق أثر المقتضى فلا داعي لمراعاة احتمال (وجود الذباب ووجود المانع) بفحص حالات من التجربة يتحقق فيها وجود المانع لسبين:

أولهما: أنه لم يوجد في الملاحظة الأولى مانع يلغي عمل الذباب فلنسنا بحاجة إلى فحص حالات يوجد فيها المانع، لأن الغرض من هذا الفحص وجود حالة (لم يوجد فيها مانع) وقد وجدنا هذه الحالة في الملاحظة الأولى فطلبنا إياها مع وجودها لغو لأنه محاولة شاقة لتحصيل حاصل بلا مشقة .

وثانيهما : أن ابتغاء حالات وجود المانع ابتغاء لمعرفة أخرى ، وليس ابتغاء شوط آخر لتحقيق المطلب الأصلي وهو معرفة أثر الذباب .

فالبحث عن المانع قضية أخرى ليست من شأن قضيتنا هذه .

الحاصل أن الملاحظة الثانية دلت على أن تخلف الدود صاحب تخلف الذباب مع وجود الفساد .

والملاحظة الثانية دلت على أن وجود الدود صاحب وجود الذباب مع وجود الفساد .

فدل ذلك على أن وجود الفساد في الحالين لا أثر له في وجود الدود .

ودل ذلك أيضا على أن وجود الذباب وتخلفه ذو أثر في الحالين .

فهل انقطع الاحتمال بعد هذا بحيث تكون التجربة اكتسبت اليقين بهاتين الملاحظتين ؟

كلا إن الاحتمالات كثيرة أوجهها الآن بعد هذين الشوطين أنه من المحتمل في الملاحظة الأولى أن يكون الدود وجد لوجود الذباب أو لوجود الهواء أو لوجود الفساد فلما منعنا الذباب والهواء في الملاحظة الثالثة احتمل أن الدود يدور مع الهواء وجودا وعدما .

حيث لا بد من شوط رابع يحجب فيه الذباب و يؤذن فيه للهواء ، ليعرف هل وجود الهواء مؤثر ؟
(•) وضع فرنسكو اللحم في قبابات مغطاة بغلالة تحجب الذباب وتأذن للهواء ففسد اللحم ولم يردوداً .

ففي هذه الملاحظات الأربع لم نر لوجود الهواء والفساد أو تخلفهما أثرا في إيجاد الدود .
وفي نفس الظروف زمانا ومكانا وآنية مع كون اللحم واحدا : وضع اللحم في قبابات تأذن للهواء والذباب فوجد الدود .

فبقي أثر الذباب وجودا وعدما في الحالات الخمس .

وفي الشوط الخامس وجد ذبابا يتولد من الدود : أي ذباباً تولد منه دود فتولد من الدود ذباب .

وهذه الملاحظة الخامسة قطعت كل احتمال وأكدت أن الباعث الحقيقي هو الذباب .

إذا حصرننا التجربة في شروطها وحالاتها فالنتيجة هذا الحكم :

(إذا منع اللحم من الذباب لم يخرج فيه دود) .

ولا يجوز أن يكون الحكم هكذا :

(إذا باض الذباب على اللحم خرج فيه دود) .

لأنه كما قلت قد يوجد المقتضى و يتخلف المانع (٢) .

وإنما نقول : إذا باض الذباب على اللحم خرج فيه دود بشرط تخلف المانع .
فإذا أردنا أن ننظر إلى أين تنتسب التجربة ثم بالتالي عموم المعرفة فلا بد من غربلة وفحص على هذا النحو :

نتيجة التجربة (إذا منع اللحم من الذباب لم يخرج فيه دود) .
وهذا مبني على فعالية الذباب في هذه التجربة بلا شك ، وهو مبني على إلغاء فعاليات أخرى معينة محصورة هي الهواء والفساد .
ولكن ألا يحتمل أن حشرات أخرى تبيض كالبعوض مثلاً لو وجدت على اللحم لخرج فيه دود ؟
إن هذا محتمل لأننا لم نجرب البعوض .
إذن بأي حق نقول : إذا منع اللحم من الذباب لم يخرج فيه دود ، فقد يمنع الذباب و يوجد البعوض فيوجد الدود إذن صواب صياغة الحكم هكذا :
إذا باض الذباب على اللحم وبقى وجد الدود في اللحم بشرط تخلف المانع .
إن التجربة دالة على فعالية الذباب فقط .
كما دلت على نفي فعالية الهواء والفساد .
والاحتمال باق في الحشرات الأخرى وفي كل ما هو خلاف تلك الأمور الثلاثة ، وكل فعالية أخرى مدعاة تحتاج إلى برهان .

إن الحكم هنا مشروط بالتالي :

- ١- فعالية المقتضى وهويبيض الذباب .
 - ٢- تخلف المانع مع وجود بيض الذباب .
 - ٣- إثبات فعالية الذباب بهذين الشرطين مع احتمال فعالية غيره مما يفقس .
- ونتيجة هذا الحكم أنه لو تعين تسليط التجربة على كل ما يحتمل من باعث لخروج الدود من اللحم فلا يخلو الأمر من حالين :

أ- ألا يصح باعث غير الذباب فيها هنا أضفنا إلى فعالية الذباب - من خبرتنا الحسية - تعيينها أي واحدة الباعث .

(٢) ذكر هذا الاكتشاف التجريبي العالم (جيمس ب. كونانت) في كتابه مواقف حاسمة في تاريخ العلم ترجمة الدكتور أحمد زكي عفا الله عنه - ص ٣٢٧ - ٣٣٢ إلا أنه أغفل بعض الاحتمالات العقلية التي هي شرط التجربة ومميار تصحيحها .

بـ — أن يصح باعث آخر كالبعوض مثلا فهنا أضفنا إلى الحكم فاعلية باعث آخر غير ملغ لفاعلية الذباب .

وربما خطت التجربة خطوات أخرى لتوسيع معرفتنا بالدود المتولد أهو جنس واحد أم مختلف ؟
إن المعرفة التجريبية محصورة النطاق محصورة في حالات شرطها من وحدة الظروف ، ومحصورة بشرطها ذاته وهو وجود المقتضى وحصره .

أما تخلف المانع فيفهم من وحدة الظروف لحالات التجربة المختلفة .

والنتيجة أن المعروف شيء واحد .

وفي الملاحظة الثالثة لسنا على يقين بأن الهواء غير باعث لأن الغلالة لن تحجب الهواء جلة إلا أنها حجبت تياره القوي الذي يغمر القبابات المغطاة بالغلالة .

كما أن فرنسكولما وضع الغلالة لم يضع بداخلها ذبابا أو ذبابا لنرى فاعلية الذباب حال حجب تيار الهواء القوي .

ولا يقين إلا إذا استطاعت التجربة أن تضع حالة تمتع فيها الذباب مطلقا وتأذن للهواء مطلقا .

مثل هذا الاحتمال حسابانية لا تعوق خطو العالم في مختبره ولا ترحزح يقينه .

إلا أن في هذا دلالة على أن الحسابانية تستطيع أن تشكك في يقين التجربة ورجحانها بمنهج فلسفي كما شككت في معارف العقل .

وهي تصوغ حسابانيتها من احتمالات العقل ذاته .

إن بميسور التجربة أن تزيل الحسابانية باصطناع التجربة لكل احتمال عقلي صحيح وذلك بأن يكون ممكنا في الواقع كإدخال الذباب في الغلالة في الملاحظة الثالثة .

وميسور التجربة أن تنفي عن العقل ما ادعى عليه من احتمال غير صحيح وهو البرهنة من وقائع حسية بأن الهواء من خلال الغلالة ودونها سيان في كل أثر للهواء في الحيوان والنبات .

وتحتمل التجربة سفسطة ثانية وهي أن اللحم يختلف من حيوان لحيوان وحيوان النوع من ضأن مثلا يختلف من لحم كتف إلى لحم ظهر .

إلا أن عالم المختبر لا يقيم لهذه السفسطة وزنا ولا يرتد عن شيء من يقينيته ، وإن تبرع بالبرهنة فذلك ليبيان خطأ الاحتمال وليس ذلك إضافة قناعة إلى صدق التجربة .

إن عالم المختبر يبرهن للمفسط على أن احتمال له أدنى قناعة في العقل ، لأن العقل علم بوقائع حسية وتجارب سابقة أن اللحم نوع واحد وعناصره واحدة وقبوله للتأثر واحد .

وله أن يبرهن للعقل من جديد بتجربة كل لحم .

فإن أمنت السفطة وقالت لحم الضأن المذبح اليوم غير لحم الضأن المذبح بالأمس فإمكان التجربة البرهنة بذبح ألف خروف في يوم فإذا اتحدت نتيجة التجربة بقيت احتمالات السفطة عناداً حراً لا ضرورة فكرية .

والمنهج الحازم أن يمضي العالم في تجاربه يكتشف من كل تجربة معرفة جديدة ويقول للمسط لا عليك ألا تؤمن بهذه الحقيقة حتى تجرب من مليون خروف .

المهم أن التجربة مهما كانت يقينيتها لا تسلم من مكائد السفطة .

وقضية سوفسطائية أخرى وهي :

كيف تولد دود من ذباب ، وكيف تولد ذباب من دود ؟

هذه حقيقة علمية في المختبر ، وهي خرافة في السفطة .

ولو جاءت هذه الحقيقة في خبر نصي شرعي عن خالق الكون والحقيقة لعدّها السوفسطائي خرافة .

إن عناد الحسابية لاسيما الحسابية الحسية منصب على تجارب الحس كما هو منصب على إيجابيات العقل .

والمهم الآن أن نعرف موقف التجربة من العقل من خلال فحص منظم لعناصر تجربة فرنسكو ريدي .

مبدأ الهوية والتناقض قانونان عقليان ضروريان حتميان هما الطريق للمعرفة ، وهما الشرط لصحتها ، وهما الحاكمان فيها .

ولا يهمني هنا القول بأن هذين القانونين فطريان عرفهما عقل الفرد قبل أن يكون أدنى خبرة حسية كاملة كما قال ديكارت ومن قبله ابن حزم .

كما لا يهمني القول بأن العقل كالصفحة البيضاء والحس ينقش فيه معارفه بمعنى أن هذين القانونين بعديان حصلا بعد الحس كما قال جون لوك .

لا يهمني هذا الخلاف لأنه غير مؤثر في قضيتي تلك .

بل قضيتي أن في العقل مبادئ ضرورية شمولية تدفعنا إلى التجربة ونسير على شرطها في ملاحظات التجربة ، ونطلق الحكم التجريبي وفقها .

هذا هو المهم سواء أكانت تلك المبادئ قبلية أم بعدية .

وهذا ما سنراه في تجربة فرنسكو ريدي .

لقد كانت القضية الاعتقادية قبل التجربة أن الدود يتولد من اللحم .

وفي هذا الحكم إلغاء لمبدأ العلية أو السببية ، والعقل لا يتصور حادثا بلا سبب ، بل يؤمن بالحادث و يعلم أن له سببا مجهولا يتشوق إلى معرفته .

وفرنسكو ريدى قصد إلى التجربة في ملاحظته الأولى بدافع من مقتضى مبدأ السببية وهو قانون عقلي .

وفي كل ملاحظة يقوم فرنسكو بحصر احتمالات معينة أخذها من قانون الهوية الذي يقتضي القسمة العقلية الحاصرة لكل احتمال ، ولولم يعمل فرنسكو ذلك لكانت تجربته احتمالية .

والقانون المطرد في أحداث الكون أنه إذا وجد المقتضى وتخلف المانع وجد الأثر .

وإذا تخلف معا أو وجد المانع لم يحصل الأثر .

وإذا وجد المقتضى ووجد المانع فالحكم للأقوى أثرا .

فهذا المبدأ الذي كان شرطا في التجربة مشتق من قانوني الهوية والتناقض .

والرجحان واليقين في هذه التجربة لم يتم بمجرد مثول القضية للعيان ، بل استمدت براهينها من قوانين العقل فكل شرط للتجربة معرفة عقلية وإنما النتيجة أصبحت معرفة حية استجدت للعقل .

والتجربة كما تسير في نطاق إيجابيات الفكر فهي أيضا تسير في نطاق اطراده ، لأن فرنسكو لم يتخذ حالات وملاحظات لتصديق مبدأ (إذا تخلف المانع ووجد المقتضى حصل الأثر) بل هذا مسلمة يقينية أطرده مع نتائجها ولم يتراجع إلى نقيضها ، ولوتراجع ما حصل له حكم قط .

إن التجربة اليقينية أو الراجعة تغذي معرفة العقل ولا تلغي يقينياته بمبادئه .

من هنا ينبغي لكل من يتكلم عن العلم والتجربة الحسية و ينظر إلى معارف العقل بجنف بعد أن أصبحت الميتافيزيقا وصمة عار . عليه أن يعرف مكان التجربة من العقل .

أما معرفة العقل لما هو وراء الحس فأمر بيدهي لعلّي ألح له الآن بهذه القضية التجريبية .

تقول التجربة :

إذا صح أن الضغط الجوي يحمل عمودا من الماء طوله ٣٤ قدما فهو لابد حامل عمودا من الزئبق طوله $2\frac{3}{v}$ قدم مادام أن الزئبق أثقل من الماء ١٤ متراً تقريبا (٣) .

إن معرفتي بما يحمله الضغط الجوي من الزئبق معرفة بما هو وراء الحس .

ولا يغرنكم خداع العبارات بحيث يقال :

(٣) مواقف حاسمة في تاريخ العلم ص ١١٠ وهنا أنظروسيلا إجراء هذه التجربة .

الزئبق محسوس .

نعم إن الزئبق محسوس ، ولكن حالة حمل الضغط الجوي له حالة غير محسوسة في هذه التجربة لأنني عرفت حالة ضغط الهواء للزئبق قبل أن أقيس الزئبق ذاته .

وهذه اللمحة البسيطة تؤكد أن في الوجود واقعا مشهودا وواقعا مغيبا وصلى الله على محمد .

كلام الله يحمل على معنى كلام العرب وقت نزوله

كثيرا ما دعوت إلى البساطة في فهم نصوص الشرع بأن تفهم حسب لغة العرب من ناحية معنى المفردة ومعنى الصيغة ودلالة السياق حسب منهج العرب المضبوط بعلم النحو مع مراعاة مقتضيات البلاغية لكلام العرب، وإبعاد نصوص الشرع عن ركام الحضارات من مصطلحات المنطق وأهل الكلام التي ليست من عرف العرب .

كما بينت في كتابي (اللغة العربية بين القاعدة والمثال) أن مراد المتكلم أخص من المعنى اللغوي، لأن الجملة بالمعنى اللغوي تحلل إلى مفردات لكل مفردة عشرات المعاني بموجب لغة العرب، أما مراد المتكلم من الجملة فيخصص كل مفردة من أجزاء الجملة بمعنى عربي خاص من جملة المعاني العربية، و يفهم مراد المتكلم و يتخصص بالسياق والقرائن وضرورات الحس والفكر. ومع أن سياق المتكلم مخصص لمعاني المفردات إلا أن هذا التخصيص لا يعين المعنى المحدد بل يبقى في السياق احتمال أكثر من معنى غاية ما هنالك أن السياق ضيق عموم اللغة من عشرة احتمالات مثلا إلى ثلاثة احتمالات .

فيأتي دور القرائن والضرورات الفكرية والحسية مخصصا ومعينا لأحد احتمالات السياق .

هذه هي طبيعة كلام العرب، وبكلام العرب وردت نصوص الشرع .

إلا أن ما يراعى من احتمالات اللغة يجب أن يكون محصورا في المعاني المتعارف عليها وقت نزول الشرع ووروده .

أما العرف الحادث كاصطلاحات الأصوليين والمتكلمين فلا عبرة به في فهم نصوص الشرع، وإنما يعتبر به في فهم مقاصد المصطلحين :

وفي تحقيقي لكتاب (تحقيق المذهب) للباجي والردود عليه الذي يقوم بنشره الآن أخونا الأستاذ عبدالعزيز الشبانة صاحب عالم الكتب بينت مدى الضرر في الغفلة عن المصطلحات الحادثة كالاصلاح بالمعجزات والخوارق على آيات الأنبياء وبراهينهم .

وها هنا أذكر نموذجا آخر وهو التأويل فقد اتخذ المتأخرون بعد العرف المصطلح عليه وقت نزول القرآن مصطلحا على عدة معان منها أن التأويل صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى

الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك .

والعجيب أن ابن الأثير فسر هذه الكلمة العربية بهذا الاصطلاح الحادث فقال: والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ^(٤) .

وبناء على هذا الاصطلاح الحادث فرقوا بين التفسير والتأويل بتفريقات لم تستقر عليها المواضع وقت التنزيل ، لهذا تعتبر مواضعهم اصطلاحاً نفهم به مرادهم ولا يمكن أن نحمل عليه مراد الله ، لأن مراد الله إنما يحمل على العرف اللغوي وقت ورود الشرع .
فمما قالوه :

التأويل هو الظن بالمراد ، والتفسير القطع بالمراد^(٥) .

أو أن التأويل بيان أحد محتملات اللفظ ، والتفسير بيان مراد المتكلم .

فالتأويل يتعلق بالدراية والتفسير ما يتعلق بالرواية^(٦) .

واستعمال التفسير في الألفاظ والمرادات واستعمال التأويل في المعاني والجمل .

فلما حلوا كلام الله على هذا المصطلح الحادث نتج عن ذلك أن اعتقد بعض الضلال أن التأويل بهذا المعنى مطلب شرعي في نصوص أسماء الله وصفاته .

قال أبو عبد الرحمن : يجب أولاً أن نفهم معنى التأويل في لغة العرب وقت نزول الشرع قبل المصطلحات الحادثة .

إن كتب اللغة التي لم تراعى المصطلحات الحادثة عرفت التأويل بأنه بمعنى تفسير الكلام وبمعنى المرجع والمصير^(٧) .

وبينت اشتقاقه اللفظي والمعنوي .

فالأصل اللفظي (آل) بمعنى رجع وعاد وصار وهو فعل لازم عدي بالتضعيف فصار أول ،

(٤) النهاية ١/ ٨٠ .

(٥) كشف اصطلاحات الفنون ١/ ١٢٨ .

قال أبو عبد الرحمن : سيتضح من هذا البحث إن شاء الله أن التفسير والتأويل يختلفان في كيفية البيان ، أما الظن والقطع فيتملقان ببرهان التفسير والتأويل . وكل تفسير وتأويل يحتمل أن يكونا قاطعين وأن يكونا ظنيين .

(٦) الكليات ١٦/ ٢ قال أبو عبد الرحمن : هذا تقسيم لأنواع التفسير والتأويل وليس تفريقاً بينهما .

(٧) راجع التهذيب ١٥/ ٤٥٨ و ٤٦٠ والصاحح ٤/ ١٦٢٧ .

فالتأويل مصدر أول المشددة الواو^(٨) .

وأما الاشتقاق المعنوي فله وجهان:

- أ— التأويل بمعنى التفسير مأخوذ من أول الله عليك أمرك: أي جمعه .
ووجه الاشتقاق ما ذكره الأزهري رحمه الله قال:
فكان التأويل جمع معان مشكلة بلفظ واضح لا إشكال فيه^(٩) .
وهذا هو أحد المعنيين السلفيين اللذين ذكرهما ابن تيمية بقوله:
يراد بالتأويل تفسير الكلام وبيان معناه وإن كان موافقا له وهو اصطلاح المفسرين المتقدمين
كمجاهد وغيره^(١٠) .
قال أبو عبد الرحمن: التأويل هنا ليس صرفا للكلام عن معناه إلى معنى آخر غير مفهوم
منه، وإنما هو بيان معنى الكلام نفسه بلفظ آخر أوضح للمخاطب من الكلام المفسر الخفي
فإيضاح المعنى الخفي بكلام أوضح غير صرف الكلام إلى معنى ليس فيه .
ولا يمكن أن يصرف كلام الله إلى معنى لا يفهم منه لغة، وإنما قد يصرف إلى معنى غيره أظهر
منه لغة، وهذا هو الصرف عن الظاهر .
فصرف الكلام عن ظاهره ببرهان غير صرف الكلام عما ليس فيه .
والتأويل بهذا المعنى السلفي قد يكون بيانا للمعنى الظاهر بكلام أوضح بحكم وسيلة
المخاطب في الفهم، وقد يكون بيانا للمعنى الخفي الموجود بكلام يكون فيه المعنى أظهر .
ب— التأويل بمعنى ذكر المآل .
قال أبو عبيد: التأويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا:
أي صار إليه، وأولته صيرته^(١١) .
وهذا هو المعنى السلفي الآخر الذي ذكره ابن تيمية إذ قال: ويراد بالتأويل ما يؤول إليه

(٨) قال أبو البقاء الكفوي في الكليات ١٥/٢ — التأويل في اللغة من الأول [مصدر آل] وهو الانصراف .
والتضعيف للتعدية .

أومن الأول وهو الصرف والتضعيف للكثير . اهـ .

قال أبو عبد الرحمن: الأول والآل مصدران والتعدية إنما تكون للأفعال .

(٩) التهذيب ٤٥٨/١٥ .

(١٠) دره تعارض العقل والنقل ١٤/١ .

(١١) التهذيب ٤٦٠/٥ والصحاح ١٦٢٧/٤ .

الأمر وإن كان موافقا لمدلول اللفظ ومفهوما في الظاهر^(١٢).
قال أبو عبد الرحمن: روي أنه قص على ابن سيرين رؤيا عجوز رأت في النوم غياب القمر في
بنات نعش.

فأولها بأنه يموت لسبع.
فالتأويل هنا ليس تفسيرا وإنما التفسير هو التعريف ببنات نعش والقمر وكيف دخول القمر
فيهن.

وإنما أرجع وصير مدلول الكلام إلى معنى موته لسبع فهذا هو التأويل للرؤيا.
وعندي أن هذين المعنيين اللذين ذكرهما ابن تيمية يجمعهما معنى التفسير لأن التأويل إما بيان
معنى اللفظ أو الجملة بلفظ أو جملة أخرى، وقد يكون جمعا لمعان مشكلة في جملة واضحة.
وقد يكون بيانا لمعاد الكلام، وقد قلت إن معنى المراد أخص من معنى الكلام، وبيان المراد هو
مآل الكلام.

فإيضاح أن للأب الثلثين في قوله تعالى: (فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث) [سورة
النساء/ ١١] إنما هو بيان لمعاد الله الذي يؤول إليه كلامه.

فإذا جمعنا معنى التأويل في لغة العرب ومعناه في الاصطلاح الحادث نتجت لنا الأقسام التالية:

- ١- التأويل بيان المعنى الظاهر من كلام العرب لمن لم يكن هذا المعنى عنده ظاهرا لضعف في
وسيلته الثقافية أو للبس طارئ على فهمه.
- ٢- التأويل بيان المعنى المراد الذي لم يكن هو الأظهر في ذلك الكلام بل غيره أظهر منه.
و يكون هذا البيان ببرهان رجح المعنى المرجوح على الراجح.
فهذان المعنيان تأويل سلفي.
- ٣- التأويل بصرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح دون برهان.
وهذا لا يجوز شرعا ولا يليق في ضرورة العقل لأن ترجيح المرجوح بلا برهان تحكم ومكابرة
والغناء للمقتضى وإفساد للغة وحيث فلا سبيل لأحد إلى أن يضبط مراده.
وهذا المعنى ليس من لغة العرب، لأن صيرورة الكلام إلى معنى مرجوح بلا برهان ليست
مآله في الواقع، وتأويل الكلام في لغة العرب أن تذكر مآله في الواقع^(١٣).

(١٢) دره تعارض العقل والنقل ١/ ١٤٤.

(١٣) قال الراغب في المفردات ص ٣١: التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل.

لهذا يجب أن يسمى هذا النوع تحريفاً، والتحريف محرم .
أما تسميته تأويلاً فهو تسمية للمحرم باسم المباح وهو نوع من التضييل .
٤ — التأويل صرف الكلام عن معناه المفهوم منه إلى معنى غير مفهوم منه بلغة العرب .
وهذا ليس تأويلاً لما ذكرته في القسم الرابع ويجب أن يسمى تبديلاً .

بقيت النتيجة وهي عن المعنى الاصطلاحي الحادث القاضي بأن التأويل صرف اللفظ عن
الاحتمال الراجع إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترب بذلك .

فهذا جزء من المعنى اللغوي السلفي وليس جميعه بشرط أن تكون صيغة التعريف هكذا :
(صرف اللفظ من المعنى الراجع) بدل الاحتمال لأن الاحتمال إذا لم يكن مفهوماً لغوياً لا قيمة
له ، ولهذا لم أفرع القسم الرابع إلى صرف ببرهان وصرف بغير برهان لأنه لا برهان مطلقاً على حل
كلام الله على معنى غير مفهوم منه لغة .

وقبل ختامي لهذا البحث أحب أن ألفت الانتباه إلى موضوع اشتدت فيه حمية شيخ الإسلام ابن
تيمية رحمه الله عندما أنكر الوقف عند قوله تعالى : (إلا الله) وجعل (والراسخون) كلاماً مستأنفاً
لأنه يلزم منه أن في القرآن ما لا يعلم مراده إلا الله وأن جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم
والصحابه لا يعلمون مراد الله منه (١٤) .

والذي أراه أن الوقف عند (إلا الله) وكذلك عطف الراسخون على لفظ الجلالة تفسيران
متكافآن .

ومن ترجح له أن معنى الآية تفرد الله بعلم المراد من بعض الآيات فلا محذور في ذلك و يكون
ذلك من غيب الله لأن جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يعلمان إلا ما علمهما
ربهما .

وإذا عجزنا عن معرفة مراد الله بالحروف المقطعة في أوائل السور ببيان توقيفي فهي مما تفرد الله
بعلمه .

غاية ما نقوله أن لما تفرد الله بعلمه من مراد بعض الآيات الكريمات مفهوماً يدل عليه الكلام بلا
ريب فلا نصرفه إلى ما لا يدل عليه .

إلا أن هذا المفهوم بين عدة احتمالات مفهومة من لغة العرب ولم يرد بيان توقيفي بتعين المراد
من تلك الاحتمالات فتعين تفويض المراد إلى الله جل جلاله وعدم الجزم دون مرجح .

وثمة أمر آخر وهو أن إخبار الله لنا بأنه يسمع كلام يدل على مفهوم لغوي وهو أنه جل جلاله

(١٤) راجع دره تعارض العقل والنقل ١/ ١٤ - ١٥ .

يسمع فلا نحرف الكلام عن معناه بلا برهان ولا نبذله لأن معنى السمع مفهوم لغة .
أما كيفية سماعه جل جلاله فتلك قضية ثانية لم يرد بيان من الله بالكيفية بل ورد البيان بأنه
ليس كمثله شيء .
ولهذا قال الإمام مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول .

حكمة الشّرع وحكمة الامتثال

القاعدة عند جمهور علماء المسلمين كما هو مفهوم الشّرع أن الخطاب من الله جل جلاله أو من رسوله صلى الله عليه وسلم يقتضي الامتثال من المكلف عقدا وقولا وعملا .
والغاية من الامتثال تحقيق رضى الرب والنجاة من النار ودخول الجنة بدءا برحمة الله .
هذه هي الحكمة العامة والعلّة الكافية .
لأن المكلفين من الجن والإنس ما خلقوا إلا لهذا الامتثال .
وهذا لا يعني المنع من تحري حكمة الشّرع في تفصيلاته .
وإنما المحرم أمران :

أولهما : وقف الامتثال على معرفة الحكمة .
فهذا شغب على الشّرع ، بل الواجب على المكلف الامتثال فور تبلغه بالنص وفهمه له واستطاعته ما طلب منه امتثاله .
وثانيهما : تأسيس أي حكم شرعي على أي حكمة شرعية إلا بشرط أن تكون هذه الحكمة منصوفا عليها أو مستنبطة متيقنة أو غالبية الرجحان ، وبشرط أن يكون الحكم المبني على الحكمة اجتهاديا في موضع لم ينص عليه باسمه ، لأن النص على المحكوم فيه باسمه أخص من النص على معناه .

وإنما قلت إن الحكمة مقصد مندوب المجتهد إلى تحريره بذنيك القيد ، لأن الحكيم من أسماء الله ومن صفات تدبيره ، ولأن الله وصف تدبيره الشرعي بالحكمة في عشرين آية من كتاب الله ، ولأن الله استحث عقول المكلفين على التدبر والاعتبار .

والحكمة تكون مصلحة دنيوية منصوصة كأثر القصاص في تحقيق الأمن ، وتكون مستنبطة لتحقيق مصلحة دينية أو دنيوية كندب الشّرع إلى التخفف من المباحات ، فالمجتهد يرجح أن الحكمة دينية وهي التخفف من الحساب يوم العرض الأكبر .

ولن يستوحش المكلف من هذا الاستنباط وهو يجد في دين ربه أنه مسؤول عن النعيم وأن الكفار مبهكتون باستهلاك المتعة في حياتهم الدنيا .

وحق على المجتهد إذا لم يجد الحكمة منصوصا عليها ألا يجزم بأنها مراد للشرع حتى لا يقول على الله بغير علم ، وإنما يجعل الحكمة ثمرة لامتناله .

فعلى سبيل المثال ألف أحد المعاصرين وهو الأستاذ عبدالرزاق نوفل كتابا عن (الصلاة) وأحصى ما فيها من حكم دنيوية لاسيما ما ينفع البدن .

فلا يحق للمجتهد أن يجزم بأن هذه المصالح هي مراد الشرع من فريضة الصلاة أو جزء من مراده ، لأن هذا قفوع محرم ، وقول بغير علم يقيني أو راجح .

ولكن المجتهد إذا دام على الصلاة وتحققت له من الديمومة مصالح دنيوية فليقل بغير خوف ولا وجل : هذه حكمة حققتها من امتثالي لحكم الشرع .

فهذا هو الفارق بين حكمة الشرع وحكمة الامتثال .

وبعكس ذلك تحقق قوة المسلم في مواجهة صعاب حياته بسبب الصلاة ، وتحقق عصمته عن كثير من الخطايا .

فهذه حكمة راجحة لأن الله نص على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وحشنا ربنا على الاستعانة بالصلاة ، واستراح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلت قرة عينه فيها .

ولقد تذوق هذه الخلاوة الشيخ يحيى بن مالك بن عائذ الأندلسي رحمه الله فكان إذا دخل المسجد قال لاحنا عن الصلاة :

يا رب لا تسلبني حبها أبدا

و يرحم الله عبدا قال آمينا

والبيت في الغزل ، فكان هذا من مليح التمثل ونقل الشاهد .

قال أبو عبد الرحمن : والمواظبون على الصلوات الخمس جماعة أحرص الناس على الدقة والنظام وإنجاز العمل في يومه ، وأبعدهم عن الكسل والتشاؤب .

فهذا ثمرة للامتثال بلا ريب وحكمة التشريع علمها عند الله .

وهناك مواضع لا ينبغي فيها قفو الحكمة مطلقا كالمتشابه وأوائل السور المقطعة والعبادات المحضة ككون صلاة الظهر أربعاً لا ثلاثاً ، وكون صلاة المغرب ثلاثاً لا ثنتين والرمي بسبع حصيات ، وتقبيل الحجر الأسود ، وكون الحد الفلاني ثمانين جلدة لا خمسين ولا مئة .

والقاعدة في هذا أن الله لا يسأل عما يفعل ، وأن الله غيوبا استأثر بها ، ومن حكمة الله ما هو داخل في غيبه والله المستعان .

ظاهرة الخلق والمحروث

حينما تهتز رقعة من المعمورة بزلزال ربما حصل على آثاره خسف، أو تقذف من بركان هائج، أو تفاجيء السابلة بثلوج تغمر الأرض وتسد منافذ النفس ثم تستخرج الضحايا كما تستخرج من أنقاض المدم، أو يمتد خيط سماء من ماء، أو نزوة من بحر، أو نفس من ريح فيتساقط البشر كما يتساقط الذباب مع المبيد، أو يتسلط جند من جند الله من وحش أو طير أو حشرات أو بعوض ضعيف.. حينما يحصل شيء من ذلك خارجا على مألوف العادة فإن المبرشرين من كفار الشرق والغرب يستقبلون عدسة المصور الصحفي و يقومون مقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه (قبل أن يسلم) في صلح الحديبية مبشرين العامة بأنه لا خوف من المجهول الرهيب، لأنهم اكتشفوا بعلمهم الطبيعي سر خروج هذه الأحداث عن مألوف العادة.

ثم يفيضون في التفسير فيقولون:

إنما حدث هذا الزلزال لتصدع تحت البحر الأحمر!!
وإنما انهالت هذه الطيور، لأنها هاجرت جماعيا من موطنها من إحدى الجزر بعد أن فوجئت بالجوع!

وإنما حصلت هذه الأطباق لعبة من الكبار!
وإنما رؤيتك تلك الأناسي الغريبة لأن الكواكب الأخرى مسكونة بمخلوقات مثلنا!
وإنما وإنما... إلخ.

نعم هذا تعليل إن صح فإنما هو تفسير للحدث بعد حصوله.

ولكن كيف حصل السبب الذي نتج عنه الحدث؟
ولماذا؟

مهما تطلبت عند ملاحظة العلم الحديث وغمار الأمم فلن نجد إلا تفسير الأحداث بما أذن الله باكتشافه من قوانين كونية.

أما العناية الإلهية وأما العلة الغائية (أو حكمة الخلق) فلا تلوب بباهم، وإن خطرت لهم استعاذوا منها كما يستعيز المؤمنون من الوسواس الخناس.

ولو كانت حياة المؤمن تسمح بإضاعة الوقت في الجدل لد لهم المسلم نفس الحوار ولقال:

هيو أن الزلزال لتصدع تحت قشرة البحر الفلاني .

ولكن لماذا حصل هذا التصدع ؟

وكل ما ذكروا سببا طلبت سببه حتى تنتهي إلى علة كافية .

ولسألهم — وترك الإجابة لأمانتهم العلمية — :

إذا صح عندكم أن جهرة المشاهدة دلت على اقتران الحوادث بأسباب مادية أذن الله باكتشافها فاصدقونا الخبر من مذخور مشاهدتكم ومأثور تاريخكم :

ألم توجد أسباب تخلفت عنها نتائجها مع تخلف المانع !!

فإن صدقوا فلا بد من أن يفيشوا إلى الاعتراف بمسبب الأسباب الذي أجرى ناموس الكون بنتائج تتبع أسبابها ، ثم خرق الناموس كما شاء — تخويفا أو تبشيرا أو اعتبارا — فأجرى أحداثا بلا أسباب يعرفها البشر ، ومنع النتائج مع وجود أسباب يعرفها البشر وتختلف موانع يعرفها البشر أيضا !

ولست أنكر الاختصار على التعليقات المادية في وسائل الإعلام الأجنبية الكافرة ، لأن الكافر يطرد أصله .

وإنما إشفافي من إعلامي بلاد العرب والمسلمين إذا نفخوا في نفس البوق وتقنعوا حياء من أن يعلنوا جوهر إيمانهم ، ويتناسوا آيات الله التي يرسلها تخويفا أو تبشيرا .

وكان هؤلاء الضعفاء لما علموا شيئا من ظاهري الحياة الدنيا وهو ما اكتشفوه من قوانين الطبيعة وعناصرها : خلقوا القوانين وعناصرها !!

كانهم — إن صح أنهم عرفوا سبب الزلزال — ملكوا السلامة منه والسيطرة عليه !

وما أسرعهم إلى نسيان ما عرفوه وهو أن قوة الأرض كلها وقوة البشر وحيلهم لا تصمد أمام أضعف جند يسلطه الله وإن كان بعوضا .

أما المؤمن الناسي فنذكره بأن الكرة الأرضية موكل بها ملائكة كرام شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وهكذا كل أجزاء كون الله الفسيح الفسيح .

وكون الله كله ومن فيه محكوم بكلمة الله (كن) .

فلا يكون في كون الله إلا ما أراد الله .

وبهذا على المؤمن أن يتحرر من وثنية الخوف من القنبلة النووية وقوة الدول العظمى وما أشبه ذلك من خرافات جرحت قلوب الدهماء جرحا لا ييلسمه إلا الإيمان الحقيقي العملي بمن قال وهو الله جل جلاله : (أنتم أشد خلقا أم السماء بناها) [سورة النازعات / ٢٧] .

حقيق بالمتقن المسلم المعاصر إن خطر بباله أنه علم أورأى من اكتشاف العلم الحديث ما غيبي على أذكىاء وأتقياء القرون الممدوحة أن يتفكر فيما علمه أورآه من جديد العلم الحديث فيعلم أولاً أنه لم يخلق نفسه ، وأن حدة نشاطه محصورة بين رحمة المهد ووحشة اللحد ورغائب جسده وضروراته ، وأنه يعلم اليوم ما جهله بالأمس ، وينسى غدا ما علمه اليوم ، وأن أبرع الخلق مهما كانت فعاليتيه يضيف شيئاً يسيراً جداً إلى عمل أبناء جيله وخبرة جميع الأجيال ، وأنه يتعلم من غيره أكثر مما يتعلموا منه ، وأن غاية جهد البشر أن يكتشفوا ظاهراً بسيطاً جداً من حقائق الكون .

فهم يحاولون اكتشاف شيء من الحقيقة ولا يقدرّون على خلق شيء من الحقيقة .

وما صنعوه من مادة فهو في الحقيقة اكتشاف شيء من المصنوع قبل أن يُخلَقوا ، فهم لم يخلَقوا النار والتراب والماء والحديد والهواء والدم .. إلخ .

وإنما ركبوا شيئاً من صنع الله وفق القوانين التي خلقها الله .

وهذه الظاهرة المشاهدة المحسوسة أخبرنا عنها خالق الحقيقة في أكثر من موضع .

قال تعالى : (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) [سورة الصافات / ١١] فهذا تنبيه إلى تصور عام .

وقال : (قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) [سورة الرعد / ١٦] .

فأي عنصر في مصنوعات البشر لم يحدوه مخلوقاً قبلهم ، ولهذا قال تعالى : (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [سورة طه / ٥٠] .

فكل اختراع كبير أو صغر فهو هداية من الخالق إلى شيء من قوانين خلقه .

وقال تعالى مستهزئاً بعباده كونا (وهم المشركون) : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) [سورة الرعد / ١٦] .

قال أبو عبد الرحمن : والله ما جرأ على هذه الدعوى أحد ق علماء هذا العصر . فهم وما صنعوا رهن لأقدار الله .

وما أبعدهم عن هذه الدعوى وكرتهم الأرضية التي هي خلق الله ذرة تائهة في هذا الكون الفسيح باعترافهم .

ومادة المصنوعات البشرية التافهة ظاهر يسير من صنع الله وقد نبه الله إلى ذلك بقوله : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) [سورة البقرة / ٢٩] .

والمخاطبون أنفسهم داخلون في مدلول قوله تعالى : (بل أنتم بشر من خلق) [سورة المائدة / ١٨] .

وميزه بصفة العناد والمكابرة في قوله : (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) [سورة

النحل / ٤] .

إن البشر يصنعون مادة من مادة تركيبها ولم تنفد الجبال التي ينحتون منها ولا الرمال والجبال التي يصنعون منها ، ذلك أن الله يزيد في الخلق ما يشاء وكل شيء عنده بمقدار .
وهو القائل جل شأنه : (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) [سورة الإسراء / ٩٩] .
بلى والله .

وكل تبجح من العلم الحديث بدعوى الخلق أو مضاهاته محجوبة مخصومة بقوله تعالى : (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) [سورة لقمان / ١١] .
وهو محجوج بالتحدي بغيب الله الذي لا يصل إليه أحد من خلقه مما استأثر بعلمه كما في آخر قوله جل جلاله : (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون) [سورة يس / ٣٦] .
واحتكام المسلم إلى خبر ربه إنما هو احتكام من يعلم أن خبر خالق الحقيقة أصدق وأعلم من تجسس من يحاول اكتشافها . قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [سورة الملك / ١٤] .

وهذا المتوجس هو المعني بقوله تعالى : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) [سورة مريم / ٩] .
ألا فليذكر الملاحدة ما قبل المهد وما بعد اللحد .
(والله خلقكم ثم يتوفاكم) [سورة النحل / ٧٠] .

وليعلموا أن في مآثور تاريخهم وواقع مشاهدتهم مصداق قوله تعالى : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) [سورة الإنسان / ٢٨] وقوله : (واتقوا الذي خلقكم والجليلة الأولين) [سورة الشعراء / ١٨٤] .

وهكذا إذا أسند الفعل للخلق فإنما يراد به التركيب والاكتشاف كقوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) [سورة الصافات / ٩٦] .

وكل ما عمله الخلق — وهو بهداية الله — فليس ببدع في كون الله ، بل هو على مثال ومن مادة مخلوقة .

أما حقيقة الخلق فهي لله سبحانه .

قال تعالى : (أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات) [سورة فاطر / ٤٠] .
فهذا إنكار ، ومثله : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) [سورة الطور / ٣٥] وقوله : (ألا له الخلق) [سورة الأعراف / ٥٤] وقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) [سورة يونس / ٣٤] وقوله :

(هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) [سورة لقمان / ١١] .

وليتأمل الناس قول ربهم : (قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) [سورة الرعد / ١٦]
وقوله : (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) [سورة الزمر / ٦٢] فيها هنا مع الخلق قهر
وهيمنة ، وهؤلاء المساكين لا يدفعون عن أنفسهم القلق والخوف والحزن والمرض والمهرم والسهو فضلا
عن الموت المحتم في أجل محدد .

لقد قامت الحجة على الكافر والمؤمن ، ولن يهلك على الله غير هالك .

وما أخرى أدباء العصر الحديث وصحفيهم وكتابهم وفنانيهم من البراءة الجادة من عبث
العلمانية — أعني علمانية التعبير التي هي من ظاهرات الأدب الحديث — وتحقيق معنى العبودية لله
والاستعلاء على حيرة أنصاف المثقفين الذين ند عنهم بصيرة المؤمن العامي وبصر العالم المادي
الذي عرف الله ولم يعبد فكان من أصحاب الإيمان بالربوبية فحسب ، جعلنا الله هداة
مهتدين .

قوى المعرفة الثلاث

زمام الإنسان — هذا العبد الضعيف المعقد — في شد وجذب بين ثلاثة من الصناديد العتاة داخل الذات، وهي:

١ — الوعي .

٢ — الفكر .

٣ — العواطف .

فإذا رأيت صوفيا مرسلا لحيته مبيلا شوار به ينثر الكحل في محاجره كيفما اتفق فاعلم أنه يدعي حالة وعي !!

نعم هم يسمون هذه الحالة تجوزا غيبوبة وذهولا وفناء ، ولكنها على الحقيقة — في زعمهم — وعي بما وراء الحجب !!

ومن خيل بهذه الحالة أو بادعائها فلا تطمع منه باصغاء فكرية أو عاطفية ، لأن المقود في يد دعوى حالة الوعي !!

فإن قلت لهؤلاء الأخيار: (لا تحرمونا من بركاتكم ولو بالتفسير!!): أشفقوا من الحرمان أو العقاب وقالوا بلسان شاعرهم صريع الجنون وقتيل العدالة أبي الفتوح يحيى بن حبش السهروردي :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم

وكذا دماء البائحين تباح

وإذا هو كتموا تحدث عنهم

عند الوشاة المدمع السفاح

ثم يعتذر عن بعض هفوات البوح !!

لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى

كتمانهم فنما الغرام وباحوا

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها

لما دروا أن السماح رباح

وإذا رأيت ساهيا لاهيا تخفق وثبات خطوه مع خفقات قلبه فذاك أسير العواطف لا يعترف بوحي ولا يصني لفكر.

وقاموس لغة هؤلاء الأحياء أعظمها من (ليت) وأخواتها .

فإن تلمظوا بالذكريات فلفتهم (كان) .

وبعكس هؤلاء صنف لا يعترفون بحالات الوعي، ويجحدون كل مطلب للعواطف، وهؤلاء هم عباد الفكر من الفلاسفة .

وما رأيت في حياتي قط أشد جفافا من الفلاسفة قد وأدوا في أنفسهم كل بشاشة للأرحمة والمرح .

فلعدم إيمانهم بالوعي تراهم مفرطين في حق التفكير الذي يدعون سدانته، لأن معارفهم مجرد ترديد لوقائع حسية، وليست إيجابيات فكرية ولدتها الوقائع .

ولحيفهم على عواطفهم تراهم يروضون سلوكهم على مثاليات فكرية جافة لا بهجة وراءها .

وفتش كيفما شئت فلن تجد فيلسوفا حقيقيا يتمتع بكبير ظرف .

والخلق السوي، والسلوك السوي والمعرفة السوية تجدهن عند قلائل أحكموا الاتزان بين تلك القوى الثلاث (التفكير- الوعي- العاطفة) فلم يتجحا لطرف منهن أن يشكو الضيم والحيف من تسلط الطرف الآخر .

فإن عبثوا بعواطفهم وجدته عبثا يتسم له الفكر، وإن أخذوا بعزائم الفكر وجدت ذلك في جذل من العاطفة .

ولا يعدم هؤلاء لحظات من الوعي والإشراقة تتأتى لهم من إيمانهم إن كانوا أتقياء، وتتأتى نذارة من قوى الغيب إن كانوا أشقياء فيغمرهم معارف لا بأس أن يسموها مشاعر لأنهم لم يكتبوها بتفكير .

وبعضهم يسمى ما تتأتى في تلك اللحظات بالحاسة السادسة .

إن معيار السوية في معرفة هؤلاء يتأتى من حسن التنظيم بين تلك القوى الثلاث . وذلك الحسن ناتج عن الإدراك التالي :

أولا : أن ما يسمى معرفة حقيقة هوقناعة القلب الذي يسميه أرسطو (عاصمة الجسد) .

وأصدق منه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علق صلاح الجسد بصلاح القلب .

أما ملكات العقل ونوافذ الحس فإنما هي وسائل لتحصيل المعرفة وتنظيمها واستذكارها وقياسها .

والذي يحدد سلوك الإنسان ويسيره صحة المعرفة وصدقها .

والدور الجوهري الأول الذي لا يملكه غير القلب أن القلب محل إضمار النية واصطناعها لم يجعل الله أي سلطان لأي أحد على قلب الفرد بحيث ينوي ما يشاء ، ولهذا جعل الله أحكام فعل الجوارح تابعة لنوايا القلوب .

ولهذا أيضا ما ساءت المعرفة بين المختلفين إلا لفساد في نية القلب ، فحصل العناد والمغالطة والشغب والتضليل والانقسام .

ولو صدقت النوايا لكان الاختلاف مرحوما معصورا .

إذن لن تقر المعرفة الصحيحة في قلب غير صادق .

والدور الجوهري الثاني للقلب أنه مستقر المعرفة ، فما كان معرفة بالنسبة للفرد — سواء أكان معرفة صحيحة في الواقع أم معرفة وهمية باطلة — لا يكون معرفة بالنسبة للفرد حتى يكون عاطفة في القلب (أي عقيدة) .

وكل معرفة لا تكون عقيدة في القلب فإنما هي عبث فكري !

ولهذا يخاف من المعتقد إذا عثش في القلب بشرط ألا يكون متكونا أصلا عن صدق نية .

ومن يهان معتقده بتنديد أو جحدان يفور دمه وتنتفخ أوداجه ، وهذا أكبر دليل على صلة القلب بالمعرفة !

وليس كذلك الفيلسوف فقلما حضن الفيلسوف معرفته بانفعاله ، لأن فكره لم يتحول إلى عقيدة في قلبه ، ولأن مدافعتة الوقائع الظاهرة بالاحتمالات المرسله عوده استعمال (لا) النافية للجنس في كثير من حوارهِ .

ومن كانت معطياته أجوبة (لا) النافية فلن تقر في قلبه عقيدة .

ثانيا : الإيمان الجازم القاطع بأن الوعي خلق الله ، وأن العواطف خلق الله ، وأن العقل خلق الله .

وليست العصمة مفترضة لأحد هذه القوى دون الآخر فلا بد من معلم وهاد يعصم العقل من الضلال ، ويشيع التآلف بين العواطف .

وذلك المعلم والمهادي هو وحي الله وشرائعه لأن خالق تلك القوى هو منزل الشرع ، وهو خالق الكون ومرتبّه ، وهو مرتب مدارك المعرفة التي لا تصح إلا بالاتساق مع رتب الكون ومطالب الإنسان روحا وجسدا .

فراحة القلب مصداق لصحة البرهان ، واضطراب العواطف وقلقها باعث لا إيجابيات الفكر وعزائمه .

ومع حتمية الفكر وإيجابياته تكون راحة القلب وبقينه !

ولوقبلي القراء من رجال التربية لنصحت كل فرد بأن يحذق أحكام التكليف التي شرعها خالق الفكر والوعي والعواطف ، وهي المباح والواجب والمستحب والحرام والمكروه فيطلق القلب

والروح ورغائب الجسد مع كل مباح ومستحب وواجب و ينعم بتوثباتهن في هذا المجال .

ويحبس نزواتهن في الحرام والمكروه .

و يستعين بالله ثم باستحياء تأنيب الضمير وتقريع النفس في الحالات التي يتيه فيها عن رشده .

وبهذا يجد نفسه في عصمة من دينه ، ومنعة من تفكيره ، وبحبحة من وجدانه .

فلا هو ينسك نكاحاً أعجمياً متزمتاً ، ولا هو ينسلخ انسلخ الظرفاء ، الذين يضحكون جليهم وشيطانهم ، و ييكون في أعماق قلوبهم .

وليس والله ما أضحك المرید ، وهو اللعين الرجيم .

أصل الماء مأى

يرى المستشرق (برجشتراسر) أن الهاء في جموع الماء زائدة وليست منقلبة عن همزة لأن الصورة الأصلية في اللغات السامية كانت (مأى) أو قرية منها (١٥).

فهذا رأي.

وذهب جمهور اللغويين إلى ما ذهب إليه الزبيدي في لحن العامة وهو أن الهمزة منقلبة عن هاء.

قال ابن فارس: ويدل على ذلك قولهم: موهت الشيء، كأنك سقيته الماء (١٦).

ونص على ذلك في القاموس فقال: وهمزة الماء منقلبة عن هاء.

وعلى ذلك الزبيدي صاحب التاج بقوله:

بدلالة ضروب تصاريفه من التصغير والجمع.

وقال الأزهرى: والدليل على ذلك قولهم: أماء فلان ركيته، وقد ماهت الركية، وهذه مويهة عذبة، ويجمع مياها.

وقال: أصل الماء (ماه) فتقلت الهاء مع الساكن قبلها فقلبوا الهاء مدة.

وقال ابن مكى: أصله (موه) فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا، ثم أبدلوا من الهاء حرفا جلدًا وهو الهمزة، لأن الهاء خفية والألف خفية.

والدليل على ذلك قولهم: ماهت الركية، وأمواه ومياه في الجمع.

قال أبو عبد الرحمن: فهذا رأي آخر.

وقيل: أصل (ماء): (ما) دون همزة، وعلى الفراء ذلك بقوله: يوقف على الممدود بالقصر والمد.

(١٥) تنقيح اللسان ص ٥٣ (حاشية) عن التطور النحوي ص ٣٢.

(١٦) معجم مقاييس اللغة ٢٨٦ / ٥.

وأبى سيبويه ذلك ، لأن (ما) حرفان أحدهما التنوين ، ولا يرد اسم على هذا البناء .
فهذه ثلاثة آراء .

قال أبو عبد الرحمن : البحث عن الاشتقاق اللفظي لا يستقل عن الاشتقاق المعنوي والنحول من
علماء اللغة يهملون ذلك كثيرا .

وفي بحثي جامعا بين الاشتقاقيين تأكدي أن (الماء) مأخوذ من (مأي) .

والأصل : (ماء) بيم وهزمة فألف فهمزة ، فثقل عليهم همزتان فاستغنوا بالأخيرة فكانت ماء .

قال أبو عبد الرحمن : والبرهان على ذلك من وجوه :

أولها : أن ما ذكرته من تصريح جار على تصريح العرب .

وثانيها : أن الأصل في مأي توسيع الإناء والنميمة ، وهذه صفة الماء فهو يجرح الأرض ويوسمها
وينم عما وراءه للطاقة .

وثالثها : أن اللغويين ذكروا (ماءة) من مادة (مأي) للمرأة النمامة .

قال ابن منظور : ماءة نمامة مقلوب ، وقياسه (مآة) .

قال أبو عبد الرحمن : وأبقوا الهمزة على أصلها في (ماء) لأن الاسم ثلاثي أرادوا إتمام بنائه بحرفه
الأصل وهو الهمزة وهي حرف جلد كما قال ابن مكّي .

أما ظهور الهاء واختفاء الهمزة في الجمع والتصغير فهو من الإبدال تخفيفا على اللسان في كلمات
فوق الثلاثية .

على أن بعض العرب أبقى على الهمزة في موضع لا يفحش فيه الثقل ، ولهذا حكى ابن جني في
جمعه أمواء .

القوة بمفهوم نصي (١٧)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

وصلوات الله وسلامه على كافة أنبياء الله ورسله، وعلى جميع أتباعهم إلى أن نسخ الله شرعهم بدين الإسلام .

أما بعد أيها الأحباب : فهذه محادثة لا أريد بها غير تفهم سهل لمعنى القوة في كتاب الله جل جلاله باستنباط سريع غير متعمق، لأن هذه الجلسة المباركة جلسة تعلم واسترواح وليست جلسة جدل وإعمال عارضة .

وقد آثرت اختصار هذه المحادثة لأتيح الفرصة لأسئلة الحضور .

ومع كثرة الآيات الكرمات التي استشهدت بها فلم أتقيد بقراءتها تجويداً لأن هذه التلاوة تلاوة تعليم وتبليغ وليست تلاوة تعبد لذاتها .

وإن اقتضت الضرورة أن أئين مفهوم القوة في لغة العرب واصطلاح ذوي التخصص فيكون ذلك أيضاً بآخذ سهلة سريعة .

إن القوة في لغة العرب مشتقة من قُوى الجبل وهي طياته أو أمشاجه .

ومأخذ الاشتقاق أن الجبل يمتن و يشتد إذا قتل وأمر من قواه، فهذا هو معنى القوة .

قال تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) [سورة النحل / ٩٢] .

وقد فسر القرطبي ذلك الاشتقاق بقوله :

وأصله من شدة قتل الجبل كأنه استمر به القتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها حل (١٨) .

ومفهوم القوة في العرف العام مهما تعددت معانيه لا يخرج عن أمرين لا ثالث لهما :

(١٧) هذا الموضوع محاضرة ألقيتها في كلية فيصل الجوية .

(١٨) تفسير القرطبي ١٧ / ٨٥ .

أولهما : أن القوة بمعنى الاستعداد أو الوسيلة التي ينجز بها الإنسان مراده ، كحمله لجسم ثقيل يتم ذلك باستعداد في بدنه ومهارته أو بوسيلة من خارجه يستعين بها .
وثانيهما : أن القوة بمعنى الوسيلة أو الاستعداد الذي يصد به الإنسان أو يدمر مالا يريده ، كاستعداد الفارس في الحرب ، وكوسائل الجيش التي يستعين بها .

ولاحظوا — بارك الله فيكم — أن التسمية اللغوية ها هنا تسمية للوسيلة والاستعداد ، فكل وسيلة أو استعداد بلغ المراد ودفع غير المراد فهو قوة .

ثم إن الوسائل والاستعدادات تختلف أسماؤها كالبدن ومثانة السور وجدوى الوسيلة كالمطرقة والمدفع .

فكل هذه مهما تعددت أسماؤها العينية فهي مسمى للقوة ، وتعدد الأسماء إنما هو تعدد لأنواع المسمى قوة .

وأنتم تعلمون أن تسمية اللغة على قسمين :

تسمية ذات كالضرب اسمه ضرب ولا يسمى قتلا .

وتسمية معنى كالاعتداء اسم للضرب والقتل والوخز والإحراق والإغراق والشم .

فكل ذلك إذا وقع بغير حق سمي اعتداء .

ولهذا تعددت أنواع القوة حقيقة وبجازا .

فالقدرة تسمى قوة لأنه ينتج عنها — بإذن الله — تحقيق المراد والتغلب على المانع .

وزمن حيوية الشباب يوصف بالقوة لأنه ظرفها .

والاستعداد الكامل في الشيء يسمى قوة ، وهذه في الأغلب لغة الفلاسفة يقولون :

النوى بالقوة نخل : أي منهىء ومترشح أن يكون منه نخل .

وللفلاسفة في ذلك تقسيمان .

قال الراغب الأصفهاني :

والقوة التي تستعمل للتهيؤ أكثر من يستعملها الفلاسفة و يقولونها على وجهين :

أحدهما : أن يقال كان موجودا ولكن ليس يستعمل ، فيقال : فلان كاتب بالقوة أي معه المعرفة بالكتابة لكنه ليس يستعمل .

والثاني : يقال فلان كاتب بالقوة وليس يعني به أن معه العلم بالكتابة ، ولكن معناه يمكنه أن يتعلم الكتابة (١٩) .

(١٩) المفردات ص ٤١٩ .

وبعد هذه اللوحة الموجزة أحب أن نستمتع مباشرة بمفهوم القوة في كتاب الله .
لقد وردت هذه المادة في كتاب الله الكريم في تسع وعشرين آية كريمة بنص القوة، ووردت في اثنتي عشرة آية بنص القوي . منها تسعة مواضع كانت القوي فيها اسما لله جل جلاله .
ومن هذه المواضع التسعة وردت في سبعة مواضع مقرونة بالعزة كما في قوله تعالى : (إن ربك هو القوي العزيز) [سورة هود/ ٦٦] .
ووردت مرتين مقرونة بشدة العقاب كقوله تعالى : (إن الله قوي شديد العقاب) [سورة الأنفال/ ٥٢] .

ووردت كلمة القوى في آية واحدة .
ويتبين معاني القوة في كتاب الله نستخلص معناها الأعم الأشمل في مفهوم الشرع .
قال الله سبحانه وتعالى آمرا بني إسرائيل بالتمسك بما أنزل الله عليهم من كتب بواسطة أنبيائهم :
(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون)
[سورة البقرة/ ٦٣] .
فأي معنى للقوة في تلقي كتاب الله إلا بالمفهوم المعنوي وهو سيطرة النفس على المغويات المغريات التي تحول أو تصد عن طاعة الله .
إن القوة هنا بمعنى الصبر الذي حصره مجتهدو العلماء في الصبر على طاعة الله ، والصبر على أقداره ، والصبر عن معصيته .
إذا كانت كتب الله تدعو إلى الجنة وتحذر من النار، واقتضى تدبير الله الكوني أن تكون الجنة محفوفة بالمكاره وأن تكون النار محفوفة بالشهوات فلا بد من قوة النفس والبصيرة على امتثال شرع الله .
وإذا استعلى المؤمن على المغريات المغويات وانعقد إلا من العبودية لله منحه الله من القوة المادية ما شهد به التاريخ من سير المؤمنين الصادقين الذين تمم الله مسيرتهم .
روى النسائي بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« (إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوي إلى شيء منه) .

فصح بهذا أن تلقي الكتاب بقوة يعني الامتثال له والتكيف مع أحكامه على الرغم من النفس الأمارة والهوى والشيطان ، وبهذا يكون المسلم قويا على امتثال الشرع ودحر عدوه من داخل ذاته وخارجها .

وقد أكد الله الأمر لبني إسرائيل بقوله تعالى في الآية الأخرى : (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا

فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) [سورة البقرة/ ٩٣] .

فكلمة (اسمعوا) أكدت أن المراد بالأخذ بقوة هو الطاعة الخالصة .

أما قول (سمعنا) دون عمل فهو إصرار على المعصية ولهذا قال سبحانه في آخر الآية مبكتا لهم :
(قالوا سمعنا وعصينا) .

وأكد ذلك سبحانه بكلمة (واذكروا) في قوله تعالى : (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) [سورة الأعراف/ ١٧١] .

وورد هذا التأكيد في خطاب الله جل جلاله لكليمه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، فقال : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين) [سورة الأعراف/ ١٤٥] .

ومثله قوله تعالى : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) [سورة مريم/ ١٢] .

قلت لكم : إن القوة هنا بمعنى تحمل أعباء الشرع ومغالبة النفس والهوى والشيطان .

فإذا صدق الإنسان مع ربه في قبول شرعه والانقياد له ولكن وسائله المادية عجزت فإن الله يتمم مسيرته لأن متبع الشرع يستمد القوة من منزل الشرع وهذه هي القوة الروحية .

إن القوة التي كلفنا ربنا التسبب لها قوتان :

قوة مادية وسأبينها لكم إن شاء الله .

وقوة روحية تستمد من شرع الله الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم الموصوف في كتاب ربه بقوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين) . [سورة التكويد/ ١٩-٢٠] .

إذن آيات كتاب الله الكريم ترسي عقيدة المسلم على الدينونة الكاملة لله وأن لا يعبأ بأية قوة على الأرض مادام متوكلا على القوي القهار خالق كل قوة .

وهذه الترسية تأتي على ربتين :

الرتبة الأولى : ترسية العقيدة على اليقين التام الصادق بأن كل من دون الله ضعيف بالنسبة إلى جلاله الكريم .

قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب) [سورة البقرة/ ١٦٥] .

و بهذا الصدد أهتبل المناسبة فأقول لكم : إن المسلم يجب أن يعيش معادلة ذكية تقية بين واقع عجز أمته المادي ، وتفوق عدو الأمة .

فلا يصرخ صراخا محمومًا ويجعل منال القوة المادية— التي يجعلها الله في يد من يشاء بتدبيره الكوني لا بأهواء البشر وحيلهم— هو هدفه في الحياة ورسالته على الأرض بحيث يحاد حزب الله من أمة الإسلام المستضعفة ماديًا، ثم يستعير من قاموس العدو وشعارات حربه النفسية من أمثال عبارات تخلف وتزمت وبربرية ورجعية والورق الصففر إلى آخر ما في قاموس الهزائم الروحية .

لأن هذا الصنيع انضواء تحت راية القوة المادية المحادة لله ، وهذه لا تصمد ولا تبقى إلا بمقدار ما يأذن الله ببقائها فتنة لضعاف الإيمان .

وأما العاقبة فقد بينها ربنا بقوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) [سورة المجادلة / ٢١] .

فغلبة الرسل بالحجة والبرهان والمعجزات مما لا ريب فيه ، لأن الله جل جلاله جعل قيام الحجة شرطًا للزوم التكليف .

ولكن المراد هنا والله أعلم الغلبة العسكرية وظهور الشرع فيكون ذلك على أيدي الرسل ثم على أيدي أتباعهم ، وكل ما استعلى الباطل في محادة الله وتحدي أقداره أخذ ربنا أهله أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون) [سورة الصافات / ١٧١ — ١٧٣] .

ومن تورط في قاموس الهزائم فيشمله وعيد المنافقين وإن ادعى الإيمان ، لأن هذه الدعوى صفة من قال الله عنهم يوم بدر من المنافقين : (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) [سورة الأنفال / ٤٩] .

وعقابل هذا فلا يجوز للمسلم إذا رأى ضعف أمته وقوة عدوه أن يدعو إلى الانعزال والتدروش والتصوف المفتعل وانتظار الخوارق دون كفاح ، بل المعادلة الصحيحة أن يخلص في دعوة أمته قيادة ورعاة إلى الأخذ بأسباب القوة المادية ولم الشمل ويجابه عدوه بما ملكه الله إياه من سبب مادي وهو صادق النية في التوكل على الله ، وهنا ينتظر الفرج من ربه بإحدى الحسنيين ، لأن الله يتم مسيرة العبد الصادق .

ووصف الله ظرف الشبيبة إلى وقت الأشد بالقوة لأنه ظرفها .

قال تعالى : (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) [سورة الروم / ٥٤] .

وقد يراد بالقوة قوة البدن كما في قوله تعالى : (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة) [سورة التوبة / ٦٩] .

ومثلها قول هود عليه السلام لقومه عاد كما في قوله تعالى : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) [سورة هود / ٥٢] .

وقال الله تعالى على لسان بنت شعيب عليه السلام : (قالت إحداها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) [سورة القصص / ٢٦] فهذا عن قوة موسى البدنية عليه السلام .
ومثله قول الله تعالى على لسان عفريت سليمان : (قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين) [سورة النمل / ٣٩] .
وقال تعالى من عبده وأمينه جبريل عليه السلام : (إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى) [سورة النجم / ٤ - ٥] .

فالقوى جمع قوة ، وهي عظم خلقه عليه السلام ، والله أعلم بما خلق .
وقال تعالى على لسان ذي القرنين : (قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة) [سورة الكهف / ٩٥] فسر القرطبي الآية بقوله :
ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينوني بقوة الأبدان أي برجال وعمل منكم بالأيدي والآلة .
ومثل ذلك قول الله تعالى على لسان قوم بلقيس : (قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) [سورة النمل / ٣٣] .

ومثل ذلك عن إرادة القوة البدنية قول الله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) [سورة القصص / ٧٦] .
فالآلات والجمع والأعوان والمظهر المادي يسمى قوة قال تعالى عن قارون : (قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة) [سورة القصص / ٧٨] .

وهذا مفسر في قوله تعالى : (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها) [سورة الروم / ٩] .
و يراد بالقوة المعين والناصر كما في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام : (قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) [سورة هود / ٨٠] .

وما ورد بمعنى المنعة والأعوان قوله تعالى : (فماله من قوة ولا ناصر) [سورة الطارق / ١٠] .
وتأملوا أيها الأحباب هذه الآية العظيمة وكل كلام الله عظيم : (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليمجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا) [سورة فاطر / ٤٤] وتأملوا قوله تعالى : (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) [سورة غافر / ٢١] وقوله : (أفلم

يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) [سورة غافر/ ٨٢] .

وقوله: (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يمجدون) [سورة فصلت/ ١٥] وقوله مسلماً عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم: (وكان من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتهم فلا ناصر لهم) [سورة محمد/ ١٣] .

ولعل الآية الكرعة من سورة الأنفال التي فيها القوة ورباط الخيل هي التي دفعتني إلى تحرير هذه المهاتفة لكم، ولهذا قبل التعليق بأي كلمة أحب أن أمتعكم بسياقها في كلام الله من نفس السورة .

قال تعالى قاصداً على عبادته أحداث معركة بدر الكبرى: (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكهم إذا التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور . يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ربحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط .. إلى أن قال تعالى: إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم .. إلى أن قال تعالى: ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) [سورة الأنفال/ ٤٣ - ٦٠] صدق الله العظيم .

والذي نفس أبي عبد الرحمن بيده إن ربكم هداكم إلى سبيل القوة وغايتها وما عليكم إلا استمثار جهدكم ومواهبكم لتعملوا على تحقيق مراد الله منكم .

لقد شاع في العصر الحديث ما يسمى بالحرب النفسية وهي البلاغات الكاذبة التي تفت في عضد الخصم وتقوي معنوية الجند وكثيراً ما تكون تغريراً بجماهير الأمة ممن هو بعيد عن خط النار وامتصاصاً لفضيها .

وإنما يستحمد الإسلام تخذيل العدو وتقوية معنوية المجاهدين ممن هو على خط النار حالة الحرب وخلال ترميم آثارها ثم بعد ذلك لابد من مكاشفة الأمة بالحقيقة، لأن المجاهدين من أهل الشورى بداية ونهاية، وأما أثناء العمل وهو المواجهة فيجب أن لا يشغلوا بما يضعف حماسهم .

وبرهاننا على ذلك أن رؤيا الأنبياء وحي، وقد رأى رسول الله في منامه أعداءه قليلاً مع أنهم كثير حتى حدث أصحابه بذلك فتقوت معنيتهم .

واقضى تدبير الله الكوني أن يرى المؤمنون الكافرين قليلاً رؤية يظف لا منام، وهكذا العكس

رؤية الكافرين .

فلنا في تدبير الله الشرعي والكوني أسوة نعتربها في شد المعنويات أثناء اللقاء .

وقد رسم الله لنا بدينه الحنيف المنهج في تعيين القيادة واختيار الأمتل دينا وسياسة فإذا حصلت المواجهة فلا بد من الامتثال للقيادة وإن بدا للمجاهد رأي أرشد عرضه ولم يفرضه ولم يشق به عصا الطاعة ، لأن الله حذر من التنازع لاسيما في مثل هذا الموقف .

وإعلان الحرب أو قبولها متروك لولاة الأمر الذين حدد الله وظيفتهم بامتثال الشرع والسعي لمصلحة المسلمين وسؤال أهل الذكر واستشارة أهل الرأي .

ولكن إذا وقع اللقاء بين كافر ومؤمن أو بين طائفة مؤمنة وطائفة مؤمنة باغية فلا خيارها هنا وليس للمسلم إلا النصر أو الموت أو استنقاذ الموقف ويحرم الفرار من الزحف بل يعتبر من الكبائر .

ولهذا حث الله المجاهدين على الثبات وإن كان المقابل أضعافهم ، وكلا الفريقين يألم من القتل والجرح ولكن المؤمن يرجو ما لا يرجو الكافر .

وطاعة الله ورسوله ولم الشمل هما العمدة في كل موضع لاسيما في هذا الموضع ، ولهذا شرعت صلاة الخوف رغم القتال ، وحرص قادة الصحابة رضي الله عنهم على تنقية الجيش من العصاة والفساق ، ولم تعترف القيادة الإسلامية بمرتزة الحرب .

وكان تكرر الجهاد في حياة المسلمين في عصور المجد التاريخي داعية لمراجعة العبد ربه ، لأن المسلم من جهاد في جهاد ، فكلما استعد لجهاد آخر جدد التوبة وأعاد محاسبة نفسه .

والقوة التي أمر الله بإعدادها عامة شاملة لكل ما استجد ويستجد من وسائل الدفاع والمهجوم وقد لوححت الآية الكريمة لهذا الأمر الغيبي فقال تعالى : (ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) .

فلا بد أن نسعى لإعداد القوة التي ترهب العدو الجديد الذي أنذر الله به ، ولا يجوز أن تعطل أمة الإسلام الجهاد لمجرد أنها لا تملك القوة النووية ، لأن تدبير الله الكوني اقتضى أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، بل على المسلمين أن يدافعوا عن دينهم ومقدساتهم بالقوة التي يملكونها ويملكها غيرهم ، ولا يرتاعوا بقوة نووية مدمرة ، لأن هذه الكرة الأرضية في رعاية الله وهيمته ، والله ملائكة غلاظ شداد وكل إليهم حفظ ما أراد حفظه وتدبير ما أراد تدبيره ، والله فوق كل ذلك يقول للشيء كن فيكون .

ولست أرثني أيها الأحباب مذهب من يقول إنما ذكر الله الخيل لأنها أداة الحرب وقت التنزيل وأنه انتهى مفعولها الآن ، بل نقول ذكر الله الخيل وذكر معها غيرها بلفظ العموم وهو (القوة) ، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وعدم استعمال الخيل الآن لا يعني انتهاء دورها لأن هذه الهالة المعاصرة القائمة على الجبروت والاستعلاء على دين الله لن تستمر ، وسيتركها سنة طفيان

الأولين ، وسيجري غيب الله على ما أراد الله ، والله قادر على إهلاك أعتى خلقه بأضعف جنده .
واعلموا أن القوة تسمى قوة بالنسبة لما يواجهها مما هو أقل منها ، فكل قوة في الكون نسبية .
أما القوة المطلقة المهيمنة الشاملة فهي قوة الله جل جلاله ولهذا تأتي مطلقة مضافة إلى الله جل جلاله وتأتي منفية عن غيره باللام النافية للجنس مقرونة باستثناء الميثية من الله تعالى .
قال تعالى : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) [سورة الكهف / ٣٩] .
وقال عز وجل : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [سورة الذاريات / ٥٨] .
فقوة الأرض كلها هذا اليوم لا تستطيع أن ترد قدر الله في الآجال والأرزاق والأعراض من حزن وفرح وسخط ورضى وطفولة وشيخوخة وتلد مآرب .
وقوة الأرض كلها هذا اليوم لا تصمد أمام زيادة في الريح يأذن بها الله ، أو فيضان من البحار ، أو زلزال أو خسف أو شواظ تنزل من فوق أو مطر غامر أو جند ضعيف يسلطه الله من فأر أو بعوض أو طير أبابيل .
وقوة الأرض كلها لا تساوى قوة أفلاك أخرى خلقها الله فوق السماء ودون السماء والله فوق كل ذلك .
وفي ختام هذه المهاتفة أقول لكم البشرى والندارة معا في قوله تعالى : (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) [سورة المجادلة / ٢٠] .
[٢١] .
والخص موجز ما حادثكم به أن الشرع المظهر مدح نوعا من القوة وأمر به ، وهي ما نسميه في عرف العصر الحديث بالقوة الروحية ، التي هي رياضة النفس ومجاهدتها على أخذ الشرع والتزامه مع الرضى به ، ولا يكون الرضى إلا إذا أفعم القلب بحجة الله والخوف منه والخشية له وملاحظة آلائه ونعمه ، والتوكل عليه فيعتبر كل وسائله المادية أسبابا يمثلها ويعلق الأمل بالله ويتضرع إليه بالدعاء ويتقرب له بالحمد والشأن وفعل الخير .
فأهل هذا الصنف من رياضة القلوب يستمدون قوتهم من استجابة الله لهم ، فتكون وسائلهم المادية أبلى وإن كانت أضعف ، وكثيرا ما شهد التاريخ باللطاف الله تظهر عيانا في عمن المسلمين وشدة ضعفهم .
وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة لطيفة عن أعمال القلوب يتجلى منها القوة الحية الناشئة عن قوة الإيمان .
ولقد تغرب جيل الصحابة رضي الله عنهم في بلاد الثلوج والتضاريس القاسية التي لم يألفوها محاربين لعدو أكثر منهم عدة وأقوى منهم بنية ، وأكثر تمردا بشؤون الحرب .
وكانوا مع هذه الغربة ما بين راكب وما بين رديف ، ولم يكن سلاحهم ذا خطر ولكنهم لقوة

إيمانهم واثقون بأن الله سيتم مسيرتهم وسيجعل أسبابهم المادية الضعيفة أقوى وأبلغ من الأسباب المادية القوية التي بيد عدوهم .

هذا هو موقف النصوص الشرعية من قوة الإيمان .

وبعكس ذلك قوة الأبدان والوسائل المادية فهذه وردت مأمورا بها مندوبا إليها على أنها سبب ووردت أيضا مصغرة محقرة فاشلة إذا ركن إليها العبد المخلوق واستعل بها على تدبيره الشرعي وأقداره الكونية .

وما على المسلم المستضعفة أمته مادي المتخاذلة معنويا إلا أن يقبض على دينه و يلتزمه و ينتظر سنة الله الكونية في كل طغيان واستعلاء ، لأن القوة لله جميعا .

والحمد لله بدءا وعودا ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محجة راضية أبدا

إذا عرفت دخيلة شخص بعد طول الملازمة وتأكد المودة ورفع الكلفة فعلمت كذبه أو غباؤه أو إيمانه أو صدقه أو ذكاه أو تظاهره بالتباليه وهو من أذكى الناس فعلمك بذلك بقيني، وما نازعك في هذا المعتقد فهو لا يزحزح عقيدتك، وأنت لا تنظر في حجة المجادل لتصحيح علمك، وإنما تنظر في حجته لتستبين ما فيها من تمويه إن كانت كاذبة أو تستبين ما فيها من ضعف أو غفلة إن كانت غالطة.

وفي يقينك أن كل ما خالف معتقدك في ذلك الرجل لابد أن يكون حدث لصاحبك أو أنه لا يصح لقيامه على حجة كاذبة أو غالطة.

ولا يمكن أن يقوم برهان على زيف معتقدك فيه، لأن ما قام على البرهان لا يسقط بالبرهان! وإذا علمت درجة الحرارة لمائع معين بضغط معين في زمن معين فقياسك بقيني وكل ما خالف علمك فأنت على يقين بأنه باطل لا تصفي له لتصحيح قياسك وإنما تصفي له لتبين وجه الغلط فيه. وإذا كنت شاهد عيان لمجرم يغمد خنجره في قلب برىء فأنت على يقين بما حصل وإن بادهاك المحامي بآلاف الحجج. وأنت لا تصفي إلى حجج المحامي لتصحيح معلوماتك وإنما تصفي لها لتستبين تمويه الكذب فيها أو وجه الغباء منها.

وعلمك بأن ما تشكل مصادفة من حركة غير إرادية لا يعود بنفس الشكل من حركة غير إرادية إلا أن تكون الحركة الأولى مساوية للحركة الثانية مصادفة، غير أن تعاقب الحركات المتماثلة المنتج لأشكال متماثلة لا يكون إلا بقصد لا مصادفة فيه.

وكل دعوى تعارض معتقدك لا تصفي لها لتصحيح تصورك عن المصادفة وإنما تصفي لها لتستبين فساد دعوى المصادفة في المدعى وتقيم الحجة على صحة القصد فيه.

وإذا قام لك البرهان بأن الزعيم الفلاني صادق الولاء لعقيدته وأمه صادق العداء لعدو عقيدته وأمه ثم دبر تدبيرا كانت نتيجته لصالح العدو كخسارة في معركة أو إبرام لماهدة فإنك لا تصفي إلى هذه الحادثة لتصحيح بها عقيدتك في إخلاص ذلك الزعيم بعد أن قام البرهان اليقيني على إخلاصه،

وإنما تصغي لها لتلتبس لها وجهها لا ينافي بيقينك بإخلاصه كضعف حيلته أو انخداعه أو سوء تدبيره .
ومن عايشته في القرية ولازمته سنين عديدة فعلمت صدقه ولم تجرب عليه كذبة قط ثم قام لك
البرهان من إجماع أهل قريتك وجميع داخله ذلك الرجل الصدوق ثم روي عنه كلمة يظهر عند عامة
الناس أنها لا تعقل كأنه يخبر بأنه رأى كائنا غريبا لم يره البشر قط فأنت بهذا الخبر لا تراجع بيقينك
في صدقه بل تحمل الخبر بأنه مكذوب عليه فإن قام لك البرهان بأنه قاله فأنت على تصديقه فيما قال
فلا تكلف فكرك مؤونة في الارتداد على إيمانك بصدقه الذي أثبتته البراهين ، بل جهد فكرك أن يؤكد
بأن خبره الذي يبدو غير معقول أنه ممكن غير محال إن لم يوجد البرهان على وقوعه .

وكل ما أمكن وقوعه فخير الصادق برهان كاف على ثبوت وقوعه .

هذه نماذج بسيرة من وقائع كثيرة محصوها : أن ما ثبت بالبرهان لا يمكن أن ينفيه برهان ، بل
لا بد أن يكون المعارض كذبا متعمدا أو شبهة منطقية على خطأ .

وما اعتقدته ببرهان صحيح فأنت على يقين بأنه لن يعارضه برهان صحيح ، لأن العقل والخبرة
الحسية العلمية تحيل سلبية البرهان الصحيح لإيجابية برهان صحيح .

إذا صح لك البرهان فأنت على يقين من صدق مدلوله ، وأنت على يقين بأن ما عارضه إما كذب
إرادي متعمد ، وإما نظري فكري خاطيء تنظره لتستبين خطأه فقط وأنت على يقين باستبانته وجه
الخطأ فيه إذا توفرت أهليتك العلمية والنظرية .

وهذه الإيجابية الفكرية حتمية فطرية في الذهن البشري تقوم عليها افتراضات العلم وتنتهي
إليها نتائجها .

والفقيه المسلم المؤمن بأن الله حق ، وأن محمدا رسوله حق ، وأن وحيه إليه حق إذا جاءه خبر عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام له البرهان بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله ولم يكن مكذوبا
عليه أو منسوبا إليه خطأ ووهما فهو على يقين بصدقه في الواقع ومعقوليته وكل ما يدعى على معقولية
ذلك الخبر من العقل أو الحس أو الطب أو علم الأحياء أو الزراعة أو الهيئة .. إلخ فهو دعوى كاذبة
على العقل والعلم أو دعوى متوهمة فيهما إذا تحققها المختص كشف عن وجه الخطأ فيها .

وإذا صحت دعوى العقل أو العلم ببرهان يقيني وعارضت خبرا منسوبا للشرع فإن الفقيه
المسلم لا يكذب شرع ربه لأن إيمانه بشرع ربه قام له ببرهان يقيني بل يستبين بالبرهان العقلي أو
العلمي أحد أمرين :

- أ — فإما أن يكون الخبر المنسوب إلى الشرع غير ثابت ، وإنما نسب إلى الشرع كذبا أو وهما .
- ب — وإما أن يكون للخبر المنسوب إلى الشرع دلالة أخطأنا في فهمها ، وأن تلك الدلالة هي مقتضى
البرهان العقلي أو العلمي .

والفقيه المسلم لا يعتبر عقله حكما في الشرع وإنما يفهم شرع ربه بعقله ويميزه يأخذ من عقله

دلائل الإمكان أو الوجوب لما أخبر الشرع بوقوعه ، و يأخذ من عقله دلائل الامتناع والإحالة لما نفاه الشرع .

إن الفقيه المسلم الذي تربى عقله على العبودية لله وعلم بالبرهان اليقيني أن ربه منزّه عن الكذب والجهل والسهو والظلم فعقيدته أن شرع ربه صادق دائماً حكيم دائماً عدل دائماً .

لا بد أن تلتحم العقيدة في مسائل الشرع الجزئية بالعقيدة الأم في جملة الشرع ومنزل الشرع .

إن الإيمان بعدل وحكمة وصدق المسائل الفرعية التي يسميها علماء المسلمين بمسائل الفقه المتعلقة بأعمال المكلفين تحليل عملي تطبيقي للإيمان بالله .

ومن ادعى الإيمان بالله وشرعه وارتد عن الإيمان بمسألة من مسائل الشرع كمعقولة وعدالة القصاص لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله ، لأن تكذيب الله في بعض خبره يعني أن في خبر الله صدقاً وكذباً فلا بد من مقياس يعرف به الصدق من الكذب غير مجرد ثبوته عن الله .

أما المسلم فمقياس صدق الخبر عنده أن يكون آتياً من عند ربه .

والصادق من لم يكذب مرة واحدة ، والكاذب من كذب مرة واحدة .

والحكيم العليم من لم يجهل قط ، ومن جهل مرة واحدة احتمل منه الجهل أكثر من مرة .

وتفكير المسلم متسق مع هذه الحتمية الفكرية لا يمكن أن تضل عنه حقيقة العصمة في كل مسألة من مسائل الشرع .

الفقيه المسلم لا يفتقر إيمانه إلى إقامة البرهان من العقل أو الخبرة على عدالة ومعقولة القصاص أو إمكان أو تعين وجود الجن والملائكة والجنة والنار .

بل برهانه أن يثبت له أن ذلك الحكم أو الخبر آت من عند ربه فلما ثبت له أن القصاص من دين ربه نظر باستعلاء عقلي مطمئن إلى كل دعوى تعارض معقولة القصاص وهو على ثقة بكذب الدعوى المعارضة أو خطئها كما أنه على ثقة بأنه سيستخرج بعقله ميزة القصاص على كل بديل منه .

إن المسلم إن برهن على ميزة القصاص بعقله وخبرته وخبرة التاريخ فذلك تطوع منه وهو نافله ، لأن إيمانه بعصمة الشرع قد أراحه .

ولكن مهمته تزييف كل بديل يراد إحلاله مكان نظام الله وهو على ثقة برجحان النظر العقلي والخبرة الحسية بجانبه .

إن المحسنين يدفعون الشبهة بوسائلهم الثقافية ولا يحتاجون إلى هذه الوسائل في تأكيد إيمانهم ، بل مهمتهم تطبيق الشرع وبيانه للناس إمعاناً في العبودية لله واستكثاراً من الخير .

فاذا وجدت الشبهة صار تزييفها ضرورة شاغلة عن تطبيق الشرع وبيانه .

والمحسنون من علماء المسلمين منذ جيل الصحابة رضوان الله عليهم يحاولون إذا قدروا على قمع

الشبهة بفعل إرادي لا فكري غير عاجزين عن دفعها بنظر فكري لأن إيمانهم اليقيني بالله وبشرعه يقتضي منهم شغل أعمارهم بالعمل والامتنال فهم مشفقون على وقتهم من الجدل .

وهم لا يتصدون لدفع الشبهة — مع سيطرتهم عليها — إلا إذا وثقوا بجدوى النقاش كأن تكون الشبهة من غلط قاصد للحق غير معاند .

إن الحوار الفكري يقتضي جدلاً ، وهم في غنى عن الجدل بإيمانهم اليقيني ، فالجدل في حياتهم العلمية لغيره لا لذاته حسب الضرورة .

والبرهان على أن العمل هو هدفهم وأن الجدل ضرورة طارئة أن العباد والزهاد والملتزمين عملياً هم الذين لم تلجئهم الضرورة إلى مزيد من الجدل كجيل الصحابة وأئمة المحدثين ، أو ألجأتهم ضرورة العصر إلى الحوار الفكري ولم يتخذوه قصداً كابن تيمية .

أما من اتخذوا الجدل وتشقيق الفكر حرفة وشهوة من أمثال المتكلمين ومن يسمون فلاسفة الإسلام فهم أقل من رجال السلف عملاً وعبادة ، بل ربما كان أكثرهم غير ملتزم لدينه عملياً ، لأن ولعه بشهوة الجدل جعل إيمانه إيمانا عقلياً خاوياً لا إيماناً قلبياً رزيناً .

بل ربما كان إيمان بعضهم كإيمان أبي العلاء :

إن صح قولكم فلاست بنادم

أوصح قولي فالخسار عليكم !!

هذه الحقيقة التاريخية عن إيمان الحسنيين من المسلمين هي محض الامتنال لقول الله جل جلاله :
(والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) [سورة الشورى / ١٦] .

نزلت هذه الآية الكريمة في اليهود وقد أرادوا صد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ، أو في كفار العرب وقد أرادوا إعادة المسلمين إلى الجاهلية .

وقد سمى الله شبهتهم حجة جرياً على أسلوب العرب باعتبار أن قائلها يعتبرونها حجة اعتقاداً أو ادعاء .

وعلمنا أنها شبهة لأنها داحضة .

والاستجابة لله تعني الإيمان بالله وبكل ماله من صفات الكمال والإيمان بشرعه ورسوله .

ومن استجاب لله فلن تصده أي شبهة ، بل شبهة المضلل داحضة عند الله بلا ريب ، وهي داحضة في عقل المسلم وفكره .

وهؤلاء الصحابة آمنوا بالبرهان اليقيني الضروري القاطع ، وقد قلت لكم إن ما ثبت ببرهان لا يسقط ببرهان .

إذن فكل شبهة لا مجال لها في عقل المسلم ووجدانه فهي داحضة .
لا يستطيع موسوس أن يشكك المسلم في عدالة الرجم ومعقوليته لأن هذا الحكم حكم من فُرع
من الإيمان بصدقه وعدله وحكمته .

ولقد فقه شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المعنى النفيس فقال رحمه الله :
(من آمن بالله ورسوله إيماناً تاماً ، وعلم مراد الرسول قطعاً تيقن ثبوت ما أخبر به ، وعلم أن ما
عارض ذلك من الحجج فهي حجج داحضة كما قال تعالى)(٢٠) اهـ .

إن في الآية الكرمة مفهومين :
المفهوم الأول : منصوص عليه وهو أن حجة الكافرين داحضة في تدبير الله الكوني فبعد استجابة
العصبة المؤمنة لدين الله فلا أثر لحجة الكفار بل أظهر دينه وهم كارهون .
فهذا المفهوم خبر من الله .

المفهوم الثاني : مفهوم مستنبط وهو أن من آمن بالله يجب أن تكون كل شبهة عنده داحضة ، لأن
العصبة المؤمنة لما استجابت لله لم تخرج بشبه الكفار فكانت حجتهم داحضة في
تدبير الله الكوني .

وهذا المعنى هو ما استنبطه شيخ الإسلام ابن تيمية وشرحه لكم في هذا الحديث .

العلم بالوجود والعلم بالكيفية

من الغباء المحض الذي يقع فيه الملحدون غفلة أو تغافلا فرض التلازم بين العلم بوجود الشيء وبين العلم بكيفيته .

وفطرة العقل والخبرة الحسية العلمية ترفض هذا التلازم، وتقرب بأن العلم بكيفية الشيء علم بوجوده وكيفيته، وأن الجهل بالكيفية لا يقتضي الجهل بالوجود، بل قد يحصل العلم بوجود الشيء ويقصر عن العلم بكيفيته .

وما غيبت عنا كيفيته وعلمنا وجوده قد نعرف كيفيته بالوصف وقد لا نعرفها مطلقا فيكون علمنا إيماننا بالواقع المغيب .

وقد نعلم الكيفية بالحس فنكون مؤمنين بالواقع المشهود .

والعلم بالكيفية ليس هو المميز للحقيقة من الخرافة، لأن الحقيقة قد تكون في قبضة الحس البشري المحدود وقد تكون مغيبة عنه .

وإنما الإيمان بالخرافة ينحصر في الإيمان بما علم امتناع وجوده، وإنما كان خرافة لأنه إلغاء للعلم وتعطيل للعقل .

وإنكار الحقيقة جهل ليس بأقل خطرا من الإيمان بالخرافة، ويكون إنكار الحقيقة بإحالة ما علم وجوده وقطع أحد الاحتمالين عما علم إمكانه .

فصاحب الخرافة مدع لما ليس في الواقع، والملحد منكر لما هو في الواقع وكلاهما جهل وعناد .

يكون صاحب الخرافة جاهلا إذا لم يعلم بالمانع، و يكون معاندا إذا تشبث بما يعلم امتناعه .

و يكون الملحد جاهلا إذا لم يعلم بوجود ما أنكره أو إمكانه و يكون معاندا إذا عطل العلم وأسقط مقتضاه .

وما علمنا وجوده بالبرهان ولم نعاين كيفيته قد نعلم صفاته بمفهوم لغوي ولا نعلم كيفية الصفة لأنه لا يوجد في حسنا البشري كيفية مماثلة .

فيكون العلم حيثئذ علما بالوجود وعلمنا بوجود صفات الموجود دون علم بكيفيتها .

وإنما قلت العلم بالوجود وصفات الموجود لا يلزم منه العلم بالكيفية وصفاً أو معاينة لثلاثة أسباب :

أولها : من واقع تحليلنا لمعرفة البشرية فثمة أشياء عرفنا وجودها قبل أن نعرف كيفيتها، وثمة أشياء يقر العلم الحديث بمعرفة وجودها ولا يزال مجهول كيفيتها .
وثانيها : أن ما يعلمه الإنسان بحسه بين مد وجزر خلال مرحلة العمر منذ رحمة المهد إلى وحشة اللحد .

فهو يعلم في سن اليافع ما لا يعلمه في سن الطفولة و يعلم بالتعلم ما لا يعلمه في عهد الأمية و يعلم كثيراً ويموت وهو لا يعلم أشياء أكثر . وإذن فالوجود ليس محصوراً في الحس البشري ، وإنما في وسع الحس البشري بعض الموجودات .
وثالثها : أن الحس فيما شاهده علم بأن الموجودات مختلفة وربما عز الأنموذج لأحد الموجودات المحسوسة بأنموذج محسوس أيضاً .
وإذا فما غيبت كيفيته عن الحس البشري ليس من الشرط أن يكون له في الموجود المحسوس ما يقارب صفته ، ولهذا سهل على المؤمن أن يتصور في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر .

الفرا الكرم

لست أحب المكابرة لا عابثا ولا جادا .
ولكنني أشهد مخلصا أن طغيان الذكاء في هذا العصر الحديث لعثم السجية العربية ، وأوبا
رياض القلوب ، وأفسد إحاض المجالس .
وقد مربى حين من الدهر كنت فيه أتدروش وأتساذج وأتغابي لأ روض قلوب الأجرة بخصلة
عربية شهمة كرمة تمجد الفرا الكريم ، ولا تستحمد الذكي الثعلبي في كل المواقف .
فإن وجدت متغابيا فرشت له خريطة العقل بيضاء نقية كما عهدتها (جون لوك) !!
وظننت أنني رضت عقولا لا يستهان بها ، ولكم تخرجت في نفسي وتمتت بعبارة : اللهم أحسن
طويتي ، اللهم لا تجعلني من الماكرين ، اللهم لا تفضح دروشي الظاهرية بثعلبية خبيثة !!
فلما جهرتني أنوار الذكاء البشري الصارخة أيقنت بأنني درو يش على حقيقتي .
وعلمت أن (العاقل) الذي يحكم في شؤون القرية ، و يقتاد — بالبناء للمجهول — مع لجان
الخبرة ليس هو الذكي .
وعلمت أن الأصلع مفطوح الجمجمة القابع بين الطروس ليس هو الذكي .
وعلمت أن الأمر الناهي على كراسي الإدارة ليس هو الذكي .
وعلمت أن من يأتيه رزقه رغدا ويحف به رجال السباط ليس هو الذكي .
وإنما وجدت الذكاء الجهنمي المتوقد عند ذوي عيون شهب وسواعد عارية من صعلوك وسوقي
وفداد وشريطي وزبال .
لديهم ذكاء ليس عند جهاينة النظر وعباقره العلم ومعنكي الإدارة .
وقد عوضهم الله بالذكاء عما هم فيه من كد العيش وشح القوت وعثور الحظ .
أليس الذكاء ها هنا نعمة لا نعمة ؟!
هذه واحدة فاحفظها .
وقد كانت مجالس القوم — قبل طغيان الذكاء — تحفل بالمتعة البريئة المريحة للأعصاب بكل

نادرة سطحية نحسبها من أعماق النكتة والفكاهة، فلما تسلط الذكاء على حياتنا الاجتماعية أصبح كل شيء سطحيًا، وعزل على النديم أن يشبع ذلك الذكاء بفكاهة ترضيه، لأن السر المثير في الطرفة والنادرة والتمعية أصبح مفصوحًا بمجاهر الذكاء التي أحرقت كل بواغث المتعة.

فهذه ثانية !!

وكان الأديب والنديم يتخيل نماذج تقريبية للواقع المحسوس ليغذيها بعناصر خيالية مثيرة مطربة.

وكان من يدل بهذه الملكة يدل بالإعجاز.

ولكن ذكاء الممثل والقاص والروائي والمخرج والمُشاهد—في هذا العصر عصر طفغان الذكاء— قتل ذلك الإدلال كله، واستهلك كل عنصر أنموذجي متخيل، وأصبح كل أنموذج إيحائي نادر من حياتنا العادية فاقدًا لعنصر الإثارة، وإن كان في السابق مما لا يحلم به.

ولقد دلل عبقرى الدنيا أبو محمد ابن حزم على أن (الشيء إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده) بظاهرة الثلج والجليد إذا لبث في كف القابض عمل عمل الجمر.

وأتوقع يوما يطلب فيه المشاهد من القاص والروائي والممثل والمُرحي أن يريه الواقع كما هو دون أي عنصر خيالي أو أنموذج حالم.

فهذه ثالثة.

ورأيت عقرب السجبة العربية يدور على معانٍ ضمنتها معجمات اللغة لمادة (غر) بالغين المنقوطة والراء المهملة المضغفة.

فكنوا بأبي الأغر، وسموا غريرا، ومدحوا المؤمن بأنه غر كريم.

قال الله سبحانه وتعالى عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم:

(وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا، فلما نبأت به وأظهره الله عليه: عرف بعضه وأعرض

عن بعض) [سورة التحريم/ ٣].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتقص عتابه لزوجته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، بل عاتبها في بعض ما أذاعته من سره، وأغضى إغضاء العارف عن بقية الذنب.

والذي نفس أبي عبد الرحمن بيده إن هذه لصفة الغر الكريم، ولهذا قال بعض العارفين:

(ما تقصى—بتشديد الصاد—كريم قط).

ثم استدلل بقوله تعالى: (عرف بعضه وأعرض عن بعض).

بيد أن سماجة الذكاء المعاصر قطعت هذا الجانب من كرم النفس وأرجمية العرب، فصارت شيمة المعاصر أن يتقصى التوافه ليدل بذكائه.

وما فعلوه (ذكاء) فحسب .

وما فعله الأسلاف ذكاء وزكاء معا—بالذال المنقوطة في الأولى ، والزاء المنقوطة في الثانية—.

هذه رابعة ، وهي القاصمة .

فإن كان المعاصر منح ذكاء لا يستطيع التخلص من حدته—وهي ظاهرة مشهودة في أطفال اليوم— فلا بد من حرية إرادية في التغابي والتغافل لا عن ثعلبية ومخاتلة ، ولكن بالتطبع بسجية الغر الكريم .

والإصرار على الإدلال بالذكاء يولد العناد والشح .

وإن القلوب لا تستلان ، وإن الأريحية لا تستدر :

أ — إلا بذكاء متغاب .

ب — وتزكية للذكي المتغابي !

وما ينوكم مثل خير ، والله المستعان .

مدلول أفعل

صفة (أفعل) على بابها في الأكثر.

قال أبو عبد الرحمن: وقد ترد ولا يراد بها إلا الوصف دون المفاضلة، والنحاة مولعون بترديد قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمه أعز وأطول

وقبله الشنفرى قال:

وإن مدت الأيدي إلي الزاد لم أكن
بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

قالوا: المراد عزيزة وطويلة وعجل.

قال أبو عبد الرحمن: ولم نجد عند النحاة ضابطاً لما هو على غير بابها، وإنما قال المبرد:
ينقاس هذا الباب.

أي يقاس على الشواهد التي لم ترد فيها (أفعل) على بابها.

قال أبو عبد الرحمن ابن عمر: الأصل في (أفعل) أن تأتي للفضل، وهذا من دلالة الصيغ.
وترد للوصف كأحول وأبخر وأعرج وأكتع وأحمر.

والضابط بين الوصفية والتفاضل هو مراد المتكلم، لأن معاني اللغة — مفردة، وصيغة،
ورابطة — عامة وسيعة إلا أن مراد المتكلم هو الذي يختص عموم الاستعمال.

ومراد المتكلم يعرف بدلالة السياق والقرائن ومعهود حاله.

فإن صح — مثلاً — أنه ليس في مراد المتكلم (مفضول) ميز عنه (بأفعل) فأفعل للوصف لا
للفضل.

قال أبو عبد الرحمن: وعلى هذه القاعدة النفيسة نحاسب النحاة في شواهدهم فنقول:

يا هؤلاء من قال لكم إن الفرزدق أراد الوصف دون المفاضلة؟
لعمر الله لقد أفسدتم بلاغة الشعر، فلو أراد الفرزدق مجرد الوصف لما شفى مراده من خصمه
جرير البربوعي .

إنما أراد المفاضلة بيقين ، والبرهان على ذلك قوله فيما بعد :

لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم
أبدا إذا عد الفعال الأفضل

وإنما ضلل هؤلاء النحاة المساكين أنهم توهموا سريان التفضيل إلى (بناء السماء) !!

فإن كان هذا وسواسهم فقد أبعدوا النجعة .

فحق على النحوي أن يكون أديبا (فنانا بطبعه) قبل أن يكون نحويا .

ثم نأتى إلى بيت الشنفرى فلا نجد لأولئك حجة في صرفهم (أفعل) عن بابها إلا أنهم قالوا :

لو أراد الشنفرى المفاضلة لكان سريعا إلى الأكل ، لأنه نفى الفضل ولم ينف الأصل .

قال أبو عبد الرحمن : لا دردر — در الأولى فعل ، والثانية اسم — النحاة لقد أفسدوا كلام العرب
ظاهرا وباطنا .

أما الظاهر فهو الضمير المتصل بأعجل ، وهذا الضمير يعود إلى المفضولين ، وهم من يدون
أيديهم .

فكيف نلغي مدلول الصيغة في الأصل ، ونلغي القرينة الدالة على الأصل بمجرد الدعوى .

وأما الباطن فهو أن الشنفرى لا يفخر بأنه لا يأكل ، فليس هو من خلق الله الذين جعل زادهم
تسبيحا ، وليس هو من الضباب التي تستعيض بالهواء إذا أخرجها الدهر وحر الصيف من
أجحارها .

وإنما أراد أنه آخر من يأكل ، وهذا يعني نفي الفضل وبقاء الأصل .

وتبع الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد — رحمه الله — أولئك النحاة في وهمهم وزاد دعوى ثانية
إذ جعل (أعجل) آخر البيت ليست على بابها أيضا .

فقال : (أعجل) : هو صفة مشبهة بمعنى عجل ، وليس أفعل تفضيل ، لأن المعنى يأباه ، إذ ليس
مراده أن الأشد عجلة هو الجشع ولكن غرضه أن يقول :

إن من يحدث منه مجرد العجلة إلى الطعام هو الجشع فافهم ذلك) . ١ هـ .

قال أبو عبد الرحمن : نعم فهمناه ، ولكن هذا المفهوم خطأ ، ومربط الفرس عند قوله : (ولكن
غرضه !!) .

لأن هذا هو محل الدعوى العارية من البرهان.
قال أبو عبد الرحمن: لا شيء يوصف بالأعجل إلا بالنسبة إلى شيء آخر، وهذا أمر استوفاه المنطقيون في باب الإضافة ومنهم إمامنا أبو محمد ابن حزم في كتابه التقریب.
قال أبو عبد الرحمن: ولا معنى للأعجل إلا بنسبتين:

إحدهما: مألوف العادة: أي أعجل هو وحده إلى طعامه بخلاف مألوف عادته هو أو بخلاف مألوف عادة غيره ممن يغالب جوعه.
فهذا تفضيل حقيقة ولكنه يسمى وصفا في النحو.
والشغرى لم يرد هذا المعنى، لأنه صرح بالفضل.
وأخرهما: من يشاركه صفة الإعجال، وهذا هو التفضيل حقيقة في علم النحو، وهذا ما أراده الشغرى بيقين لأنه ذكر المشاركين إظهارا وهم مادو أيديهم إلى الزاد، ثم ذكرهم إضمارا ووصل ذلك بصيغة أفضل فأنجل الإشكال بحمد الله، والحق أبلغ والباطل الجليج.

وقول الشيخ عبد الحميد—رحمه الله—: (إن من يحدث منه مجرد العجلة فهو الجشع) اهـ: تفسير لا تفرقه اللغة، لأنه لا يوصف بالعجلة إلا من كان وحده بفعله.
أما من شارك غيره في الفعل فلا بد أن يوصف بالأعجل أو المساوي أو الأبطأ ولا يوجد احتمال رابع.

وأیضا فلا یوصف بالجشع في لغة العرب إلا بشرطين:
أولهما: أن يأخذ نصيبه.
وثانيهما: أن يأخذ نصيب غيره.
ولهذا عبر اللغويون عن الجشع بأشد الحرص.
فصح بهذا أن أعجل في بيت الشغرى على بابها.
ولم يكتف النحاة بالتخبط في كلام العرب بل تخطوا في كلام الله فأوردوا قول الله تعالى:
(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) [سورة الروم / ٢٧].
قالوا (أهون) ليست على بابها، وإنما المعنى هين.

وأول من قال ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله صديق أبي نواس، وكان أبونواس يأخذ أبا عبيدة يقوده إلى المسجد لما كبر وعمي، وهو الذي رقى على أكتاف أبي عبيدة وعى لوحة على باب المسجد فيها.

(صلى الإلاه... إلخ).

إلا أنه لم يح الطاء وهي الطامة .

قال أبو عبد الرحمن: لقد زادني حبا لأبي نواس أنه يذهب إلى المسجد و يقود غيره جزاء الله خيرا .

وأوردوا قوله تعالى: (ربكم أعلم بكم) [سورة الإسراء / ٥٤] .

وقالوا: المعنى عالم بكم، و ياليتهم قالوا: عليما بكم .

قال أبو عبد الرحمن: تالله ما فهموا كلام الله على وجهه .

والصواب أن (أهون) على بابها وهو التفضيل وهو أن المعاد أهون من الخلق، ذلك أن ظاهر صيغة أفعل بمعنى أفضل، ثم تأكد هذا الأصل بذكر الطرفين وهما الخلق والإعادة، وإذن فلا يجوز صرف كلام الله عن ظاهره بالدعوى، بل لابد من برهان ولا برهان لهم .

وليس من اللازم أن يكون الخلق صعب على الله — جل وعلا من وساوس الظنون — إذا كانت الإعادة أهون وذلك لثلاثة براهين ضرورية:

أولها: أنه قام البرهان من الشرع والعقل على أن الله لا يعجزه شيء، وأنه يقول للشيء كن فيكون .

فانتفت بهذا دعوى (الصعب) في حق الله جل جلاله .

وثانيها: أن إثبات الأفضل لا يعني نفي المفضول بل يعني إثبات المفضول وزيادة . وإذن فأهون لا تنفي هين .

وثالثها: أن العرب في لغتهم يتزلون الكلام على معهود مراد المتكلم، وعلى معهود فهم المخاطب .

والمخاطبون — وهم البشر المخلوقون — يرون بتفكيرهم أن الإعادة أهون من الخلق فخاطبهم الله على معهود تفكيرهم بأن الإعادة أهون عليه، وكل عليه هين جل جلاله .

فإن قال متكلف: كلام الله يجب أن يفسر بكلامه، والله جل جلاله لما بين أن ولادة العاقر أسهل من بدء الخلق: ورد نص كلامه تعالى بكلمة هين .

قال تعالى حاكيا عن زكريا عليه السلام:

(قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو عليّ هين * وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) [سورة مريم / ٨ — ٩] .

قال أبو عبد الرحمن: في هذا وهم من وجهين:

أولهما: أن ورود (الأهون) إثبات للهين لأن الأهون أكثر معنى .

وبعكس ذلك ورود (المين) لا يقتضي معنى (الأهون)، بل المين أقل معنى من الأهون.

إذن يشمل — بالبناء للمجهول — معنى (المين) بالأهون، ولا يحمل الأهون على المين. وثانيهما: أن كلام الله يفسر بكلام الله قاعدة صحيحة ولكنها ليست على إطلاقها، وإنما ذلك حينما تتوارد النصوص على مفهوم واحد، والمفهوم ها هنا مختلف. ووجه ذلك الاختلاف أن الإعادة أسهل من الخلق فوردت حينئذ صيغة (أفعل).

أما إنجاب العاقر فهو خلق ابتداء، وإذن فمعنى (خلقتك من قبل) مساوية لإنجاب العاقر فوردت صيغة هين.

فإن قيل كيف تكون (أصغر) صيغة تفضيل والفضل للأكبر؟

قلت: قول القائل: أنا أصغر من فلان — يساوي: فلان أكبر مني.

وهذا شبيه بما يسمى في المنطق بالمتلازمات.

فإذا فضلني إنسان بمعنى فقد فضله بضده.

ولهذا عبروا عن (أفعل) بأنه وصف دال على زيادة صاحبه في أصل الفعل.

والزيادة هنا معنوية وهو هدف المتكلم إلى دعوى الصغر، فهذه الدعوى فعل مجازا.

من أخبار غندر

هو الحافظ الجليل محمد بن جعفر الهذلي ولاء شيخ الإمام أحمد بن حنبل .

كان رحمه الله كثير الشغب على ابن جريح فسماه غندرا .

وأهل الحجاز يسمون صاحب الشغب غندرا .

قال ابن معين رحمه الله : اشترى غندر سمكا وقال لأهله : أصلحوه ونام .

فأكلوا السمك ولطخوا يده فلما انتبه قال :

هاتوا السمك ؟!

فقالوا : قد أكلت !!

قال : لا .

قالوا : شم يدك ؟!

ففعل ، فقال :

صدقتم ولكني ما شبع !!

قال أبو عبد الرحمن : هذه من غفلات الكرام الذين طبعهم الله على سلامة القلوب .

وقريب من هذه الغفلة ما حدث به أبو عمار عبد العزيز الرفاعي وكنت أسمع أن ضياء الدين رجب — رحمه الله — استقدم ضيفا صديقا إلى منزله ليتناول معه الغداء كالعادة ظهرا ، فأنزله في مجلس الرجال وصعد إلى أعلى المنزل فغير ملابسه وتناول الغداء مع أهله ناسيا أن معه ضيفا ، ثم صلى العصر ونام نوما هنيئا إلى المغرب فتناول ملابسه ونزل ليخرج فوجد ضيفه قد شبع نوما ولم يشبع زادا .

انتهى حديث الرفاعي فلنعد إلى ابن معين .

قال ابن معين : قدمنا على غندر فقال :

لا أحدنكم حتى تمشوا خلفي فيراكم أهل السوق فيكرموني !!

فألون المؤرخ الحديث

استقرت المواضع الآن على تقسيم سكان المعمورة من بني آدم إلى ثلاث طبقات على هذا النحو.

الطبقة المتخلفة.

الطبقة النامية.

الطبقة المتقدمة.

وكل معدي أو يعربي مصنف في العالم الأوسط (الطبقة النامية).

وهذا التقسيم عندي — والعلم عند الله ثم عند رجال التاريخ الحديث —:

أن هذا التقسيم (جزء موضوعي).

أي ليس ذاتيا، ولا موضوعيا كاملا.

أما أنه ليس ذاتيا فلأنه لا ينبغي على استقراء المواهب العوالم الثلاثة، ولأنه ليس توظيفا لخبراتهم ومهاراتهم وعبقريتهم واستعدادهم.

ولو باهلني مباحل لضمنت أن أنخصمه بفطر سليمة مستقيمة ومواهب حادة ناضجة ومهارات رشيقة ظريفة تخسأ أمامها حيلة لاعب السيرك!!

هذه المواهب والمهارات لم تتسلق وسيلة إعلامية تشهرها، ولم يتح لها مناخها المستعمر المغلوب ممارسة أي حرفة أو مهارة يعرف بها مكان أمتها بين العوالم الثلاثة:

وهذه المواهب والمهارات توجد في العالم المتخلف بقلّة، وتوجد في العالم النامي بقدر لا آمن تفوقه على القدر الموجود بالعالم المتقدم.

ولكن حيل ووسائل التربيّات التعليمية في العالم النامي عجزت — أو تعمدت أن تعجز — عن إتاحة المناخ لكل موهبة لتعمل في مجالها، وكان قصارى جهد تلك الوسائل التربوية أن تخرج في العام ما يتيف على ٩٥% من المؤهلات العلمية في مختلف العلوم النظرية لتحشد للإدارة والإعلام وتعليم صغار الطلبة مبادئ القراءة فمن بز أقرانه بمزيد من ذكائه أو تحصيله في فنه قيل له:

الأديب الموهوب المبدع، أو الناقد القدير، أو الكاتب الجدير، أو الصحفي اللامع.

بظ بظ يا مواهب العالم النامي!!!

أما ذوو الطموح من العاجزين في مواهبهم وخبراتهم — وهم أخلاء الظرف والظرفاء منتصف الليل — فيشأءون منتصف كل نهار بأحلام الصحة والرخاوة، و يكون تآؤبهم جشاً يؤذي و يعطل المسيرة، وفي جاجهم الفارغة وخيالاً تهم الطافحة أن أحدهم لوبويع بالأمر، أو انتخب له لغير مجرى التاريخ!!

أما وقد عجم الله قصوره فمنتهى طموحه أن يتمطق بجملته مختلة القيمة من كيد كل طانفي وشعوبي وعلماني تسمى أدبا حديثا، أو ثالوث الحدانة!!

و كأن أرحام ذوي هذه الرقعة أجهضت عن ولادة سوية سليمة تصطفي من الفكر العالمي ومذخور ثقافته المعقولة ما تصطفي به أدبها وفنها، بحيث تختال ريادةتها برؤية تضاف إلى البصير، ورؤيا لا يحلم بها فارغ .

وطالما رأيت هؤلاء الفارغين المتظرفين إذ عجزوا عن المجال الذي لا يحسنون غيره لوتدربوا عليه تدرب التلاميذ الأوفياء : يفحون بكل تشبيط وإرجاف، و يعصبون الجنائية في تخلف أمتهم برأس كل شيخ معمم كرم الغرة، برز في واجبه الذي يقدر عليه، وسبر أدغال النقص والتخلف في أمته بمجهر لا يملكه أولئك الثبطون ولا يقوون عليه .

إذن تصنيف العالم إلى ثلاث طبقات ليس تصنيفا ذاتيا .

وبالله العظيم إنه ليوجد في المتغنين بعث بشار وأبي نواس وتعالم أدونيس والخال من هو أعظم عبقرية وموهبة من أي ثعلب من ثعالب السياسة في العالم المتقدم .

و يوجد في العازفين على الربابة في صحراء الجزيرة وبين النافخين في اليراع بالريف والصعيد من هو أمهر من أحذق رجال الحرفة والمهارة في معامل العالم المتقدم ومختبراته .

إن آفة العالمين المتخلف والنامي ليست في مواهب أفرادها، ولكنها في ظروف قياداته وعجز وسائله المادية، وغلبة الظروف المعاكسة، وحتمية المصادفات التاريخية المنغصة لمشاعر الجماهير التي ترى الرأي ولا تملكه .

وتقسيم العالم إلى طبقات ثلاث تقسيم جزء موضوعي وليس موضوعيا كاملا، لأن جهة القسمة لمتخلف ونام ومتقدم إنما هي في الحرفة والمهارة المادية التي نتج عنها قوة السلاح فأرعبت الشعوب، وخلفت الضغوط التي فرضها العالم الأعظم — والعظمة لله — فكانت تدير حياة القيادات التي تحكم شعوب العالمين .

وخلفت الوثنية والملع في القلوب الفارغة التي بهرتها هذه القوة وكادت تنسى صلتها بخالق الكون، بل كادت تنسى أن قوة الأرض كلها وما عليها لا تعدل قوة ملك من ملائكة الله بكل الله إليه فعل ما يشاء، أو قوة نفس من الريح أو طفرة من البحر، أو شظية من كوكب آخر... أوأو...

من مظاهر القوة التي خلقها الله لو أذن بها لتعذيب أو تهذيب عباده .

وقد أجمع العالم المتقدم على أن كرتهم الأرضية وشتى وسائلهم ذرة تائهة في هذا الكون فصدقوا ربهم — على رغمهم ومن حيث لا يقصدون — بأنهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

وخلفت تلك الحرفة والمهارة أكبر قدر من المتعة واللهو والتسلية بحيث تلبى جوع الجسد في فترات محددة من نشاط وقوة العمر المحدود ولم تبق لأشواق الروح شيئا ، لاسيما أن القوم ليسوا على علم ولا ظن محتمل أو مقبول : بأن حياة الفرد هي فترة ما بين المهد واللحد فحسب وأن هذه الفترة هي الحياة الوحيدة .

وخلفت تلك المهارة والحرفة تعدد وسائل الحياة اليومية وشدة غنائها في اختصار الوقت والجهد .

إن العالم الأقوى أو الأعظم أو المتقدم هو العالم الذي مهر في صنع الآلة للقوة والمتعة .

ولكن ذلك العالم المتقدم — الذي درب أفرادها على مهارة وحرفة كان ابتكارها عناصر معقدة في تراث ونظريات الشعوب المغلوبة — ليس هو الأقوى ولا الأعظم ولا المتقدم في مواهبه ، وليس هو الأقدر على الحرفة والمهارة ، لأن في الشعوب المغلوبة مهارات وعبقريات وكفاءات ومهارات لو كسر عنها الحجر واستصلح ظرفها التاريخي والقيادي لفعلت الأفاعيل .

بل إن الفتى الأوربي اللماح يحتاج إلى معاناة عشرات من السنين ليسترجل ، وعاءه أن يقوى !!

وليس هو العالم المتقدم في النظام والإدارة والتفلسف وصواب الحكم ، بل في مذخور الشعوب المغلوبة وفي تجربتها ونظرها وفكرها كل المظاهر الحضارية التي يحتاج إليها في تصحيح تخلف العالم الأقوى .

وليس هو العالم الأقوى في الخصائص الخلقية — بصم الخاء — والخلقية (بفتح الخاء) . بل إن خصيصة العربي في هذا المجال هي الأنموذج البشري .

ومن هذه المنطلقات فتقسيم العالم إلى فئتين (غالب ، ومغلوب) أصبح في نظر العقل وشاهد الحس من التقسيم إلى متقدم ونام ومتخلف .

والأدهى أن في جماهير العالم الأقوى من مظاهر التخلف الاجتماعي ما يعز نظيره في مجتمعات الشعوب المغلوبة .

فكم في مواخير العالم الأقوى من زرافات الهيبة وعصابات اللصوصية والجرائم والوحشية .

وكم في معابد القوى — يهوديها ونصرانيها — من مظاهر الفضول والدروشة والتعاويز والغباء .

وظاهرة الانتحار واللق والتوتر تدل على قلة العنصر الصالح ، والحيف على الفطرة .

فعلى ظرفاء منتصف الليل أن يقصروا من فضولهم وإرجافهم ، ويعلموا علم اليقين أن

مجتمعاتهم بخير في مواهبها ومهارتها وأخلاقها ونظرها .
وليعلموا ثانية أن فقدان العمل والمختبر وعمال المناجم والمدخن ظاهرة عجز بسبب الضغوط
التاريخية والقيادية — المعدورة تارة والمأجورة تارة — وليست ظاهرة تخلف لا في الموهبة ولا في
الاستعداد ولا في العقيدة ولا في الدين .
والكريم الذي تقصّ ظروفه لا يوصف — في أي لغة — بأنه متخلف ، وإنما يوصف بأنه عزيز قوم
ذل .

وليعلموا ثالثة أن ما ينقص الشعوب النامية إنما هو إرادة وقدرة وابتهاال إلى الخالق ثم إهابة
بالمخلوق ليضم صوته .

وما أبعد دعوى التخلف والرجعية عن أمة تهتدي بهدي خالق الحقيقة والموهبة والمهارة .
وحقيق بمن وضع الأمور مواضعها وفهمها هذا الفهم — إذ حرم من المهارة والحرفة التي تنتج
الرشاش والمركبة الفضائية — ألا ينهزم في المجال الآخر الذي تعمل فيه موهبته فيستأسر استئثار
العبد الذليل .

فالبلد الذي يصنع لنا السيارة بمهارته ليس من الضروري أن يصنع لنا أفكارنا في لغتنا وشريعتنا
وإدارتنا .. الخ .

لأن موهبتنا تقدر على ما لا يقدر عليه في هذا المجال ، وإن وثقنا بقدرته فلا نثق بأمانته ، فلنأخذ
بالميزة ولا نلتزم بالمجمل !

فيا أبناء جلدتي — لاسيما ظرفاء منتصف الليل الذي يسموني درويشا — :
ارحموا شيبتي قليلا ، ودعوني أفرح بكم بقية هذا العمر لكي نرى معا ما عندنا وما ند (بتشديد
الدال) عنا بمجهر رباني — أي منحة ربانية — من مواهبنا واستعدادنا فبئس والله الثوب المستعار
المجهر التخيلي الذي يصنعه لنا كل ماسوني وعلماني وشعوبي وصليبي وطائفي .

والتحلي بهذا المجهر هو الرياء العلمي ، وقد قال شاعر سلفكم :

ثوب الرياء يشف عما تحته

فإذا التحفت به فإنك عاري

ولا تنقصوا عليّ نعمة ما أخذقه وتدلّسوا بالحدّاث والمعاصرة والعالمية .

فأنا والله أعرفكم معرفة الخير ، فأغلبكم لم يرحل إلى العالم الأقوى ألبنة ، ولم يتقن لغة أجنبية
يعرف بها ما فاتني ، ولم يقرأ من المغرب — بتشديد الراء — ما فاتني مما هو في دائرة اهتمامي .

وجمع الكتب عندكم ظاهرة دروشة ، تريدون علما دون مكابدة لأعباء الكتب و يأبى الله ما
ظننتم .

ومن رحل منكم عاد بلغة خطابية يسامر بها مضيف الطائرة ومأمور الصيدلية .
وربما عاد منفوخا كالديك الرومي بأطروحة عن عبدالسلام بن رغبان ، أو ابن حجة الحموي
وثبت مصادره لا يزيد عن مصادر صفار الطلبة ممن لم يرحل عن بلده .

ووالله ما عرفت قمة من قمم التراث العالمي من خلالكم .

فإن كان ما يعينني عندكم أن لساني يتلعم بنطق : لا ينتز . . أو لينز . . أو لينس : فتلك
ظاهرة تدروش أحدها ما ظللت على يقين بأنني أفهم فلسفة (الموناد) وإن لم أحسن النطق باسم
المصطلح واسم صاحبه .

فالتلعم بالنطق بالاسم الأعجمي قصور في شكل الوسيلة .

والذلاقة بلغة العرب رجولة واعتزاز أدفع بها الهزائم العلمية والروحية .

وكل من يتكئ على التدروش و يلوح به أقول له ما قال إمامي الأستاذ أبو محمد بن حزم رحمه
الله :

دعهم يعضوا على صم الحصى كمدا
من مات من قوله عندي له كف من
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي
ويا سروري به لو أنهم فطنوا

وأقول :

والأفعــــودوا للمكاتب بــــدأة
فكم دون ما تبغسون لله من ستر

الموسوعية وتصنيف العلوم

قبل تقسيم (ديوي) العشري وجدت محاولات رائدة لفهرسة المعارف بتسلسل منطقي، فكان كتاب (إحصاء العلوم) للفارابي من الدراسات الرائدة وأظن أن الإمام ابن حزم أشرف عليه وأفاد منه في كتابه (مراتب العلوم) وبعض مؤلفاته الأخرى، وقد رأيت تلميذ ابن حزم صاعد الطليطي يشيد بكتاب إحصاء العلوم، ولقد أشرفت الأعاجم على هذا الكتاب لأجل الترجمات اللاتينية والعبرية التي نقل بها هذا الكتاب.

وللأسف أن جامعاتنا ومكتباتنا في شرقنا العربي اعتمدت طريقة ديوي مع أن فيها من الخلل والغموض مالا يتيسر معه للباحث الإحاطة بمادة الكتب، وهذا ينافي أهداف الفهارس لأن الغرض من الفهرس شيان:

أولهما: سهولة تناول الكتاب المعروف عنوانه من خلال الكتب الكثيرة.
وثانيهما: الإحاطة بهوية مادة الكتاب لسهولة الإفادة منه مراجعة وتأليفا.

وإن تصنيف العلوم بحرية واستقلال جزء من مباحث شغلت بالي كرموز النشاخ ووسائل الضبط والشكل ونظام ترتيب الحروف عند المشاركة والمغاربة والمعجميين ودارسي الأصوات.. إلخ.

وقد نويت تحقيق هذه المباحث في (كناشتي)(٢١).

أما ما يتعلق بإحصاء العلوم وتصنيفها فحسبي منه ها هنا أنه يشف عن أمور:

أولها: أنني رأيت والدأي عزيزا عندي أثيرا عليّ أنكر مدلول كلمة (موسوعي) في قاموس طلبة العلم، ورأى أن من يحمل هذه الصفة إنما يتحلّى ببدايات أولية، وأن مدلول كلمة موسوعي لا يتحقق في أعمار أمة محمد وهي بين الستين والسبعين.

وما هذا الرأي — علم الله — بسديد عندي.

فكلمة (بدايات) إنما هي تحقيق واقع ساذج يعلو عنه مستوى الموسوعيين، بل إن صغار الطلبة

(٢١) الكناشة عند المغاربة ما يقيد فيه الفوائد والشوارد.

يحملون البدايات.

لولم يحملوها دراسة لحملوها على طول الزمن ممارسة.

بل هناك رتبة بين درجة هؤلاء ودرجة الموسوعيين، وهي الإحاطة بأصول كل فن تلقينا لا اجتهدا.

قال الشيخ الإمام أبو محمد ابن حزم:

من ظل يبني فروع علم

بدءا ولم يدر منه أصلا

فكلما ازداد فيه سعيًا

زاد لعمري بذاك جهلا

أما الموسوعي حقيقة فهو من يحيط بأصول عدد من العلوم ويجتهد في بعضها و يكون ذا استعداد للاجتهد في بقيتها، و يكون ملما بأمهات المسائل الفرعية من عدد من العلوم متعمقا في جزئيات بعضها مستعدا للاجتهد في كل ما يعتوره من معضل راهنا اجتهداه بزيادة وقت يراجع خلاله و يتخول بعض لحظات ذلك الوقت المبتسمة للتفكر. ثم يكون له بعد ذلك فن أو أكثر يتخصص فيه.

وليس معنى هذا أن يكون عليما بكل شيء فليس هذا في وسع المحدث المخلوق.

وإنما معنى ذلك أن يكون لدى الموسوعي من العلم الخاص والعام ما ليس عند الآلاف من الأحاد.

وأن مذكوره وخبرته يختصر جهد الثبات من الآحاد أيضا.

وليس في هذا مجافاة للواقع، فالتاريخ يشهد بنواذر من الأعلام تحققت فيها صفة الموسوعية من خلال أعمالها لا من خلال ترجماتها فحسب.

من هؤلاء الشافعي وابن جرير ونفطويه ومحمد بن داود ومنذربن سعيد وابن حزم وأبو حيان النحوي وابن تيمية وابن قيم الجوزية.

فهؤلاء علماء موسوعيون.

أما من يقتطفون من كل فن طرفا ولا يتعمقون في أصول الفن وأمهات مسائله و يعوضون عن ذلك بتأملهم الفطري فهؤلاء ليسوا علماء ولا موسوعيين، وإنما هم مثقفون أو أدباء كما في عرف الأسلاف.

ومن هؤلاء الجاحظ وأبو حيان التوحيدي والنويري إلى طه حسين والعقاد إلى معظم صحفيي هذا العصر.

وتصنيف العلوم البشرية يؤكد أن الموسوعية صفة حقيقية واقعية، لأن المعارف البشرية جميعها

(لا تستثن منها شيئا) تعتمد على ثلاثة أمور لا ثالث لها ألبتة :

تعتمد على موهبة الفكر .

وتعتمد على موهبة الحفظ ، أو الجلد على المراجعة والتقييد .

وتعتمد على مهارة اليد وجودة الحرفة وهذا خاص بالعلوم المادية .

فهل يشح عمر الفرد بفترة يتعلم فيها مهارة يتقنها كالتطبب أو التجارة .. إلخ .

وفترات يلم فيها بأصول المعارف النظرية وأمهات مسائلها ، ثم يوسع بموهبته الفكرية وجلده في المراجعة والتقييد لمفهوماته الجزئية من كل فن .

إن الموسوعي الذي أسس بدايته العلمية تأسيسا جيدا يتفرغ تأملا ومراجعة لتحقيق مسألة من عضل النحوفيدع فيها أعظم من إبداع أهل التخصص بسبب معاناته لعلوم أخرى .

ثم ينقل مثل هذا الظرف الزماني في مسألة نقدية أو فلسفية من قضايا الجمال أو الأخلاق .

ثم ينقل مثل هذا الظرف الزمني لتحقيق خلاف فقهي أو قانوني .

بل جربت أن تحقيق الموسوعيين أصعب وأمر من تحقيق المتخصصين في الأمور النظرية بالذات ، لأن من أنفق عمره مثلا في أصول الفقه دارسا ومدرسا كالضفدعة في البركة يحسب أن الحقيقة هي ما بين أسوارها الأربعة ، وكثيرا ما تحمل موهبة المتخصصين لإلفهم العادة والتكرار وتغلف عنصر الاشتياق وعشق العمل .

أما الموسوعي إذا تطرق إلى التخصص في مسألة جزئية فإنه يحمل نظرية شمولية ووسائل متعددة مع عنصر الاشتياق والعشق الذي دلف به إلى التخصص .

فعل ذلك الوالد العزيز — ويعلم الله أن مكانته في سويداء قلبي لطراوة أدبه وريادته ووطنيته — أن يكبح جراح قلمه عن مكابرة البديهييات فإنني أخشى على سفينته أن ترتطم بقوة المغناطيس فتتبدد ألواحها عائمة .

وأخشى أن يكون جحдан المواهب الوادعة الساعية لخير أمتها دليلا على الإفلاس والاجترار بالجشأ !!

وثاني الأمور الذي يكشف عنه تصنيف العلوم أن لكل أمة معارف رئيسية تعتبر ثانوية لدى الآخرين .

وهذه الظاهرة تلغي تصنيف ديوي بالنسبة لأبناء شرقنا العربي الإسلامي .

وثالث تلك الأمور أن معاناة كل فرد لتصنيف العلوم وترباطها يزكي معارفه وإحاطته ويخدم خبرته بالفن الذي يتخصص فيه .

وأبرز ذلك أنه يصنف كل فن وفق ضوابطه العامة فيختصر شتات المسائل الجزئية بإحاطته

بالمضوابط ، ويجهّد في ضوابط كل فن وفق خبرته بمضوابط الفنون الأخرى .
وفوق هذا كله فالعالم الجليل الذي تكتظ مكتبته بآلاف الأمهات والأجزاء لا يتقيد بنظام
مرسوم في فهرسة الكتب وإنما يفهرس كتابه بأي دلالة غير الكتابة وفق مزاجه ووفق الاهتمام الذي
يستبد به .

شاة الحلف

قالت مويضي البرازية :

اما احتميناها بحد السلايل

والا عطينا الشاة ذولا وذولاك

علق الشيخ ابن خيس بقوله :

وذبح الشاة هو أن القبيلة إذا ضعفت التجأت إلى قبيلة أقوى منها وذبحت معها شاة الحلف وأصبحت في جوارها (٢٢).

وأورد ابن رداش الشطر الأخير هكذا :

(ولا بد نعطي الشاة ذولا وذولاك)

وعلق بقوله : لا بد نذبح شاة الحلف مع عدونا دليل خضوعنا وعجزنا .

وقصة شاة الحلف أن الفئة الضعيفة من العشائر تلجأ إلى فئة أقوى منها وتعمل وليمة يسمونها شاة الحلف و يقصد من ذلك مجرد المشاركة في الأكل ، وتحصل الحماية من القوي لمن هو أضعف منه بسبب ذلك حتى يتخلى الأضعف برغبته ويحل الحلف (٢٣) .

إلا أن للأستاذ حمد بن محمد العبيدي — رحمه الله — رأيا آخر عارض به شرح أستاذنا ابن خيس فقال :

المقصود هو غير ما ذكر ، فالشاة عادة تعطى من القبيلة إلى الأخرى عن كل بيت يدخل للرعي في حى القبيلة الثانية .

والمعروف أنه في حالة وقوع جذب في أرض قبيلة ما يقوم رئيسها أو شيخها في إرسال نجابين إلى القبائل المجاورة يشرحون لهم حالتهم و يطلبون اللجوء إلى أراضي جيرانهم وعند ذلك يتشاور رئيس

(٢٢) العرب ج ١ ص ١٠٠ .

(٢٣) شاعرات من البادية ١ / ٢٥٦ .

القبيلة مع كبارها و يتفاهمون عن البيوت التي يمكن إدخالها إليهم لرعي مواشيهم في أرضهم ، وعند ذلك يفرض على كل بيت شاة كمقابل اللجوء والرعي إلى أن يمن الله عليهم و يذهبون^(٢٤) .

وقال الشيخ ابن بليهد تعليقا على هذا البيت :

وأما ذكر الشاة فهذه عادة عند العرب كانوا إذا ضعفت القبيلة وهي في بلاد غير بلاد قومها وعندهم قوم أقرباء ذبحوا شاة ودعوهم عليها وحالفوهم عند ذلك فتكون تلك القبيلة منهم^(٢٥) .

ومما ورد في شاة الحلف قول الزناتي التوبجيري من أهل الطرية :

اما حينسوا داركم سوقوا الشاة

يسوقها اليي خاف من كل عايل

قال الشيخ منديل تعليقا على ذلك : تساق الشاة كجزية يسوقها الضعيف للقوي حتى يسمح له بالنزل^(٢٦) .

ومن أنواع الجوار منح العيافة والعراقة ومعنى ذلك أن المجير وقومه يعافون ماشية المستجير فلا يأخذونها ، و يتعرفونها عند الأعداء إن أخذت ليردوها . أخبرني بذلك الشيخ منديل الفهيد .

وأخبرني الشيخ منديل أن من مصطلحاتهم تقسيم المرافق الذي تلزم حمايته إلى قسمين : الخوي المباري ودلي النقعة .

فالأول رفيق السفر والثاني من يدلي معك بالأكل في إثناء واحد .

ومن مسائل الجوار (الخوة) وهو أن يترافق اثنان في السفر فإذا أرادا الافتراق وسم كل واحد عصا رفيقه بوسم قبيلته هوليكون له بذلك أمان عند القبيلة فإذا لم يؤمنوه لزم رفيقه أن يرد له حقه .

ومن هذا السياق ، ومما رويته عن عدد من الأشيخ أصحح وهم بعض الزملاء حول شاة الحلف ، فأقول :

تقديم الشاة غير ذبحها .

فأما تقديم شاة أو أكثر عن كل بيت أو فرد أو قبيلة فإنما هو شبه إتاوة يتحدد مقدار المدفوع حسب الاتفاق .

(٢٤) مجلة العرب ج ١٢ س ١ ص ١١٥٩ .

(٢٥) صحيح الأخبار ٢ / ١٣٠ .

(٢٦) من آدابنا الشعبية ١ / ٧٢ .

أما الشاة التي تذبح فهي شاة الحلف ، والحكمة من ذلك أن المالحه بالطعام أو الماء أو اللبن أعظم وشائج الجوار.

فذبح شاة الحلف من أجل حصول المالحه .

شئ من علاقات المعاني اللغوية

رأى فعل حدث للعين يقظة أو مناما ، وأطلق تجوزا على حدث حصل للعقل .
فمعرفة الإنسان بعينه أو عقله يستعمل لها صيغ صرفية من ألفاظ رأى مع الاستعانة بحروف
الزيادة المحصورة في كلمة (سألتمونيها) .

وقد أخطأ من قال : الرؤية إدراك المرئي كالزبيدي .
وأصح منه من قال : الرؤية النظر كالفيروزآبادي .
والأصح : حصول معرفة من المرئي .

فهو إدراك لما عرف من المرئي وليست إدراكا لكل المرئي ، وبمجرد النظر قد لا تحصل منه رؤية .
وتأتي أرى تعبيراً عن حدث سابق فتقول : كأني أرى الأمير طفلاً صغيراً أحمله على أكتافي .
وليس ها هنا مجاز لغوي ، وإنما المجاز في تحويل صيغة ذلك الحدث من معنى المضي إلى الحال .
وعلاقة المجاز من التذكر لأن هذا الحدث الماضي باق في الذاكرة يتصور في أي حال لاحقة .
فافهم الفرق بين مجاز معنى صيغ المادة ومجاز إحدى صيغ المعنى .
ولا معنى لقول اللغويين رأى بالوهم والتخيل ، بل هي رؤية عقل فحسب ، والعقل ذو ملكات
كثيرة .

تقول أرى الأستاذ فخري عزي أنجز طبع كتابي لن تلحد .
فإن كان ذلك استعجالاً لتصور المستقبل المتوقع فهو تخيل .
وإن كان ذلك استعجالاً لتصور المستقبل دون مقتضيات ، أو تصوراً لحال حاضرة دون
مقتضيات فهو أيضاً تخيل .

إلا أن التخيل الأول عمل فكري غير حر بل له باعث .
والتخيل الثاني عمل فكري إرادي لم يقتضه باعث .
فإن كان استعادة لحال ماضية فهو تذكر .

ومن واقع البواعث في المثال الأول تكون الرؤية يقينية أو احتمالية راجحة أو مرجوحة أو مستوفية الطرفين .

وليس إسناد الرؤية للعقل على سبيل اليقين أولى بالحقيقة من إسناد الرؤية للعقل على سبيل الوهم ، بل كل رؤية مسندة للعقل بأي شكل فهي مجاز بحكم أن العقل يأخذ معارفه اليقينية والاحتمالية والخيالية من الحس ، وأبرز الحواس حاسة العين .

فاختلاف رؤية العقل من يقينية واحتمالية .. إلخ اختلاف في نوع الرؤية ، وليس اختلافا في نوع إسناد الرؤية أهو حقيقة أم مجاز بل كله مجاز .

فافهم هذا الفرق .

والفؤاد يرى . قال تعالى : (ما كذب الفؤاد ما رأى) [سورة النجم / ١١] .

وإسناد الرؤية إلى الفؤاد مجاز ، لأن ما حصل للفؤاد لا يخلو من أمرين :

فإما أن يكون صورة لمحسوس بعيد عن إدراك العين في العادة إلا أن العين تراه حال حصوله للفؤاد .

يكون هذا في المنام .

و يكون في اليقظة كروية عمر رضي الله عنه للجبل وسارية ، و يكون ذلك — كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية — بتقريب ملك أو شيطان .

وإسناد الرؤية إلى الفؤاد في كل هذا مجاز ، لأن الرائي على الحقيقة العين في المنام أو حال تقريب البعيد أو نقل صورته في الكرامة أو السحر .

ولا ينكر كرامة الله لأوليائه إلا أصلح الغباء .

ولا ينكر قدرة الجن على بعض ما لا يقدر عليه البشر إلا من أراد أن يفترض غير الواقع .

وهذا المجاز مجاز بالواسطة .

والأمر الثاني أن تكون رؤية الفؤاد فكرة صادقة لم تحصل بحس ولا فكر اكتسابي كمن أضمر فؤاده حدثا يقع له أو لأحد دون سبب علمي معروف بل حصلت له الفكرة منحة دون اكتساب ، وصدق مثل هذه الفكرة عادة يكون بتفكير إيجابي صحيح .

فإسناد الرؤية هنا مجاز غير مباشر بل مجاز بواسطة لأن الفكرة بتفكير رؤية أسندت إلى العقل مجازا ، ثم أسندت من العقل تحجورا إلى الفؤاد .

فهذا مجاز من مجاز .

ولا تجعل الخلاف العلمي والفلسفي في مدركات العقل والروح والفؤاد مؤثرا ها هنا لأن معاني اللغة وفق مقاصد العرب سواء أصح مدلولها في الواقع أم لا .

والرؤية حقيقة في معرفة العين يقظة أم متاما .
وإذا رأيت بعينك فليس لك غير مفعول به واحد تقول :
رأيت زيدا .
وتقول رأيت علم زيد .
فتحتمل معنيين لا ثالث لهما .
إما رأيت علمه مدونا في كتاب .
فها هنا لا مجاز في (رأيت) وإنما المجاز في التعبير عن المكتوب بالعلم .
وإما رأيت علمه بمعنى اقتنعت به ووافقته عليه فرأيت رأيه .
فالمجاز هنا صالح من جهتين :
فإما أن تكون على إضمار مفعول به آخر وسيأتي الحديث عن هذا و يكون التقدير: رأيت علم زيد صوابا .
وإما أن تكون رأيت على تقدير العقل فاعلا : أي رأى عقلي أو رأيت بعقلي علم زيد فيكون بحكم رأيت رأيا فإستناد الرؤية إلى العقل مجاز كما مريانه .
فإن رأيت رأيه من غير تفكير بل بتقليد اختياري فالفعل هنا بمعنى اعتقدت أو أخذت و يكون وجه المجاز أن الرؤية عادة ينتج عنها الإيمان بالمدرك المرئي .
وإذا جعلت رأيت بمعنى علمت فلك مفعولان تقول :
رأيت زيدا عالما ، وهذا يساوي :
رأيت علم زيد .
وإذا كان (رأيت زيدا عالما) يساوي :
رأيت علم زيد .
فلم لا نقول : (رأيت ثوب زيد) يساوي :
رأيت زيدا ثوبا ؟
قال أبو عبد الرحمن : لا مانع من هذا إذا شبهت زيدا بالثوب لمجاز أدبي لا لغوي ، لأن المشبه به يرد كالصفة مفعولا به .
ومثل هذا رأيت زيدا أسدا .
ولا تجعل أسدا حالا إذا صار التشبيه صفة لازمة له ، فهي صفة أصلها التشبيه .
ورأيت بمعنى علمت إنما اقتضت مفعولين لأن في الجملة تقدير فعلين :

رؤية بصرية لذات زيد : رأيت زيدا .
 ورؤية عقلية لعلم زيد ، رأيت .. عالما .
 تقول : رأيت زيدا فتتحمم الرؤية البصرية .
 وتقول : رأيت عالما فيتحمم تقدير مفعول به أول .
 وإسناد رؤية بصرك إلى زيد إسناد حقيقي .
 وإسناد رؤية عقلك إلى (عالما) فيها مجازان : .
 الأول إسناد الرؤية إلى العقل وقد مضى بيانه ، وهو مجاز لغوي .
 والثاني إسناد رؤية عقلك إلى (عالم) وهي صفة ذات وليست اسما لمعنى ، والعقل إنما يرى المعاني والذوات فهذا مجاز أدبي لا لغوي .
 فافهم الفرق بين هذين المجازين دائما .
 والأصل في مصدر رأى الرأي ، ولكن اللغة العربية العقلية الجبارة عدت المصادر للفرق بين مصادر باختلاف حالات المسند إليه .
 فمصدر رأى يبصره بقظة الرؤية ، وقاعدة العرب زيادة المباني لزيادة المعاني .
 ورؤية البصر بقظة أكد المعاني فاستحقت زيادة التاء التي تأتي عادة للمبالغة ومؤكدات أخرى .
 ورؤية البصر مناما يكون مصدرها رؤيا عوضت عن التاء بالألف لإفادة التأنيث فحسب و بقيت تاء في مصدر اليقظة للدلالة على التأكيد .
 وإذا أسند أرى إلى العقل فالمصدر الرأي سلم له المصدر دون زيادة في المبنى ، لأن إسناد رأى إلى لعقل ليس أكد من إسناده إلى البصر في حالتيه .
 ويرد الرأي مصدرا للرأى البصرية إذا صحب الفعل مفعولا .
 واللفزيون ذكروا الرأي مصدرا لرأى البصرية فلا بد أن تكون شواهدهم السماعية محمولة على وجود مفعول لا بديل عن هذا أبدا .
 وإذا صح قول ابن سيده بأن رؤية تستعمل مصدرا كما تستعمل للمرة الواحدة فالأظهر عندي أنها مصدر رأى العقلية أتى على صيغة اسم المرة تعبيراً عن اليقين وارتفاع الاحتمال .
 ومن الأوهام قول اللغويين : إن راءة — بالتاء — مصدر رأى ، والصواب أنه مصدر راءه بالهاء .
 ومن مصادر رأى رؤيانا — بضم الراء عند الفيروز آبادي وبكسرهما عند اللحياني — ويراد به لدلالة على الثبات واللزوم فقد وردت في هذه الصيغة بالكسر مصدرا دالة على الثبات كالفقدان

والهجران والنشدان والعرفان، ولهذا المعنى فالكسر هو الأصح .
وورد بالضم بمعنى الشدة والكثرة كالحسبان والقربان والشكران والغفران، ولهذا المعنى فالرفع هو الأصح .

فإن أردت ملازمة الحدث فاجعل المصدر بالكسر، وإن أردت الكثرة فاجعل المصدر بالضم .
وقولي رأيت زيدا عالما ليس على مثال ضربت زيدا قاعدا، لأن فعل ضرب منصوب على زيد، أما القعود فهو حالة وهيئة للمفعول به الذي وقع عليه الضرب .

أما رأيت زيدا عالما فهما مفعولان لفاعلين اثنين لفعل واحد أوقعه فاعلان مختلفان .

الفاعل الأول حاسة العين ومفعوله زيد .

والفاعل الثاني ملكة العقل ومفعولها علم زيد .

فالمفعولان لفعل واحد لفاعلين اثنين .

إلا أن تناول ضمير رأيت للعين والقلب جعل الفاعل واحدا في صورة الكلام .

أنا شرقي إذن أنا أبكي !

اسمعوا يا من تركتهم كما عرفتهم : وجدوا الموال وأجهضت منهم الأغنية !

ولن أطمع ببقية من ألمانهم إلا أن تكون ضحكاً كالبكاء !

لقد بليت بكم حتى فرحتكم لا عن كراهية — ولعلكم المبتلون بي — .

ولقد جاذ بتموني الحبل منذ عشرين عاما وقد كنت قبل أهل الصحابة بعافية !

وعداوة الصحفيين — يومها — لم تكن (بس المقتنى) !!

وخلال هذين العقدين تنازلت لكم عن كثير من قناعاتي وتراثيتي وأرهفت لكم أذني — وكي حاسة شم — لآخذ من معاصرتكم بقدر تنازلي عن قديمي على الأقل ، لأن شخصية العلم تستحمد بتلاقح الثقافات .

فرميتومني بثلاثة الأثافي ، وكل واحدة تقصم الظهر !

أولاهن :

أنكم تصرون على حرمانني من حاضري رغم عشرين عاماً قدمت فيها كل التنازلات .

وكأنه تأتني لكم من الحاضر ما غاب عني !!

وثانيتين :

أنني عاودتكم كما ودعتكم .

ومفهوم المعاصرة يعني الصراع الدائم ، وتجديد الخطأ والدوران مع طاحونة أبي لؤلؤة — وقاكم الله أعراض الدوران — .

وثالثتهن :

أنكم واعدون بمعاصرة أجدد فيها شبابي وتبقى هويتي وشخصيتي فيؤنسني جديدي إلى أن أعاود قديمي !

وهذه ثالثة الأثافي لا أقطع عنكم سبيل الحوار حولها إلا في قضية واحدة تمس نظريتي الفن والجمال .

هذه القضية لا أبخل بالتنازل عنها لو قدرت ، بيد أن الإنسان لا يقدر على تبديل هويته ، لأن الهوية سنة الله الكونية ولن تجد لسنة الله تبديلاً !
إنني — وأنتم — شرقيون .

والشرقيون مفطورون فطرة كونية : على بكاء القلوب .
والشرقيون بفطرتهم يرفضون أي نظرية تحدد هوية الجمال بالستيمتر .
ولكنهم يقيسون بالستيمتر — استنباطاً لا تأسيساً — ما يجدونه من وله في القلوب .
وكل قياس بالستيمتر قياس وقتي محتمل الخطأ ، ولكن الذي لا يخفى أبداً بهجة القلب .
وقد قال أحد البكائين الرومانسيين : اضرب قلبك فهناك العبقرية !
والجمال عندهم معقول دائماً — لأنه يقاس بالستيمتر ، بل لأن الفن عندهم غناء فكري .
وليس الجمال غير بكاء القلب في كل عرف شرقي .
وقد استقرت مواضع الجمال الشرقي على ثوابت مبدئية .
والثوابت لا تقبل الجدل .

فالأتين والسهر والشجن وروعة الدواع ووحشة الغربة وسادية المفارقة شرط في كل أدب شرقي وكل فن شرقي .

فمن يريد خنق أي أثر للرومانسية في أدب الشرق وفنه فلا يحاول العبث ، بل عليه أن يرحل و يهبط في أي رقعة شاء من بلاد العلوج والثلوج ، وليتذوق ما شاء من أدبهم وفنهم ، وليكن على يقين بأنه لن يستطيع تغيير هويته وإن ادعى كسرها .
أما العقد والمعاية والرموز المنشورة في غريب من القول والجمال غير التامة فأول من يرفضها من الشرقيين العربي لوضوح لغته وفكره وفطرية جمالياته .

والعربي فيما يقرؤه و يشاهده من قصة ورواية ومسرحية يأنس و يضحك و يعتبر مع المشاهد الجزئية كأني طرفة في حياته تعرضها المصادفة ولكنه لا يدرج ذلك في قاموس جمالياته أدباً وفناً حتى يجد العقد وحلها ، ويجد في ذلك الروعة والإثارة ، لأن أدب أمته مفطور على الجمال والكمال .

لقد تداعى من قسم هذا الجيل في الفكر والأدب والموسيقى والطرب من يعتبرون كلاسيكيين ، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الجمال العربي .

ولقد حاول بعض الناس — معاندة لطبيعته — أن يهون المصاب بفقد الرومانسية إبراهيم ناجي متمزياً بالماغوط وأمثاله .

وقس على هذا بقية الحقول الأدبية والفنية .

ولكن آلاف القلوب العربية في خبء الأمر تستجيب لأدب ناجي ونواح زملائه .
وفي اليوم الذي يكون فيه العربي من رواد الفضاء سيكون الأدب الرومانسي والفن الرومانسي
— وكل مبكيات القلوب — هو الواقع العربي ، وما يشغل الساحة اليوم من أوشاب أدبية وفنية إنما هو
عناد طفولي مغتصب لمشاعر الجماهير .
ولا أريد بالبكاء ما يسيل الدموع ، وإنما أريد الانفعال القلبي في كل تعبير غير مباشر .
هذه هي سجية الشرقي ، وسيظل الأدب العربي أدباً عاطفياً — طاغي العاطفة — معقول العلاقة
في إيمائه ما ظل العربي عربياً والله المستعان .

عصر الإرهاب الفكري أو أصنام يكون

الشرقي اليوم مصمم بحرية الإرادة — لا بقسرية الفكر — على أنه مبخوس الحق من تفكير صحيح يعصم من الخطأ، و يهدي إلى الحق، وأنه مثقل بقيود خاطئة بغیضة من تراثه وتاريخه ووسطه وجنسه العربي خاصة أو الشرقي عامة .

إن فرنسيس بيكون حاول إصلاح المنطق، فاكتشف أربعة أصنام تعبت بالحقيقة، فنادى إلى التخلص منها ليستقيم منهج التفكير.

ولم يخص بيكون بهذه الأصنام بيثة دون بيثة، أو جنساً دون جنس، بل اعتبرها عرضة للتفكير البشري عامة .

أما الفتى الشرقي الذكي الموهوب المهزوم في عماء الفكر الأجنبي الإرهابي الموجه إلى الشرق، فقد اعتبر — بموجب سلوكه الفكري — هذه الأصنام الأربعة دمامة عربية شرقية خالصة، برأ الله منها خونة الصليبية وأفراخ الصهيونية وأوشاب الطائفية العلمانية .

الصنم الأول عند بيكون: صنم الطائفة (الفرع)، وبيكون لم يرد بهذا الصنم صنم العرق العربي، أو الجبلية العربية، أو البيثة الشرقية .

إنما يقصد طبيعة الإنسان عامة — عربية وأعجمية — التي تتدخل في منهج تفكيره، ومن ثم شبهها بالمرآة المنحرفة بحيث تعكس الحقائق بغير صورتها الأصلية، وبيكون لم يأت بجديد ها هنا، بل غير العبارة، لأن ربنا حذرنا في أكثر من آية، من اتباع الهوى والإذعان للنفس الأمارة بالسوء .

ولكن الشرقي المهزوم بالإرهاب الفكري تخلى عن المعنى العام لهذا الصنم الذي يتناول كل نفس بشرية وقصره على الجبلية العربية المنكودة .

فلا فلاح لفكر عربي حتى ينسلخ عن طبيعة الجبلية العربية، واستحال عند هؤلاء الإيمان بأن تخلي العربي عن هواه وشهوته في نطاق جبلته العربية، أضمن لهديته من تخلي الصليبي عن هواه، لأنه خفي على هؤلاء أن في جبلته العربي أشرف وأمنع معقل يخال فيه الفكر، لأن العربي مفلطور على الشهامة والنجدة والإيثار والمواساة وصله الرحم ومواساة من يستحق المواساة .. ينعم بيومه و يثق بغده، و يطمح إلى ما لا يبلغه جهده، لإيمانه بأن الله يتمم مسيرته .

وليس هكذا الصليبي والصهيوني والعلماني المفطور على الشح وسوء الظن بالغيب والأنانية والميوعة.

ولولا وسائل القوة في العصر الحديث، لاحتاج إلى درجة طويلة ليسترجل.

إن ذكاء العربي في معقل الزكاء والخلق، وذكاء الأوربي بلا زكاء ولا خلق.

والصنم الثاني عند بيكون: صنم الذاتية، وهو أخص من صنم الطبيعة الإنسانية.

وكل نوع من الجنس البشري ثري بأشخاص ذوي ميول عمياء منحرفة تضلل تفكيرهم، بيد أن السلوك الفكري لدى كثيرين من الشرقيين المتفرنجين يلتمس أي هوية غير عربية—وإن كانت هوية الشيطان—لأن كل فتى عربي ثري بأصنام الذاتية!!

والصنم الثالث عند بيكون: صنم الغموض، ويعني به الأفكار الخاطئة المتسلطة المتولدة من العبارات الغامضة، وجميع البشر تعتورهم عشرات الأفكار الخاطئة بسبب غموض العبارة!

ولكن العربي بالذات—وأرجو أن تعنتي بتكرار كلمة بالذات—أجدر الناس قاطبة بتحديد المفهوم الذي يريده دون غمغة، لأن لغته دقيقة تعنتي بالتمييزين الأشياء تمييزاً محمداً لا تختلط فيه المقاصد، وذلك لخصوبة دلالاتها، ووضوح ظاهرها، وعبقرية مجازها.

ولكن الفتى الشرقي، العائم في متاهات الإرهاب الفكري الحديث، يلتمس أي لغة—وإن كانت لغة الزط—ليرتاح من دمامة اللغة العربية.

وما الدمامة غير وسواس قذف في صدره.

والصنم الرابع عند بيكون: صنم التراث، ويريد به معرض الأفكار القديمة للفلاسفة السابقين.

وما أراد بيكون بهذا الصنم—وهو في معرض التحرر من المنطلق الأرسطي—إلا لفت النظر إلى ضرورة التعامل تعاملًا فكريًا مع التراث دون تقليد.

ويملك هذا التعامل من استبق الكشف عن حدث كوني، أو ابتكر إنجازا يصحح قاعدة خاطئة، أو يحدد الاحتمال في قاعدة مفترضة.

ولكن الفتى العربي، المترنح تحت سياط الإرهاب الفكري الصليبي، تحبط مخموراً، ونادى بأي مسلك لا تتربع على جنباته معالم جمهورية من التراث.

لم يتعامل مع التراث تعامل المكشف أو المبتكر، وإنما أمضى بإرادته الحرة الانعتاق من التراث، وإن كان فيه وفقات لا تصح البداية دونها، ونهايات لا يصح الاستئناف معها.

ولقد جاء الإرهاب الفكري الصليبي المعاصر متمماً لما مهدت له الغارة العسكرية. وهذا بعكس المثالية العظمى لتاريخنا الإسلامي، فبعد الانتصار العسكري أصبح المسلمون أمناء بين أمم

الأرض يعلمون و يتعلمون ، ليس عندهم تضليل مطلقا ، وليست لديهم مجموعات سرية ولا سياسية ذات وجهين ، وإذا أرادوا هداية الناس إلى منهج سليم يعتقدون صحته ، وإذا أرادوا تحذيرهم من اعتقاد يرون ضلالتة : كانت دعايتهم وامتحانهم للباطل علناً بلا مراوغة ، لا ينافقون الناس في عقائدهم الباطلة فيعلنون قبولها ظاهراً و يكيدون لهم في الباطن بشتى الحيل ليسلخوهم عن عقيدة و يلزموهم بعقيدة .

هذا الخداع ضرب من الإرهاب الفكري يأباه خلق القائد المسلم والمفكر المسلم .

إن الإرهاب الصليبي الفكري لا يتعامل مع الشرق بإيجابية الفكر ومثالية الخلق ، وإنما هو استكبار عالمي مرده إلى منطق القوة دون منطق الفكر ، وطالما حذرنا ربنا من هذا الاستكبار العالمي . قال الله سبحانه وتعالى عن أفراخ الكفرة :

(إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله) (سورة غافر/ ٥٦) .

وقال تعالى : (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفررك تقبلهم في البلاد) — [سورة غافر/ ٤] .

فهذا التقلب ظاهرة مشهودة يفسر بها الاستكبار العالمي على منهج الله .

وتضليل المسلمين ببهر العلم حيلة لثيمة وجدت لدى أفراخ الباطنية المعروفين بإخوان الصفاء ، وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية عن ضلالهم ، ثم أشار إلى ترويحهم بالعلم المادي فقال :

وإنما يضلون به كثيراً ، بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية التي لا تعلق لها بأمر النبوات والرسالة لا بنفي ولا بإثبات ، ولكن ينتفع بها في مصالح الدنيا كالصناعات من الخزانة والحياكة والبنائة والخياطة ونحو ذلك (٢٧) .

قال أبو عبد الرحمن : العقول مفضورة على أن أمهر الناس في ألعاب السيرك ليس من الضروري أن يكون أذكى الناس ، وأن صانع الطائفة ليس أعظم الناس جبروتاً فكرياً ، بل الجبروت في فكرة اختراعها ، أما صناعتها فحرفة تعتمد على التعليم والتلقين والممارسة ، كحرفة النجار والبناء (٢٨) ، بيد أن العربي في بهر العلم المادي ألغى عقله فصار يلتمس من صناع العلم المادي ، و يستنصح غير أمين في شؤون النظرية والعلمية التي لا علاقة لها بالعلم المادي .

وإنما جرعلينا جناية الإرهاب الفكري الصليبي أنصاف المثقفين ، لاسيما ذوي الذكاء منهم ، فكان للصليبيين عند هؤلاء فرحتان :

(٢٧) مجموع الفتاوى ٢٣/١٢ .

(٢٨) لقد أسهبت عن هذه الظاهرة في كتابي (هموم عربية) .

أولاهما: أن هؤلاء الأنصاف أوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاء ، وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً — كما قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٩) — فهؤلاء يتخبطون في إنكار غيب الله وشرعه ، ولو أرادوا ترويح شبهة من مثال علمي في الفلك أو الأحياء .. إلخ . ما قدروا إلا باقتضاب عاجل من إحدى الموسوعات العمومية التعليمية ، وشاهد حالهم يقول : إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين .

ودامة واقعهم يقول : إنهم صانعو الحقيقة فضلاً عن دعوى اكتشافها .

وأخراهما : أن إرهاب الفكر الصليبي لن يحقق الاستكبار على منهج الله بلسان عالم حقيقي في شتى علوم المادة ، لأن علمهم المادي يؤكد إيمانهم بالله جل جلاله ، وإن كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم حققت الغارة الفكرية جميع ألوان الاستكبار على يد الأنصاف أولئك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد قال بعض الناس : أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم ، ونصفه متفقه ، ونصف مططب ، ونصف نحوي .

هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يفسد اللسان (٣٠) .

إن ذوي الحيوية الفكرية من المؤمنين هم الذين يحققون الابتكار والإبداع لو أُتيحت لهم الظروف ، ويحققون المهارة لو وجدوا الممارسة .. إن هؤلاء يكسرون حاجزي التأخر والاستكبار معاً . يكسرون حاجز التأخر باستثمار مواهبهم الحسية والعقلية ، كما أمرهم ربهم بالعمل والتدبر والاعتبار ، و يكسرون حاجز الاستكبار بالعبودية الكاملة لله خالق الحقيقة عملاً واعتقاداً .

وقد بين الله منهج هؤلاء بقوله :

(و يرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق و يهدي إلى صراط العزيز الحميد) [سورة سبأ/ ٦] .

والضرورات والإيجابيات التي علمتهم أن الله خالق الحقيقة هي الضرورات والإيجابيات التي علمتهم كيف يستعملون مواهبهم ، وعلمتهم اليقين بكل علم مادي صحيح ، وخبر عالم الحقيقة أولى بالتصديق من خبر من يحاول اكتشافها .

إن دامة الاستكبار العالي على منهج الله شوش بها أولئك الأنصاف فصارت عبقرية الترويح بسبب ذكائهم وحيويتهم الفكرية ، وصارت دامة المروج به بسبب قلة العلم وانعدام الزكاء

(٢٩) مجموع الفتاوى ٥/ ١٩٩ .

(٣٠) مجموع الفتاوى ٥/ ١١٨-١١٩ .

بالزاي أخت الراء .

وأمنت الدمامة في القبح والسخرية عندما تمخضت حقيقة الدعوى عن أمرين :

أولهما : تجهيل رسل الله وشرع الله .

وثانيهما : ادعاء ما هو أهدي من شرع الله .

وقد اتخذوا هذه الدعوى الأسلوب نفسه الذي حرمة الله وحذر منه ، فنفروا الناس عن وحي الله
بتهمة الرجعية والتخلف ، حتى جعلوا هذه الألفاظ مضامين مخيفة مروعة .

قال الله تعالى مبينا غرور واستكبار أهل هاتين الدعويتين :

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) [سورة غافر / ٨٣] .

فهؤلاء ادعوا ما هو أهدي من شرع الله ، وهم أنفسهم المذمومون بقوله تعالى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل
ما أنزل الله) [سورة الأنعام / ٩٣] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وجماع شبه الكفار أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه ،
وكفروا بفضل الله الذي اختص به رسله (٣١) .

وقد بين الله تجني الكفار على رسل الله وورثة علمهم بتهم التخلف والجهل لصد الناس عن
الهدى .

قال تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) [سورة البقرة /
١٣] .

وقال : (إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) [سورة المطففين / ٢٩] .

وقال : (أنؤمن لك واتبعك الأذلون) [سورة الشعراء / ١١١]

وقال : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) (٣٢) [سورة البقرة /
٢١٢] .

* * *

(٣١) مجموع الفتاوى ١٢ / ١٧ .

(٣٢) أنظر اتهام أهل الضلال لأهل السنة والجماعة في مجموع الفتاوى ٥ / ١١٠ - ١١١ .

فذلكت الأفلام

قد يستغرب أحيائي المشفقون على تجنيد قلبي في رحلات خيالية عن فئة منحلة لا ينظر إليهم العلماء باحترام، وقد يكون شفيعي في ذلك أمور:

- أولها: أنني أتقصد وأهدف إلى المعاني التجريدية.
- أعني أنني أجرد متعة الفيلم أو عبرته عن وسطها لأجعلها وسيلة من وسائل الثقافة وربما سوغت الغاية الوسيلة.
- وثانيها: أن مجهودي في متابعة هذه الرحلة وتسجيلها لم يأخذ لحظة من لحظات الجدية، بل هذا المجهود العائب هو لحظة استجمام القلم، ومن الخير أن يكون الاستجمام مجهوداً.
- وإن كان عابثاً فثمة جد جاد وجد عابث، وثمة عيب عابث وعيب جاد.
- وشر هذه الأقسام العيب العائب، وهذا ما لم نجنح إليه بحمد الله.
- وثالثها: أن هذه الأفلام كلفت وقتاً فوق الشهور، واستعبدت مواهب طوعتها التجربة المريرة واستنفدت المأجراً، أفنخل عليها—بعد كل هذا—بكلمات من الجد العائب أو العيب الجاد؟.
- ورابعها: أن هذه الأفلام على أقل تقدير تليق أشواق الناس إلى الاستجمام بالمتعة والتسلية وهذا وحده هدف، بل هي ذات خطورة فظالما تحول عيبها إلى جد.

ففي فيلم (شاطيء الذكريات) —مثلاً— كانت شادية تؤدي دورها مع شكري سرحان وكان دورها محفوظاً عند المخرج، وهو أن تصافح شكريا، ولكنها—في غيبوبة—قبلته.

أي زادت عن الدور المحدد لها، وكان في مخيلة عماد حمدي—زوج شادية—حرف لم ينقط.

ولكن هذه القبلة نقطت الحرف فنطق، فكان مصير شادية أن يطلقها عماد حمدي لا تمثيلاً بل حقيقة وواقعا، وظهرت الحقيقة في الرحلة الخيالية.

وفي فيلم (صراع في الوادي) كانت فاتن تمثّل دورها مع عمر الشريف، وكان عليها أن تحزم يد عمر الشريف بقطعة من ثوبها، ولكنها في غيبوبة أيضاً قبلت عمر الشريف واحتضنته، وكان

المخرج عز الدين ذو الفقار، فقد رأى زوجته الحقيقية زادت احتضاناً وقبله، وقد رأى الجمهور الداخلي — الذي يعرف مقدار الدور — هذه اللفتة المذهلة فتطلق الحرف أمام عز الدين وتطلق زوجته فاتن حمامة واقعا .

وفي فيلم (امرأة في الطريق) كانت هدى سلطان تمثل دورا مع رشدي أباطة لم يوافق عليه زوجها الحقيقي فريد شوقي ولكنه طلع في الفيلم رغم ذلك فضربها ضربا مبرحا في الاستديو وطلقها ، وقد راجعها بواسطة أهل الخير .

هذه غيرة ذوي الخيرة منهم ، والواقع أن كل ذي محرم استباح تقبيل محرمه أو لمسها من لدن الأجنبي فهو ذو ديوثة .

وكلهم مستبيح ما حرم الله باسم الفن حتى أصبحت هذه الديوثة عرفا اجتماعيا في كثير من البلاد باسم التمثيل .

يحيا الحب

قال أبو عبد الرحمن: قصة الفيلم أن محمد عبد الوهاب يمثل دور الشاب الأنيق المؤدب ينزل في أوضة من بيت عائلة في فلة تحيط بها الحدائق والمياه لأن صاحب البيت أحب هذا الشاب المثقف المؤدب.

و يشاء الله أن تتمزج روح محمد بروح بنت صاحب البيت (نجاة علي) وكلاهما يومها في ميعة الصبا، يكون التلاقي في الجنية وفي الزورق وفي أوضة محمد، وهو لقاء في عرف التمثيل برىء أو إن شئت فسمه مقدمات للخطبة.

يتناجيان نثراً أو غناء فكلاهما بلبل صداح، فمحمد لمكانته في التلحين والغناء أصبح دكتوراً، وهو الذي شهر كبار المطربين وعلى رأسهم نجاة حسني ونجاة علي من جيل الطرب القديم، وبعد أن يجري الماء بينهما صفواً إلى حد الغناء الذي يتحدث عنه سعدي وحافظ الشيرازيان يسمع محمد من نجاة التنويه بالجهد والكفاح في الحياة لأنه شاب أنيق مثقف شاعر بلبل لم يمارس الكدح في الحياة.

و كأنها تقول له: إن أخذك بيدي مرهون بينائك لمستقبلي ومستقبلك.

نجاة في هيئة الأغنياء ولكنها فقيرة، يفاجئ محمد نجاة بمغادرة البلد إلى المنصورة ليكون مدرسا للموسيقى هناك وترحب بذلك رغم مرارة الفراق.

يسكن محمد بغرفة من بيت رجل ثري أعزب، و يباشر مهمة التدريس بمنتهى الأدب والعقل والجهد و يكاتب نجاة بكل خطوة.

ينزل صديقه (حلمي) ضيفاً ولا نشغال محمد بوظيفته تركه في الأوضة وأعطاه ماهيته في الشهر ستة جنيهات على أن يحسن التصرف لتكفيهما لنفقة الشهر إلا أن حلمياً استهلك المبلغ في يومين في وجبات الكبراء وفي تأثيث لا ضرورة له مما اضطر محمد إلى أن يبيع أثاثه، وسافر حلمي غير شاعر بإسائه وفي جلسة من جلسائهما رأى صورة نجاة خطيبة محمد واستطاع أن يعرف عنوانها.

وسافر حلمي إلى بلدة نجاة واتصل بها بحكم أنه الصديق الحميم لمحمد واستطاع بالتدريج وبعمونة صديقاته الخاططات، أن ينفث السموم في قلبها: إن محمداً فقير ماهيته ستة جنيهات، إنه باع

أثائه ، وإن حلميا أخرجه من المأزق ، وإن محمداً غير منتبه لنفسه ، إنه يجالس من لا خير فيهم .. إلخ .
وبالتدريج استطاع حلمي أن يستميل قلب نجاة إليه لتكون خطيبته هو لا خطيبة محمد الفقير ،
وبذلك نقضت خطبة محمد .

وهذا الوغد خان صديقه محمداً أيضاً ، وأما محمد فقد كافح في مهمته بشرف وأمانة بيد أن
صاحب البيت الأعزب مرض وانتظر محمداً (وفاء لصداقته ورحمة بشيخوخته) إلى أن يكون بجانبه
مدة المرض اثنين وعشرين يوماً .

واقضي قدر الله أن يموت الشيخ وأن يشيعه محمد ، ولكنه فوجيء بإنذار من المدرسة بطي قيده
والاستغناء عن خدمته ، لأنهم أعطوه إجازة أسبوع وقد تخلف شهرا .
وبالمناسبة فقد نص محمد عبد الوهاب في مذكراته على أنه مدرس فاشل .

كانت صدمة له لأنه يسابق الزمان في بناء مستقبله ومستقبل خطيبته نجاة ، ولكنه استقبل
الصدمة بوجه باسم فكان أن بسمت له الأيام لأنه أبلغ بأن الشيخ المتوفى الثري الأعزب أوصى له
بألف جنيه وعشرين فدانا .

إذن فقد أصبح من الأغنياء في كرة طرف ، لم يشأ محمد أن يكتب لنجاة بهذا الحظ السعيد بل
كرس وقته في بناء (بيت بنفسجي) لأن هذا البيت من أحلام خطيبته وأثته بأحدث الأثاث ومن
ثم سافر إلى نجاة ومعه خاتم الخطوبة (الدبلة) يحمل لها المفاجأة السارة .
ولكنه فوجيء بصدمة لم تحظر بباله رأى حواراً جارحاً غرامياً بين خطيبته وصديقه حلمي بل
عنفاه على الدخول بغير إذن .

إن نجاة خطيبة حلمي ولم تعد خطيبة محمد ، وبخروج متعانقين وهو ذاهل في دوار الصدمة .

كان عليه أن يصدق على الاثنين ولكنه الحب الذي يستعبد القلب .

لم تنجح توسلاته في صديقه الخائن .

يعود محمد إلى البيت البنفسجي ومجلجل فيه بصداحه الشجي الحزين .

كان دهره غناء مكلوماً متهدجاً .

أما نجاة فقد تزوجت من حلمي وسافرا إلى باريس لقضاء شهر العسل ، ثم يبلغها موت أبيها ،
و يبدأ حلمي يحترقها و يتنكر لها لأنه صاحب مواخير ولأنه وغد خائن .

ويستنزف القمار جيبه ومصاغ وملابس زوجته ثم يطلقها .

تعود نجاة بائسة لا زوج لها ولا أب ، ليس على بالها إلا ضحيتها محمد تسافر إليه في المنصورة .

لم تكن تلبس الموضة كما كانت أيام العز الزائف ، بل كانت (ولية) تلبس السواد وتكسو
رأسها وصدرها بالخمير .

يقابلها محمد معزيا رائيا لا شامتا وهي تتوسل إليه حتى إذا أحست منه بلين طلبت منه أن يريها البيت البنفسجي فيدخلان معا، إلا أنها تذهل من هذه البجبة بل يحرجها خيانتها ووفاء محمد الذي حقق أحلامها ولا يزال يحتفظ بصورة لها مكبرة مبرورة.

يتناجيان بغناء جارج مؤثر يفتت القلوب وهو يعتب في بكاء وحرارة، ولكن حبه يقهر سخطه لأن حبه أصيل صادق، وهي تتوسل وتعتذر وتستعيد ذكريات الشاب.

يعود الوفاء بينهما من جديد، ويتبادلان عبارات الحب والتفدية، ولكن الدم يثور في وجه محمد، لأنها بادلت الحب بكلمة سمعها تقولها لزوجها الخائن حلمي.

حينئذ يتغلب العقل على العاطفة، لأن نجاة تناجريكلامها، وبعد حوار يائس بينهما تخرج من البيت تاركة له جوابا مع الخادم.

صق عبد الوهاب للجواب الذي أبلغته فيه أنها ستنتحر فأسرع في الذهاب إليها، وكان القدر أسرع منه، إذ ودعت الحياة منتحرة، وظل يبكي على قبرها بأغان شجية باثة وإلى هنا كانت النهاية.

الفيلم كان كما ترون مأساة، ولا غرابة لأن المترجم كان مصطفى لطفي المنفلوطي كاتب المأساة الشهير صاحب العبرات.

إن في التأليف عيا فنيا ذلك أن عبرة الفيلم يجب أن تكون فعالة عادلة وفق سنة الحياة وناموسها.

عندنا محمد عبد الوهاب المحب المخلص الصادق الوفي ما كان ينبغي ثمن وفاته هذا الذل والبكاء في القرافة، كان عليه أن يصبق على الخيانة دون تردد.

وعندنا نجاة الخائنة كان يجب أن تعيش حياتها معذبة الضمير، أما الانتحار المزعج المكدر للمزاج فلا ينبغي أن يكون ثمنا للخيانة.

من المتوقع أن يفني محمد لذكرياته بأن يترك لها البيت البنفسجي و يقوم بشؤونها و يلتمس لها زوجا، وكان عليه أن يثار للأمانة المجروحة فيبعد عنها ألف متر.

و يظهر في الأحداث رضى عبد الوهاب بصنيعه، وتعيش نجاة في عذاب الضمير.

روعة الفيلم في فكرته وألحانه، وليس فيه مواقف تمثيلية صعبة تمتحن بها قدرة الفنان.

فيلم لحن الخلود

يعجب بالأفلام إلى حد التأسي .
وإلى حد التأثير والانفعال ضحكا وبكاء .
رأى فيلم لحن الخلود — بكفر أبي صير — وتابعه متابعة نعم فيها بأجل ساعات التمرد والفناء
الروحي مما يسميه : ابتهالات الروح .
وكان يحسب ذلك من أوهام الصوفية وال دراويش ومدعي الفناء .
وقد استرد الجسد روحه بعد انعتاق دام ساعتين مع فيلم لحن الخلود .
بيد أن العين لا تزال ندية ، ولا تزال القصبات الهوائية تتحسج بضحكة هي الفرحه والعجب
الواعي .
ودمعة هي الدهشة من مفارقات تجتمع لتؤلف مواقف إنسانية ومثلا عليا كنا نفقدها في وعينا
الواقعي .
وما بالك بضحكة ودمعة تجتمعان وهما ضدان ، بل متناقضان إنهما التحام الوعي باللاوعي :
العاطفة والحس الواقعي .
ضحكة وبكاء !!
إنهما يخلفان في القلب جرحا لا يزال نديا .
يا إلهي أين أنت يا ظاهري ؟
إنه فيلم !
أتبلغ بك ألاعيب الممثلين إلى هذا الحد من التأسي والانفعال المتناقض ، كلا .
إن المأسور بهذه الأفلام (طفل كبير) كبير لأنه يعلم أن الأفلام رحلة في الخيال .
طفل لأنه رومانتيكي يهرب إلى الأحلام ، والأفلام رومانتيكتنا نحن الأطفال الكبار .
الأطفال الكبار تحيish عواطفهم فستلهم المؤثرات عيانا ، أو مثالا ، أو ظلالا .
وليس في الظلال بعد عن الحقيقة خطوتين .. أعني خلافا لما زعمه أرسطو .
معنى المؤثرات التي تتقبلها العواطف أمر تجريدي تتساوى درجته في عالم العيان والمثال

والظلال .

فيلم لحن الخلود فيلم ثري ببطولة أمير العود فريد الأطرش ، وسلطانة التمثيل فاتن حمامة .
أقول عنه حكما عاما شاملا — لا استثناء فيه ، ولا تقيّة في إعلانه — وهو أن هذا الفيلم أحفل
فيلم عربي رأيته ، لأنه مؤثر إنه وسيط روحي أنصح بأن يحرص التلفزيون السعودي على استجلابه
بأي ثمن أو طريقة وإشاعته .

لأنه بلسم لعواطف شلة من شبابنا الذين يستلهمون المثال من الظلال ، ولا ضير في ذلك مادامت
المؤثرات التي تتلقاها العواطف أمورا تجريدية .

الفيلم : إنسانية + حب صادق متأجج + تضحية + وفاء + براءة وغفلة مؤمنة + نزاهة وعفة =
انفعالات غامضة يبقى صداها ، وتغلي حرارتها .

وفاء (فاتن حمامة) تمثل دور الطفلة البريئة اللعوب ، وحيد (فريد الأطرش) يمثل دور الصديق
الشهم المحب الغافل البريء في صداقته للبيت الطاهر النزيب الذي نشأ فيه مع المستورات من عهد
الطفولة ، كما يمثل دور الأب الحنون المنصف النزيب البريء البربنتي صديقه (وفاء ، وثناء) .

وقد شمل هذا العطف وحيدا صديق الأسرة اليتيمة .

سهام (بنت كمال) تمثل دور الأم الشفيقة البرة بتلك الأسرة الثاكلة .

إن الحب بين وحيد وصديقة النشأة وفاء يصل إلى حد الفناء والواحدية .

ولكن وحيدا — لبراءته وعفة وفاء — لا يشعر بأن هذا الحب خلق للجنس ، أو أن هذا الحب
يعني شريك حياة .

إنه حب فوق أن يفسر بظاهرة .

وفاء تحب وحيدا في وعي من جهال له .

ووحيد — في الحقيقة — غمرته سبحات الحب أكثر وأكثر ، وهذا لم يع بأن الزواج ثمرة مباركة
عاجلة للحب .

لم يدربخلد وحيد أن يعين هذا الحب بظاهرة ما .

الحب عند وحيد — بوعي أو دون وعي — واحد لا يتجزأ ، شامل لا يتحدد .

و يشاء الله أن يتزوج وحيد (سهاماً) على مرأى ومسمع من وفاء .

و يشاء الله أن يبكي الطفل الكبير أمام الشاشة لأن المشهد لا يزال ماثلا في مخيلته .

مشهد وفاء الطفلة (الفرفورة) وهي توقظ أهل البيت — بحركات أنوثية جارحة — تبادهم
البشرى بقدوم وحيد من سفره ليستلهم ألعانه في عزبة وفاء وأهل وفاء .

مشهد وفاء وهي تركض من العزبة إلى الخط المسفلت تستقبل وحيدا وتناديه من خلال المنافذ

إلى مقعده في الخنطور.

لم يدروحيده أن زواجه من سهام يجرح وفاء جرحا يذنيها من القبر.
كذلك سهام وكمال لا يدريان بهذه الجذوة الكامنة في قلب وحيده ووفاء من عهد الطفولة.
نعم لم يدرك أنه حب شريف برىء لم تحظر الريبة حوله.
أعني أن وحيده لم يفهم الحب فيما بعد اللاوعي.
أعني أن استثمار هذا الحب لا يتم إلا بالعلاقة الزوجية علاقة تباركها كلمة الله وتزكيها على
سنة لا حبة.

تعيش وفاء بعد ذلك في خيبة بائسة من استثمار هذا الحب الذي قضى عليه بالقران الطارئ
المستعجل بين وحيده وسهام.

أنتم — أسبل الله علينا وعليكم ستره — لم تجربوا مثل الطفل الكبير عذاب الحب البائس الذي
يرجوه المتيمون كفارة لبعض ذنوبهم، وربنا الكريم لن يجمع بفضلهم ومنه على عبده المؤمن بين
المصيبة والتعذيب، على أن حكمه العدل وقوله الفصل جل جلاله.

عذاب الحب نحول وشحوب وهموم، واستخفاف بكل تسلية، واستعذاب لكل تضحية، وفرق
من كل شيء.

عذاب لا تحصى ظاهراته رمض حياة وفاء المسكينة، ولا تنس الحرج الذي تقع فيه وفاء بين
أنثى جندلت فارس أحلامها ولكنها صاحبة فضل وإحسان، وبين كمال الذي هو كوالدها أيضا،
وبين وحيده الذي لم يدربخلده أن زواجه من سهام انتحار لخب النشأة.

ووحيد الآخر يقف في الحرج بين حب قديم أصيل لا خيار له في الانعتاق منه وبين قريته
سهام التي لم يضم في قلبه أن يخذعها.

وتدور الأحداث مجهولة العلل.

ويبدو كمال خلال هذه الأحداث في منتهى الإنسانية رافة بوفاء وثناء وحنوا على سهام
ووحيد.

وتبدو سهام أيضا في منتهى الإنسانية رغم نوازع الغيرة.

وهكذا وفاء ووحيد وثناء.

مظاهر من المأساة المجهولة العلة ولكن الوضوح والحب والإنسانية والخير تقف بنوايا أبطال
المأساة.

يكشف وحيده في مفاجأة المأساة أن حبه العريق الخالد لوفاء لا تفسير له إلا بالاقتران المشروع
استثمارا عاجلا لدفق الحب الذي لا ينضب.

ولكن ما أقسا المثل والمبادئ إذا كانت ستاراً صفيقاً دون استثمار الحب .

هذان القلبان المفعمان بالحب مغموران بالوفاء والرحمة لسهام مما حللها على قرار صادق بأن يعيشا حبا دون أمل ، وهو أسمى معاني الغزل ، وبذلك غنى وحيد في شجته (بنادي عليك) .

إن حوار وفاء الطويل لوحيد عن عذاب الحب وضرورة صيانتها بالوفاء لسهام ورحمة مشاعرها والتسليم للمقادير والرضى بالحظ كل ذلك يدور في لغة حكيمة محترمة شريفة مؤثرة .

وتدور الأحداث وكل مفاجآتها تجتمع في النهاية لتفسير اللغز المجهول .

وحيد خلق لوفاء ، وهي خلقت له منذ النشأة .

وحيد لم يقصد أن يخدع سهاماً ، لأنه كان يحسب أن حبه لوفاء لا يستهلك حب الأزواج .

سهام تعرف أنها مخدوعة ، ولكن بغير قصد .

سهام تعرف أن وحيدا ذو قلب كبير وإنسانية رحيمة ، ولكن لا يملك سوى القلوب إلا الله .

ومن عرف الهوى رحم القلوبا .

سهام تعرف أن (وفاء) لا تضمر غدرا ولا خداعا ، بل إنها تروض نفسها على التضحية من أجل سهام نفسها .

وكمال وهو إنساني بمعنى الكلمة يدرك سر كل الأحداث المفاجئة والفواح غير المقصودة والتوايا الطيبة عند أبطال المأساة أو الملهاة .

فيكون سباقا إلى إقناع أخته سهام بأن تضحي بعواطفها لأجل الضعيفة البتيمة الكرعة التي تمارس التضحية بعواطفها .

ولولا الاستعداد للخير في قلب سهام وعنصرها الطيب قبل أن يلفتها أخوها إلى ذلك لما بادرت إلى التنازل لوفاء عن وحيدها فريد .

ولا غرابة في ذلك فالخلع عقد منحتنا إياه شريعة الله .

و يسدل الستار على وحيد وهو يأسو قلب وفاء في فراش المرض ، و يتجدد الحوار الإنساني العاقل الواقعي المثالي في جو من التفاهم والمكاشفة والتضحية .

و يعود اللحن الخالد يسترد هيمناته .

و يستثمر نداء الحب العريق بظاهرة الاقتران المشروعة المباركة .

إن أبطال المأساة يخرجون من مأساة لم يصنعوها هم بأسباب من الخير والبراءة المعننة الشاقة .

وإذا أردنا أن نقطع هذه الرحلة في عالم الخيال والظلال لنقرب من الحقيقة خطوتين قلنا :

إن فريدا الأطرش معروف بالطيبة ، ولهذا كان دوره في المأساة صورة صادقة أمينة لخبايا فريد .

إنني أخلع الشاء على أبطال المأساة من فريد الأطرش إلى فاتن حمامة .
وربما قيل لتلميذ ابن حزم: ليس كل واحد من هؤلاء يستحق أن يقال فيه: رضي الله عنه أو عنها .

ولكنني أقول: رضي الله عن المعاني التجريدية التي طبقها هؤلاء فجددت فينا معاني الخير، وإن كنا في رحلة خيالية .

لهذا دعوت إلى استجلاب فيلم لحن الخلود .

ولا يعيب علينا رومانتيكية الأفلام إلا من يجهل التطبيب النفسي للأطفال الكبار .
والفيلم يحفل بأغنيات لفريد الأطرش ليس من بينها أغنيته (اسمع لما أقل لك) بلغة القاف المهموزة على أن هذه الأغنية مثال صحيح لأحداث الفيلم وهي أعظم دلالة من أغرودة بنادي عليك .

فيلم عريس بنت الوزير

نحن أمام الشاشة بعد ظهر الأحد الموافق ١١ / ٦ / ١٣٩٦ هـ أمام فيلم (عريس بنت الوزير) بطولة فؤاد المهندس الممثل المرح صاحب (كلمتين وبس).

يؤسفني جداً أن يخدّم فنه و يضحي في تسليّة الجمهور بتعريض أم أحمد إلى ديوثة لا موع لها إلا أن الفيلم رحلة خيالية، ولكن تسجيله في الاستديو متعة واقعية.

إن حياة هؤلاء الفنانين لاهية جداً، وربما استثنينا فريد شوقي المصارع الوحش فهو ذو غيرة فذة في هذا الوسط المتهتك.

الفيلم بمنتهى القذارة، مزعج للأعصاب يروع المبادئ والقيم.

تدور القصة حول زواج البطلة من رجلين اثنين، وهذا ما لم نسمع به في الواقع إلا ما أشاعته الصحف منذ أربع سنوات من زواج المطربة عليّة التونسية من اثنين.

البطلة حائرة بين الوحشين في مغامرات معهما وكل واحد منهما يمثل دور عنتر في الدفاع عن عبلته وفؤاد المهندس وسيط بينهما.

وتنتهي المأساة باختيار زوج ثالث هو فؤاد المهندس، وهو الزوج الأول والآخر.

الفيلم بعيد عن الواقع جداً، ورغم بعده عن الواقع فالخيال فيه أيضاً ساذج، وهو أشبه بالمرحبة الفكاهية أو هو مسرحية فكاهية، وهذا طبيعة عمل المهندس وشو يكار.

الوقفات الفكاهية التي يؤديها المهندس مرحة وممتعة، والفيلم يهدف إلى هدف سياسي وقع، يصور سذاجة الباشاوات ودناءتهم وجبنهم وتغفيلهم ودناءة الأتباع.

والبطلة بنت باشا، والواقع أن هذا الفيلم فشل فشلاً ذريعاً في تحقيق هدفه.

أعني تصوير الحياة الباشوية بالوجه الكالح، لأن المبالغة والتكلف لا تدنو بالمشاهد ولو إلى ظلال الحقيقة.

بل إن في هذه المبالغة ما يعني أنهم لا يجدون صورة صادقة في تحريتهم عن مساوئ الباشاوات. وهو الأمر الذي بالغت الثورة في تجسيده وتجنيد الفن والأدب والدعاية لخدمته، لتظهر المأساة في

النهاية بوجه أقيح إن اعتبرنا هذا الفيلم مسرحية فكاهية فهو تسلية ممتعة لا تجسد مبدأ ولا تخدمه ،
أما أن يكون فيلما خالدا ذا عبقرية في الخيال واللغة (الحوار) والعقل والتجربة فلا .
ومساء الاثنين بإذن الله تغادر ظل الكورنيش ومسارح زيزي وزوزو إلى شمس البلاد وعزها .
الشمس التي ألهمت صقعنا شهامة ورجولة .

رموع الحب

نحن في منتصف الليل أمام الشاشة ليلة الجمعة الموافق ٨ / ١ / ١٣٩٦ هـ وفيلم هذه الليلة فيلم تاييحي مؤثر مأسوي ، ولكنه ينطوي على عيب فني في إعدادة نصا تتكلم عنه في نهاية هذه الرحلة .

والفيلم بطولة الموسيقار الدكتور محمد عبد الوهاب و(نجاة الكبيرة) نجاة علي ، تم تسجيله في حدود سنة ١٩٣٣ م ، وهو ثاني فيلم سينمائي سجله عبد الوهاب .

تكلم عبد الوهاب عن هذا الفيلم في مذكراته التي أعدها محمد رفعت المحامي (٣٣) .

قال عبد الوهاب : (كنت متأثرا بكتب المنفلوطي وبخاصة رواية مجدولين فاقترحت على (محمد كرم) مخرج الفيلم أن تكون مجدولين هي موضوع فيلمي الثاني .

وقد تبين لنا أن الرواية مترجمة عن الفرنسية ويجب الحصول على إذن من ورثة المؤلف الأصلي ، واستطنا أن نحصل فعلا على الإذن المطلوب نظير مبلغ بسيط) . اهـ .

وعن نجاة الكبيرة يقول عبد الوهاب : إنهم اختاروا (نجاة علي) لإدخال الديالوج الغنائي في السينما .

والعجيب أن محمد كرم عدو للبدانة فاشترط على نجاة أنه إن زاد وزنها لأي سبب سيخصم منها عشرة جنيهات في نظير كل كيلو جرام .

نص على هذا في العقد فلما سافرنا إلى باريس كما كانت عادتنا لتصوير المناظر الداخلية وتسجيل الصوت كان محمد كرم يفرض على نجاة أن يقتصر طعامها على اللحم المشوي والسلطة والخبز (التوست) .

ورغم هذا فقد كنا نلاحظ أن نجاة يزداد وزنها بمرور الأيام . اهـ . باختصار .

وعن الفيلم عموما يقول عبد الوهاب : ولن أنسى ما حييت الشقاء والعذاب الذي تحملته في تصوير هذا المشهد العاطفي الرقيق — يعني تناجيه في الزورق مع نجاة علي — الذي كان المتفرج يراه

وبحسدي بغير شك على النعيم والهناء الذي أستمتع به .

قال : كانت نهاية قصة الفيلم حزينة مفاجئة فقد كان ينتهي وأنا أغني على قبر حبيبتي : (أيها الراقدون تحت التراب) وحدث أن بعض المتفرجات أغصى عليهن .

ظلموني في الناس

(ظلموني الناس) فيلم أخرجه حسن الإمام ، منذ عشرين سنة ونيف ، تقاسم بطولته :

(ف . ح) و(ش) و(كمال الشناوي) و(شكوكو) أما قصته بإيجاز فكمالي :

طاهر أفندي عنده بنتان هما :

نعمات (ف . ح) وزينب (ش) .

وعهدي بشيخ فلاسفة الغرب (ديكارت) يبدأ من (المتاهي) ليصل إلى (اللامتاهي) في صياغة (الكوجيتو) المشهورة ، وعذره أنه لم يجد (كمالا لا متناهيا) في هذه الحادثات .

وقوله حق ، لأن الكون أحداث وما رأينا في هذا الكون قط كمالا (لا متناهيا) وإنما هي مظاهر من الكمال ، وقد أخبرنا ربنا سبحانه عن خلقه : أن (كل شيء عنده بمقدار) وأنه (يزيد في الخلق ما يشاء) وما رأيت أعلى قدر نسبي من (كمال الجمال) توفر في أشخاص الكون كما توفر في هاتين الفتاتين اليتيمتين من جهة أمهما .

وليس هذا الجمال الطبيعي غير المجلوب من المواصفات التي تشكلها ريشة فنان (رسام) يزعم بعض فلاسفة الجمال أنه يأخذ ظلال الطبيعة ويحولها إلى كمال ، وهؤلاء هم أصحاب النظرية الموضوعية ، وهؤلاء المغبونون الخاسرون يرون المثل الأعلى للجمال في ريشة الفنان الاكلكتيه (التلفيقية) لأنهم يرون فيها تحويرا للطبيعة لتقرب من نظرية (المثل الأفلاطونية) ولهذا رأوا في ريشة الرسام المستولي على فنه ظلالا للمثال .

قلت : ليس جمال هاتين الفتاتين من ذلك النوع ، لأن هذا الجمال يطرب العقل فيستجيب بإطلاق أحكام عن عظمة ذلك الجمال وعمقريته ، ولكنه لا يحدث قشعريرة في الجسد الصاحب فضلا عن الجسد الهادئ كذلك القشعريرة التي حدثنا عنها (المهندس) في (بحيرة كومو) .

وليس جمال هاتين الفتاتين من الجمال الذاتي المجرد المطلق ، فأصحاب النظرية الذاتية يفسرون الماء بعد الجهد بالماء .

نقول لمتيهم:

لماذا تحب؟

فيقول: لأنني أحب.

هؤلاء رضي الله عن صلحائهم ومتعفهمم يحتكمون إلى قلوبهم وهي كراسي انفعالاتهم ويعتبرون أية مواصفات (استاطيقية) من باب الدعوى الممرأة من البرهان.
فإن قلت: هاتوا برهانكم: قالوا: ها هو عذاب قلوبنا أكبر برهان.

وقد تجلّى هذا البرهان في نظرات سارحة وعبرات نازحة وتنهدات جارحة، وحرمة تشتعل في الوجنتين ومنطق يختال على الشفتين وهذا النوع من الجمال دائما وأبداً واحد لأن العلاقة واحدة، أي لأنها صلة قلبيين لا أكثر، ونظرية المواصفات الموضوعية تعتبر هذا الجمال وهماً، لأن الذوق عادي مختلف غير مستفيد من خبرات الاستاطيقا.

كلا، فليس جمال (بنتي طاهر) من هذين النوعين وربما قلت:

هذا النفي انشقاق عن الإجماع، ومفارقة الإجماع شذوذ، وعذر هذا المستشكل: أن علماء الجمال أجمعوا على أنه لا وجود لجمال غير موضوعي أو ذاتي.

قال أبو عبد الرحمن: إن ضاع هذا الإجماع فهو إجماع غير معصوم، ذلك أن (طاهر أفندي) خلف لنا نوعاً ثالثاً من الجمال هو الجمال الموضوعي الذاتي في آن واحد.

أما أنه ذاتي فلأن القلوب كلها — لا تحاش منها شيئاً تلثمه لثما بتلايها وسو يدائها ونبضاتها.

وأما أنه موضوعي فلأن العقول كلها — لا تحاش منها شيئاً ستتمد منها براهيتها وشواهداها لأعظم ما شاهد الحس البشري من تجليات (الكمال في الجمال).

ولقد رأيت (ف. ح) منذ ثلاثة أيام فقط يتحدث في مؤتمر المثقفين أي بعد عشرين ونيفاً من قصة (طاهر أفندي) فبكيت بكاء فنت قلبي.

أين ذلك الفردوس المفقود والجوهر السليب؟

آه، واضيعة الشباب لا ترى إلا سحنات تخبر عن مجد عريق، تحونه الدهر وهل في الكون أعظم مجداً من مجد سحنات كانت (لاحظت كلمة كانت) تستعبد القلوب؟

وهل ثمة خطب أفدح من تمرّد القلوب وانشقاقها بعد تميع الصبا ونضوب الرواء وانحلال الطيوب؟

وهكذا تماماً رأيت (ش) منذ ثلاثة أيام وبعده عشرين سنة وهو يتنهد بمقطوعة (الوداع) متعللاً بأصداء الماضي أهش من (أعواد الخروع).

يا إلهي إن قلوبنا ضعيفة لا تطيق أن ترى غيوماً داكنة كانت فجراً باسمها في مقلتها، ولا تطيق

أن ترى عزيز قوم ذل فتمسك بخيط العنكبوت.

كان طاهر أفندي رجلاً فقيراً معدماً، وكان موظفاً بإحدى الشركات (أمين خزانة) وكان في منتهى الصلاح والعفاف والأمانة والتقوى والورع والنزاهة والرجولة والشهامة، وعلم بنيه هذه المثل الرائعة العالية، وكانتا بين (أربعة جدران) لا يعرفن شيئاً من أوشاب العصر الحديث.

وتقدم لخطبة زينب أحد الباشوات الأثرياء، يريد لها لابنه المحروس (شكوكو) وفي ليلة الزفاف أبدى الباشا مخايرة في الزواج لأنه علم أن (طاهر أفندي) فقير معدم (على الحديدة) وما أن علم (طاهر) بهذه المخايرة حتى طردهم أحسن طردة مستلهما في ذلك مثله العليا.

ولاحظ مدير الشركة حزن طاهر، وحرصه على تكوين ماله، ففرض عليه طريقاً للشراء العاجل وهو (عملية تزوير) يشتركان فيها، ولكن طاهر أرفض ذلك بحماس منقطع النظر لأن الرجل على الخلق الذي وصفت.

وعندما فتح طاهر خزانة الشركة افتقد منها ثلاثة آلاف جنيه وشاء الله أن تحيط به ظروف وملايسات معينة صارت أدلة قوية على أنه هو الذي اختلس المبلغ وضعت أمام المحكمة جميع البراهين التي قدمها المحامون عنه من كونه أميناً مدى عمره وأنه لا يزال معدماً، وبقي طاهر في الزنزانة، وبقي المروجون يبالغون في الجرعة في مجالسهم: طاهر لطش ثلاثة آلاف جنيه، طاهر سرق عشرة آلاف جنيه، طاهر اختلس ثلاثين ألف جنيه، وضاعت سبل الحياة في وجه البنيتين طلباً للقمة العيش.

وتحلى عنهما عمهما وخالهما، لأن طاهراً شوه سمعهما، وتبرأ من هذه القرابة، وذهبت نعمات وأختها تلتسان عملاً شريفاً فعادت إلى بيتها آسفتين حزبتين لأن فرصة العمل مشروطة بشرفهما، وفي لحظة فاجأهما شكوكو لينقذهما بعمل في كازينو النيل لا في المحكمة، وادعى أنه وصي عليهما من قبل أبيهما.

ورفضت الفتاتان هذا المشروع لأنهما ربيتا في حجور العفة، وكانتا تشهدان بالقرآن والحديث فكان هذا عجباً، عجب أن نأخذ المحكمة بالغربال تقطر غزلاً من لسان (ف. ح) و(ش) لا فاض الله فاهما، وبعد تشاور اقتنعتا لأن معهما (شكوكو) رجلاً سبياً عضلاً!

فاستقلا عريّة شكوكو مصحوبتين بالسلامة لتغنيا للجمهور في كازينو النيل، ففتتا في الكازينو بهذه الأبيات:

يا أيها الناس اعلموا	إن كنتم لا تعلموا
أن الحياة مريّة	والعيش منها مظلّم
وتمسكوا بكرامة	وتأدّبوا وتحشّموا
الاستقامة جوهراً	من كل شيء أعظم

أما الذين استهتروا ————— فلهم عذاب جهنم

وغضب مدير الكازينو من هذا الغناء الوعظي، خوفاً من تفرق الزبائن، وليس الكازينو منبرا
لمثل (وتأدبوا وتحشموا) وإنما الكازينو منبر للغناء الفرائحي .

ومن ثم انهمكت الفتاتان في الرقص والدبكة والغناء بمثل هذا اللون :

فوق جبالك يا لبنــــــــان وصبايا مثل الفــــــــزلان
تمشي وتلجج ع الميــــــــه يا غزيرــــــــل ... إلــــــــخ
حيبي وعيونــــــــه ســــــــود أما الكحل ربانــــــــي
ويهز شكوكو طر بوشه بمثل هذا الزجل :

حب الحلوين سنة خمــــــــين زي الكبريت لما يولــــــــع

وتقع الفتاتان في المشاهد الغرامية ولكنه غرام عفيف، لأن ما دون العسيلة عفاف في عرف
الأفلام .

وتظهر براءة طاهر أفندي، ويتضح أن الذي سرق المبلغ أحد أبناء الباشوات، و يصدم طاهر
عندما يجد بنتيه ترقصان وتغنيان، ويقنع عندما أقسمتا وأقسم (شكوكو) أنهما لا تزالان عفيفتين
و يلتصق الناس بطاهر يتقدمون لخطبة بنتيه بأعلى ثمن و يسبقونه إلى البيت بالأثاث والملابس، غير
مطالبه يدا بيد، لأنه أصبح ثريا لأجل ثلاثين ألف جنيه سرقها، وكان عقابه بضعة أشهر في
السجن، و يقف خطيبا فيهم يؤنبهم و يشرح لهم حقيقة الموضوع فيأخذون في التفرق عنه و يستردون
متاعهم لأنهم عرفوا أنه لا يزال فقيرا .

وفي خلال ذلك يصل (الباشا) الذي سرق ابنه المبلغ و يعتذر من طاهر أمامهم و يناوله عشرة
آلاف جنيه بشيك مهرا لابنته، فيعود الرفاق إلى الولاء من جديد .

إن روعة هذا الفيلم — كغيرة من عشرات الأفلام — في مشاهد وحواره، أما قصة الفيلم
وموضوعه فعادي جداً، لا أثيره للخيال، ولقد انتقدت رواية غريبة بمثل هذا النقد .

ولأزال أذكر صديقا — أظنه الحبيب — انتقدني شفها بمجلة اليمامة، بأنني لا أفهم الغرض
من الرواية .

قال أبو عبد الرحمن: منذ التحقت منذ ثمان سنوات بمراقبة الأعمال الفنية بالتلفاز السعودي
حرصت على متابعة الأفلام فرأيتها لا تخلو من ثلاثة أمور لا رابع لها .

١ — أفلام تافهة في فكرتها، عقيمة في موضوعها، ولكن الروعة في المشاهد والأحداث الجزئية،
وهذا هو الأغلب كالفيلم الذي نتحدث عنه، والعيب في هذا: أن روعة العمل منسوب

- للمخرج وممثلي الأدوار، أما المؤلف فلم يورد سوى فكرة عادية قابلة للتحوير لكل تجربة .
- ٢- أفلام مفرقة في الخيال من ناحية الموضوع والفكرة، وهو إغراق لا يستعصي على متوسطي الذكاء، كما أنه خيالي وساذج في آن واحد من ناحية مشاهدته وأحداثه الجزئية، وشر أنموذج لذلك (شهداء الغرام) بطولة (ل. م) ولولا ما فيه من وصلات غنائية كان في منتهى التفاهة .
- ٣- أفلام مشاهدتها ممتعة وموضوعاتها لا تخلو من موضوع دسم قريب من الواقع . وخير أنموذج لذلك فيلم (لحن الخلود) والفيلم المأخوذ من عبرات المنفلوطي الذي اقتسم بطولته محمد عبدالوهاب ونجاة علي .
- وإنما يكتمل العمل الفني للأفلام إذا لم نستغن بعبقرية المخرج والممثل عن عبقرية المؤلف، وإذا لم نستغن بالمشاهد الممتعة عن الموضوع والمهدف المكتملين عقلا وخيالا .

فيلم ارحم حبي

فيلمنا هذه الحلقة فيلم ليلة الأحد الموافق ١٠ / ١١ / ١٣٩٦ هـ بطولة شادية — مريم فخر الدين — عماد حمدي — كمال الشناوي .

وهو بعد تطبيق عماد حمدي لزوجته شادية أي بعد فيلم (شاطيء الذكريات) ولولا ذلك لأشفقت على عماد كيف يرضى لزوجته بهذا الدور المؤلم .

الفيلم قدر لا يصلح لوسط كوستنا لم يعرف الهزائم الخلقية بعد .

إنما يصلح — ليعتبر به — من مارسوا الهزائم .

قصة الفيلم أن شادية ومريم أختان تعلق بهما كثير من الرجال ، وكانت شادية تمثل دور الحاملة الصبية المتهتكة المشهية ، وعكسها مريم تمثل دور الشابة النزيهة العاقلة .

لا يعيبها إلا نضحيتها بالتستر على الخيانة حرصا على مستقبل أختها وزوج أختها وطفلهما .

كانت مريم تحب عماداً إلا أن عماداً لا ينتبه لذلك ، وقد غامرت أختها شادية فاخطفت منها عماداً وتم الزواج .

عماد يمثل دور الطبيب النزيه الإنساني المكافح وشادية تلعب على الحبلين وتغطي عنها أختها وتحمل التهمة .

وتبقى متهمة إلى أن ماتت شادية وتزوجها عماد إذ اكتشف الحقيقة .

والواقع أن مفاجآت الفيلم متمعة وجذابة ، ومن عجائب ما يقع بالندرة في حياة الناس .

غنت فيه شادية أغنيتين إحداهما (حبيبي أهوه) وبدت شادية ممثلة بارعة تجيد دورها بلا تكلف .

وفي الفيلم عبرة: عبرة الزواج العاجل من أول نظرة .

ولكن الناحية اللاأخلاقية فيه أكثر ، ولهذا قلت : إنه لا يصلح لأناس لم يعرفوا الهزائم، أسبل الله على بلادنا وبلاد المسلمين ستر العافية .

بَينَ العبقريةِ والجنون

إمام المنطق الحديث فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦ م) صاحب كتاب (تقدم العلم):
يردد من الذاكرة ما ورد في كل كتاب من كتبه كلمة كلمة من الذاكرة!

كان رئيس غرفة التعذيب في البلاط الملكي، وكان مرتشياً، وكان مرافعاً فذاً في سبيل إعدام
صديقه (الايرواف أيسكيس) لقاء مبلغ من المال!

أبو الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠ م) إمام في التأمل والنظر مجدّد في الفلسفة
عامل جاد، لا يقصر في أداء فروض دينه المسيحي: كان غير نظيف العرض، يغامر وبجهر!

عسكري الأدباء والكتاب فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨ م): كان لا يبدأ الكتابة إلا عندما يضع أمامه
مجموعة من أقلام الرصاص لا تقل عن اثني عشر قلماً، وبعد أن ينتهي من الكتابة يكسرها ويلفها
بالورقة التي كان يكتب عليها ويضعها تحت وسادته عندما ينام!

إمام الرومانسية، وقتيل الثورة الفرنسية جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨ م):
كان يخشى البرق والرعد، لأنه يظن أن كل شيء في الوجود منافس له، وكان لا يأكل إلا
الطعام الذي يجهزه بنفسه!

وكانت ليلاه التي جن بها بادلته الحب ووجهت أدبه (دواورين) فإذا به يتزوج خادمة أمية
تدعى تيريز لوفاسور!

وإذا به يدخل أولاده الخمسة بملجأ اللقطاء!

محرر الأمريكيين جورج واشنطن (١٧٣٢-١٧٧٩ م) الجنرال السياسي القدير: كان يرتبك
أمام الغرباء لشدة خجله، ولخجله الشديد كان شديد الكبرياء.

أحد الدهاة السياسيين، تاليران صديق نابليون ووزير خارجيته كان قسيساً، داهية حليماً
سريع البديهة ذا أخلاق فاضلة في أمور كثيرة، ومع هذا كان مرتشياً، وتزوج رغم أنه قيسر، وكان
زواجه من عاهرة وهو يعلم، وقد دبر المؤامرات ضد صديقه نابليون وكان كأبي براقش يتكيف مع
الأوضاع!

أعظم عبقرية عسكرية نابليون بوناپارت (١٧٦٩-١٨٢١): لم يكن يشرع في رسم أية خطة

حربية إلا وهو يمتص أقراص السوس !

كان خطه رديثا يظنه الناس خرائط حربية !

أحد مؤسسي الاشتراكية العلمية روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) : تحول من قائد للعمال له صده واحترامه إلى أسقف لطائفة صغيرة و يعلل برتراند رسل ذلك بأن طموحه أكبر من حجمه وأكثر من عمره .

شاعر الإنجليز بايرون (١٧٧٨ — ١٨٢٤ م) : كان شعره ظاهرة جنونية مردها إلى عقد ورثها عن سير الأدباء ، و يطول بنا عرض هذه العقد .

الشاعر العظيم شيللي (١٧٩٢ — ١٨٢٢ م) : كانت حياته كلها نوما وقراءة .

كان يأكل و ينسى أنه أكل ، يغلبه النعاس في النهار فينام في أي مكان كالطفل .

ذكر صديقه تريلوني أنه ترك شيللي في الساعة العاشرة صباحا وكان واقفا بجوار مدفأة غرفة مكتبة يقرأ ، ثم عاد إليه في الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه فوجده على حالته ذا شحوب وإعياء .

بلزاك هو نورادي (١٧٩٩ — ١٨٥٠ م) الكاتب القاص الفرنسي المشهور : لم يكن أقرباؤه وأصدقاؤه يعرفون له مقرائبا ، كان يسكن بيتا ثم يستبدل به آخر بعد أيام أو ساعات .

وكان ضعيف الذاكرة لا يعرف اسم اليوم أو الشهر أو العام الذي هو فيه .

وروت جورج صائد في مذكراتها أنه متفطرس لا يترك الحديث عن نفسه ، وكان يسير في الشوارع و يسجل أرقام البيوت ثم يجمع الأرقام فإذا كان المجموع مضاعفات الرقم ٣ سار في طريقه ضاحكا مستبشرا .

ووالد بلزاك مكث طريح الفراش عشرين عاما دون داع ، ثم قام واستأنف حياته اليومية دون داع .

فيلسوف ألمانيا الشهير شوبنهاور (١٧٨٨ — ١٨٦٠ م) : كان يحدث نفسه في الطريق بصوت جهوري ، وكثيرا ما كان يسجن نفسه في غرفته عدة أشهر .

ووقفت والدته على باب غرفته يومين فلم يأذن لها بالدخول .

الروائي والقاص الشهير الكسندر دوماس (١٨٠٤ — ١٨٧٠) : كان زير نساء رغم بدانته ودمامته بلغ أولاده خمس مائة .

كثيرا ما كان ينسى مواعيد طعامه لانهماكه في الكتابة .

يكتب رواياته على ورق أزرق بأقلام خاصة ، و يكتب قصائده على ورق أصفر بأقلام خاصة ، و يكتب مقالاته الصحفية على الورق الوردي .

كان يكتب على ركبته ، لم يستعمل المنضدة قط .

الفيزيائي الأمريكي مخترع آلات الكهرباء وغيرها أديسون (١٨٤٧ — ١٩٣١) : فشل في دراسته ، وقرر أساتذته بأنه أبله ضعيف العقل ، وتكهن الأطباء بجنونه نظرا لشكل رأسه الغريب . وبعد نبوغه كان ينسى اسمه و ينسى أنه أكل .

المصور الهولندي القدير فان جوخ (١٨٥٣ — ١٨٩٠) : قالوا : إن هلوسته من نوع الرقة المفرطة الغضب الشديد .

الكاتب الروسي الروائي الشهير تولستوي : فشل في دراسته وعجز مدرسه الخصوصيون عن دخال أي علم في حجمته الكثيفة ثم نبغ بعد ثلاثين سنة .

كان مترفها في أول حياته وفي آخر حياته ارتدى ثياب الفلاحين الخشنه ، وصنع أحذيته بيده .

القاص الإنجليزي الشهير تشارلس ديكنز (١٨٠٣ — ١٨٨٠) : كان يغادر منزله وسط الظلام . يتيه في شوارع لندن كالمجنون قاطعا ١٥ ميلا أو ٢٠ ميلا دون مأرب .

وربما دخل بيوت أصدقائه من نوافذها مرتديا ملابس البحارة .

الكاتب الروائي الروسي الشهير (دوستويفسكي) (١٨٢١ : ١٨٨١ م) : كان أخرق التصرف ي ماله ، هرب من روسيا أربعة أعوام لكثرة دائنيه .

وكان يفكر دائما في قطع صلته بمعارفه .

وقد قطع إحدى أذني صديقه بول غونان في نوبة من نوباته .

وقد مات فان جوخ منتحرا .

الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣ م) : كان يقضي معظم وقته في لأماني والأخيلة (أحلام اليقظة) وكان يحادث نفسه في الطريق بصوت جهوري .

أحد المخترعين في مسائل الطب العالم باستير (١٨٢١ — ١٨٩٥ م) : لم يحضر ليلة زفافه . لأنه نكس على أنابيب الاختبار في مختبره .

الفيلسوف الألماني نيتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠ م) : كان منظويا على نفسه مات مجنونا واستمر جنونه ما يقرب من اثنتي عشرة سنة .

واضع النظرية النسبية الخاصة ، اينشتاين (١٩٧٩ — ١٩٥٥ م) : كان منظم التفكير إلا أنه وضوي في بيته وشؤون حياته .

كان يصفر و يغني بأعلى صوته في الحمام .

الشاعر الروائي الأيرلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤ — ١٩٠٠ م) : كان ذا شذوذ جنسي ، وكان

غريب الأطوار.

زعيم إيطاليا موسوليني (١٨٨٣-١٩٠٥ م): كان ساحرا مجنوناً يحب الإطراء.

زعيم الألمان هتلر (١٨٧٩-١٩٤٥ م): حلل العقاد عبقريته وجنونه في كتاب خاص.

الروائي الفرنسي والكاتب المسرحي، هنري دي مونترلان: مات منتحراً لا شيء إلا أن الرواية تقرأ الانتحار.

الكاتب الروائي، أميل زولا: يزعم أنه إذا اختل بنفسه ليلاً رأى أضواء غريبة تبرق وتنطق حوله وسمع أصواتاً هامة تدوي في أذنيه.

وكانت تلازمه هوية إحصاء مصابيح الغاز على جوانب الطرق والأبواب المعلقة خلف العربة. وكان إذا دخل بيتاً وقدم رجله اليمنى ناسياً خرج مسرعاً وعاد ليقدّم اليسرى تشاؤماً من اليمنى.

وكان إذا أراد قفل بابه يفتحه ويقفله عدة مرات قبل أن يتركه مقفولاً. الشاعر العظيم جيراردي نفال: صرف ميراثه وعاش فقيراً معدماً، قضى حياته في بوهيمية، وبعد عودته إلى باريس من مصر ولبنان بدأت ظاهرات الجنون في تصرفاته وفي النهاية شق نفسه. الأدبية الناقدة الكاتبة البريطانية فرجينيا وولف: في ٢٨ من شهر أذار سنة ١٩٤١ م خرجت من بيتها وأغرقت نفسها في نهر بلندن.

قيل: إنها جنت، وقيل إنها نتيجة رؤيا مزعجة.

الروائي العالمي همنغواي: أنفق حياة بوهيمية، وأطلق على نفسه رصاصة قتلته سنة ١٩٦١ م. الشاعر هولدرن: استخف غوته بشعره وسخر منه، فصدّم وجن جنونا عظيماً وانتحروا وهو مجنون، ونحت وطأة الجنون كتب أعظم أعماله الخالدة. الرسام الشهير وبلاك: وضع بمستشفى الأمراض العقلية فاعتقد أنه يعيش مع شخصيات تاريخية فقدت في عهد سحيق.

الشاعر الروسي مايا كوفسكي: انتحرت في موسكو سنة ١٩٢٠ م.

الأديب الياباني القاص ياسواري كابانا: انتحراً لأنه لم ينجز أعماله الأدبية، فهو صاحب أكبر إنتاج غير متكامل.

المفكر الفرنسي مونترلان: انتحراً متأثراً بنصائح نيته.

هذه نماذج لعباقرة مجانين، أو مجانين عباقرة من الغربيين، وقد تركنا آخرين من أمثال جورج صائد ودارون وشومان وبدليز ولوكريسي وأوجست كونت.

بل قيل : إن المصايين بالانفصام من الكتاب والرسامين الثلثان .

وتركنا عباقرة لم يكونوا مجانين وإنما أدخلوا مستشفيات الأمراض العقلية ظلما وعدوانا .

من أولئك إيزرا باوند روج اليهود أنه مجنون لعدائه لهم ، والدكتور علي عبدالسلام المصري أرسل كتابا لرئيس الحكومة مصطفى النحاس وآخر للنقراشي وزير المعارف يطالب الدولة بأن تستفيد منه ، فتصرف عليه لينال دراسة عالية وتحمس فأدخلوه مستشفى المجاذيب عشر سنوات وقد نشر بالمصور مذكراته عالم المجانين .

وفي مذكراته نوه بزملاء له في مستشفى المجانين كانوا شعراء ورسامين وأدباء وفلاسفة ومثاليين . وذكر جون جنتري في كتابه (داخل أمريكا اللاتينية) أن حكومة إحدى دول أمريكا الجنوبية انتهزت فرصة إحدى المعارك الانتخابية البرلمانية فاعتقلت زعيم المعارضة هناك بحجة أنه مجنون وبقي في المستشفى بضعة أيام إلا أن حصانته البرلمانية ، وجهود أهله وأنصاره أحبطت المؤامرة . وقد عرفته المنابر خطيبا مفوها .

والدكتور محمود علي النفراوي أحد العرب المخترعين من مصر نشرت مجلة الاثنين مأساة اتهامه بالجنون .

واليك هذا الأنموذج من عباقرة المجانين في المشرق العربي :

حجي بن موسى الشافعي (توفي سنة ٧٨٢هـ) : كان آية في كثرة الاطلاع وصحة النقل ، وكان غواصا نقالا عارفا بكل المشكلات صحيح الفهم سريع الإدراك .

قال ابن حجر: كان ساذجا من أحوال الدنيا ، لا يعرف صحة عشرة من عشرين ، ولا يحسن برابة قلم ولا تكوير عمامة .

عبدالواحد بن علي بن برهان أبو القاسم النحوي (توفي سنة ٤٥٦هـ) : كان شرس الأخلاق جدأ ، لم يلبس سراويل قط ، ولا غطى رأسه قط ، كما قال ابن كثير .

أبو العباس بن البناء أحمد بن محمد الأزدي العدوي : له تأليفات حسان ، ثم استحوذ عليه الشيطان ووسوس له أنه من أصحاب المكاشفة إلى ما يقرب من الوحي .

أحمد بن عبدالله بن هاشم الفقيه الشافعي أبو العباس المثلث : ادعى أنه رأى الله في المنام ، وأنه أسري به إلى السماوات السبع ، وصرح بأنه المهدي المنتظر ، وادعى النبوة ، ثم لطف الوضع قليلا فقال : أنا رسول رسول الله .

أحمد بن إبراهيم الحنبل بن نجم الدين المقدسي : انحرف مزاجه فكان يقف في الطرقات وينشد أشياء مفيدة ، ويتكلم بجذو وهزل وربما ثاب إليه عقله فعاد إلى طبيعته .

نجم الدين أبو بكر بن محمد بن خلكان : كان يهذي ويصرخ بأنه خليفة الزمان ، وأنه ستكون

له دولة، وأنه يوحى إليه .

أبو عبدالله محمد بن عبدالله الجزيري الظاهري : ارتكب حماقات من جنون الفكر والخيال حتى قتل .

ونخيل للامة أنه يتصور في صورة قط أو كلب .

قال ابن حجر: وكانت العامة ترحم الكلاب والسنائر بسبب ذلك .

عبد الكريم بن علي الشهرزوري زين الدين القوصي : كانت تتطور أحواله في اليوم والليلة تارة يباشر المكوس ، وتارة ينقطع في بعض الأرباض في زي الفقراء !

ونحن نعتبر أئمة الذوق الصوفي من عباقرة المجانين كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني وأحمد البدوي .

وكذلك أصحاب الفخر المرف لاسيما غلوأبي الطيب وابن هاني .

وكذلك الذين راضوا سلوكهم بقسوة لم يفرضها عليهم دين ، وإنما هي وسوسات الفكر وجنون الخيال كالمعري .

وإذا كنا نجد تقاربا بين الجنون والعبقرية في سلوك بعض الأفراد فإننا نجد هذا التقارب في المدلول اللغوي .

يقول اللغويون كابن منظور وابن سيده ، وابن الأثير : عبقر موضع بالبادية كثير الجن ينسب إليه كل ما يثير العجب في حذقه أو جودته أو قوته .

وإذا كانت ظاهرات الجنون تصرفات شاذة في المجتمع ، فإن العبقرية حالة شذوذ أيضا .

فهذا هو لتجورت من علماء النفس يرى أن للذكاء مقياسا لا يصل إليه سوى ستة أشخاص من مليون شخص .

و يرى فرانسيس جولتون : أن العبقرية قدرة إبداعية ذات مستوى عال بشكل غير مألوف كما هو ممارس في المنجزات اليومية المعتادة .

ولندرة الحالتين كانت العبقرية كما يرى سيزار لومبروزو (١٨٣٦ - ١٩٠٩ م) صراعا فيما بين الذات والبيئة كل موضوع يتطرقون إليه يتشعب إلى غير نهاية أمام عقولهم الخصبية .

قال أفلاطون عن الشاعر: لا يمكن أن يبتكر قبل أن يلهم فيفقد عقله .

ولهذا كان لامرئين لا يفرق بين العبقرية والمرض العقلي ، وقال لانج ايكيانوم : تزدهر العبقرية بما

يلي :

١ — زيادة المرض لحدة الانفعال وقلة المقاومة وضبط النفس ، فيكون مرهف الحاسية لأ بسط
المثيرات .

٢ — الشعور بالتعاسة والقصور ومحاولة التعويض ، فتزداد دوافعه بما لا يتوفر للأصحاء .

٣ — بعض أنواع الاضطراب يصحبها نشاط قوي في التخيل .

وكان لنجفيلد يقول : لا تقل فلان كثير الانفعالات لأنه فنان .

ولكن قل : فلان فنان لأنه كثير الانفعالات .

وقال مالوفي كتابه أصوات السكون : لقد كان الجنون في العصور السابقة حالة انحطاط ، وكان
التعبير الذي يصدر عنه تعبيراً عن عالم غير متناسق ، ولكنه أصبح اليوم نوعاً من الرؤية وتحريراً
للعالم . اهـ .

وليست كل النظرة القديمة كما قال مالرو فهذا أرسطو من القدماء يقول :

إن أغلب أعظم الرجال يغلب عليهم المزاج السوداوي .

وقد أكد عدد من علماء النفس أن حالة المرض النفسية تعمل على تحرير العبقرية .

إلا أن الجنون المطبق يعطل العبقرية فيتلاشى الفكر المنظم ، وإن كان ذلك الجنون من أعراض
العبقرية .

نذكر من هذا الصنف الآنسة صفية رفعت خريجة كلية الآداب نالت إجازتها الجامعية بتفوق :
كانت طريجة الفراش بمستشفى الأمراض العقلية فتعطلت موهبتها .

وقد نشرت مجلة الجيل الجديد مأساتها .

وإنما نعني العبقرية والجنون المتلازمين كسقراط مثلاً كان يعاني كثيراً من أعراض المرض
العقلي في الوقت الذي كان فيه من أئمة الفلاسفة .

وقد يكون جنون العبقرية تصرفات شاذة كما أثر عن أرسطو أنه ظل يوماً كاملاً وهو واقف
يفكر .

وكبشار بن برد كان سريع الغضب سيء الخلق متظاهراً بالمنكرات إذا أراد أن ينشد بصق
وصفق بيديه وتنحنع .

وللأمانة العلمية لا ننسى أن نختم هذا الاستعراض بملاحظات هامة هي كالتالي :

١ — أن هناك عباقرة ليسوا مجانين — لا سيما من العرب والمسلمين — يفوقون عدد العباقرة المجانين
أضعافاً مضاعفة .

٢ — أكثر العباقرة المجانين كانوا عباقرة قبل أن يكونوا مجانين .

- ٣ — اختفاء الموهبة لمرض عقلي أكثر من ظهور الموهبة حالة المرض .
٤ — أعمال العباقرة حالة جنونهم حظيت بعطف شديد فخلدت لغرابتها .

وقد كتب في هذا الموضوع : لانج ايكيانوم الذي ألف مشكلة العبقرية ، وفرانيس جولتون الذي ألف العبقرية الموروثة ، والدكتور مصطفى سوي ف الذي ألف العبقرية والفن ، و يوسف ميخائيل أسعد الذي ألف العبقرية والجنون ، وكثير من النماذج أخذته من كتاب هذا الأخير ومن أعداد من مجلة المصور والاثنين والجيل الجديد والأسبوع العربي وكتب التراجم العربية .

النقد الجمالي

الجمال أيها الأحياء هو المعيار الثالث من معايير الوجود ، ذلك أن الفلاسفة قسموا المعايير إلى :

معياري منطقي عقلي هو الحق .

معياري تجريبي خلقي هو الخير .

معياري تذوقي وجداني هو الجمال .

وعندي أن المعايير اثنان فقط :

معياري عقلي ، ومعياري جمالي ، ولا ثالث لذينك ، والمعياري العقلي تعلل أحكامه بشتى التعليقات وتضبط بالقواعد والقوانين .

أما المعيار الجمالي فلا علة لأحكامه بغير بهجة النفس التي يحسها كل فرد في وجدانه .

ولهذا فأنا من الموضوعيين في معيار العقل ، ومن الذاتية في معيار الجمال وقولي بأن الجمال ذاتي لا موضوعي تشهد له لغة العرب ، فكل تعريف للجميل والحسن في معجمات اللغة ينتهي إلى اللذة والبهجة في النفس .

وهذا القول تؤيده أنجح الفلاسفة المعاصرة ، فهذا أمانوئل كانت يقرر أن الإدراكات التي يصحبها في العقل إحساس باللذة دون أي شعور بعلاقة أو اتصال هي وحدها مشاعر الجمال الحرة الكاملة .

فهذه هي ذاتية الجمال إلا أنني أضيف إلى قول كانت قيدا آخر هو أن اللذة العقلية تتحول إلى بهجة في القلب .

و يكرر كانت هذا المعنى بقوله : إن الجميل هو الذي يرضي الجميع دون سابق فكرة أو صورة ذهنية ، ولهذا فمن العبث إيجاد قاعدة محسوسة تحدد بواسطة المقاييس أو الصور ماهية الجمال .

وعلى سبيل المثال فأني صوت أثار البهجة والمتعة واللذة في قلبك فهو جميل بالنسبة لك إذا لم يثر البهجة في نفوس الآخرين .

وأني صوت يثير البهجة في أغلب النفوس فهو ظاهرة جمالية ، وأي صوت يثير البهجة في أغلب النفوس لدى جيل من الناس أو لدى بيئة من البيئات فهو ظاهرة جمالية تاريخية أو اجتماعية .

والشعر أيها الأحباب لا يجوز النظر إليه إلا بالمعيار الجمالي وأي تدخل في ميدانه بغير المعيار الجمالي افتيات عليه وإهانة لمتعته .
وبرهاننا على ذلك عدة أمور:

أولها : أن الشعر من الفنون الجميلة فيجب أن ينظر إليه من المعيار الجمالي .
وثانيها : أن محاولات النقاد مهما اختلفت مذاهبهم تقيس في النهاية عظمة الشعر بما فيه من متعة ، وليست تقيس عظمتها بما فيه من حقائق . ولهذا قال أرسطو: إن خطأ الشاعر في قوة التعبير خطأ فني أي جمالي ، أما خطؤه لجهله بمسألة طبيعية أو طبية فلا يلام عليه الشاعر من وجهة نظر الشعروهي المقياس الجمالي .
قال لكم أبوعبد الرحمن : إذا عبر الشاعر بأسلوب فني عن حقيقة علمية وكان مخطئا فمن اليسير أن نصفه بأنه جاهل ، ولكن من المستحيل أن نقول إنه ليس بشاعر .
ومن هذا المنطلق يرى أرسطو أيضا : أن المستحيلات لا تعد أغلاطا إلا إذا لم ترفع القيمة الفنية للشعر .

وثالثها : أن الشعر مأخوذ من الشعور وهو الإحساس الباطني ، والجمال إحساس باطني ، وجداني كما مر .

وإذا كان للنقد مذاهب متعددة كالمذهب الأخلاقي أو العقلاني أو النفسي أو التحليلي فليس معنى ذلك أن النظر للشعر بمنظار جمالي مذهب نقدي في مقابل تلك المذاهب ، بل اعتبر النظرة الجمالية هي المذهب النقدي الوحيد للشعر وتلك المذاهب حالات من حالات المذهب الجمالي وليست قسيمة له ، ذلك أن تلك المذاهب النقدية المتباينة لا ميدان لها في مجال الفن إلا من خلال اللمحات الجمالية المضمنة خلالها .

ولنضرب لذلك مثلا بالمذهب الأخلاقي إنني أعرض عليه أنموذجين من الشعر:

أحدهما: قول الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله :

رأيت الذنوب تमित القلوب

وخير لنفسك عصيانها

فهذا شعر فني ورع يضع لنا قاعدة خلقية وهي ثمرة تجربته في سلوكه الخير ، ولكن لا يوجد بين أساطين النقد الخلقي من يجعل هذا البيت الشريف في معناه أنموذجا للشعر الفني .

وثانيهما : قول أبي الطيب المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم

وأوضح من هذا قول الشاعر:

كبير النفس تلقاه
هزيل الجسم من سقم

فهذا حكمة عارية من الجمال وبعكسه قول الشاعر:

إذا سمنت همة في الضلوع
فآيتها البدن الناحل

فليس المثير عند هؤلاء النقاد هو مجرد شرف المعنى (وهو الطموح) ، وإنما المثير هو الأسلوب الفني الذي تلفع به ذلك المعنى الشريف من مبالغة (فلا تقنع بما دون النجوم) ، ومن تشبيه وحن تعليل في البيت الأخير .

إذن كل مذهب نقدي عرفناه إنما جوهره في النهاية التعليل والتحليل الجمالين ، ولا أستثني من ذلك إلا مدرسة تزعمها في العصر الحاضر الشاعر أدونيس ، إذ هدم جميع المظاهر الجمالية في الشعر ، وكتب في نثره افتراضات نقدية بعضها مستحيل وبعضها غير مفهوم وبعضها لم يقدر على تحقيقه في شعره .

وشعر هؤلاء إن أتعبت نفسك في تفهمه وفهمت شيئا منه فإنك لن تجد وراءه متعة جمالية .
وإذا قلت : إن المذاهب النقدية حالات جمالية وليست قيمة للمذهب الجمالي فإنني أعمق هذا الرأي بمثال آخر :

ألا ترى أن قولنا (العظيم يموت جوعاً ولا يقبل الحياة الذليلة) يمثل معنى مثاليا يرتاح لسماعه العقلاء وذوو الأخلاق الفاضلة ولو قيل هذا المعنى في بيت شعر بتعبير مباشر لما كان أنموذجا للشعر الرفيع لدى من يزنون الشعر بما فيه من حقائق وأخلاق .

وحيثما يأتي شاعر كمعمر أبي ريشة و يصور هذا المعنى في قصة خيالية متحدثا عن نسر جائع حلق يلتمس له فريسة فلم يجد سوى جيفة يتناهبها بغاث الطير فأنف أن يكون بموضع بغاث الطير فعاد هادرا ليموت جوعا على قمم الجبال وقد صاغ هذه القصة الخيالية بعبارات مرقصة .

إن هؤلاء النقاد الذين يزنون الشعر بما فيه من حقائق ومعان لم يستهواهم المعنى مجردا : أي القول (بأن العظيم يموت جوعا ولا يقبل الذل) ، وإنما استهواهم التعبير الفني غير المباشر ، بل بصورة خيالية واستهواهم أن هذه الصورة طريفة غير مبتذلة وسيظل ذلك المعنى المجرد معنى فنيا متجددا كلما غُبر عنه بتعبير جديد غير مباشر .

ولكون المذاهب النقدية الأخرى حالات جمالية يرى جورج سانتيانا (صاحب كتاب

الإحساس بالجمال) هذه المذاهب المتباينة تدل على تذوق حيوي لأنواع معينة من الجمال وحب لها بلغ حد الغيرة عليها .

قال لكم أبو عبد الرحمن : وأزيد هذا الرأي تعميقاً بمثال ثالث ، وهو أن العقل يحكم بالجمال والقيح كما يحكم بالحق والباطل ، ومن ثم يوجد معنى معقول ولكنه معنى قبيح في إحساس الأدباء .

قال عمر بن الوردى :

جانب السلطان واحذر بطشه

لا تعاند من إذا قال فعل

حبك الأوطان عجز ظاهـر

فارتحل تلق عن الأهل بدل

فهذه معان معقولة للرجل الأناني ولم ينفر منها الحس الأدبي في عصر الشاعر لأن هذه المعاني وحي بينها .

أما اليوم فقد تربى حس الأديب على المبادئ الحديثة وكانت الوطنية من أحلى النغمات ، ومن ثم عاد الأديب الحديث يستقيح هذه المعاني .

والنقد الأدبي العربي القديم كله تذوق جمالي بحث ولا غرابة في ذلك ، فقد كان سحر البلاغة هو إعجاز الرسول صلى الله عليه وسلم لأن العرب من أرهف الأُمم حساً في تذوق الجمال من الكلام .

وإذا كانت الأسس الأصلية في علمي المعاني والبيان تقوم على تذوق الجمال فإن الباب الثالث من فنون البلاغة العربية وهو فن البديع علم جمالي بحث ، لأنه تحسين وتزيين يسمونه التحلية المعنوية والتحلية اللفظية .

ومن المناسب في هذه الومضات أن استعرض بعض الخصائص التي تشترك فيها الفنون الجميلة وهي في نفس الوقت من أبرز المقومات لفن الشعر .

فمن تلك الخصائص أن كل جميل من صفته الإبداع الشخصي الحر ، وللحرية في الخصيصة معنيان :

أحدهما : التجرد من الغاية العملية والخلوص لوجه الجمال الفني : أي أن الجمال الفني ذو قيمة ذاتية .

وثانيهما : التجرد من تقليد مثال سابق ، وبذلك تقل أهمية الأصول وقواعد السلف ولأجل تجرد الفن من الغاية العملية ذهب أما نوثيل كانت إلى أن الجمال ضرب من اللعب ، لأنه

نشاط حيوي يفرغه الإنسان دون ضرورة.

وقد عارضه جون سانتيانا بعد تلاعب بالألفاظ فقال : لا أجعل الجمال لعبا لا منفعة وراءه بمقابل العمل النافع، وإنما أجعل الجمال لعبا حرا وعكسه العبودية وليس العمل هو كل فعل نافع، وإنما هو ما نفعله مرغمين وما تدفعنا إليه الضرورة ولا أجعل اللعب كل فعل غير نافع وإنما ما نفعله تلقائيا ولذاته.

قال لكم أبو عبد الرحمن: هذه الجملة الأخيرة لسانتيانا هي الحكم الفاصل في الموضوع فنحن نقول: من خصائص الجميل التجرد من الغاية العملية.

ومعنى ذلك أن يبدع الفنان فنه تلقائيا لذاته ثم لا يهم فيما بعد أن يتضمن ذلك الفن قيمة أخرى غير قيمة الجمال أم لا.

ولأزيد ذلك إيضاحا أقول أن شاعر الحكمة والموعظة لا يهمه أن يرصد لنا حقائق عقلية يزيد بها خبرتنا، وإنما هم أن يفاجأنا بتلك الحقيقة التي نعرفها في صياغة فنية جمالية لا عهد لنا بها، وبهذا يكون جمع بين الحريتين وهما التجرد للفن والإبداع فيه.

وهذان المعنيان لهاته الخصيصة هما المراعيان في نقد الشعر، فقد أوضحت آنفا أن القواعد الأصلية في النقد هي التي تصطفي الظواهر الجمالية لذاتها.

وهنا أوضح أن الطرافة والإبداع والابتكار من أجل ما يطمح إليه النقاد في اصطفاء الأعمال الشعرية.

ألا ترى أن عشاق الجمال توثبت أرواحهم لهذا البيت لشار:

إن في بردي جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

ولكن لوجاء شاعر معاصر وأخذ هذا المعنى لا على سبيل الاقتباس لازورت كل ذائقة جمالية، لأن رونق هذا المعنى قد استهلكه النظام وشار والمتنبى وغيرهم.

وهذا الازورار دليل على الاحتفاء بالإبداع وقد قيل لكل جديد لذة.

ومن الخصائص الجمالية المشتركة بين الفنون الجميلة: أن الجميل مبعث رضى وارتياح ومصدر إيجاب شعوري شامل.

ولهذا قال دونت باركر: الفن تعبير عن اختيار شعوري ذي قيمة ذاتية بواسطة محسوسة رفيع التركيب قابل الاتصال بالنفس.

وتعني هذه الخصيصة افتراض وجود ذوق عام نسبي بين جماعة من الناس.

وهذه الخصيصة ظاهرة في الشعر فنحن نرى النماذج الرفيعة من الشعر تتردد في معظم كتب النقد والدراسات الأدبية وعلى جبهة الألسن في المسامرات والمجالس، فذلك أكبر دليل على وجود

ذوق عام نسيي .

ومن خصائص الجمال الدهشة والإثارة .

يقول بودوان: الجميل هو موضوع اشتياقنا حين ننقلع عن اشتياقه نترجع أمامه متأملين مدهوشين .

وظاهرة الدهشة خصيصة بارزة في الشعر الفني الرفيع .

وتحصل الدهشة في الشعر لعوامل كثيرة يعز عليّ استيعابها ، ومن أبرز هذه العوامل لغة الإيجاء واللحمة ذلك أن التعبير المباشر أبعد ما يكون عن حظيرة الفن .

واليكم هذه النماذج :

إن للعيون الفاتنة سحرا ربما يعبر عنه بالتعبير المباشر فيقال :

إن العيون الفاتنة تؤلم القلب إن هي أقبلت أو أعرضت .

فهذا تعبير مباشر لا قيمة له في ميدان الجمال .

ولكن اسمعوا عكس ذلك قول الشاعر :

و يلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع الهام ونزعهن أليم

بر بكم هل سمعتم بأجل من هذه الصورة وأنتم تستحضرون في المخيلة مشهد الشاعر .

واليكم أنموذجا آخر للدكتور الشاعر محمد عوض محمد هو قوله :

وكم سلعة كدت سوقها وفي أرض مصر لها مطلب

فهذه تعبير مباشر لا قيمة له في ميدان الجمال الشعري ، ولكنه أصبح في قمة الجمال الفني حينما

عبر عن هذا المعنى إيجاء بثلاثة وعشرين بيتا على هذا النق :

رو يداً أنحزن أم تطرب	فهذي قصة شأنها أعجب
فتاة من الزنج تهوى الرجال	وعنها رجال الورى ترغب
قضت زهرة العمر تبغي الحليل	فما جاءها خاطب يخطب
وقد صد عنها وولى الفرار	شباب بني الزنج والأشب
ونفّر منها بني جنسها	محيلا كالح مرعب
وصوت ليس كصوت الكنار	ولكنه البوم إذا تنعب
وأنف مناخره كالجفان	ذباب الملا حوله تلعب
ومن مشفر فوقه مشفر	كمقربة فوقها عقرب
وإذ يشست من بني قومها	وعزّ لها فيهم المطلب

أنت أرض مصر ملاذ الغريب
وألقت عصاها وقالت هنا
وقد أعجبت بنظام الحجاب
فقالت حدثك رب الورى
ويسدل كل الناء النقاب
فلا يعلم الناس ماتحته
وهل وجهها مشرق في النقاب
وهل ساقها فوقه جورب
وما لا تراه عيون الأنعام
وقد صدفت فرآها فتى
رأها فأعجبه قدها
فقال لها: يا حياتي ارحمي
فكان السلام وكان الكلام
وراجت بشاعتها وانشئت
وكم سلعة كسدت سوقها

وحيث لكل امرئ مهرب
سأسمى لادراك ما أرغب
وما فيه من حكم تعجب
لأن الوجوه هنا تججب
إذا ما رقيب أتى يرقب
أظبي من الغيد أم ثعلب؟
(م) أم غيهب فوقه غيهب؟
أم الجلد من طبعه جورب؟
فأنفسهم نحوه تجذب
وأقبل من خلفها يدأب
وقد يبحر القد أو يغلب
فتى صادق الحب لا يكذب
وكان القران وما يعقب
ومحبها ممرع مخضب
وفي أرض مصر لها مطلب

ولأهمية الإيحاء في معيار الجمال حور الرميون الشعر من الخطابة والإلقاء إلى القراءة والتفكير.

فقولك مثلاً: هذا خبث أبيض، أو رذائل رائعة، أو فلان مجرور القلب نحو غيداء لعوب وعلامة جره كسرة ظاهرة على محياه، أو قول بودلير: الحب نار حمراء، فكل هذه تعبيرات غير مباشرة تلج القلب دون استئذان.

و يدخل في الإيحاء التصوير بعبارات نابضة فمفردة واحدة ككلمة (صغر) ترسم لنا لوحة لسحنة مترنح نفخ أبومرة في خيشومه.

وقد أدرك سيد قطب رحمه الله روعة التصوير في كلمة ككلمة (زحزح) وغيرها من الكلمات التي تناولها بالدرس في كتابيه التصوير الفني في القرآن الكريم ومشاهد يوم القيامة.

ومن ظاهرات الدهشة في الشعر أن يبني الشاعر من الحبة قبة فيتناول مشاهد تافهة ويستوحي منها معنى رفيعاً.

خذ مثال ذلك الفأس والشجرة فقد عبر بهما الدكتور الشاعر محمد عوض محمد تعبيراً غير مباشر عن النكران فقال:

كانت الفأس قطعة من حديد
فرأت دوحه فقالت هبيني

وحدها لا تطيق حزا وقطعا
يا لك الخير من فروعك فرعاً

امنحيني يدا تشدي بها (م) أزرى فأزاد في البرية نفعا
فحبتهما فرعاً متينا وظنت أنها أحنت بذلك صنعا
باتت الفأس بعدها ذات حول يصدع الصخر والجنادل صدعا
وتناسب أنى لها ذلك الحول فجاءت لدوحة الأمس تعمى
إذ هوت نحوها بقسوة ذي غل وحقد كأنه حقد أفعى
ضربتها ضربات طالب ثأر فهوت للثرى فروعا وجذعا

ومن خصائص الجمال المشتركة بين الفنون الجميلة الوحدة والنظام.

وهذه الخصيصة أبرز ما تكون في الشعر لأن الشعر يشترط وحدات زمنية متناغمة تتمثل في الوزن.

والذين يلفون الوحدة الزمنية من الشعر يهدمون أوفر ركن جمالي فيه.

ووحدة الموضوع قيمة جمالية راعاها الشعر القديم والحديث معا.

أما وحدة الموضوع في الشعر الحديث فأمر ظاهر لا يحتاج إلى تفسير.

أما في الشعر القديم فقد راعى الشاعر والناقد حسن التلخيص للربط بين الموضوعات حتى يشعر القارئ أو المستمع أنه أمام موضوع واحد.

وراعيا براعة الاستهلال وحسن المطلع ليفتحا للقارئ أو السامع شعارا لموضوع واحد.

وراعيا حسن الختام ليشرأ للقارئ والسامع بالخلوص من قضية واحدة.

ومن ظاهرات الوحدة والنظام في الشعر الاحتفاء بتوافق الأجزاء، فلقد عاب عشاق الجمال الفني على الشاعر قوله:

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنما أفطرت في رمضان

فإفطار هذا البائس أمر لا يعني الناس ولا يساوي عندهم شيئا، أما موت الخليفة فأمر جليل.

إذن لا تلاؤم بين هذين المعنيين، ولهذا السبب عابوا على السموأل قوله:

فتحن كماء المزن ما في نصابنا

كهام ولا فينا يعد بخيل

لأن النصاب من عدة الليوث لا الغيوث، ولو قال:

فتحن ليوث الحرب ما في نصابنا

كهام ولا فينا يعد بخيل

لكان المعنيان متلائمين.

ومن ظاهرات الوحدة حسن التداعي للمعاني كما نجد في جمال التقفية إحدى فنون البديع،

وكما نجد في تداعي الخواطر دون نشاز.

ومن ظاهرات الوحدة التناسب الذي قنن له البديعون في باب الإيجاز والإطناب .

أيها الأحياب : ليس بوسعي في هذه الومضات أن أستوعب خصائص الجمال ذات العلاقة بخصائص الشعر الجمالية ، ولكنني مشير إلى خصيصة واحدة تقال وعندي فيها وجهة نظر .

يقولون : من خصائص الجمال تنزهه عن الأهواء الشخصية ، فلا ينظر الرسام إلى ينبوع الماء نظرة الرجل العطشان ولا ينظر إلى اللوحة الجميلة نظرة جسد تمزقه الشهوة .

ذلك أننا في تأملنا للجمال نسمو على ذواتنا .

والعجب أن إمام الفلاسفة المتشائمين شوبنهاور قال بهذه الفكرة ، لأن الإرادة في صميم فلسفته شر ، فلما تعطلت إرادة الامتلاك أمام المنظر الجميل أصبح الجمال خيرا .

اسموا أيها الأحياب : هذا كلام فارغ لا يساوي عندي فلسا واحدا .

و برهاني على هذا التسخيف غير المتريث عدة أمور :

أولها : أن شيخي وشيخكم أبا محمد ابن حزم الظاهري قال يصف نفسه وهو في ترحاله المتتابع شرق الأندلس :

كأنما صيغ من رهو السحاب فلا

تزال ريح إلى الآفاق تدفعه

أترى أننا نقف مبهورين أمام جمال هذا البيت فحسب ؟

لا والله إني لأحسد أبا محمد عليه وأتمنى امتلاكه وأن ينسب إليّ هذا البيت كل ما ذكر .
وكل ما ذكره النقاد في مبحث الإشارة أحد أبواب السراقات الأدبية يؤكد أن عشاق الجمال يتمنون امتلاكه .

وثانيها : أننا في حالة التأمل لمنظر جميل ننشد اللذة الجمالية وحدها ولا يكون لنا في نفس الوقت مأرب إلى لذة أخرى .

فهذا الانغماس تعويض عن حب الامتلاك .

وثالثها : أن تمثيلهم نظرة اللوحة الجميلة بنظرة جسد فائن من باب الخلط بين الموضوعات ، ومعنى هذا الخلط أن أي منظر جمالي إما أن يكون مجرداً عن أي قيمة غير قيمة الجمال كاللوحة وكالوردة الصناعية فهذه لا سبيل لامتلاكها بغير تأملها أو اقتنائها .

وإما أن يكون مصحوباً بقيمة أخرى كالوردة الطبيعية ذات المطور ففيها إلى جالها منفعة العطر فإذا طمشتها اليد فليس سبب ذلك جالها وإنما سبب ذلك شهوة الأنف .

أما حب تملك الجمال فيها فلا يعنى سوى الحرص على اقتنائها وصيانتها .

وقس على ذلك الفاتنة الحسناء إنما تعتصر بدافع الشهوة .

ولا يعني هذا أن عشاق الجمال لا يتمنون امتلاكه ، بل المؤكد أنهم يتمنون امتلاكه
ولكن بتفسير آخر وهو أن يظل مصونا تحت مشاهدتهم .
ولحب الجمال يستعذبون الحرمان وهذا أمر فرغ من تفسيره العذريون .
وما لنا نذهب بعيدا وهذا عبد الله الفيصل — متع الله بحياته — يقول :
ولولا الحب للأعناق رق

ملكك باليمين وباليماني

فهذا رجل لديه اليمين واليماني ، ومع هذا أثر العافية صيانة للجمال واستسار الحبه .
واعلموا أيها السامعون أن عبد الله الفيصل رجل ذكي أراد بهذا البيت أن يقتنعكم بأنه
محروم وقد كابره الأستاذ الشاعر حسين سرحان بأبيات شعبية لا أحفظها ، والحق مع
السرطان .
ورابعها : ما قاله جورج سانتيانا من أن تذوق اللوحة ليس هو الرغبة في شرائها . ومع هذا فالتذوق
وثيق الصلة بهذه الرغبة بمهد لها .
وخامسها : أن استمتاعنا بمنظر جميل نادريثير فينا الرغبة إلى استعادة المتعة به وهذا تعويض عن حب
التملك .

أيها الأحباب : لقد ذكرت شيئا من خصائص الجمال ، وربما توهم متوهم أن هذا تناقض مني ،
لأنني ذكرت في صدر المحاضرة أن الجمال ذاتي لا موضوعي ، وأنه ليس له قواعد ولا مقاييس ،
فكيف يصح لي بعد هذا أن أذكر خصائصه كأنه شيء موضوعي ؟
قال أبو عبد الرحمن : إن قولي بذاتية الجمال موافقة مني لأمانويل كانت عن قناعة دون تقليد ،
وقد تولى كانت الإجابة عن هذا الاستشكال بقوله :
إن الفنان ينتج آثارا فنية تنال إعجاب الجميع على غير قاعدة أو مثال يقلده ، بيد أن آثار الفنانين
مقاييس حكم للآخرين .

وأزيد هذا الكلام تعميقا فأقول :

إن الفنان ينتج فنه بتلقائية وحرية فإذا اتصل هذا الفن بالنفوس وابتهجت له فهو فن جميل ، ولا
قاعدة لهذا الجمال إلا بهجة القلب .

وبدافع حب الاستطلاع نحاول أن نخبر سر هذا الفن الذي أحدث بهجة في قلوبنا ، فلتفت
أول ما تلتفت إلى فن الفنان نلتبس خصائصه لنتخذ منه قواعد للجمال ، ثم تلتفت إلى تلك
المجموعة من الناس التي استحسنت ذلك الفن لنعرف مستوى تفكيرها وثقافتها وحضارتها ، ومن
ثم نقول ذلك الفن ذو الخصائص المعينة جميل بالنسبة لهذا الصنف من الناس .
وتلتفت ثالثا إلى الجو والمناخ الذي أصبح به ذلك الفن جميلا .

وهذا بعينه معنى قول سانتيانا :

الجمال لذة نعتبرها صفة في الشيء ذاته .

أي أننا نفترض موضوعية الجمال .

فها هنا ثلاثة التفاتات :

الالتفات الأول : إلى خصائص الفن الجميل وقد بينت نماذج من هذه الخصائص .

الالتفات الثاني : إلى مستوى جماعة من الناس وسأذكر لكم طرفاً من ذلك ، فأقول :

إن الملاحظ أن الأطفال والبدائيين يستحسنون الألوان الزاهية المتعددة ، وهي

خصيصة لاحظها ابن خلدون لدى السود في مجاهل إفريقيا .

كما نلاحظ أن البدائيين والأطفال يستحسنون الأصوات الصاخبة المزعجة ،

والسر في كل ذلك أن هذا الاستحسان آت عن حاسي السمع والبصر ، وهاتان

الحاستان تسميان بالحواس الدنيا ، وإنما تتذوقان أقل نصيب من الجمال لأنهما

عادة في مؤخرة الوعي فتقدمان لنا أقل مقدار من الأفكار التي يمكن تحويلها إلى

موضوعات .

وقيمة الجمال حينما تتناغم الحواس الظاهرة والباطنة والفكر والخيال أمام

الموضوع ثم يتحول ذلك إلى بهجة في القلب .

و يبلغ الجمال قمته في إحساس المتذوق حينما تتنوع مشاهدته و يتسع أفق تفكيره

و يترى حبه بثقافة عريضة .

والالتفات الثالث : رصد حالات الأجواء والظروف ، وهذا جانب مهم ، وكمثال على ذلك أن العامل

الحرفي يشعر بجمال الصباح أكثر من شعوره بجمال العصر ، لأن الهواء النقي

ينتعش في الصباح . وتجذب بعكس ذلك فنانا كابن الفارض أو الشاوي أو الدكتور

إبراهيم ناجي يحس بجمال المساء أكثر من إحساسه بجمال الصباح ، ذلك أن

المساء برىء من صخب الأضواء و يرتبط بذكرىات ناعمة .

وثمة مثال آخر فيه بعض سداجة وهو أن الفأرة في قسماتها أجمل من القرد لونها نظرنا إلى الجمال

نظرة موضوعية .

ولكن نظرنا الذاتية تجعلنا نستقيح الفأرة لقذارتها ونأنس إلى القرد لظرافته رغم قبحه ، وليس

ذلك قولاً بالمنفعة في الجمال ، فقد أسلفت في صدر المحاضرة أن الجمال قيمة ذاتية ، ولقد نكت

الذاتيون على دعاة المنفعة بطرح إلزامي شيق وضعه « زانوفان » على لسان سقراط فقال :

إن فم سقراط الواسع الغليظ أجمل فم في الوجود لأنه أقدر على الأكل والتقبيل ، وإنما مراعاة

الظرف في تذوق الجمال مراعاة لنشاط الإحساس دون تطلب قيمة غير قيمة الجمال .
ألا ترى أن المهذبن من الناس يشمزنون من تخلف الشرف والصدق والنظافة لا رغبة في منفعة أو
اتقاء لمضرة ، وإنما هو تذوق مباشر يعود إلى نشاط حسي حيوي .

ومن مراعاة الظروف والأجواء نحاشي الملل والسأم ، ولهذا كان من خصائص الجمال الوحدة
والنظام مع التنوع ، فالتنوع يدفع الملل وللأدباء أن ينوعوا في أوزان الشعر ما شاءوا دون أن ينفلتوا
من نظام الوحدة الزمنية .

وإذا آمنوا بأن لكل جديد لذة فلا ينسوا أن لكل قديم وحشة .

ومن خصائص الجمال التجانس مع الكثرة ، فأضواء المدينة الخافتة المتعددة منعكسة على صفحة
الماء أبجل من تألق نجم واحد في ليلة داجية ، ولكن لدفع السأم والملل اشترطوا في التجانس منع
التكرار للآثار الحادة البارزة لأنها لبروزها وتكرارها لا يمكن نسيانها ، ومن ثم تكون مصدر ألم
وازعاج لأجهزة الإحساس يصيبها الإجهاد إذا شغلت كل وقتها بمؤثر واحد .

ولا ينبغي بعد هذا العرض أن يتسرع أحد الترائين فيستجيب أي فن جديد قبل أن يفهم أسرار
و يربي حسه بالقديم والجديد معا ، وكل استهجان لا يصدر عن ذائقة مثقفة لا قيمة له .

أولم يقل سانتيانا : إن السفونية لن تفقد شيئا لو كان نصف الإنسانية يعانون الصمم .

ولكنها ستفقد الكثير لو لم يوجد بتهوفن .

وفي الختام أيها الأحباب أتوقع أنكم ستقولون ما بال الظاهري ترك جد أهل الظاهر وعاد يتلمظ
بالجمال؟ والجواب ميسور حفظكم الله فأقول : إن الإنسانية كلها من فقيها إلى أديبها بذلت من
الجهود والعبقرية في سبيل تكريم الفن أكثر مما بذلته في سبيل الصناعة والحرب .

فإذا كان لدينا كتاب واحد في العسكرية فلدينا مليون كتاب في جماليات النواصي إذا عانق
الخيال .

والناس — كل الناس — في إنتاجهم واختيارهم لسكنهم وأثاثهم وركوبهم وعدتهم لا يحفلون
إلا بما يؤثر في حهم الجمالي .

والحمد لله عودا وبدءا وأستغفر الله لي ولكم عما يكتبه الملكان الرقيبان الحفيظان (٣٥) .

(٣٥) هذا الموضوع محاضرة أقيمتها في النادي الثقافي بمكة المكرمة .

نبذة عن المذهب الرمزي

تلتقي معجمات اللغة العربية على تعريف الرمز:

بأنه الإشارة إلى الشيء والإيماء إليه بأي شيء يفهم الشخص الذي خوطب بالرمز، كالإشارة بالعين هذا في مجال اللغة عموماً .

وفي مجال الأدب العربي القديم وجدت أنماط من التعبير غير المباشر كقولك : رأيت أسدا ترمز إلى رجل شجاع ، وككتاب كليله ودمته فإنه تقو يل للحيوانات يرمزه لواقع يجري في دنيا بني آدم .
فلأجل ما في تلك التعبيرات غير المباشرة من إشارة سميت رموزاً أخذنا من المعنى اللغوي .

إلا أن المعنى الاصطلاحي أصبح أضيق من المعنى اللغوي ، إذ الغمز بالعين تعبير مباشر بالعين ، ولكنه غير مباشر باللغة ، لأن المقصود دلت عليه العين مباشرة .

أما التعبير الأدبي غير المباشر فلم يدل فيه اللفظ على المقصود مباشرة ، وإنما دل اللفظ بواسطة أمر خارجي يحكمه قانون العلاقات المجازية في الدراسات البلاغية .

فالتعبير الأدبي غير المباشر استخلاص للأفكار والمشاعر وتعبير عنها بأسلوب لا يدل عليها دلالة لغوية خالصة ، والغرض من الأسلوب الرمزي في الأدب العربي القديم البرهنة على الأفكار والمشاعر من منطق الواقع دون إلغاء للدلالة اللغوية أو اكتفاء بها .

وتلك العلاقات والقرائن التي تتم الدلالة اللغوية أصبحت في حكم المعنى العرفي الاصطلاحي مفهومة عند عامة الأدباء فهي دلالة مفهومة مسبقاً وفق قانون واضح .

والأسلوب الرمزي القديم يدل بالتقرير والتسمية والوصف ، ولهذا فالرمز عموماً تقرير للقضايا وتسجيل للإشارات وتنظيم لها لتصل إلى أفهام الآخرين .

ومن ثم عرفه كثيرون من الغربيين بأنه شيء ما يعني شيئاً آخر مع عدم إغفال الدلالة اللغوية .
وإنما كان يعني شيئاً آخر لعلاقة بينهما كمجرد الاقتران أو الاصطلاح أو التشابه العارض غير المقصود .

خذ مثال ذلك كلمة (عين) تدل دلالة لغوية مباشرة على حاسة البصر ، وتدل دلالة لغوية مباشرة على الماء الجاري ، والجاسوس ، والزعيم ، والمال .

هذا هو المعنى العام للرمز في اللغة والاصطلاح القديم .

أما المعنى الاصطلاحي للرمز في الأدب الحديث — أعني المعنى الاصطلاحي الفني لمذهب أدبي حديث اسمه المذهب الرمزي — فمأخوذ من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الأدبي القديم ، ولكنه يتميز عنهما بالتحلل من قيد أو الاستسار لقيد ، إنه تعبير أدبي مباشر يوحى بالأفكار والمشاغرو يثيرها لدى الآخرين دون أن يسميها أو يصفها .

أي دون أن ينقلها عن طريق الدلالة الوضعية كما في المعنى اللغوي ، أو عن طريق الدلالة الاصطلاحية حسب قانون البلاغيين في شروط الاستعارة والتشبيه وضبط علاقات المجاز .

وقد يكون الرمز الحديث بالتشبيه ذي العلاقات المجازية القديمة بشرط أن يكون التشبيه قائما على أساس اكتشاف نوع من التشابه اكتشافا ذاتيا غير مقيد بعرف أو عادة .

ولهذا قال (بيفان) عن الرمز الفني الحديث :

إنه رمز إنشائي لم يتواضع عليه بعد ، ومثل له بمن ولد أعمى فإنك تصف له اللون القرمزي بصغير البوق .

والمعنى الرمزي الحديث في القصيدة يسميه (هنري برعمون) بالمعنى السري ، لأنه يفيض أو يستقطر من الأبيات ، ولا يفهمه إلا شاعر أو شبهه ، وما عدا ذلك من معاني القصيدة فهو الأجزاء الكدرة ، لأنها مستمدة في الأصل من جزئيات الواقع ، ومن علاقات ذات دلالة سابقة .

وملاحظة (هنري برعمون) مأخوذة من واقع الأعمال الأدبية الرمزية الحديثة ، كما يدل عليه معنى الرمز في اللغة اليونانية ، إذ هو بمعنى الحزر والتقدير .

ومن هذا الاستعراض نرى أن الرمزيين الحديثين ضيقوا على أنفسهم نطاق التعبير . وتعبيرهم ليس إشارة عامة ، ولكنه إشارة من اللغة وإشارتهم اللغوية غير مباشرة ، لأننا نبحت الرمز في الشعر ، واللغة وسيلة الشعر ، ولغة الشعر إيحائية .

فإشارتهم اللغوية غير مباشرة ، لأنها إيحاء لا مواضع .

فهو معنى هذا : أن الرمزيين الحديثين ضيقوا مجال التعبير فأصبحت مادة الأدب عندهم قديمة ؟ إنهم يدعون ويرهنون على أن ما فعلوه توسيع لمجال التعبير .

إنهم بمذهبهم الرمزي يحاولون إرجاع الشعر إلى مصدر أعمق وأوسع من اللغة وبقية المحسوسات ، ويرون أن الشكل اللغوي — بدلالته الحقيقية والاصطلاحية — عاجز عن التعبير الأرحب الذي يريدونه .

إذن من حقنا أن نسأل :

كيف كانت اللغة عاجزة ؟

ثم نسأل:

كيف يتأتى لنا إرجاع الشعر إلى مصدر أعمق من اللغة والمحسوسات؟

أما السؤال الأول فيجيبون عليه بقولهم:

إن الألفاظ قد فقدت التطابق المعهود بينها وبين دلالتها: بمعنى أن دلالة اللفظ المفرد ودلالة تركيب المفردات في أسلوب إنشائي دالتان محدودتان مفهوماتان مسبقا تدلان على مرادفات سابقة لمراداتنا المستحدثة.

قال (دليلك) عن أي لفظ نقوله: (يجب أن يكون منطبقا على ما في نفوسنا تمام الانطباق لا كما كانت عليه هذه الأشياء فيما مضى).

و يذهب إليوت إلى أن على الشاعر خوض بحار الكلمات في كل تجربة شعرية جديدة، لأن كل مغامرة يعانيها الشاعر مع الكلمات رهينة بظروفها وموضوعها بحيث تصبح بعد ذلك قليلة الجدوى بالنسبة له.

وربما كان هذا الجواب غير شاف وغير محدد لمفهوم معين، ولكننا نستبين صحة دعواهم عن عجز اللغة إذا وجدنا في جوابهم عن السؤال الثاني مصادر تضيف إلى دلالة اللغة والحس.

والسؤال الثاني هو قولنا:

كيف يتأتى لنا إرجاع الشعر إلى مصدر أعمق من اللغة؟

يقولون: إن اللغات إذا شاخت وعجزت عن التعبير تدفع الشعراء بالضرورة إلى خلق لغة في اللغة لتضيف إلى مدلولها.

وهذا معنى قولهم: إن الشاعر لا يخترع اللغة، ولكنه كذلك لا يأخذها إطارا معدا للاستعمال.

ولهذا اتخذوا وسائل تضيف دلالات إلى دلالة اللغة والاصطلاح المسبق.

وتتلخص هذه الوسائل في التالي:

أولا: استيحاء اللفظ ذاته بغض النظر عن معناه اللغوي، وذلك باستغلال دلالة الصوت.

قال مالارميه: تقوم الأصوات كما يقوم السياق الصوتي بكل العمل، ولن تغدو معاني الكلمات حينئذ مركز الاهتمام فالشعور إذا وجد يستثيره السراب الكامن في الكلمات نفسها.

وحجتهم أن اللغة في مستواها اليومي تفتقر إلى التناسب الكامل وتنسم بتلقائية.

ولتحقيق التناسق الصوتي ضحوا بوجوه أخرى من التناسق المعدودة من جمال الأسلوب الإنشائي، فجردوا السياق اللغوي من علاقاته التركيبية.

قال لانسون: لم يكن الرمزيون بصدد جمع الكلمات وفقا للمنطق لكي يحققوا معنى يستطيع

جميع الناس إدراكه، وإنما كانوا يجمعونها حسب الإحساس لكي يبرزوا خاطرا أدركه الشاعر وحده.

فالوحدة التي تربط بين الكلمات والجمل هي المواءمة الإيحائية الصوتية بين الألفاظ. وليست الدلالة المعنوية والدلالة الصوتية — كغيرها من الدلالات — توحى ولا تقرر، وتقتنص حالة مستقبلية، ولا ترصد حقيقة سالفة وهذه الدلالة الصوتية ذات شقين: دلالة الصوت الخارجي أو الموسيقى الخارجية المتمثلة في الأوزان والقوافي سواء أكان ذلك وفق المنهج العمودي، أو وفق الإضافات التجديدية في الأوزان والقوافي. المهم أن تكون الموسيقى الخارجية ذات دلالة شعورية أو فكرية.

إن هم الشاعر — كما يقول لانسون — العثور على النغمة الموسيقية المطابقة لكل خفقة من خفقات روحه، ولا يراد بذلك الخضوع لقواعد العروض التقليدية، فربما أكرهت الشاعر على تضخيم مشاعره أو إضعافها بغية مطابقة الأنماط العروضية الثابتة. إنما المراد الدلالة على المشاعر بإيقاعات وأنغام لا يشترط أن تكون خاضعة لنظام مسبق.

ثانيا: من الدلالة الصوتية: دلالة الموسيقى الداخلية، وهم يستغلون هذه الدلالة من شتى وجوهها. ففي القراءة إيجاء النطق في علو الصوت أو خفضه، وطوله أو قصره، وقوته أو ضعفه. والدلالة الصوتية للفظ يمكن أن تتم وفق دراسة واعية لا يخونها المنطق، ففعل مثل (نفخ) يدل بمعناه على نفس منظم تدفقه الشفتان، ولكنه بلفظه يدل على المضي والنفاذ، ذلك أن دارسا لغويا ممتازا كالزخشيري قرر أن الفعل المبدوء بنون وفاء يدل على المضي والنفاذ، كما أن فيلسوفا ذكيا كابن سينا قرر أن للحروف دلالات على ظاهرات طبيعية كالشين تدل على نشيش الرطوبات، وعلى نفوذ الرطوبات في أجسام يابسة بقوة. ولقد تعمق ابن جني في دراسة الدلالة الصوتية للحروف لاسيما في كتابه سر صناعة الاعراب.

ثالثا: استيحاء الشكل في القراءة بكتابته هندسية، وهم بهذا الشكل الهندسي يدعون إلى تلقي القصيدة على أساس ترتيب الأحرف والكلمات ومقدار حجم الحرف ومقدار مسافة الفراغ بين الحروف أو الكلمات. وهذه الدلالة الشكلية ليست جديدة، فالرسم الإملائي حدد ذلك، وإنما الجديد أن هذه الدلالة الشكلية ليست مأخوذة من دلالة الألفاظ المعنوية، وإنما هي مأخوذة من إحساس الشاعر.

رابعا: استغلال التشبيه الذي يدركه الحس الباطن بالذات في إثراء دلالة اللغة. ألا ترى أنك تقول جيد ليلي كجيد الغزال، وصوت فلانة كمواء القط، فهنا تشبيهان أدركتهما حاستا البصر والسمع من الخواس الظاهرة. بيد أن الرمزيين اعتمدوا على تشبيهات يدركها الحس الباطن وهو القلب.

وهذا النوع الجديد من التشبيه يسمونه بتراسل الخواص بأن يوصف المسموع بالمشموم والمنظور بالمشموم .. إلخ .

فإن قام هذا التشبيه الجديد على استيحاء دلالة الصوت فإنهم يسمونه بالأصوات الملونة .
فربما وصفوا الصوت المسموع بالحمرة المنظورة، ذلك أن بعض الأصوات تثير في النفس ما يشبه معنى الحمرة كضحكة شفاء فاتنة ساعة الغضب أو الشوة العارمة .
ومثل ذلك قول عبد الرحمن شكري :

رب لحن كأنه المنظر الغض بيث الآمال والأوطارا

فقد وصف اللحن المسموع بالفضاضة المنظورة، لأن ما يشبه اللحن المسموع معنى يشبه المعنى الذي يشبهه في النفس منظر غرض، ولهذا قالوا: الأشياء توجد داخل نفوسنا، فليست وظيفة الشعر تصوير الأشياء تصويرا حسيا جامدا كما نأخذ من دلالة اللغة التقريرية، بل وظيفته الإيحاء بشعورنا إلى مشاعر الآخرين .

و يدخل في نطاق التراسل تشبيه العنويات من حسيات وجدانيات كتشبيه السكون بأنه مقمر، وتشبيه الضوء بأنه يبيكي .

ولهذا قانون في علم النفس التحليلي يسمى بالتداعي الطليق، ومن خلال ريادة الرمزيين تفررت تشبيهات لا تخرج عن كونها اصطلاحية كالسما الزرقاء، والفجر، وأنهار الجليد، فهذه رموز انتزعوها من الطبيعة لتوحي بصفاء بالغ .

هذه وسائل الإيحاء التي يتميز بها المذهب الرمزي الحديث .

ولما كانت هذه الوسائل دقيقة تعتمد على مهارة خاصة كانوا — لأجل ذلك — يعتمدون على الصنعة والتعمل ومعاودة العمل .

والرمزية في الأدب الحديث ذات وجهين :

رمزية في التعبير، ورمزية موضوعية .

فمن نماذج رمزية التعبير قول علي الجارم :

أسوان تعرفه إذا اختلط الدجى بالنسرة السوداء في أناته

فقد خلع على الصوت ما هو من سمات الألوان .

ومن نماذج الرمز الموضوعي قصيدة (سلة ليمون) للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي يقول فيها :

سلة ليمون غادرت القرية في الفجر .

كانت حتى هذا الوقت الملعون .

خضراء مندأة بالطل .
سابحة في أمواج الظل .
كانت في غفوتها الخضراء عروس الطير .
أواه .
من روعها .
أي يد جاءت قطفتها هذا الفجر .
حملتها في غبش الإصباح شوارع محتنقات مزدحمات .
أقدام لا تتوقف .. سيارات .
تمشي بحريق البنزين .
مسكين يا ليمون .
لا أحد يشمك يا ليمون .
والشمس تجفف ظلك يا ليمون .
والولد الأسمر يجري لا يلحق بالسيارات .
عشرون بقرش .
بالقرش الواحد عشرون !
لقد وقعت عين الشاعر على سلة ليمون في يد صبي محزون الصوت يستجدي نظرات المارة إلى
بضاعته الكاسدة .
فكانت هذه الأبيات رثاء لليمونة .
هذه هي الدلالة الواقعية الضيقة ، أما المعنى السري الرمزي فهو أن الليمونة هي الشاعر نفسه
يرثي نفسه ، لأن المدينة ضغطت عليه بأصابع لا ترحم ، وليل لا ينام ، وطرقات قيعانها من نار .

* * *

الخيال العربي

يرمي بعض نقاد الأفرنج الشعر العربي القديم بعقم في الخيال ، ولقد عكفت مدة أتتبع ما تحفل به المصادر من عيون الشعر القديم كالفضليات والجمهرات وكتب الأمازي والحماة ، فوجدت صورا ولوحات تشهد على أن للعرب خيالا خصيبا جوابا ، وأثجمت عند هذا الاتهام أستظهر بواعثه ، فبدت لي أمور ثلاثة :

أولها : أن هؤلاء الأفرنج ناذرون أنفسهم لحد ماثرنا تارة ، والافتراء عليها تارة أخرى .
وثانيها : أن شعراء العربية الخالص لا يحتفون بالأساطير الخرافية وإن وجدت محات من هذا اللون ، فإنها لا تقاس بالأساطير عند اليونانيين .
وثالثها : أن الأرخيلة العربية في الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام مدفونة في متون اللغة ، فلا يلمحها الناقد حتى يكون له جلد ، وتكون عنده أناة في التنقيب عن معاني المفردات في بطون المعاجم واستخلاص المعنى من تراكيب الألفاظ .

فهذه العوامل الثلاثة — فيما يظهر لي — هي بواعث الافتراء على العرب بأنهم ضعيفو الخيال .
ولتقرير الحق في هذه المسألة أحب أن ينتبه كل ناقد يذهب مذهب الأفرنج في هذه المثلة إلى أمرين متميزين فلا يخلط بينهما :
أولهما : وجود الخيال أو عدمه وقوته أو ضعفه لدى العرب .
وثانيهما : الشكل الذي تقمصه خيالهم .
فأما وجود الخيال لديهم وقوته فأمر تشهد به عيون الشعر المحفوظة عنهم ، وأما شكله فقد ظهر في صورتين :

إحداها : الصور التشبيهية ، وكلما استجدت صورة فعمل الخيال فيها أقوى ، ولا تعرجن على مازعه الدكتور شوقي ضيف من (استغناء التشبيه عن بعد الخيال وعمق التصور) لأن الصور التشبيهية لا ترتفع إلى قمة العمل الأدبي إلا بمقدار ما يدفعها من قوة الخيال وإشاعته . ألا ترى أن تشبيه الناقة في سرعتها بالقطة أمر معقول لا تنقضه حجة ولكنها

صورة ميتة لا عمل فيها للخيال ، لأن الشاعر يتلقى هذه الصورة تلقيا مكرورا ؟
ولكن قيس بن الخطيم لما شبه مسامير الدروع بعيون الجنادب أحيا الصورة بخياله
الجواب ، ولا نقول : إن مسامير الدروع وعيون الجنادب أمور محسوسة وأنها متشابهان ،
وكلما كان التشابه أتم كان عمل الخيال أضعف ، لا نقول هذا لأنك تعرف سلفا أن
الشاعر غير مطالب بغير ما تلمحه مخيلته من صور أحسها بحواسه الظاهرة كالمبصرات ، أو
بحسه الباطن كاللذة والألم ، وأنه إن طوّل بغير ذلك فلا يستطيع أن يكتب صوراً لم
يكن لها رصيد من حسه ، لأنه نافذته إلى المعرفة . وما من شك أن تشبيه المسامير بعيون
الجنادب أمر بديهي ، وإنما الذي جعله بادها مخيلة الشاعر فقط ، أما قبل أن يلمح الشاعر
عيون الجنادب ومحضرها بجانب مسامير الدروع فهي مطلب عزيز النال . فالفضل لخيال
قيس بن الخطيم الذي غاص على هذا المعنى البعيد . أما بداهته في النهاية فشاهد آخر على
قوته فأى خيال يجعل المعنى البعيد بديها لولا خصوصيته وتأتيه ؟

ثانيهما : أما الصورة الثانية التي تقمصها الخيال في شعر العرب فهي تلك اللوحات التي ترسمها
ريشة الشاعر العربي القديم لا بصورة تشبيهية فيها مشبه ومشبه به ، وإنما باستقراء
جزئيات المعاني بحيث لا تشذ جزئية يمكن أن تستغني عنها اللوحة ، أو قل فلا تشذ جزئية
يمكن أن تستغني عنها موضوع الحديث ، وإن استقراء المعاني والجزئيات لموضوع ما أمر لا
يقدر عليه إلا الخيال البعيد ، فأنت تعلم أن القطاة سريعة العدو ، ولكنها إذا كانت على
جفاجف كانت أسرع مما لو كانت على أرض رخوة رملية ، فإذا كان لها بيض على حزم
مرتفع أنصب إلى منعطف الوادي وهي تلمحه وتريد تداركه فإنها تأتي بأقصى ما لديها
من سرعة ، فاستحضار سرعة القطاة في عدوها ، ثم وصف منطلقها بأنه جفا جف غليظة ،
ثم الإشارة إلى أن بواعث عدوها لتدارك بيضها حتى لا ينصب ، مع معرفتنا بسرعة البيض
في انصباها : كلها امدادات تؤلف لوحة ليس فيها تشبيه شيء بشيء وإنما هي ملاحقة
أوصاف ، ولكنها لوحة لا يستطيع أن يرسمها إلا من كان له خيال خصب يملئ عليه
رسومها .

والأمر الذي بلوته من الشعر القديم أنه خلا من التصورات الوهمية كتشبيه الهلال بزورق من
فضة مثقل بحمولة عنبر .

كما أن الشعر القديم — لعدم احتفائه بوحدة الموضوع في القصيدة — تقل فيه اللوحات إلا ما
يستطرد فيه الشاعر عرضا ، كرسْم مشهد لحمار وحشي وأتان يمثلها صياد في منعطف أو تضري عليها
كلاب أو تطردها خيل .

ومن اليقين أن وحدة الموضوع في القصيدة والإلحاح على جزئياته عمل خيالي ، بيد أن خلو الشعر
العربي القديم من التصورات الوهمية وعدم احتفائه بوحدة الموضوع في القصيدة لا يعني عقم الخيال

عندهم ، وغاية ما في الأمر أن الخيال تقمص شكلا دون شكل ، وإذن فلا يصح لناقد الأفرنج أن يرمي العرب بعقم الخيال ، ولا محارجة عليه في تحديد نوع الخيال عندهم .

إضافة الخيال

إن من حرمهم الله (الحاسة الفنية) يستهينون بقدرة الخيال على افتضاض أبحار المعاني، والإقناع بأيسر طريق — بما يسميه المنطقيون بالبرهان التخيلي — فيقول هؤلاء المحرومون: تقرر عند أهل اللغة أن المفردة اللفظية مرتبطة بالفكر، فإذا توفرت لدى الأديب الثروة اللغوية وصحت تجربته الشعورية، عبر عنها من تلك الثروة باللفظ المؤدي، فلا حاجة إلى الخيال.

واني لانت انتباههم إلى أن وضع اللفظة لمضمونها ليس من عمل عقل الأديب ولا من عمل خياله، فهو أمر قد كفيه وزود به.

ألا ترى أن الإنسان يفعل بالشيء وتصح تجربته الشعورية له وتوفر لديه المفردات اللغوية فلا تغنيه شيئا حتى يكون له عقل لا قط (إن أردنا عمله عقليا علميا) أو خيال جواب (إن أردنا عمله أدبيا فنيا).

فالعقل أو الخيال يهدي إلى المعنى المنطبق على ما لديه من تجربة شعورية — إما بالعقل وإما بالتخيل — فلا يفتش في حصيلته اللغوية إلا وقد عرف المعنى الذي يريده.

إن ارتباط الفكر باللغة ارتباط اللفظ بالمضمون، وإن ارتباط الفكر بعمل الأديب ارتباط اللفظ ومعناه بالتجربة الشعرية، وفرق بين هذا وذاك، ونخذ هذه القاعدة بمثلها: قال شاعر يصف شمعة:

كأنها عمر الفستی والنار فيها كالأجل

فهب أن الشاعر لديه ثروة من المفردات اللغوية المرادفة لكل ما في هذا البيت من لفظة فماذا ستغنيه إن لم يكن الخيال حدد له المعنى المراد التعبير عنه؟

إننا لا نطلب من الشاعر أن يضع معنى جديدا للمفردات بإعمال فكر أو شطحة خيال فالعاجم فرغت من هذا، ولكن تأليفه بين المعاني واستحضار هذا شاهداً لذلك هو عمل الخيال، وما أعسر العثور على النظير الذي يعكس ما في نفس الشاعر من معانٍ إلا للخيال الواسع والعقل اللاقط، فهذه الصورة المؤلفة من الشمعة والعمر حقيقة غائبة وسهلة ممتنة إلا إذا أحضرها الخيال وذللها.

ولو سبقه شاعر أو نثر إلى تأليف هذه الصورة وثبت أنه علم بها اعتبر مدعياً ما ليس له متمدحاً بما لم يصنعه خياله.

منهجان في النقد

النقد الأدبي في كل عصر ومصر له وجهتان رئيسيتان :

إحداهما : نقد يؤسس و يقترح و يسعى إلى تغيير مسيرة الأديب شاعرا أو ناثرا، وهذه الوجهة الرئيسية هي التي قسمت مذاهب الأدب الحديثة إلى عشرات المذاهب، ولا أرى أن الخلاف بين أهل هذه المذاهب خلاف في النقد الأدبي ذاته، وإنما هو خلاف في الفلسفة والفكر. فالأديب الملي يؤمم رسالة الأديب و يقيدها بمثل وقيم ملته، و يقول هذا هو النقد الأدبي، والأديب الصوفي ينتقر مقاييسه من الذوق والوجد و يقول هذا هو النقد، والأديب العقلاني ينطق النقد بجفاف المصطلحات المنطقية، و يقول هذا هو النقد وهكذا.

لهذا نقول في هذه الحالة اتفقوا على فلسفة معينة ثم يكون من فلسفاتكم منهجكم في النقد الأدبي.

وثانيهما : وأخرى الوجهتين نقد تطبيقي لا يسير وجهة الأديب، ولكن وجهة الأديب تسيره وخذ هذا النموذج في النقد العربي القديم :

يحفي النقاد بحسن المطلع، و براعة الاستهلال، و حسن التخلص، و حسن الختام، لأن الأديب يومها يجعل لقصيدته أكثر من غرض. أما اليوم فقد سقطت هذه المقاييس من نصاب النقد، لأن موضوع القصيدة واحد.

تراسل الحواس

حينما تعض تفاحة أو تسمع نكتة عجيبة ، أو تظفر بشاردة علمية ، ففي كل هذه الحالات تجد لذة خاصة ، ولكن لذة التفاحة ليست كلذة النكتة وعلى هذا فقس .

وإنما يمايز بين اللذات الحس الباطن أو الظاهر ، ولم يجز المنطقيون أو الفلاسفة تراسل الحواس بمعنى أن يوصف المسموع بالمشموم ، أو يوصف الحس الظاهر بالحس الباطن .

وكانوا يعتبرون تراسل الحواس انتكاسا في المنطق .

وفي العصر الحديث وجد مذهب أدبي يعرف بالمذهب الرمزي ، و يقوم هذا المذهب على تراسل الحواس ، وقد استمدوا من العلاقات المجازية في علم البلاغة ، ومن التحليل النفسي في علم النفس مسوغات و بينات لهذا الإرماز المتراسل .

ونحن لا نعتبر هذه الظاهرة الأدبية ابتكارا للغربيين ، ولكننا نعتبرها مذهباً غريباً تقصده وأسرفوا فيه .

أما الريادة فقد كانت للعرب في أدبهم ، وجدت عندهم لفتات لا مذهباً .

وقد لوح لهذه الظاهرات الشهاب الخفاجي في كتابه (حديقة السحر) واعتبرها من أبواب البديع .

قال أبو الفتح الربيعي :

لفرشت خدي في الطريق مقبلاً بفم الجفون مواطن استطرأه
فاعتبر حاسة النظر أداة للقبلة .

ووصف ابن الرومي نديماً بأنه يكاد من العذوبة يشرب .

وقال الشريف الرضي :

فاتنني أن أرى الديار بطرفي فلعلني أرى الديار بسمعي

فوصف المنظور بالمسموع ، فهذه اللفات كثيرة في الأدب العربي ، ولكن العرب لم يقيموا هذه اللفات على فلسفة جمالية تتعلق بعلمي النفس والاستاطيقا .

على رلكم أيرها الشعراء

استمعت إلى مقابلة أجريت مع الشاعر المعاصر نزار قباني بإذاعة أبوظبي، ولا أحصي عشرات المرات التي سمعت فيها نزاراً يقول:

أنا، وأنا، وقلت أنا، وذهبت أنا، مع إشارته إلى جماهيره في ليبيا وأبوظبي بحيث رقوا على السطوح ليستمعوا محاضرتة ثم أشار إلى مذهبه في الحياة:

الرفض - التمرد - تحطيم الأصنام التاريخية التقليدية.

ولن أتعرض لعناصر هذه المقابلة إلا من قاعدة واحدة عامة في نظر المنطق الواضح الصلب النيع.

وهذه القاعدة تتألف من هذه الملامح:

الملح الأول: أن الرفض والتمرد يجوز أن يكون مذهبا، ويجوز أن يكون الجنون والكفر، وإدمان المخدرات، والهيبية مذهبا للإنسان في حياته.

ولكن لا يجوز أن يكون الرفض والتمرد حجة، لأن الرفض والتمرد دعوى.

الملح الثاني: أنه إن كان الرفض والتمرد عن حجة صحيحة قاهرة فالرفض استثمار عاجل مبارك لمقتضى الحجة.

هورفض للجهل والخطأ والباطل واللامعقول ولكنه استسلام للمنطق الصحيح.

وإذا فالفكر الحر لا ينظر إلى رفض الراضين، ولكنه ينظر إلى حجتهم.

الملح الثالث: أن شعراء الرفض يدعون دعوى لم يبرهنوا عليها، لأننا لا نعلم لهم عملا فكريا أكاديميا جبارا يحشرهم في نصاب ابن رشد وابن سينا ورسل وسارتر وجون ديوي.

إنما قرأنا رفضهم في شعرهم والشعر غير قادر على بناء الفكر.

الشعر عمل وجداني جاني خالص، يأخذون بصيصا من الفكر لجمالهم وجدانهم وكل خطأ و بطلان فيه جوانب من الحق.

إذ لا شيء يتمحض للخير أو للشر.

فالشعراء ليسوا سدة للفكر، ولكنهم يتلاعبون به.

عمل الفكر أضعف العناصر في العمل الفني .
وإن جيروت الفكر يحرق رياحين الشعر .

العلمانية في الشعر العربي الحديث

في شعرنا العربي القديم إلى عهد النهضة الحديثة علمانية كثيرة تتجلى في خلاعة ومجون أبي نواس والحمادين والخلع وأضرابهم كما تتجلى في كفریات أبي الطیب وابن هانئ وفي شکوک وجبرية أبي العلاء وابن شبل ومدرستهما، ولكنها تفسر بحسن نية، لأنها نتيجة مسلمة لإيمانهما بأن أعذب الشعر أكذبه، وأن الشعراء يقولون مالا يفعلون، وبأن اتخاذ الشعر رسالة لم يتبلور في تلك العصور، وبأن النشاط العلماني المعادي لتاريخنا عقيدة وسلوكا لم يتبلور مذهباً في الشعر، لأن الحماس الديني قوي، والجمهور ينددون بالمهفوات العلمانية.

وبعكس ذلك تماماً العلمانية في الشعر الحديث لأنها مرحلة نهائية لغزو فكري بعيد المدى ولا أستشي إلا هفوات يسيرة عن العلمانية الحديثة قد تفسر بحسن نية، والأغلب بعد ذلك وفق خطة محكمة مدروسة هو الغزو الفكري.

وقبل استعراض أمثلة العلمانية الحديثة أحب أن أخلع اللثام عن مغالطة منطقية في النقد الأدبي الحديث قبلت لتسويغ العلمانية، وهي أن الفن متعة الانفعال أو الخيال الذي تثلمه الشاعر، لا ينبغي أن نقيدها بقيم تهض طلاقة الأديب، والسر في هذه المغالطة:

أن النقاد في الغالب لا يستلمحون الممايزة بين أمرين مختلفين:

١- الأدب لذاته.

٢- والأدب لغيره.

والأدب لذاته يجب أن تحدّد ملامحه في سفر من النقد الأدبي الحديث سفر لا يستمد مقاييسه من غير قيمة الجمال، لأن الشعر من الفنون الجميلة، وكل مدلول لكلمة جمال في لغتنا العربية لا يفسر بغير لذة النفس وبهجة القلب، فنجعل النقد الأدبي لذاته مقصوراً على علاقة الشعر بالتصوير والرسم والموسيقى، فنأخذ من مصطلحات هذه الفنون مسائل التناسب والتناسق والوحدة والكمال .. إلخ.

وأي مقاييس منطقية أو أخلاقية تعتبر دخيلة على النقد الأدبي لذاته.

وهنا يلتقي المؤمن والملحد والرأسمالي والشيوعي والوقور والماجن في اتخاذ قواعد النقد الأدبي

لذاته، لأنهم يأخذون قواعدهم من علم الجمال المبرأ من الغاية.

أما الأدب لغيره فيعني رسالة الأديب، فيكون هذا المبحث قسيما للنقد الأدبي لذاته، و يتحول الحديث من فن الأديب إلى غاية الأديب، فلا يمس أي مقياس جمالي، وإنما يعالج الموقف بمقاييس من قيمتي المنطق والأخلاق، و يسمى كل صاحب عقيدة أو مبدأ أو مذهب أو غاية إلى تأميم أدب قومه لصالح قضيته، وهذا هو الالتزام في الأدب، ومن المستحيل أن نجد أدبيا غير ملتزم وإن ادعى ذلك، لأن كل منحرر من غاية مرهون بغاية ولا يتحرر من كل غاية إلا من لا غاية له، ولن يعيش في الكون من لا غاية له.

وغاية الأديب ورسالته مهما كانت سيئة أو شاذة لا يمكن أن تهيبض فنه، لأنه لن يكون أهلا لأي رسالة أدبية حتى يكون أدبيا لذاته.

إنه إن كان أدبيا لذاته كان أدبيا لغايته، ولقد رأيت ماوتسي تنج وغيره من زعماء المذاهب الهدامة يؤلفون المؤلفات في النقد الأدبي التي ترمي إلى تأميم الأدب، إذن تأمين الأدب لا ينافي، طلاقة الأديب ولكنه برهنة على طلاقته.

وإذا قلنا نريد أدبيا مسلما فلا يعني ذلك أننا نحدد نطاق الموهبة الأدبية، لأن كلمة أديب مسلم يعني مدلولين:

- ١- أديب وهو الأديب بذاته المطبوع على الفن.
- ٢- مسلم وهو الغاية لهذا الأديب المسلم يجد في عزائم الإسلام ورخصه مالا تستوفيه موهبته الأدبية ولو عمر الأجيال.

إن الجمال غاية لذاته في مقاييس النقد الأدبي إذا عاجلناه فنيا لا نحيف عليه بالمواظع الخلقية والمنطقية.

ولكن هذه الغاية الجمالية يجب أن يكون من ورائها غاية في حياتنا بوحى من الدين والأخلاق لا الجمال، إلا ما يتعلق بجمال الغاية.

وما يطربنا أن يكون بين ظهرانينا أديب علماني جميل الفن قبيح الغاية لأن الجمال أحد القيم الثلاث:

- ١- قيمة الجمال.
- ٢- قيمة الحقيقة.
- ٣- قيمة الأخلاق.

فإذا عارضت قيمة الجمال قيمتي الحقيقة والأخلاق فليسقط الجمال ولتبق الفضيلة والحقيقة. لأننا نبني على الفضيلة والحقيقة وجودنا وكياننا أما الجمال فهو متعنا، فالجمال في القيم

كالفضلة في النحو.

ولكن الأديب المطبوع هو الذي يكفل لأمته أدبا جيلا لذاته جمالا فاضلا حقا في غايته .
ولا تفوتني الإشارة إلى أن المقاييس الجمالية ألصق القيم بالأدب لذاته ولغايتة لأننا نبني
الأدب على مقاييس عقلية وخلقية صرفة تنتهي إلى جمال الغاية .

إن قصيدتين لشاعرين مختلفي الغاية إحداهما في الابتهاال بإباء وشمم ، وأخرهما في تسويغ
فجور: إنهما جميلتان ، لأنهما قمة الفن لذاته ، ولكن الأولى تصور جمال الجمال لأنها جميلة في نفسها
وغايتها ، والأخرى تتخذ من القبح جمالا أو تتخذ مادة الجمال ، لأنها في ذاتها قبيحة في غايتها .

أفجز شعراؤنا عن إحلال الجمال في محله اللائق به حتى يقال لا مندوحة لهم عن جمال
القبح؟! إنهم إن فعلوا أقاموا البرهان على قصورهم الفني .

والظاهرة العلمانية في أغلب كتب النقد الحديث لا تنعى على الشيوعي التزامه ، ولا تنعى على
شاعر النهود التزامه ، فكل التزام مباح ، ولكن الويل للأديب المسلم إذا كان أديبا ملتزما .
إن هذا الصراع في كتب النقد الحديثة ليس صراعا حول مقاييس النقد الأدبي لذاته ، أي ليس
دفاعا عن الفن لأنه فن .

ولكنه صراع حول الغاية ، إنه نقد مباشر لعقيدتنا وسلوكنا وغايتنا .

ولوارتاحوا لقيمنا ما حرموا علينا الالتزام .

إن التنديد بالالتزام ليس تنديدا بالالتزام ذاته ولكنه تنديد بما نلتزمه لأن كل التزام غير التزامنا
مباح .

أجل إن العلمانية ضد الالتزام العربي المسلم ، فما هي ظاهرات ذلك في أدبنا الحديث؟!
أهم ظاهرة أن الشاعر المعاصر لا يتحرج في لغته وصوره وحيرته فيمس جانب العقيدة والسلوك
المسلم بعنف يقول الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي :

غرامك كان محراب المصلى	كأنني قد بلغت بك السماء
خلعت الآدمية فيه عني	ولكن ما خلعت به الإباء
فلم أركع باحته رياء	ولا كالعبد ذلا وانحناء
ولكنني جيتك حب حر	يموت متى أراد وكيف شاء

و يقول :

وحبيب كان أدنى أملّي	حبه المحراب والكعبة بيته
----------------------	--------------------------

و يقول :

يا أيها الحب المقدس هيكلا	ذاق الردى من عابديك مسبح
---------------------------	--------------------------

كثرت ضحاياه وطال قيامه وصيامه فمتى رضائك تمنح؟
يا دوحة الأرواح يحمد عندنا فيء و يعبد زهره المتفتح
و يقول:

أيها النور سلاما وخشوعا أيها المعبد صمتا وركوعا
ألا ترى هذه العلمانية الوثنية وهي كثيرة جدا جدا في شعر ناجي؟
إنه اتخذ الجمال ربا يعبد من دون الله .

هذه الكعبة كنا طائفها والمصلين صباحا وماء
كم عبدنا الحسن فيها
إن الدكتور إبراهيم ناجي مخلص لمواطنه لا يلجمها بأية قيمة .

وأنا أقول بلغة النقد العربي القديم لو لم يكن له إلا الأطلال لكفته فخرا في بناء قمم الفن
الشائخة لذاتها ، ولكني أنقد غايته وأقول إن رائد الشعر الحديث ضر ناشئة الأمة من حيث لا يقصد
بشعره اللامتحرج .

ونبني حسن نيته على سبل :

أولها : أنه لم يقصد أن يكون داعية لعلمانية ، وإنما كان عفا الله عنه ماجنا استوحى ليالي القاهرة من
ليالي شارع الهرم ، ومن أخلص لمعاطفه لا يوصف بأنه جندي في معترك الغزو الفكري .
وثانيها : أن الدكتور ناجيا مخلص لمدرسة فرنسا الرومانتيكية إلى حد الاختلاس ، فلقد نصصت على أن
قصيدته رسائل محترقة نقل أمين لقطعة من نثر لا مرتين في رواية روفائيل ولم ينتبه لذلك أحد
قبلي .

وهؤلاء الرومانتيكيون يرون في الحب قداسة ، وهو وصف للتعظيم ، و يصفون قلب المحب بأنه
معمود ، وهو وصف العبادة .

وحظ ناجي في أموريته نزر فهو ينقل بأمانه .

تأثره من وجهة نظر واحدة تخالف التزامنا : أي أنه يلتزم ما يخالف التزامنا .

إننا نحذر الناشئة من الاستماتة في التقليد دون تبصر .

إن الالتزام الأعمى هو النكسة الفكرية ، وإن قمة الحرية أن نلتزم التزاما متبصرا .

وهذه العلمانية تمس جانب العقيدة مسا قاسياً لأنه تعظيم لغير الله يستتبعه ما تطفح به دواوين
الشعر الحديث من القسم بغير الله .

يهولون فيقسمون بالشرف ، و يتماجنون فيقسمون برين الحببية !!

وإذا كانت الكلمة الناصحة لا تضيع وإن أخنى عليها ما أخنى على لبد فإني أدعو إلى حرية الأدب لذاته في قيمته الفنية، ولكنني أدعو بإصرار إلى توظيف الأدب واحتكار غايته.

إن من التماجن المألوف في العلمانية القديمة تغذية الخاططات، ولكنه أصبح في الشعر الحديث دعوة لإشاعة الفاحشة، وإعلان مشروعيتها بتسويق البغاء، فهذا محمود حسن إسماعيل في قصيدته (هكذا قالت البغي) يسوغ بديوانه (هكذا أغني) خطأها بالجوع ويحمل المجتمع تبعيتها.

والشاعر محمد شحاته شاعر البراري يرثي اللقيطة في ديوان (نجوم ورجوم)، وهكذا فعل كامل أمين في ديوانه نشيد الخلود، وفؤاد بلبل في أغاريد الربيع، وربما حملناهم على حسن النية إذا قلنا بأن ذلك التزام لمنهج الغربيين في العطف على الخاططات، ولكن سيلهم غير سبيلنا لأن الفاحشة عندهم مباحة.

والعطف من ضمير إنساني يحب الخير لبني جنسه، وبيكي لأخطائهم لا يوصف بالعلمانية، ولكن العلمانية أن يصل العطف إلى التسويق والإشاعة.

والقاعدة في ديننا (ولا تأخذكم بهما رأفة) وإنني لا أقسو إذا قلت: إن الشاعر الحديث تحلى عن رسالته تخلياً سافراً.

ومن المصادفات المضحكة أن نزارا مسح دموع ذوي المبادئ بقصيدتين جيدتين في التشهير بالخطاة وكم في الكون من متناقضات؟!

وشوقي شاعر العروبة والإسلام له إسلاميات رغم مجونياته، لا يفارقه وعيه بدينه، تجده في همزته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم تعرض لحروب الرسول فلم يث فيها روح الفخر، بل بث فيها غاية الحرب الإسلامية في رأفتها وإنسانيتها، لأنه على وعي بنقد المستشرقين.

وإن الوعي الإسلامي كثير في شعر شوقي، ولكنه لم يسلم من تسربات علمانية في تقديس الأديان الوثنية، وفي الاعتذار لفرعون، وفي سوء الأدب مع الأنبياء يقول:

ظن فرعون أن موسى له واف وعند الكرام يرجى الوفاء
لم يكن في حسابه يوم ربي أن سيأتي ضد الجزاء الجزاء
وقصيدته:

رب شقت العباد أزمان لا كتب بها يهتدى ولا أنبياء

ملئية بوحدة الوجود، وقد يكون هذا علمانية، وقد يكون غفلة الوعي الذي يتمتع به شوقي.

وكل ما أورده نماذج نحملها على حسن النية، ولكننا نجد العلمانية المجنونة في شعر دعاة الرفض والتمرد والتجاوز والتخطي في الشعر العراقي الحديث بخاصة وبعض شعر المقاومة وفي الشعر المهجري على العموم.

الجمال بين النظرية والطبيعية

قيمة الجمال هي أن نحس به إزاء الموجود، وعمل هذه القيمة القلب، ولقد أصبح الجمال علما مستقلا، وللجمال مصادر من مختلف الحواس، فالصوت المطرب يوصف بأنه جميل، والصورة الخلابة توصف بالجمال والسلوك العالي يوصف بالجمال أيضا، والجمال نسبي عند الأمم، فنرى الإفريقي يعجبه من المرأة أن تكون عريضة الظهر، وترى العربي لا يعجبه إلا نحول الخصر، ونجد الأوروبي لا يعجب بالآر داف إلا أن للجمال مقاييس يكاد يتفق عليها العقلاء كالنظام والكمال والتنويع والتناسب والتناسق، والفنون الجميلة تجتمع في الشعر والبلاغة والأخلاق والموسيقى والأصوات المطربة والرسم والنحت والتصوير والفن المعماري.

وإن من لم يجد في النصوص الشرعية التشجيع على التصوير والرسم والطرب سيقول: كيف لا يشجع الإسلام على الجمال وهو أحد قيم ثلاث تدلف إليها العقول والقلوب؟ ولقد انهزم كتاب مسلمون فراحوا يقتضرون النصوص وقائع التاريخ ليحلوا الطرب والتصوير والرسم.

لهذا أشير إلى ملمحين:

أولهما : ملاحظة أن حب الجمال وتقديره—في فكرته العامة—قيمة مرغوبة في الشرع. قال ربنا سبحانه وتعالى: (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين) [سورة الحجر/ ١٦]. وقال تعالى: (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين ترحون) وقال تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) [سورة الأعراف/ ٣٢]. وأظهر هذه النصوص وأدلى على المقصود قوله تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) [سورة الأعراف/ ٣١].

وثاني الملمحين: أن الإسلام حرم أشياء جميلة، ولم يحرم الاستمتاع بالجمال، لأن قيمة الجمال ليست أم القيم، بل إن فوق قيمة الجمال قيمتي المنطق والأخلاق وهما فوق قيمة الجمال.

المنطق والأخلاق ضماناً لكيان الأمة وجودها وقوتها والجمال متعة وراحة يلهو بها
الفارغ .

فإذا كان الصوت المطرب السافل المثير للعواطف ينماع بالأمة فكيان الأمة أولى من
متعها ، والمرأة الحسناء لا يشفع لنا جمالها بالمتعة الحرام بل نأخذها بكلمة الله ،
والتماثيل المجسمة للطغاة والعظماء أو الصالحين لا يسوغ التمتع بها جمال منظرها ،
لأن هذا الجمال خطر على عقيدة الأمة ، وعقيدة الأمة أولى من تمتعها منطلقاً وخلقاً .

لهذا نقول لكل السعوات لا تتمتعوا بالجمال والفنون الجميلة إذا وقف الشرع من بعضها موقفاً
معقولاً ، لأنه ليس كل جميل معقولاً .

عاشقة النور

أولع شعراء الفرس باحتراق الفراشة في اللهب يستروحون منه مغامرة المحبون وسذاجتهم في تنعمهم بعذابهم، وفي ظني أن رمز بودلير للحب بالشمس الحمراء مأخوذ من هذا، كما أن احتراق المحب في حبيبه غاية الاتحاد والحلول التي أسرف في الاجترار بها ابن عربي مجنون (شيخة الحرمين) ثم احتذاه إقبال وجيته وروسولا مرتين، فحلولية الحب نحلة صوفية.

والصوفية بنت العجم

يقول إقبال رحمه الله في (بيام مشرق) في اليراعة، وهي دابة تطير بالليل كالشرارة:

فراشة في قلق تطير كل ناحيه
على اللهب رفرفت حتى كأنها هي
أنا وأنت قاليه

إن (أنا) و(أنت) يعني التعدد، وهذه اليراعة تكره ذلك لأنها اتحدت بمحبوبها، ومثل هذا قول (سعدي الشيرازي) في البستان:

قال ذو صبوة لما نفر من نار أحبابك لا تخشى الضرر
مادمت عاشقاً لا تشرك قول (أنا) مع الحبيب تشرك
وأعجب ما أعجبني في هذه الناحية قول (سعدي الشيرازي) بترجمة محمد الفراتي:

يا حسن ما أرويه عن فراشة وشمعة من الحوار الريق
في ليلة ليلاء والنوم على أجفاني المرهء لم يرنق
حامت عليها وانبرت تنقد فراشة الروع بلفظ مونق
قالت أنا عاشقة لا غرو أن ألقى نفسي في اللهب المحرق
فلمست مثلي فعلام ذا البكا وحرقتك النفس ولما تمثقي
قالت لها الشمعة: يا ابنة الهوى غاب حبيبي الشهد عني فارقتي
فمذ نأى نأى الكرى عن مقلتي واشتعلت نار الأسى بمفرقي

على بهار الخند من دمعي جرى سيل ليليل صاخب من حرقبي
لا تدعي العشق وخليه لمن لاقى من الأوصاف فيه ما لقي
لم تصبري على الردى فلم تكذ تمسك الشعلة حتى تصعقي
قد داعبت ريشك إذ أنت على آخر ما أملكه من رمقي
وقفت والنيران ترعى جسدي فإن شباك مصرعي فاشفقي
لا تحسبي أنني سراج مجلي وفي الحشا نار هوى لم تطنق
أنسرت للناس ولم أعطف على قلبي ولم أعبأ بجسمي المرهق

قال أبو عبد الرحمن : وموجز هذا الحوار أن الشمعة تقول للفراشة :

إن كنت ريمسا فقد لاقيت إعصارا

تهويمات النابلسي

لسلطان العاشقين عمر بن الفارض قصيدة مشهورة في الغزل في مئة وستة وثلاثين بيتا مطلعها :

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعما عرج على كشبان طي
وملاحظتها في عاطفتها ومعانيها ، بيد أنه يتقصد محسنات البديع تقصدا متكلفا ، وفيها أوصاف
حسية لليلة التي شبهها إذا تثنت بقضيب في نقاء ، وليلا محموسة بدمها حررتها تضرب إلى السواد
فهي - والتصغير للتلميح - أحي جمع أحوى : جللت شبابه بالشيب يقول :

وهوى الغداة عمري غادة يجلبب الشيب إلى الشاب الأحي
ولا ريب عندي أن ابن الفارض من ذوي الواقعية في الحب التي يغطيها شراح الطرق الصوفية
ببهذيان لا يعقل ، فهو تلميذ ابن عربي ، وابن عربي يدعي الولاية ، ومن بلغ رتبة الولي - بزعمهم -
فلا يتختل في التحلل من محظور الشهوات ، وهذا شيء تشهد به تراجمهم ، وابن الفارض يقول :

ماذا يريد العاذلون بعذل من لبس الخلاعة واستراح وراحا
ولكن النابلسي يقف عند مطلع القصيدة الآتية الذكر فيقول : السائق هو الله تعالى عما يقول ،
والأظعان الناس ، واستعمال السوق لا القود هو أزياء حثهم للوصول إليه ، وكشبان طي كناية عن
المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكتيب ، فكأنه يلتمس منه تعالى أن يوصله لما يوصل جميع
المؤمنين إليه ، أو كأنه يلتمس الوصول إلى مقامات أستاذه الذي أخذ عنه وهو الشيخ محيي الدين ابن
عربي الحاتمي الطائي الذي هو من ذرية حاتم طي . هـ .

قال أبو عبد الرحمن : ما الذي يحوج هؤلاء إلى هذا التأويل ؟

أو لم يدلنا على مراده بما هو أبغ ، فذكر الأجفان والخصر ومعقول الثنايا ، وهذه لا يمكن حلها
بحال على الحب الإلهي .

وأود ملاحظة ما يقوله ابن عربي والتلمساني وابن الفارض ومن ينحونحوهم لا يمكن حمله كله
على صوفية الحب لأنهم أحبوا فعلا ، وكان منهم شهبانيون ، ولكنها ترد المقطوعة الصغيرة خاصة
بهذا الغرض ، كما ترد المقطوعة الطويلة بهذا الغرض أيضا ، ولكنه يتخللها نوع من الحب الأرضي
إن صح التعبير .

وإذا بهت أحدهم عند جمال أسر استوحى سر الجمال من الاتحادية والحلولية على نحو ما صنع
لامرتين مع مسلولته جوليا ومن نماذج الحب الأرضي الفارضي قوله:

ياما أميلح كل ما يرضى به ورضابه ياما أحيلاه بفي
ثم يقول:

فالعين تهوى صورة الحسن التي روحي بها تصبوا إلى معنى خفي
يقول النابلسي:

قوله: صورة الحسن كناية عن الحقيقة المحمدية التي هي مجلى المحبوب الحقيقي ومنها جماله
الذاتي، وقوله (معنى خفي) إشارة إلى مقام الوراثة المحمدية الجامعة بانكشاف صورته له عن صورة
الحقيقة المحمدية المتصور في مادتها وهي الماثلة إلى ذلك المعنى الخفي الذاتي الإلهي الذي لا يدركه
عقل ولا تحيط به بصيرة. اهـ.

قال أبو عبد الرحمن: علمني شيخي أبو محمد أن أقول لأصحاب هذه الدعاوى ما قاله الله
للمجادلين: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) [سورة البقرة/ ١١١].

والمعنى الذي أفهمه ويفهمه عقلاء بني آدم أن ابن الفارض يتحدث عن تحاب الأرواح، ومن
يجب أهل الأرض حبا روحيا غير من يجب الذات العلية على نوع بدع الأدب في شعر رابعة والحلاج
وابن عربي.

وليلاحظ عشاق الأدب ما تشدوبه الكوكب من شعر الخيام الذي فيه (إفاقة السحر) و(مناغاة
الوتر) وقوله:

ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشقا
إنما هو جار على النحو الأخير.

و يقول النابلسي في شرح البيت الذي قبله: قوله (يرضى به) أي ذلك المحبوب الحقيقي من أهل
الورع والتقوى. قال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر) [سورة الزمر/ ٧].

وكنى بالرضاب عن الروح الأمري الذي هو أول صادر من (كن فيكون) قبل الحركة والسكون
في ظهور مراتب التجليات الإلهية والشؤون.

قوله (بفي) يعني حين أتكلم بما يلقي ذلك المكنى عنه بالرضاب في قلبي من العلوم الإلهية
والمعارف الربانية والحقائق الرحانية.

قال أبو عبد الرحمن: في هذا تخليط ما شئت، وليس بين هذا الحشو وبين مراد ابن الفارض أي
علاقة ولو كانت أوهى من خيوط العنكبوت.

إن ابن الفارض يقول:

ياما أميلح كل ما يرضى به ورضابه ياما أحيلاه بفى
فليلاه طيبة الريق، فما مناسبة الآية الكريمة: (ولا يرضى لعباده الكفر) بأميلح وأحيل
ورضاب؟!

لوقال قائل: الصلاة واجبة جماعة والدليل قوله تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر) لكان شبيها بشرح
النابلسي لديوان ابن الفارض، والذي يتتبع شرحه يجد من العجائب ما يضحك الثكلى .

الحب الإلهي أو الجمال المطلق

لو وقف الأمر عند فكرة أفلاطون في القول بالجمال المطلق ، لكان لها وجه فلسفي فتكون لكل ظاهرة من مظاهر الجمال في هذا الوجود تجليات من الجمال المطلق .
وليس معنى قولنا : (لها وجه فلسفي) أنها حق .

بل معنى ذلك أن لها وجها من الجدل والتعليل والتسويغ ، ولكن ما ليس له معنى إلا الجنون والدعوى قول الصوفية الحلولية بلسان الحلاج مثلا (أنا من أهوى) !!

يقول هـ . ريترو : ولا شك أن الصوفية اطلعوا على أسرار لقلب الإنسان لم يطلع عليها غيرهم ، وكشفوا عن حالات روحانية بقيت مستورة على سواهم ، فسلم لهم بحالاتهم ومقاماتهم وإن صعب علينا فهمها وتحققها .

قال أبو عبد الرحمن : كلا لا يعطى الناس بدعواهم وإنما اطلعوا على أسرار الخلوة وتجليات الوسطاء من العالم اللامرئي !!

وسترى مبلغ هؤلاء القوم من الدعوى والفرية بهذه المتابعة لكتاب (مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب) لابن الدباغ .

يقول هذا الأحق في مطلع كتابه : ورأيت أن كتم هذا القدر عن أربابه ظلم ، كما أن بذله لغيرهم حرام وإثم ، وإن كان محفوظا بالغير الإلهية عن غير أربابه ، ومحروسا بالحماية الربانية إلا من أصحابه :

لم لا أعرض باسم عزة إنها

أخذت عليّ موافقا وعهودا

لويسمعون كما سمعت كلامها

خروا لعزة ركعوا وسجدوا

قال أبو عبد الرحمن : أقل ما نقول لهم :

كذبتم ربكم الذي خاطبكم بقرآنه العظيم بلغة العرب وبلا رمز : أنه لا وحي في الدنيا يسمع إلا لنبي ، وأن الرسالة انقطعت ، وأن الله لا يرى في الدنيا ولا يسمع ، وأن في خلق الله عالما من الجن

يتلاعب بعقولكم في الخلوات ، ويملي عليكم الكفر والشناعة .

ثم إن رمزكم بعزة وهي لعوبة لعساء صارخة الأنوثة من سوء أدبكم مع ربكم بل هو الكفر البواح .

لقد تجلى لكم الوسيط والقرين وقال لكم : هذه أنوار حضرة قدس المولى ، فصدقتموه بتكذيب ربكم أنه سبحانه لا يرى إلا في الآخرة ، ورؤيته للمؤمنين لا يضامون فيها ، وهي غاية نعيمهم . ولم يقتنع هؤلاء السموات المارقون بكلام ربهم الذي جاء بلغة العرب المفهومة والتمسوا المماحكة من مثالية أفلاطون الوهمية فقالوا : إنما نرى ربنا بأرواحنا لا بحسنا ، وقالوا :

نسي المعارف واللطفات فانسبرى

يبغي الحياة من الموات الجلمد

وقلنا : كذبتكم وأفكتم لا وسيلة لتحصيل معارف الأرواح إلا بالحواس الظاهرة أو الباطنة .

فرؤيا المنام الصادقة من معارف الأرواح ، ولكننا لانتمثلها إلا بحواسنا وهؤلاء الهمل يسمون أصحاب الخلوات بالعارفين والواصلين ، ولقد احتجوا بقول من عساه لا يوافقهم : لو كشف الغطاء ما ازدددت إلا يقينا .

قال أبو عبد الرحمن : نعم هؤلاء رسول الله وأصحابه وأتباعه يؤمنون بالغيب أما هؤلاء السموات فيرون أن الحجب كشفت لهم ، فما حاجتهم إذن إلى كشف الغطاء ، ولا يكفون عن الافتراء على الله بتأويل آياته .

يزعمون أن الله تجلى لهم في هذه الدنيا الفانية فرأوه وسمعوه ، ومن لم يحصل له هذا التجلي في الدنيا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

قال أبو عبد الرحمن : فصحاء العرب الذين عايشوا التنزيل يعرفون معنى هذه الآية الكريمة .

والله العظيم الذي لا إله إلا هو : إن الأعمى من كذب ربه وصدف عن آياته ، وآمن بتجليات الشيطان وتكثفه .

ولم يكف هؤلاء المتلاعبون بآيات الله الخائفون فيها المستهزؤون بها بالدعوى الكاذبة على الله حتى شبهوا ربهم بسحناتهم القبيحة .

قال رقيق صفيق منهم :

أذنيتهنني منك حتى ظننت أنك أنسي

كلا إن المتجلي لكم رقيق مثلكم ، سينكص على عقبه يوم القيامة ، وسيكون لكم عدوا وستلعنونه في أطباق النيران إن شاء الله .

وكما أدخل هؤلاء الكفرة ربهم في قياس تمثيلي :

أدخلوه أيضا في قياس شمولي ، فقال رقيع منهم :
ما أرى نفسي إلا أنتم
واعتقادي أنكم أنتم أنا
عنصر الأنفس منا واحد
وكذا الأجسام جسم عننا
يقول هذا الدباغ الأحق : وكل محب عارف ، وليس كل عارف بمحب .
قال أبو عبد الرحمن : والله ما أحب ربه إلا من عرفه ، ومعرفتنا بربنا معرفة لزوم وتنزيه وليست
معرفة تجليات آمنا بكذبها من معرفتنا بالله .
و يقول رقيع آخر :

تبدى لنا في كل شيء حبيينا
فتنهنا كما ناه الكلم به عجبا
وما نحن إلا حجه وهو سرنا
و يفهم سر الحجب من فهم الحجا
فهؤلاء الواغشون يدعون الوحي ، وأن الله كلمهم كما كلم موسى .
وهؤلاء الجند الضعيف يزعمون أنهم حجاب الله عن الرؤية ، فجعلوا لأنفسهم من الحجم قياسا
ونسبة من عظمة الله لا إله إلا الله ، وليس وراء هذا الكفر كفر .
والمعرفة القصوى عند هذا الدباغ الإدراك العقلي ، وهوانتقال صورة المحبوب إلى ذات النفس .
إنها والله كلمة يحسدوهم عليها إبليس ، ويحسدوهم عليها المكيفون والمثلون من ضلال هذه
الامة .

وهؤلاء الخنازير لا يرون أن الأشواق الروحية في مسجد الله الحرام تعادل أشواقهم إذا كانوا في
الخلوة وواصلوا الصيام وقرأوا التعويذات السريانية والعبرية وتجلت لهم مرادة الجن بما يخلب أنظارهم
و يغطي حواسهم .

يقول أحد هؤلاء المهمل :

دع ذكر أحجار و ذكر منازل
وتول عن بان العقيق فللملح

إلى أن يقول عن ربه جل جلاله :

مشواه في قلبي ونور جماله
في ناظري وحديثه في مسمي

و يقول الدباغ عن معرفة له لم يصل إليها العلم في القرن العشرين :
وهنا سريهمه أربابه الذين وصلوا إلى حقيقة الذوق لا يمكننا النطق به :
شربنا على زهر الربيع المفوف
وجاء لنا الساقى بصهباء قرقف
فلما شربناها ودب ديبها
إلى موضع الأسرار قلت لها قفي
مخافة أن يسطو عليّ شعاعها
فيطلع جلاسي على سري الخفي
وهذا ستار منهم صفيق على دعاواهم ، وهروب من البرهان ، ونسخ للشرعية بما يسمونه الطريقة
والحقيقة .

قال أبو عبد الرحمن : إذا رأيت الخيام يذكر الخمرة والحان فهي من هذا الباب .
ولقد قال الدباغ عن الخمرة الصوفية :
المحبة لا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها ، ومن ذاقها استولى عليه من الذهول عن ما هوفيه أمر لا
يمكنه معه العبارة كمثل من هو طافح سكرًا إذا سئل عن حقيقة السكر الذي هوفيه لم يمكنه العبارة
في تلك الحال لاستيلائه على عقله .

والفرق بين السكرين أن سكر الخمر عرضي يمكن زواله ، و يعبر عنه في حين الصحو .
وسكر المحبة ذاتي ملازم لا يمكن من وصل إليه أن يصحو عنه حتى يخبر فيه عن الحقيقة كما
قيل :

يصحو من الخمر شاربوها
والعشق سكر على الدوام
قال تلميذ ابن حزم : وهؤلاء الأوباش يؤمنون بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الواصلين ،
وأنه ذاق المحبة ، فماذا يقولون عن إبلاغه لرسالة ربه :
هل استولت المحبة على قلبه فألته عن التشريع ؟
ثم هل حصلنا في هذا الكلام شيئًا غير الدعوى ؟
لعن الله دعاوى تجر أصحابها إلى المحال والكفر .

وما علمنا هذا السكر من غير الخمر إلا سكر المجانين الطافحين الذين استحوذ الشيطان على
قلوبهم .

نعم كان الأمر أسهل عند الدكتور إبراهيم ناجي عفا الله عنه عندما قال في الأطلال :

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا
فهذا شاعر ماجن مصلوم بلعاء حوراء ، وقلوب التيمين ضعيفة ، ومن عرف الهوى رحم
القلوبا .

وهو لا يأخذ من هذا الاصطلام حقائق ، وإنما هي خيالات .
أما هذا الدباغ وأضرابه فقد انتقلوا من المجون إلى الكفر والوثنية ، وأرجو من القارىء أن يراجع
كتاب الدباغ ص ٢٣-٢٦ ليرى هذه الدعوى المجردة المفتراة على الله بلا نص ولا نظر ولا حس ولا
تجربة ولا استنتاج .

وخير رد على هذه الفرية قوله تعالى : (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم)
[سورة الكهف / ٥١] .

وهؤلاء الصوفية الكفرة الملاعين يتلاعبون بآيات الله كما يتلاعب الأطفال بالمخراق .
سمع أحدهم قارئاً يتلو قوله تعالى : (أفأريت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم .. إلخ)
[سورة الجاثية / ٢٣] . ففشى عليه فلما أفاق سئل عن حاله الذي استولى عليه من معنى هذه الآية
فقال :

قوله : (أفأريت من اتخذ إلهه هواه) أي ليس له هوى إلا إلهه فهو هواه . اهـ .
قال أبو عبد الرحمن : إذن نقول لهذا الرقيع : أنت على هذا التأويل من أضله الله على علم وختم
على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، وأنه لن يهديك أحد بعد أن أضلك الله .
لأن الآية التي اعتبرت بها تقول ذلك ، ولأن إلهك هذه الأرواح الشريرة التي تجلب لك .
والعجيب أنهم يحولون الاستنباط اللغوي لأهوائهم ، فإذا جاءهم النص الصريح أو استنباط
لإبطال دعواهم قالوا : حال الشريعة غير حال الحقيقة .

قال أبو عبد الرحمن : وقد جالست كثيراً من هؤلاء المجاذيب وناقشتهم فوجدتهم دجالين كذابين
ليس عندهم إلا الدعوى ، وتقليب الحدق ، والصراخ ، والتظاهر بالهيام ، ثم استمر ذلك الرقيع في
التلاعب بآيات الله فقال :

(وأضله الله على علم) أي ضل في حبه لربه على علم منه به ومعرفة فهو في ذلك على يقين ، ولهذا
قيل ليعقوب عليه السلام : (إنك لفي ضلالك القديم) [سورة يوسف / ٩٥] أي في حبك القديم .
(وختم على سمعه وقلبه) يعني بخاتم الغيرة فلا يسمع إلا كلام محبوه ولا يجد في قلبه موجوداً
غيره .. إلخ تأويلاته .

قال الدباغ : فهذا تأويل يدق على الأفهام معانيه ، إذ كل إناء يرشح بما فيه .
قال أبو عبد الرحمن : نرجو الله أن يكون ذلك الصوفي ومعه ابن الدباغ ممن ينطبق عليهم مدلول

هذه الآية بالمعنى الذي أراده الله .

ومن المؤسف أن يقع في خيالات (الإشارة والحقيقة والذوق) علماء أجلاء من أمثال سلطان العلماء الغزيرين عبدالسلام والألوسي صاحب روح المعاني .

ومن صفقاتهم أنهم لا يعرفون ربهم إلا من غنج اللحاظ وخمرة الريق لأنها تجليات من الجمال المطلق .

قال أحدهم :

وطارحني غنج اللحاظ معانيا

أنغار عليها إن ألم بمعني

فكررت طرفي في الوجود بأسره

فلم أر فيه غير معنك مقنني

وطالعت في سر الهوى فإذا التي

أطوف عليها في معاملها معي

قال أبو عبد الرحمن : هذه الأبيات سرقها إيليا أبوماضي بلفظها وقافيتها في قصيدته عن السعادة أو الروح وهي قصيدة (العتقاء) و يشرح هذه الفكرة قول أحدهم :

من لي سواك أحبه أو أعشق

ولك الملاحة والجمال المطلق

ولكل حسن أنت روح وجوده

وعليه من معنى بهائك رونق

ما القدما الطرف الكحيل وما اللعس

لولاك تشهد في حلاه وترمق

من مات في دير الهوى بك صبرة

نال الشهادة وهو حي يرزق

قال أبو عبد الرحمن : إن النصارى افتروا على ربهم فقالوا بحلوله جل وعلا في مريم أو المسيح .

ثم جاء هؤلاء الأتتان وحسدوهم على هذا الكفر، وقالوا : إن الله حال في كل شيء .

وكان الواصلون منهم كلهم فاسقا ، يتفخذون الغلمان و يقولون : نعشق الجمال المطلق .

لعنهم الله أنى يوفكون لكفرهم ، ولو كانوا مجرد فاسق لدعونا لهم بالتجاوز .

ولصلة الحلولية الصوفية بالنصرانية كانوا يستشهدون بخرافات الأناجيل المحرفة المبدلة ففي

إنجيل متى (أن الله قال : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : مرض عبدي فلان فلو عدته عدتني) .

قال أبو عبد الرحمن : لو كان هذا النص صحيحا في ديننا الإسلامي لكان له معنى غير معنى الحلول ، بيد أن ابن الدباغ يقول : وهذه الإشارات كلها يجب ألا تشرح حقائقها لغير أهلها بل تترك تحت حجاب الغيرة حتى يصل إليها أهلها في أطوار أذواقهم .

ونحن نقول : دين الله ظاهر لا رمز فيه ، ولا سر له عند أحد ، ونحن نعبد ربنا بمراده منا لا بأذواقنا .

و يستدل هؤلاء الخاسرون على الحلولية والاتحاد بقوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته .

والصواب في تأويل هذا الحديث : أن الله خلق آدم على صورة آدم يوم أهبط إلى الأرض ، لأن الله قال بصريح النص : (ليس كمثله شيء) [سورة الشورى / ١١] . ومن كانت له صورة فله مثل تعالى الله عن ذلك .

قال أبو عبد الرحمن : إن المساجد القبرية الوثنية في مصر وفي شتى البلاد العربية والإسلامية أوكار لأفراخ الحلول والاتحاد يكفرون بالله وحده علنا في بيوت العبادة .

وابن الدباغ يعرف أن الحلول والاتحاد كفر شنيع ، ولهذا حاول أن يراوغ بهذه العبارة إذ قال : واعلم أن الحق تعالى تجل لعباده في كل شيء فهم يشهدونه في كل مشهود و يطالعونه من كل موجود .

وذلك عند فناء ذواتهم في مشاهدة ذاته لا بمعنى الحلول الذي هو من صفات الحادثات ، فعند فناء العبد وذهابه عن نفسه يشهد ربه كأن الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان ، وعلى هذا يحمل سائر إطلاقات المحبين إذا غلبت عليهم صفات الأنس وسكر الأحوال ، لا على معنى الحلول اللائق بالأجسام كما قال الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

ليس في الكون سوى من هو أنا

قال أبو عبد الرحمن : ثمة أمران :

أولهما : أن فناء المشاهد يعني أنه لا يشاهد غير من تجل له من الأرواح الأرضية الحبيثة ، وليس معنى هذا غير الحلول والاتحاد الذين يزعمونهما ثم يهربون عنهما .
وثانيهما : أن التفوه بالحلول والاتحاد وإن لم يعتقدهما كفر باللسان لا يجوز التفوه به .

قال أبو عبد الرحمن : وفي هذه المسيرة كفاية ، لأن بلاغم هؤلاء القوم تطول ودعواهم عريضة .

ولابن الدباغ كتاب آخر مطبوع عن تراجم الصوفية من أهل القيروان مليء بالخرافة والهذيان إذا قرأته عرفت مبلغ علم هذا الرجل بدين ربه .

وقد اعتنى المستشرقون بنشر وتحقيق ما كتبه هؤلاء الجهلة عن الحب الإلهي فمما طبع من ذلك كتاب لسان الدين ابن الخطيب روضة الحب الشريف، ويحاول الآن ريتز نشر كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف للدبلي.

وفكر الحلول والاتحاد من أضاليل الباطنية الذين يفسدون الأديان بشئى الآراء الغريبة .

وإن قراءة لكتاب المستظهري لأبي حامد الغزالي تكشف عن منهج الباطنيين في إفساد الأديان .

والباطنية في الأصل جمعية من جمعيات اليهود السرية، وإذا قرأت كتاب كفاحي لهتتر علمت علم اليقين مدى فعالية اليهود في اختلاس الأديان والقوميات والتراث من قلوب الناس وعقولهم، ولن تزال طائفة من أمة محمد على الدين ظاهرة منصورة والله المستعان .

الحرية الفكرية

السيادة في حياة الفرد المسلم لفهم النص الشرعي، إلا أن هذه السيادة لم تتجوأ مكانها في حياته إلا بإيجابية الفكر المنبثقة من الحرية الفكرية .

وهذا العنصر أعرق مبدأ في نشأة الإسلام، فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ثلاثة وعشرون عاما منها ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة ليس فيها سيف ولا مدافعة، وإنما هي فترة مباركة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في التبسط لما تتطلبه الحرية الفكرية من حوار ونظر واستدلال . وآيات السور المكية أكبر شاهد على ذلك .

ومن وصية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن قال له :

(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وأوصاه أن يجادلهم بالتي هي أحسن .

ولا مجال للمجادلة وطلب البرهان إلا في حضانة الحرية الفكرية .

ولحماية الحرية الفكرية من عبث العابثين كسرت النصوص الشرعية حاجز التبعية للهوى والعرف والعادة والحمية لسنة الأسلاف، لتكون السيادة في هذا الجول فطرة الله التي يشارك في الإذعان لها كل مخلوقات الله الملزمة من الجن والإنس وهي إيجابيات العقل : أي ضرورات الفكر . إذن من خصائص الهوية الإسلامية سعة الصدر لمقتضى حرية الفكر فلا يقفل بابها حتى تتحدد الإيجابية الفكرية .

والإيجابية الفكرية هي الحق الذي تحدده قوانين العقل ولا مجال للحرية بعد هذا، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، ولأن الحرية الفكرية التي تنتمي إليها هوية المسلم وهي الحرية المعقولة ليست حرية لشهوة الجدل والمماحكة وإنما هي حرية للحق حتى يظهر .

والجماعة التي تدعن للحرية الفكرية يجب أن تقفل باب الحرية إذا ظهرت لها الإيجابية (الحق) بيقين أو رجحان .

أما ما استوى فيه الطرفان فباب الحرية مفتوح فيه دائما واللوم والتعنيف مرتفع وكل متبع لأحد الطرفين على حق حتى يوجد الرجحان أو اليقين .

والمجتمع المثالي إذا تساوى عنده الطرفان جعل المرجح قضية إرادية لا فكرية وذلك بالقرعة أو التصويت المنظم الذي يتم عن انتخاب من يمثل بعض الأصوات .

ومن يتمسك بحرية الفكر بعد استنفاد الآراء وظهور اليقين أو المرجح الفكري أو الإداري إنما يعث بقيم الفكر وإيجابياته و يستمرىء انشقاق الجماعة ذلك أن الترجيح دون مرجح عبث ، واطراح اليقين أو المرجح عناد ، وترجيح المرجوح تحكم ومكابرة وكل ذلك زعزعة للحياة المستقيمة التي لا تلتمس من غير إيجابيات الفكر .

وجميع عقوبات الشريعة ورازعها لحماية إيجابيات الفكر بعد استهلاك المجال لحرية .

والحرية ليست مضمونا لذاتها وإنما هي مشروعة لغيرها (لاستبانة الإيجابية الفكرية) مرفوضة لغيرها عندما تتحدد الحتمية الفكرية بيقين أو رجحان .

الإيجابية الفكرية

إنه لا مجال للحسبان ولا العناد في تصورات المسلم كما أنه لا مجال للقطعية المؤسسة على غير برهان .

بل عقيدة المسلم أن عقله مخلوق من مخلوقات الله كما أن عقله هو وسيلته الوحيدة في المعرفة بما لديه من خبرة حسية ومبادئ فطرية وخبرة بشرية عامة تأدت إليه بالنقل فصدق بها يقينا أَوْرجحانا بموجب طرق التوثيق التاريخي التي ينظمها العقل أيضا .

ومنطق المسلم أنه لا يأخذ بالمرجوح في نصاب العقل و يلغي اليقين أو الراجح لأن ذلك انحراف عن إيجابيات الفكر إلى العبث أو الهوى والتحكم والعصبية .

والمسلم ينظم معادلة بين كون العقل مخلوقا وكونه المصدر النهائي الوحيد لتصحيح المعرفة .

فمن المنطلق الأول لا يتغني كفايات الأمور التي لم تصل إلى قبضة الحس البشري لأن الكيفية لا تعرف إلا بشاهد من نوافذ الحس على سبيل الإحساس المباشر أو الوصف أو التشبيه بمحسوس آخر .

كما أن ما تعذر الإحساس بكيفيته لا يكون وهما ولا حقيقة وإنما يكون :

إما واجبا متعينا (أي حقيقة خارجية) يعلم وجوده بضرورة العقل أو آثاره الحسية ولا تعرف كلفيته إلا بخبر من يوجب العقل تصديقه .

وكل الحقائق التي كانت في يوم ما مغيبة عن الحس البشري إنما توصل إليها الحس بربادة الإيجابية العقلية .

وما توصل إليه الحس مصادفة فلا يمكن أن يوجد في العقل إحالته .

وإما مستحيلا ممتعا لا يمكن أن يكون في الحس .

والعلم الحديث إنما يحيل في كثير من مجالاته بتصورات عقلية مسبقة .

وإما ممكنا محتمل الطرفين لتخلف المقتضى والمانع .

والفرد المسلم منطقي في تعامله الفكري وفق إيجابيات العقل وموانعه واحتمالاته ووفق وسيلة المسلم ذاته ووسيلة جيله في المعرفة .

وكلما استجدت وسائل جديدة للمعرفة أو خبرات حسية تعين العقل في تصويره فإنه يجبور في أحكامه وقضاياه تبعاً للبرهان من غير أن يضيره ذلك لأن معرفته في الأمر بالنسبة لوسيلته في المعرفة بالأمر، ومعرفته اليوم بالنسبة لوسيلته هذا اليوم.

ومبدأ النسبة من الثابت الفكرية التي لم تتدخل على مدار التاريخ.

ومن المنطلق الثاني يرفض المسلم أي تصور لا يقر العقل وجوده أو كلفته.

ومن هذه المعادلة يرفض المسلم أن يكون الحس أو التجربة (الحس المكرر) معياراً لوجود الحقيقة، و يلح على أن يكون معياراً للمعرفة كلفتها.

فصفات الله وأخباره حقيقة وجودية ثابتة آمن بها العقل بضرورات فكرية و بآثار حسية صادرة عن هذه الحقيقة الوجودية ودالة عليها كبراهين المعجزة المستمرة إلى يوم القيامة وكبراهين الخلق والحكمة المعروفة بدليل الغائية.

إن من عناصر هوية المسلم إيجابيته الفكرية فلا يلغي العقل وهو وسيلته الوحيدة لتصحيح معرفته، ولا يطلب من العقل ما ليس فيه لأنه حادث مخلوق.

ومنطق المسلم بناء على هذا العنصر أنه يستحث الحس البشري في تعميق معرفته في كل ما هو واقع تحت حسه، بدليل استحاثات الله عباده على التفكير والاعتبار واستثمار السمع والبصر والفؤاد.

ولو كان هذا العنصر من الهوية مفهوماً تاريخياً لكان المسلمون اليوم أولى الناس باستكشاف بعض قوانين الكون ودقائق العلم.

أما الحقائق التي آمن العقل بوجودها ولا يملك بحسه معرفة كلفتها فلا يمكن أن يخلخل إيمانه بها الجزم بعجز الحس عنها كحقيقة الجن لأن في يقين المسلم أن الله غيباً لا يطلع عليه أحداً، وأن له غيباً لا يطلع عليه بعض خلقه.

وأعظم أداة لتحطيم الأمة خلخلة فكرها وانتكاس منطقها.

وأنا شديد الإيمان بأن الإغارة على شرقنا الإسلامي غارة فكرية في الدرجة الأولى منذ حل نظام الخلافة الإسلامية وانتهت تركتها، وأعلم ثانية أن للصهيونية والصليبية تخطيطاً منظماً مدروساً لإبقاء شرقنا الإسلامي تحت الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي لا يمكن أن ينكر ذلك إلا من صمم بإرادة لا فكر على أن يعزل نفسه عما حوله، وأهم ثمار هذا التخطيط اللعين جاء من قبل تحطيم إيجابية الفكر، وقد تجلّى ذلك في وسيلتين ووسائلهم اللئيمة أكثر من أن تحصر:

الوسيلة الأولى إفساد القيادات والزعامات وتربيتها تربية علمانية، وعداء أغلب الزعامات للإسلام في بلادنا العربية والإسلامية حقيقة حسية مشهودة، كلما استحدث زعيم شغل الفراغ بالشعارات الكاذبة مع ترديد العلمانية وترسيختها في حياة الناس وفي فكرهم فإذا برم الضمير

الإسلامي بتلك الشعارات وسثم الاعتداء على مقدساته صفيت تلك الزعامة بأي تدبير من وراء الكواليس وأحل محلها زعامة جديدة لا سابقة لها ولا خطر إلا أنها ربيت تربية معادية للأمة دينيا وعسكريا واقتصاديا وهي تربية من وراء الكواليس أيضا تعيد حى الشعارات السابقة وتمتص غضب الجماهير بمراوغات جديدة وربما افتعلت لها المؤسسات الأجنبية نصرا عسكريا مؤقتا ومموها ضمانا لبقائها .

وما بليت الأمة في هذه العصور إلا بعمالة وخيانة القيادات .

و يستثنى واقع التاريخ وضعا حكوميا واحدا في جزيرة العرب وهو الحكومة السعودية ، فليس في أي بلد عربي قيادة تساوي أو تقارب الواقع التاريخي لهذه الحكومة- بل كانت أعرق الحكومات على الإطلاق ، وقد وجدت قبل انحلال الخلافة الإسلامية في تركيا بما يزيد على قرن ونصف قبل أن يتفق الذئاب من الدول العظمى على التلاعب بكراسي الحكم والاستحواذ على رباطات تربيتها يد الأجنبي .

كانت هذه الحكومة من قرية من صغرى القرى في نجد في مجتمع أمي عامي لم تمتد أساليب العمالة الأجنبية إلى فئاته ولم تخضه حركات الغارة الفكرية ، لأنها لم توجد في الساحة بعد .

قامت هذه الحكومة والخلافة الإسلامية قائمة في تركيا ، ليس للأمم الكافرة أي سلطان على شرقنا ، ولوجود لها سلطان لكانت الحكومة في الجزيرة آخر من يفكر في مداهنته لأن النفوس مجبولة جبلة فطرية وراثية على كراهة الأجنبي لاسيما إن كان عدواً لله .

لم يصحب قيام هذه الدولة في مجتمع فقير أمي تأييد أجنبي ولا يد أجنبية ولا تمثيل بين عواصم أمريكا وبريطانيا وروسيا وفرنسا ، لأنه لم يقم لهذه الدول الكافرة سلطان ، ولأن خلافة تركيا المسلمة في نحورهم .

إنها حكومة قامت في جوها التاريخي الطبيعي داعية إلى الإسلام وتنقية المجتمع من شوائب البدعة والوثنية التي تراكمت مع أحقاب الزمن ، وليس لهذه الحكومة أي موجه فكري وافد لأنه ليس في أرفف القوم وفارغاتهم غير القرآن الكريم وكتب الفقه والحديث والتوحيد والآلة بأقلام كبار السلف لا يعرفون ولا يحسنون أصلا غير ذلك .

وظلت رقعة هذه الحكومة بين مد وجزر تمتد بدافع الحماس للعقيدة كما في عهد عبدالعزيز الأول وابنه سعود .

وتتكشم بتسلط الخلافة الإسلامية في تركيا بدافع الغيرة كما في عهد الإمام عبدالله .

أو بعامل الخلاف والتشاحن بين الأسرة ذاتها كما في عهد أبناء الإمام فيصل بن تركي رحمهم الله .

وقد عادت جميع الرقعة التاريخية في عهد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن وانتظمت القيادة بنفس

الدستور ومنذ ذلك التاريخ لم نجد وجها نشته فيه ، والتعاقب على ولاية الأمر لم يكن من اللون الذي نرى فيه تصفية زعيم واستحياء قزم وإنما هو نظام تاريخي اختاره ولادة الأمر أنفسهم على نظام عريق سائد منذ قامت حكومتهم وظل يكتسب شرعيته في كل مرحلة بيعة المسلمين وتنظيم علمائهم .

وإلى الآن — والله المرجو أن يعصم مستقبلنا — لم يمل على شعبنا أي أيديولوجية وافدة ، ولم يعتد على حرمة وحرية الدين الذي تمت البيعة لأجله منذ عهد محمد بن سعود ، فالكلمة للإفتاء والقضاء والدوائر الشرعية العليا ، ولا تزال الدولة — ولن تزال إن شاء الله — جهة تنفيذ لدين الأمة وعقيدتها .

هذا واقع تاريخي لم أبتدعه وإنما نبهت عليه لأنه برهان حاسم على نظامنا منا وإنما يخشى علينا الاستسلام للغارة الفكرية التي سأشرحها في الوسيلة الثانية من وسائل التدمير الأجنبي .

لقد رأينا خلال التهافت على الكراسي في البلاد الأخرى أكثر من سحنة وأكثر من وجه وأكثر من أسلوب للخداع ولكن الذي بقي ولم يتغير هو العلمانية في فصل الدين عن الدولة وتربية الناشئة على الغربة عن دينها .

وبقاء الأمة خلال كل زعامة تطراً عاجزة عن صنع إبرة !

والوسيلة الثانية : التسلط على أفكار المتقنين بحيل ثقافية تؤمّن كل إيجابية فكرية .

يظهر ذلك بربط مداخل جميع العلوم بمناهج فلسفية غربية معاصرة حطمت كل معايير الفكر الصحيحة الثابتة من حسابية واسمية ووضعية ووجودية وقم هذه الفلسفة المعاصرة ملاحظة مسترون على يهوديتهم .

ولا ينكر البروتوكولات الصهيونية إلا مقبول العقل .

و يظهر ذلك بشكل أدق ذكاء وأعوص تعقيدا في أيديولوجية الأدب الحديث التي يتهافت عليها — بغريزة فطرية — معظم أجيال المتقنين .

وهذا الأدب الحديث بأيديولوجيته أصبح بريدا من برد الانسلاخ الفكري تحدت هويته من أحق ظاهرات الجنون البشري من إيغال في الحسابية والهيبية وتحطيم الثوابت وفرض المحال وتخدير العقل بجنون الخيال واستباحة كل محرم في سبيل إبداع أدب !!

وكأنموذج لذلك سباحة في بركة الشيطان للمسكينة غادة السمان فهو صورة لهيبية الأدب الحديث .

وتسلم قيادة هذا الأدب عملاء الصهيونية والصليبية والعلمانية من جماعة حوار وشعر ومواقف !!

وكل هذه الوجوه الكالحة إما نصرانية وإما طائفية نصيرية أو درزية أولا منتهم صرح بأنه يروث

على قيم الشرق .

والمؤسسات الأجنبية تبذل في صنع الزعامات الأدبية والترويج لها مالا تبذله في صنع الزعامات السياسية !

والمتقف المسلم مطالب باحتضان الأدب الحديث من واقع هويته المبنية على إيجابية الفكر لينقيه من الهيبة والحسبانة والقيح و يقيمه على أمتن مناهج الفكر وأمتع قيم الفن من واقع الفلسفة الجمالية .

كان الأدب الحديث أولا مجونا وكان باستطاعة فرد واحد كنزار قباني أن يربي أجيالا كثيرة على قلة الحياء .

أما اليوم فقد أصبح الأدب الحديث أيولوجية فكرية موجهة ضد شخصيتنا وحریتنا ومأثورنا فاستطاع فرد واحد كأدونيس أن يصيب فكرنا العربي بالجنال .!

ولست أيولوجية أدونيس وخالدة والخال وغالي شكري بأقل خطرا من الأيدولوجية الفكرية التي جعلها ميشال عفلق النصراني واقعا حيا في أعظم قلعة من قلاع المسلمين !

الثوابت الفكرية

الفكر مادة حيوية خصبة، ومادة الفكر هي المادة التي وصلت إليه بالحس الظاهر كحقيقة المرنى أو الباطن كحقيقة الحزن.

المادة الفكرية هي المادة الحسية بلا نقص ولا زيادة، ولكن معرفة الفكر من هذه المادة أخصب وأوسع، لأن الفكر بملكة الخيال يركب من مادة الحس عوالم لا وجود لها في الواقع بهذا التركيب وإن كانت عناصر التركيب جزئيات حسية ولا يمكن أن يقيم العقل تصورا بغير جزئيات حسية.

والفكر بملكة قوانينه الفطرية المطردة مع ثوابت الحس يصل إلى معرفة ما لم يتم الإحساس به بعد ك معرفته بوجود الجن بناء على براهين مركبة من وقائع حسية وقد دلت شواهد الحس على أن ما دلت عليه هذه البراهين فهو ضروري واقعي.

والفكر بمختلف ملكاته يتسع لشتى الاحتمالات والتصورات والفرضيات بناء على عمله الخصب في الوقائع الحسية.. وكل هذه الافتراضات والاحتمالات والتصورات قابلة للتطور والتغير ولكنها لا تسمى حقائق حتى تستقر وتثبت وهي لا تستقر ولا تثبت إلا إذا أوجب حكمها أحد قوانين الفكر الثلاثة الثابتة وهي:

- ١- الهوية: كل ما كان هو فهو هو.
مثال ذلك: طرفا الخط المستقيم لا يلتقيان.
فهذه قضية فكرية حسية ثابتة، لأنه لو التقى طرفا الخط أصبح الخط غير مستقيم.
إذن الحكم باق ما بقيت الهوية.
 - ٢- العلية والسببية وهي ربط كل حادث بمحدث، فكل وقائع الحس مطردة مع هذا القانون.
 - ٣- الثالث المرفوع وهو قضايا مطردة في مشاهدة الحس لم تنته بأي مثال منذ وجد العقل البشري كنفى اجتماع شيئين معا أو ارتفاعهما معا إلا بأحد ثمانية شروط منها اختلاف الزمان والمكان.. إلخ، وبشرط أن يكون الاجتماع أو الارتفاع على حقيقة الكلام دون مجازة كقولنا: محال أن يكون زيد موجودا وغير موجود في داره الخميس الساعة الخامسة من مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٣/١٢/١٤٠١ هـ.
- وكل قضية فكرية ثابتة في مختلف العلوم والنظريات إنما هي ثابتة بهذه القوانين.

وقد حاولت بعض المدارس الفلسفية الصهيونية الموجهة للعب بهذه المبادئ التي تقوم عليها جميع الحقائق بيد أن قوانين العلم التي بنيت عليها اكتشافات العلم الحديث رفضت هذه السفطات فلم يهتد أي مخترع إلا في ظل ثوابت العقل المسبقة.

وبناء على إيجابيات الفكر وثوابته وجدت عند المسلم ثوابت لا يمكن أن تتطور مع الزمن وإنما تتطور حياة المسلمين معها في كل عصر ومصر.

فحرمة الربا من الثوابت التي لا مجال للاجتهاد فيها وإنما الاجتهاد في معرفة هذه المعاملة هل هي ربا أم لا فإذا عرف أنها ربا فحكمها ثابت وهو الحرمة.

ومثل ذلك القصاص حكم ثابت لا يتغير.

أما من قال أصبح الناس اليوم حضاريين فلا معنى للإعدام فإنما يخلون بإيجابيات فكرهم لمكابرة الثوابت التي لا يستقيم أي دين أو انتماء دونها.

إنما التطور يكون في أعمال البشر التي يعرفون بها الوقائع فيطبقون حكم الشرع كتقدم وسائل المعرفة البشرية في اكتشاف الجاني فيطبقون به حكم الشرع.

و يكون التطور في تقدم المعرفة البشرية تقدما يعرفون بها الوقائع فيطبقون حكم الشرع كتقدم وسائل المعرفة البشرية في اكتشاف الجاني فيطبقون به حكم الشرع.

و يكون التطور في تقدم المعرفة البشرية تقدما يعرفون به مدلولاً شرعياً كترفيه الاختلاف بين علماء المسلمين فربما أفاد المفسر اليوم من عالم الجيولوجيا والطب والفلك إفادة قطعية يرجح بها المدلول من النص الشرعي الذي اختلف فيه العلماء.

و يكون التطور في كيفية استثمار حكم الشرع والانتفاع به كالسعي إلى إسعاد الأمة ورفاهيتها فهو أمر مندوب إليه في الشرع حسب الطاقة فإذا وجد لدى الأمة وسائل علمية تحقق سعادة دنيوية للأمة لم تؤثر من قبل فذلك تطور في استثمار أحكام الشرع.

وإذا تحررت الأمة من أروقة الدراو يش وتصوراتهم فذلك تطور في حياة المسلمين وليس تطورا في دين المسلمين لأن الدين بمفهومه النصي يرفض الرهينة فليس هذا التحرر تطورا للدين وإنما هو تطور مستمد من الدين.

وإذا تحرر علماء المسلمين من الجمود على كتب الفروع المذهبية في الفقه ورجعوا إلى الاجتهاد في فهم النص فليس ذلك تطورا في النص وإنما هو تطور في عقلية علماء الإسلام.

الاطارات الفكرية

من خصائص الهوية الإسلامية بمفهوم نصي أن المسلم منظم التفكير مطرده ، وإذا لم يطرد تفكير الفرد تناقض وارتد عن إيجابيات فكره .

وإيجابيات الفكر ترفض الإيمان ببعض والكفر ببعض ، ولا بأس بالمثال ها هنا : فمن مسلمات الفرد المسلم التي أوجبها تفكيره الإيمان بأن الله حق ، وأن له الكمال المطلق ، وأنه منزّه عن الكذب .

والإيمان بأن هذا القرآن بين دفتي المصحف من عند الله حق لا مرة فيه . هاتان المسلمتان توجبان أن الجن حقيقة وجودية ثابتة بالكيفية التي ذكرها القرآن وإن لم نرها .

هذا هو اطراد الفكر .

فإن قال الفرد : الجن خرافة وأكذوبة فقد ارتد عن إيمانه بأن الله منزّه عن الكذب وأن القرآن من عنده .

ولا ينفعه بعد هذا إيمانه بأي حقيقة شرعية لأن الإيمان بصدق الله وأن القرآن من عنده مسلمة مطلقة لا تقبل التجزئية .

ولهذا كان دور الإسلام في الأمة الهيمنة لا التميم والترقيع .

وليس من منهج المسلم أن يصدق ربه مرة ويكذبه مرة ، لأن مبدأ التصديق من الثابت في تصورات المسلم .

ومن صدق ربه مرة وكذبه مرة فمعنى ذلك أن الله جل جلاله لا يكون صادقاً دائماً وهذا هو الكفر .

* * *

الحتمية الفكرية فاعلة للحتمية الكونية

يفخر المسلم بأنه عبد الله ويشرف الله رسله وأنبياءه وحزبه بالعبودية .
والمخدرون بشعارات المؤسسات الأجنبية منذ صار الشرقي يأخذ مؤهله العالي من أستاذ جامعة
صهيوني أو صليبي أو علماني صاروا يصيحون بلا وعي منادين بالتححرر من الشرع وقبوه فالدين لله
والوطن للجميع وحدود الشرع يجب ألا تقام وصيانة المرأة مرحلة تاريخية ظالمة !!
وهؤلاء تحرروا من عبوديتهم لشرع الله بإرادتهم لتقوم عليهم حجة الله !
ولكنهم عبيد لتدبير الله الكوني على رغمهم شاؤوا أم أبوا، فليس لواحد منهم أدنى علم
مسبق بمجرى الأحداث في دقيقة واحدة من حياته، وليس لأحدهم أدنى اختيار بأن لا يموت أو
لا يهرم أو لا يمرض أو لا يحزن أو لا يفقر أو لا يكون ذا عاهة .. الخ .
إن الخلق كلهم — مؤمنهم وكافرهم — عبيد الله كوناً ولا مهرب من تدبير الله الذي رتب
لعلم مسبق .

إلا أن الكافر — عبد الله كوناً — انعتق من عبودية الله شرعاً فأقدم على عصيان ومحاددة من لا
يملك التحرر من قدره الكوني، فلو عقل الكافر لعلم أن الذي أضرع خده في الدنيا لقدرة الكوني
هو القادر على أن ينفذ فيه عدله في دار الجزاء .

أما المؤمن فقد رأى نفسه تحت تدبير الله في كل تصرفاته الكونية فعلم أن عبوديته لشرع الله
وحتمية فكرية، لأن المدبر بشرعه هو المدبر بكونه، ورأى أن رأس ماله دنيا وآخرة هو العبودية لله
من جميع الوجوه .

ورحم الله عباده فلم يكلفهم بشرعه مالا يطيقون، وذخر لهم الأجر لما يصيبهم من آلام
وأضرار ومصائب وتلد مآرب كانت نتيجة لقضاء الله الكوني فيهم إن هم صبروا واحتسبوا .

ومن هذا التلازم بين الحتمية الشرعية والحتمية الكونية في عقيدة المسلم نعم المسلم بوعد الله
الذي وعد به عباده الصالحين بأن يحييهم حياة طيبة .

فكانت حياة المسلم حياة طيبة سعيدة راضية في الأمن والخوف والفقر والغنى والصحة
والمرض لا يعرفون القلق ولا توتر الأعصاب ولا بدعة الانتحار، وقد انعتقوا من عبودية الوهم

والخوف والمال والطواغيت وتحرروا بعبودية الله جل جلاله عن كل سلطان ليقينهم بأن حزب الله هم الغالبون.

ومن هذا التلازم بين هاتين الحتميتين واجه المسلم حياته بعقل ليس فيه تهور العاتين على القدر ولا تكاسل المتكلمين على القدر من الدراويش بل كانوا يستعينون بعبوديتهم لله على مصائب دنياهم ويتعاطون الأسباب التي شرعها دينهم لأنهم يعرفون أن الله يدفع بعض أقداره ببعض أقداره.

ومن التلازم بين هاتين الحتميتين كان المسلم ينظم موقفه بين عبوديته لله كونا وعبوديته له شرعا على هذا النحو:

١- الإيمان القاطع بأن كل ما يملكه من حرية فردية في إرادته ومقاتله وفعله إنما هو هبة من الله (وماتشاورون إلا أن يشاء الله).

ولهذا يحاذر من استعمال هذه الحرية في عصيان الشرع لعلمه أن الله إنما يحاسب عبده وفق قدرته.

٢- طموحه دائما لتوسيع هذه الحرية لتكون له عوناً على العمل بطاعة الله وإعداد القوة للأمة ويكون هذا بالتقرب إلى الله بالطاعة والتضرع إليه في السر والعلن والبراءة من كل حيل وقوة إلا به.

وفي تجربة المسلمين جماعات وأفرادا استثمارات عاجلة مشهودة، فعقيدة المسلم أن الله يتمم مسيرة عباده الصالحين.

٣- عدم التفريط في كل ما ملكه الله الفرد من سبب ووقت وحركة وفكر لاستثمار أكثر ما يمكن دينا ودنيا، امتثالاً لأمر الله الشرعي القاضي بالعمل.

وإناطة الأمل بالله في تحقيق الهدف امتثالاً لأمر الله الشرعي القاضي بالتوكل، وعدم الأسف والسخط لتخلف الهدف أو حصول ضده إيمانا بقضاء الله الكوني وإيمانا بوعده الله الشرعي أن الله يختار لعبده الخير من حيث لا يعلم العبد ذلك.

٤- ملاحظة العناية الإلهية في كل ما يحصله العبد من خير وانتظار الحكمة الإلهية في كل ما يحصل له من أسى وبهذا لا ينعتق العبد من العبودية لله وحده في كل لحظة سواء أكان يضرب بمسحاته محترفاً أم كان على كرسي السلطة آمراً ناهياً أم كان على فراش المرض.

لقد بينت في الحديث عن سيادة النص معادلة بين العبادات والمعاملات وبقية الشؤون الدنيوية التي فوض الله سياستها لوسائل البشر الحسية وحرفتهم ومهارتهم ونظرتهم وخبرتهم التي اكتسبوها بالتجربة.

إذن الأمة لا تستغنى عن أهل الخبرة والنظر من غير علماء الشريعة ومن هنا وجب أن يكون للأمة مجلس مكون من علماء الشريعة ومن مختلف ذوي الخبرة يعينون الحاكم في تصريف الأمور

و يكون لتوجيههم إيجابيته .

ونظر هؤلاء المصطفين إنما هو لتطبيق الشرع لا لتأسيه فهجرة العقول والمهارات إلى بلاد العدو وراء المغريات إضرار بمصلحة الأمة ليس بأقل خطراً من تهريب السلاح فإذا جلس المصطفون لرسم خطة لاستثمار المواهب الوطنية وحظر هجرتها فإنما يقتنون لتطبيق هدف شرعي لأن من هدف الشرع التعاون على البر والتقوى وإعداد القوة للأمة .

وإيداع أموال المسلمين في بنوك الأعداء وتعرضها للجحدان والنكران فتك بالأمة قد لا تحققه غارة عسكرية فإذا أتيح لأولئك المصطفين وفيهم رجال الاقتصاد حق النظر في كيفية استثمار الفائض من أموال المسلمين فإنما يسعون في ذلك إلى تطبيق حكم شرعي لأن من أهداف الشرع إعداد القوة للأمة وألا يكون للكافر سلطان على المؤمنين ، وتسليم المال للعدو واثمانه عليه خيانة للأمة وإضعاف لها وإعانة للعدو .

سيادة النص وهو التفسير

من عناصر الهوية الإسلامية العبودية المطلقة لله في شرعه وتحكيم مراده وإلغاء كل ما عارضه :
أي سيادة النص الشرعي في حياة الأمة .

وهذا العنصر ثمرة حتمية مباشرة لما سأذكره عن موقف المسلم من خبر الشرع وهو التصديق المطلق .

ولذلك أمثلة ولا بأس من تناول أحدها :

ورد النص الشرعي بقطعية في دلالة وثبوته على أن المرأة أقل إرثاً من الرجل وأن للذكر مثل حظ الأنثيين .

وليس من خلق المسلم أن يلتزم أي معقولة لدعوى مساواة الرجل بالمرأة في الإرث وليس من خلقه أن يساوم في شرع ربه القاضي بالتمييز بأي حوار نظري ، لأن هذه المساومة النظرية تعني الشك في عدالة الحكم الشرعي وفي معقولته ، وهذا بخلاف أولية المسلم وهي اليقين بعدل الله وصدقه وحكمته .

ومادامت المسألة مسألة منهج ومبدأ ، فالمسلم قد أخذ من إيجابيات فكره أن الله حق خلق كل شيء وله التدبير المطلق منزّه عن العبث والجور والكذب والسهو والجهل .

وعرف من إيجابيات فكره أن ابن آدم مخلوق محدود بظروفه فيما بين رحمة المهد ووحشة اللحد يعتريه في جميع لحظات حياته السهو والخطأ والجهل وتتحكم فيه نوازع الجور والكذب .

ومن الإيجابيات الأولى عرف إيجابية ثانية وهي أن الله هو الأحق بالعبادة والطاعة .

ومن كل تلك الإيجابيات عرف إيجابية ثالثة وهو أن الله خالق الخلق أعلم بما يصلحه وقد جعل الله شرعه لصلاح عباده ، فالشرع أولى بصلاح الخلق .

ومادامت هذه هي إيجابياته الفكرية فيجب أن تطرد في كل لحظات حياته فلا يرتد عليها لحظة واحدة .

إذن المسلم غني عن إقامة البرهان على معقولة وعدالة الشرع في التمييز بين الذكر والأنثى في الإرث ، لأن من قصت الإيجابية الفكرية بكماله لا بد أن يكون كل ما صدر عنه حقاً وحكمة هذا هو

المقتضى المنطقي لاطراد الفكر.

نعم إن المسلم يقتصد بفكره في أمور شرعها الله وأوجبها و يأخذ بها تسليماً مطلقاً لأن الأخذ والتسليم ثمرة التصديق الأولي .

والمجتهد المسلم له موقنان دائماً :

الموقف الأول : بيان الحكم الشرعي لأبناء ملته كأن يقول للعامة حكم الله أن تأخذ البنت سهماً و يأخذ الابن سهمين لقول الله تعالى : (ولذكر مثل حظ الأنثيين) .

يقول هذا ولا يزيد لأن كل أبناء الملة الإسلامية على يقين بعدالة حكم الله وإنما مبتغاهم معرفته .

والموقف الثاني : تزييف الشبهة لأن شرع الله كما تقرر في إيجابيات الفكر واطرده فلا بد أن يكون خلافه هو الضلال لأنه ليس إلا حق أو باطل ولا ثالث بين ذينك .

وفي تزييف الشبهة يجب أن يحاور المعارض في تصحيح إيمانه فيرده إلى معاودة الإيمان بالله جملة وتفصيلاً أو الإصرار على الكفر بالله .

فإن آمن بالله حتم عليه إيمانه التصديق بشرع الله تفصيلاً .

وإن صمم على الكفر فلا ينفعه البرهان الخاص بأن تمييز الشرع بين الذكر والأنثى في الإرث هو الحق والعدل .

فإن أقام المسلم البرهان الخاص على عدالة ومعقولية الحكم الشرعي في الإرث لأبناء ملته أو لغيرهم فذلك من باب التوافل وليس من اللوازم بل أعظم برهان للمسلم أن تقول له : قال الله ، أو قال رسوله .

واعلموا أن البرهان دائماً مع تفصيلات الشرع ولنحاول الآن أن نطرح للبرهنة الخاصة موضوع الإرث فتجعل البرهان من سبعة مواقف :

الموقف الأول : أن من يدعو إلى التسوية بين الأخ والأخت في الإرث لم يورد برهاناً سوى دعوى المساواة .

ودعوى المساواة مطلقة شعار فارغ وإنما تكون قضية فكرية — أي ذات مضمون — إذا وجد مقتضاها وهو أن يكون المحلان اللذان يطلب لهما حكم المساواة غير متميزين .

فليس من العدل أن تساوي بين أجيرين يعملان لك ساعة من نهاري عملين مختلفين أحدهما عادي يعرفه كل أحد وثانيهما في لا تعرفه إلا مواهب نادرة تغربت طويلاً وغرمت وتعبت في إتقان هذه الحرفة .

وهكذا حقوق الرجل والمرأة في شرع الإسلام لو جمعناها وتقصيناها لرأينا أن تمييز الابن على

البنيت في الإرث جاء بمعادلة حكيمة وأن نقصان حظ البنيت ها هنا مكفول العوض عنه في جانب آخر كإيجاب نفقتها على زوجها وولي أمرها .

والموقف الثاني: ليس في دعوى أي مجتهد مسلم أنه محيط بجميع حكمة الله وعدله في شرعه بل لا نعلم إلا ما علمنا الله إياه إلا أننا على يقين بكمال شرع الله تبعاً للإيمان بكمال الله .

والموقف الثالث: لو افترضنا فرضاً باطلاً — وهو فرض لا يكون في الواقع أبداً — أن الأخت مغبونة الحظ في حطام الدنيا من الإرث إلا أن المسلم لا يقيم جميع معادلاته على حظوظ الدنيا ، بل المعادلة الحقيقية تقام على حظوظ الآخرة لأن الفرد مهما طال عمره عابر سبيل .

فطاعة حكم الله والتورع من الاعتراض عليه من الأسباب لنيل حظوظ الآخرة الأبدية .

والموقف الرابع: ليس الإرث حقاً للرجل وإن كثرت ولا للمرأة وإن قل إلا حيث جعله الله حقاً . وبيان هذا الموقف من وجه آخر أن بني آدم خلق الله ومملكه خلقهم على سنة كونية لا يملك أحد تبديلها فجعل منهم الذكر والأنثى والسليم وذا العاهة والغني والفقير والعاقل والمجنون وطويل العمر وقصيره .

والله الذي خلق الخلق على سنة كونية متفاوتة هو الذي جعل بعض شرعه متفاوتاً فيما بينهم فكما لا يملك أحد أن يكون للإنسان عين في قفاه بدلاً من عيني قدامه ، ولا يملك أن تكون ليلي زيدا كذلك لا يملك التعديل في الشرع .

ولا يملك أحد حق التشريع حتى يخلق خلقاً سواي و يعلم وساوس صدورهم و يعلم بدايتهم و يقدر أرزاقهم وحظوظهم فإذا خلق هذا الخلق فله حرية التصرف فيه ؟!

والموقف الخامس: على فرض أننا لا نملك حجة نظرية على أن تمييز الرجل في الإرث هو العدل بغض النظر عن براهيننا على كمال الله إلا أن المعارض لا يملك نظرية مقبولة على جور الحكم لسبب وحيد هو أن الله لم يكل أرزاق عباده إلى موارثهم بل هو موجد الإرث ذاته ومصرف الأرزاق من غير الإرث بتقدير لا يحصي حسابه ولا يعلم مخارجه أي مخلوق .

والموقف السادس: أن الذي مايز في الإرث بموجب تدبيره الشرعي هو الذي أوجب بتدبيره الشرعي كفالة البنيت على الزوج والابن والجد والعم وابن العم والعاقل وبيت المال وهو الذي ضمن بتدبيره الكوني رزقها ما بقي لها أجل .

والموقف السابع: أن التفاوت في الإرث نوع من أنواع التفاوت في الرزق .

وتفاوت الرزق ليس مقياساً للعدالة في الشرع وإنما المقياس في تفاوت الدرجات يوم القيامة في دار الجزاء ذلك أن علم الله المهيمن وحكمته المطلقة هما اللذان يفسر بهما عدله .

ولا يملك محاكمة الله في عدله إلا من أحاط بعلم الله وحكمته وأنى أن يحيط المحدود باللا محدود تعالى الله علواً كبيراً .

وعلى هذه المسئلة قول الله تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) [سورة الأنبياء / ٢٣] .

إن التمييز بين حق الله في التشريع وحق العبد في الاجتهاد عنصر من عناصر الهوية الإسلامية ، وقد قدمت النموذج لحماية حق الله في التشريع وبقي عليّ ها هنا بيان المقياس الفارق بين حق التشريع وحق الاجتهاد ، وهذا المقياس يبين من تحديد موقف المسلم من النص الشرعي وهو على ثلاثة أنحاء :

- ١ — النظر هل هذا النص نص شرعي ؟
- ٢ — النظر هل هذا المدلول من هذا النص هو المدلول الشرعي ؟
- ٣ — النظر هل هذا المدلول الشرعي من ذلك النص الشرعي هو المقتضى الصحيح الواجبة طاعته ؟

فمن ناحية النظر الأول وهو التحقيق هل هذا النص نص شرعي أم هو نص مدسوس على الشرع : فمهمة لا يعفى منها المجتهد المسلم بموجب ما أسلفناه عن الإيجابية الفكرية وحتمية أوجبتها الدينونة لله سبحانه وتعالى ، لأن الله لا يعبد إلا بما شرع ، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد .

ومن الإيجابيات الفكرية يتخذ المسلم قوانينه في ميدان التوثيق التاريخي الذي يميز بها الشرع وغيره .

فكل تشريع ليس مصدره القرآن أو السنة فليس هو شرعا إسلاميا فلا تجب طاعته .

وكل نص نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام اليقين أو الرجحان على أنه لا يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ليس شرعا ولا تجب طاعته .

ومن هنا وجب على المسلم التحرر من البدعة والخرافة وكهنوت الصوفية وال دراو يش .

وإذن فتوثيق النص مما يجب فيه اجتهاد علماء الإسلام .

وأما النظر الثاني وهو التحقيق في هذا المدلول هل هو المدلول الحقيقي للنص فمهمة لا يعفى عنها فقهاء المسلمين وقد أنفق الأصوليون وجمهور الفقهاء أعمارهم في مختلف الأعصار والأمصار لبيان دلالة النص .

ولا بأس ها هنا من تلخيص برنامج بديهي موجز عن هذا القانون ، وهو أن النص الشرعي يحمل على المصطلح الشرعي ككلمة الصلاة ولا يصرف عن المصطلح الشرعي إلا ببرهان ، فإن لم يوجد اصطلاح شرعي حل على المجاز الغالب استعماله ككلمة (أف) يراد بها أقل الأذى ، وإن كان معناها الحقيقي حكاية صوت .

فإن لم يوجد مصطلح شرعي ولا مجاز غالب الاستعمال حمل على معناه الحقيقي في لغة العرب ولا

يحمل على مجاز غير غالب الاستعمال إلا بشرطين :

أولهما : أن يكون هذا المجاز صحيح الاحتمال في لغة العرب .
ثانيهما : أن يكون هذا المجاز الصحيح دل على تعيينه برهان من سياق النص أو من خارجه يبين أو رجحان .

وما قام البرهان بيقين أو رجحان على أنه ليس مفهوما من النص الشرعي الصحيح الثبوت فليس شرعا ولا يجوز التعبد به ، ولهذا قال ملحد المعرة أبو العلاء :

وكم من فقيه خابط في ضلالة

وحجته فيها الكتاب المنزل

إذن تمحيص دلالة النص مما يجب فيه اجتهاد المسلم .

و يلاحظ أن اختلاف ترجيحات المسلمين بين الدلالات المحتملة سعة لهم في الاختلاف لأنهم غير مكلفين باليقين في ذلك وإنما هم مكلفون بما يترجح لهم بشرط صلاح النية والصدق مع الله في طلب الحق .

وهناك نصوص محتملة الدلالة ولا يسع المسلم التحقيق في دلالتها ليمحص مدلولها يرجحه بل هو ملزم أن يرد المدلول إلى قطعيات الإسلام وضروراته وأصوله التي تقررت بدلالات ليس فيها احتمال .

مثال ذلك حديث أن الله خلق آدم على صورته فهذا محتمل الدلالة ولكن برده إلى قطعيات النصوص يكون مدلوله الصحيح أن الله خلق آدم على صورة آدم التي هو عليها .

وكذلك النص بأن عيسى روح الله محتمل الدلالة ولكن برده إلى القطعيات يكون مدلوله الصحيح أن روح عيسى روح الله إضافة إلى خالقها ومالكها وليست بمعنى الجزئية .

ذلك أن النصوص القاطعة ثبوتاً ودلالة تواترت على أن الله ليس كمثل شيء لم يلد ولم يولد فوجب رد كل جزئية إلى هذه القطعية .

ومن البديهي أن في جميع اللغات والمصطلحات والقوانين نصوصاً جزئية ذات احتمالات ترد إلى مفهوم واحد بموجب ضرورات ومسلمات .

وأما النظر الثالث فهو التساؤل هل هذا المدلول الصحيح من ذلك النص الشرعي هو المقتضى المعقول الحكيم العادل الصادق الذي تجب طاعته أم لا ؟!

ولا ريب أن هذا النظر كفر مخرج من ملة الإسلام ، ذلك أن المجتهد في المرة الأولى اجتهد ليعلم هل هذا النص من الشرع فيطيعه أم هو غير الشرع فلا يلتزم له .

وفي المرة الثانية اجتهد ليعرف هل هذا المدلول هو مراد الله فليبه أم هو غير مراد له فلا عليه الالتزام له .

وفي هذه المرة علم أن هذا النص من كلام الله ، وعلم أن هذا المدلول هو مراد الله فوجبت عليه الطاعة لمراد الله .

فإن شكك في معقولة مراد الله فقد ارتد عن إيمانه بكمال الله وقد بينت لكم الأنموذج من قضية وجود الجن وتمييز الله للذكر في الميراث .

هذه هي المعادلة في موقف المسلم تجاه حق الله في التشريع وحق العبد في الاجتهاد ، و يتفاوت رجحان أحد هذين الجانبين بحسب المواضع ففي ميدان العبادات والمعاملات فالسيادة لنص الشرع ودور المسلم في الاجتهاد إنما هو فهم مراد الشرع وتمييزه دون الاقتراح عليه أو تبديله أو الزيادة عليه أو النقص منه .

وفي ميدان احتيال المرء على أمور دنياه لجلب الرزق وتحقيق القوة والسعادة للأمة فالمجال مجال الفرد بعقله وحسه وحركاته وتجاربه ليستثمر حياته ولا ينتظر من الشرع أن يعلمه كيف يزرع وكيف يصنع الخدء و ينسج الثياب و يكتشف بعض قوى الطبيعة و يرسي مختبراته ومعامله ، بل خلق الله للفرد ذاكرة تعي وعقلا يميز ويحكم وعينا ترى وأذنا تسمع وحركات لطيفة تنتج الحرفة والمهارة ودفعه ربه دفعا بتدبيره الشرعي لاستثمار هذه المواهب في عمارة الأرض والإعداد للأمة .

ومجال التشريع هنا مجال عموميات وتوجيه غير مباشر على هذا النحو:

١ — أن كل ثمرة لمواهبه في عمارة هذه الأرض يوظفها للخير لإسعاد المجتمع وإعداد القوة لحماية حرية الأمة وكسر سلطان الطغيان والتكالب على الدنيا .

٢ — أن استثمار هذه المواهب حق المرء في دنياه (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وللمرء أن يستثمر معظم وقته لهذا الحق ولكن لا يجوز له أن يضيع حق الله الذي لا يتأثر إلا بأقل القليل من الوقت .

بل جعل الله من ضرورات المرء في حظوظ الدنيا ضرورات يخفف بها من واجب الشرع فليس على المرء صلاة الجماعة في لحظة يخاف فيها على ماله أو ضياع دابته وليس عليه الصوم في سفر يسعى فيه لأمر دنياه فقد أخذ الله من عسر المرء إلى يسره ولم يكلفه فوق طاقته .

٣ — أن الدنيا في تصور الشرع — وهو التصور الصحيح الذي يشاهده اللاهون من واقع حياتهم — دار ممر مهما طال عمر المرء فيها فهو مجرد عابر سبيل ، وأن الآخرة هي دار الأبد .

ومن هذا التصور انبثق موقف الإسلام من اللهو والزينة والبذخ والرفاهية والميوعة فلم يحف الإسلام على فطرة الفرد فيحرمه من كل لهو ورفاهية ولم يحف على مذخوره في دار الجزاء فيستحثه على كل لهو وزينة .

بل جعل الله فيما أباحه للفرد من لهو وزينة ورفاهية سعة له من جديات حياته لينشط على مواصلة الجد .

فإن راض نفسه على الجد وكانت متعته في تقشفه فهو من المحسنين ، وإن تداوى برخصة الله فأخذ منها بقدر ما يعينه على العزمة فهو من المكتفين ليس عليه إثم وليس له أجر المحسنين ، وإن استباح هذه الرخصة بأكثر من مقدار الضرورة ولم يلب بها في حياته فهو من عباد الهوى الساهين اللاهين .

هذا هو موقف الإسلام من اللهو والمتعة والرفاهية أما إن تعدت الرفاهية إلى البذخ والسرف فذلك هو الطغيان والكبرياء الذي يجرح عقيدة المسلم .

وللإسلام موقف معاكس تماما تجاه إعداد القوة وعمارة الأرض فإذا كان على المسلم أن يتخلى عن المتعة مادام يقدر فعلية ألا يتخلى عن الكدح مادام يقدر عليه .

ليس غرض المسلم أن يكدح في عمارة الأرض وإعداد القوة لينعم بذلك في حياته فحسب ، وإنما هدفه أن تظل أمته قوية وإن كان على فراش الموت ولهذا يبذل المسلمون مهجهم في القتال في سبيل الله ويحرضون على الشهادة .

وللأسف فهذا المفهوم النصي لم يكن مفهوما تاريخياً في اللحظة الراهنة لأننا أخذنا باليمين من تحت (بتهوفن) كل شيء ولم نأخذ من (أينشتاين) و(يوري جاجارين) أي شيء !
إن الأمة العربية تبذل في صرعة دحرجة الكورة من المال والعتاد والوقت والمواهب مالا تبذل شمامة منه في التدريب على الإمساك بالمدفع .

٤ — توجه مفهومات الإسلام وقت السلم وجهده إذا تضايق إلى تقديم الأهم على المهم .
٥ — في دين الله ومضات عن قضايا ومفهومات كونية جاهزة فإذا استثمر الفرد المسلم مواهبه الحسية في اكتشاف بعض قوانين الكون اهتدى إلى عصمة خير الله وصدقه وقد أفردت مؤلفات خاصة بالاكتشافات الكونية التي سبق بها خبر الشرع .
إن مجموع الأمور الدنيوية التي هي استثمار لمنافع الكون بمواهب الحس مراد شرعي لأن النصوص أمرت بالاعتبار والتفكير والضرب في الأرض وإعداد القوة إلا أن الفرد المسلم قبل أن يتحدد بمجاله الدنيوي يأخذ مبادئه ونظرياته من مفهومات الإسلام .
لا يأخذ من الإسلام تعليماً بحرفته وإنما يأخذ الهدف والغاية لحرفته فينتقل بأبعد غاية في استثمار عقله وحواسه ولكن في إطار التصور الإسلامي الصحيح والخلق الفاضل .

ومعادلة قريبة نرى الدول الصليبية تتبجح بحسن المعاملة والمثالية اتباعاً لتعليمات المسيح عليه السلام ثم نجدها شر الناس تعاملًا مع الشعوب في ميدان السياسة وأسوأ الناس استخداماً للعدة والعتاد يمتصون خيرات الشعوب ويسعون إلى خلخلة فكرهم بينما نرى

المسلمين في قوة تاريخهم أكثر الأمم مثالية في العلاقات الدولية يهدون الأمم البربرية إلى
الخير فإن بقوا على دينهم تركوا لهم حريتهم ولم يطمعوا في ممتلكاتهم وصار للعاجز منهم حق
في بيت المال وإن رضوا بدين الإسلام أصبحوا كأبي واحد من المسلمين في الحقوق
والواجبات.

* * *

المعادلة الشرعية

مما يلهج به الضعفاء المهزومون روحيا وماديا الهذربمنجزات العلم الحديث والوصول إلى القمر مع انشغال المسلمين بقال أبوهريرة وقال الشافعي .

فأما أن المسلمين متخلفون ماديا فهذا أمر لا مجال للمكابرة فيه وبعضهم لا يزال من الأمم المتخلفة لم يصل إلى حد التصنيف في الأمم النامية .

وأما أن تعلقهم بدينهم هو السبب فهذا في الواقع هو الفتنة الثقافية التي استطاع الغزو الفكري استمراءها على ألسنة العامة وترسيبتها في الأذهان .

فهذه الأمم القوية التي شددت الحصار على المواهب العربية والإسلامية في كل حقل علمي جندت مؤسساتها الفكرية التي تعمل وراء الكواليس لإصابة العقلية العربية بالخلبال من جراء تخلف الشرق وتفوق الغرب مع ما في ذلك من التشفي والتعير .

ثم جندتها ثانية لإصابة العقلية العربية باليأس والفشل والهزيمة حين ربطت تخلف الشرق بروحانية الشرق لتحول بينها وبين السبب الحقيقي لفعاليتها .

وأغلب من يكتب عن تاريخنا الحديث المهزوم يكتب في دائرة هذه التصورات .

ولجلاء هذه التعليلية المموهة أضع عدة نقاط إن روعيت فهي كفيلة بإعطاء التصور الصحيح .

فمما يلاحظ أن تفوق الغرب إنما هو في الأمور المادية وهي أمور تبدأ بالفكر ثم بالتجربة الحسية من اكتشاف قوانين الكون ثم يظل المكتشف العلمي حرفة يقوم على المهارة ويعرف بالتلقي .

وقد بينت في الحديث الذي أسلفته عن سيادة النص أن شرع الله ترك للفرد حرية الاجتهاد في حرفته ومهارته وحته حثا أكيدا على استثمار مواهبه العقلية والحسية .

فتخلف المسلم عن الحرفة والمهارة لاسيما ما يحقق قوة الأمة وعتادها تقصير يحاسب به المسلم لأن الله منحه عقلا وحسا وخلق له مادة يعمل فيها حسه وعقله ، وما حرم الله عليه الانغماس في اللهو إلا ليقوم بشؤون دينه ودنياه .

وان صنع السيف وصنع القنبلة الذرية سيان من ناحية موقف الشرع فليس في الشرع تعليمات لا تقان الحرفة والمهارة في صنع السيف والقنبلة ، ولكن الشرع يحفز إلى تعلمهما بالوسائل الكونية

التي ملكها الله الفرد مادامتا تساهمان في إعداد القوة للأمة .

نعم الإسلام يأمر بإعداد القوة وتعلمها ويحث على ذلك فإذا وجدت القوة في يد المسلم فالإسلام حينئذ يحكم تصرفها بالسيف والقنبلة سيان لا يجوز استعمالهما إلا فيما أباحه الله في نصر الحق وقمع الباطل .

و يلاحظ أن معظم المسلمين اليوم من النوع الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتاء السيل فيهم البدع والخرافة والجهل والفرق والطوائف ، وإذن فقد عدم في الساحة اتفاقهم على مفهوم نصي واحد فكيف يكون هذا العامل سببا لتخلفهم وجوده مجرد دعوى ؟

إذن المنطق الصحيح أن تخلف سيادة المفهوم النصي في حياتهم هو سبب تخلفهم وليس معنى ذلك أن المفهوم النصي يعلمهم صنع الذرة وإنما معنى ذلك أن المفهوم النصي يحضهم على التفوق دائما ولا يرضى لهم الإسلام إلا القيادة ولا يقبل الحاكمية — في مقتضاه الشرعي — إلا بواسطتهم .

والله لا يكلمهم إلى حيلهم وقوتهم وعددهم ومددهم وإنما طلب منهم الصدق والتضحية والفداء ثم يتم الله مسيرتهم بشتى وسائل الإعجاز التي لم ينقطع مددها منذ معركة بدر الكبرى .

الإسلام كما هو سيادة لمراد الله في العبادات والمعاملات نجده إعداداً صحيحاً ومنهجاً صارماً للإعداد للحياة والتفوق فيها بشرط إرادة الخير والدعوة إليه .

وليس في الأمم أغلظ وأقوى طباعاً من العرب فلما تحلوا بالإسلام من الله عليهم بالقلم وكانوا أميين فاتسعت صدورهم للإبداع في العمارة والطب والرياضيات والفكر فكانت بلادهم هي الجامعات العلمية لأطراف المعمورة وما فقدت هذه الميزة في مهارتهم الحرفية والفكرية إلا في وقت انقطاع حاسمهم الديني .

و يلاحظ أن المهارة العلمية من صنع الإبرة إلى صنع القنبلة هذا اليوم بيد الشيوعي الذي لا يؤمن بدين و بيد الهندي الذي حقيقة دينه الوثنية والتجسيم ، و بيد العربي الذي يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يجد في بلاده مختبراً فهاجر إلى أمريكا يطلب الرزق .

إن الدين هنا لم يكن عاملاً تخلف والفارق الوحيد أن المسلم إذا ملك القوة حفظها بقانون الله الشرعي فاستعملها لإسعاد البشرية .

ولا يزال المسلم من مفهوم تاريخي لا نصي فحسب يتحدى أمم الأرض بسعادة الأمم المغلوبة في ظله بخلاف الزنوج في أمريكا والعصية للبيض في جنوب أفريقيا .

و يلاحظ أن الأمم القوية اختارت لنا مما عندها فقبلناه لأننا عاجزون عما نريده نحن .

ومنذ انفتاحنا على الغرب لم نحس أننا جارين الغرب إلا في نظريات الأدب والموسيقى والاجتماع والتاريخ مع تعالم ما في نظريات الفلسفة والسياسة .

هذا أمر نقدر عليه دون الغرب، وإن تخلفنا في هذا فأمر لا يضر لأنه لا يضر خالد بن الوليد
والمنشئ بن حارثة وصلاح الدين الأيوبي ألا يقيم بيتاً من الشعر أو لا يتذوق قطعة من الموسيقى .
وإنما حاجتنا إلى كفاءة وطنية نطمئن إلى رأيها وإخلاصها في مستشفياتنا وشؤوننا المعمارية
والزراعية .

وإنما حاجتنا إلى يد تحسن أن تمسك بالمدفع .

وإنما حاجتنا إلى أنامل تتقن صنع المدفع !

وإن جاز للأوروبي أن يلهو فلعل له الحق لأنه يلهو بما صنعه من عرقه أما نحن فآخرون يفكر
بالمثمة في حياته لأن في شيمة العربي وطبعه أنه لا يشرب إلا بساعده ولا يتكل على غيره .

وكل النظريات في السياسة والاجتماع والأدب والقانون والميتافيزيقا لنا منها رصيد كانت
إلينا أوليته والتوسع في ذلك من التوافل إذا حققنا ضروراتنا المادية، ثم في هذه النظريات ما كفيها
مؤنثه بعصمة الوحي كالفقه والتوحيد فالتماس غير ما أعطينا حقيقته من الوحي المعصوم في أمور لا
تعرف بالمعمل والمخبر إنما هو ابتغاء للضلال وتشتيت للذهن في غير جماله .

إن تخلف المفهوم النصي في جميع واقع الأمة الإسلامية هو سبب تخلفنا، لأن واقعنا تخبط لضياح
المنهج الحازم الصارم الموجه لمواهب الأمة، وقد حذر الله بالفتنة من يخالف أمره، وذل المسلمين اليوم
من أعظم ظاهرات الفتنة .

إن المسؤول عن تخلف المسلمين خيانة القيادات وتغفيل بعض القيادات المؤتممة بكل ما يميل عليها
حتى في مناهج التربية والتعليم .

ولو وجدت القيادات الخيرة والمفهوم النصي الموحد لكان مئة وخمسون مليوناً من العرب فقط
—دون الدول الإسلامية الأخرى— قادرين على الاستغناء بمواردهم وأشخاصهم في كثير من الأمور
قادرين على مساومة عدوهم فيما يلزمهم من موقع القوة .

أقول هذا واقع الإسلام القيادي وواقع المسلمين المتخلف .

وأنا أعلم أن للإسلام المظهر تدخلاً في حرية الفرد في مأكله ومشربه ولباسه وكلامه ومعاملته
وحياته وأنا مسير في كل ذلك بمراد الله الشرعي .

ولكنني أعلم علم اليقين : أن الله ما حرم شيئاً إلا وفيما حله السعة والمخرج، وأن في كل ما
حرمه الله بلاء للفرد والأمة لا يقيه منه إلا امتثال شرع الله، وأن كل ما يحصيه الدارسون اليوم من
إيجابيات ترفع شأن الأمة لا يمكن أن تكون ضمن ما حرمه الله بل يجب أن تلتمس فيما أوجب الله
على الأعيان أو الكفاية .

وإن وجد المتفلسف في بعض ما حرمه الله شيئاً من المنفعة فيسجد مقابل ذلك ثلاثة أمور :

أولها : أنه سيجد مضارا كثيرة تكون معها تلك المنفعة المتوهمة مما لا يعتبر في نصاب الفكر.
وثانيها : أنه سيجد في مباح الشرع ولازمه عوضا كريما لا يقرب في الفكر غيره.
وثالثها : أنه سيجد من إيجابيات الفكر أن وراء هذه الحياة الفانية دارا أبدية يُحتكم إليها في الترجيحات والمعادلات.

* * *

المعارلة التاريخية

في تاريخنا الإسلامي هفوات اقتضاها تدبير الله الكوني لتكون عبرة للخلف كالفتن التي جرت في عهد الصحابة .

ثم إن أمور الإمامة الكبرى تحولت من عهود العصمة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عهود المثالية النادرة في عهد خلفائه الراشدين .

وكانت الصغائر في حق أولئك كبار فظيعة في نظر علماء المسلمين وفقهائهم المأخوذین بحاسن الإسلام في نصوصه وبسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين .

وآخر عهود الخلافة الإسلامية الخلافة العثمانية وفيها نقائص بمنظار العصبية للعرق العربي ، وفيها نقائص بمنظار المفهوم النصي منذ ضعفت دولتهم وانتشرت في بلاد المسلمين البدعة والخرافة !! والمواطن المسلم يحمّد الله على عزائم تاريخه الإسلامي و ينظر بالإغضاء إلى ما فيه من ضعف وهفوة لا مستحسنا ولا مصوبا لأن الدعوة إلى منهج الخلافة بالمفهوم النصي هو عقيدة المسلم وتصوره وهدفه .

ولكنها إغضاء من يعلم أن عز هذه الأمة وإيجابيتها إنما تلتبس في ظل هذا التاريخ بكل ما فيه من إيجابية وسلبية .

وقد شهد التاريخ أن هزائم الدولة العثمانية — وهي أضعف خلافة إسلامية — خير لنا من واقع التاريخ الحديث فلم يهن الإسلام وأهله ولم يذل العربي وتنتهب تركته إلا بعد انفصام الخلافة التركية .

وإذا انتقدنا تاريخنا الإسلامي في بعض مظاهر الضعف فيه فبمنظار الفقيه المسلم لا بمنظار العلمانية الحديثة والشعوبية المتربعة .

فالمستشرقون والعلمانيون والشعوبيون الذين يضحون من حياة الترف واللهو التي يمارسها هارون الرشيد لا يتكلمون من منطلق الغيرة على المبادئ الخيرة التي ينادي بها الإسلام وإنما يتشفون من سمعة هذا الخليفة لأن سلطان المسلمين في خلافته هو المهيمن في الأرض لم يتع رحمه الله لأي أمة همجية بربرية أن تتلاعب بمقدرات الشعوب كما نرى في بربرية هذا العصر .. عصر العلم الحديث .

ونجد مطران وشعراء المهجر وشعراء الطائفية كأدونيس يتصدرون القيادة للحملة على السلطان عبد الحميد من منطلق صليبي علماني طائفي وقد كان هذا السلطان حجابا بين شرقنا وبين أطماع الصليبية وهو الذي أبى تهجير الصهاينة إلى فلسطين .

لقد كان آخر خلفاء بني عثمان يمثلون ضعف التاريخ الإسلامي ولكنهم لا يمثلون ذله و فرق بين الأمرين .

وكان من الأولى الالتفاف على هذا التاريخ لتقويته بزعامة إسلامية جديدة لا أن يستبدل بإمبراطوريات كافرة بالله من شيوعية ورأسمالية .

فبدل أن كان المسلمون رعايا الخلافة الإسلامية في الآستانة أصبحوا رعايا لقرارات الكونجرس والكرملين .

ووالله الذي لا إله إلا هو كلمة حق لا أرجوبها غير وجه الله ما وجدت زعامة عربية أو إسلامية بعد السلطان عبد الحميد — سوى إمام المسلمين عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله — يحق لها أن تنظر إلى مظاهر الضعف في تاريخنا الإسلامي بمنظار النقد .

فأتعرف رجالات الزعامة الإسلامية كهارون الرشيد وأضعفهم كمعبد الحميد لم يتركوا لكافر على مسلم سلطانا ولم يبيعوا شبرا واحدا من أرض أمتهم ولم يفصلوا دين ربهم عن دولتهم ولم تعرف العمالة والخيانة سبيلا إلى صفوفهم .

ومنذ خلت الساحة من هؤلاء الأخيار بقيت أمتنا دويلات يزول عنها الاستعمار الأجنبي المباشر تارة وتبقى فعاليته بيد زعامات ربتها يد الأجنبي .

وتتعاقب تارة أخرى الزعامات لاستهلاك قوة الأمة عسكريا واقتصاديا ، والغزو الفكري في كل المراحل مستمر جوهره متقلب منظره .

إن المسلم بمفهوم نصي يصلح تاريخه ولكنه لا يكون عوناً للحاقدين عليه الطامعين في أمته .

شعار الهوية الإسلامية

تكونت هوية المسلم في تصوره وسلوكه وفق خبرة برهانية من واقع إيجابيات الفكر وطرده ومعادلاته .

وبهذا تكونت هويته فما الحاجة إلى الشعار؟!

وبطرح هذا الأمر للنظر تبينت ملامح ثلاثة:

أولها: أن الشعار ليس بدعة في حياة الناس فلكل دين أو مذهب أو أيولوجية شعاره، بل للمؤسسات التجارية والعلمية شعارها .

وقد يكون هذا الشعار مجرد علامة كشعارات أندية الكرة .

وقد يكون هذا الشعار ذا مدلول تاريخي .

وقد يكون هذا الشعار ذا مضمون فكري أو تعليمي .

وقد يكون جامعاً بين المضمونين كصليب النصارى .

وثانيها: أننا لم نجد في الفكر وجهاً معقولاً يمنع من الشعار .

وثالثها: أن بعض الشعارات ذات إيجابيات ملموسة وبالذات شعار المسلم فهو جزئيات كثيرة تكوّن هويته .

فمن شعار المسلم ألا يتشبه بأعداء الله وأعداء أمته في ملبس أو مأكّل أو مشرب أو هيئة .

إن هذا الشعار جزء من الهوية الإسلامية لأن منطوق النص الشرعي أكد مخالفة اليهود والنصارى وحرّم التشبه بالكفار، وسيادة النص في حياة المسلم عنصر من عناصر هويته .

وهذا الامتثال في نهايته شعار ذو مضمون فكري لا أستطيع أن أستوعبه من أطرافه ولكنني أذكر أن من دوافع التشبه في أغلب العادة المحبة والإعجاب، وليس لعدو الله وعدو الأمة أي مكان في قلب المسلم من المحبة والإعجاب .

فإن وجد في حياة الكافر إيجابية شد المسلم منزله حتى يحصلها دون أن ينفخ من شعاره أو يتنازل عن شيء من هويته، فاللحية شعار إسلامي لم تضر كارل ماركس وهو من أئمة الكفر ولم تضر برنارد شو وهو من أئمة العابثين!

وإذا رأى المسلم شعاره يستخدمه الكافر فلن يضره ذلك لأنه اتخذ شعاره دينونة الله ولم يتخذه تشبها بأعداء الله .

وإذا كان التشبه دافع محبة وإعجاب في الغالب (٣٦) فيشمر إيجابية سيئة ترتد على محبة دين المسلمين والإعجاب بسيماهم ، ولهذا رأينا التشبه بأعداء الله أنتج ثمرة رديئة هي السخرية بسيما المسلمين وسنتهم ومروأتهم .
والمأثور أن من تشبه بقوم حشر معهم .

فإن كان هذا إنشاء فهو واضح ، وإن كان خبرا فمعناه أن المتشبه يأنس بمن تشبه بهم ومحبههم ويحاكيهم في تصورهم وسلوكهم فينقلب إلى ربه بغير الهوية التي اختارها له ربه بحكمه الشرعي .
إذن لم يكن الشعار الإسلامي عبثا ، بل الواقع أن تصميم المسلم على شعاره أول عمل له إيجابي لتحقيق وجوده الدنيوي من خلال هويته ، وهو أول صفة يلطم بها وجه عدوه فلا يطمع منه بزيد من الانقياد فيذل فكره ويهين عقيدته وتاريخه ونخوته كما أذل واقعه الراهن سياسيا وعسكريا واقتصاديا وعلميا .

إن السعي إلى سلخ المسلم من شعاره وهو يته مؤامرة مدبرة حذرنا منها خالق الأجيال وعالم الغيوب منذ أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم — والخطاب لأتمته — بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم ، وأن إطاعتنا أكثر من في الأرض ضلال وأن الهدى هدى الله .
والسيادة على الأرض اليوم إنما هي لليهود والنصارى وأكثر من في الأرض وهم عبدة الرغيف .
ولا يستطيع أي مراوغ أن يزعم بأن هيئة العربي اليوم هيئة كونها باختياره إذ رفض هيئته التاريخية ، وإنما هيئة سيق إليها من حيث لا يعلم .

إن مناسج الغرب ومناسج النصارى في بلاد العرب ومناسج المسلمين المخدوعة فرضت علينا رفع شعار الصليب من حيث لا نشعر .
تجد هذا في لباس أطفال المسلمين حيث يربط لباس الصدر بلباس القامة من خلال الظهر بطريقتين متقاطعتين على شكل صليب .

وإذا كان الظاهر أن زعماء وقادة الأمم الكافرة لا يظهر عليهم الالتزام بدينهم فلا يعني ذلك أن الغارة الفكرية وهم في عقل الشرقي وذلك لعدة اعتبارات :

أولها: أن زعماء وقادة الأمم الكافرة ليسوا حاكمين بأمرهم كما هي الحال في معظم شرقنا

(٣٦) والبرهان على ذلك أن أسوة معظم الشرقيين اليوم محاكاة الغرب والأمم القوية لا محاكاة المستضعفين في مجاهل أفريقيا وشرق آسيا .

العربي، وإنما هم جهات تنفيذ لقرارات أمم ذات أيديولوجية ومطامع دنيوية وهوية دينية.

وثانيها: أن هؤلاء الزعماء ذوو غير حقيقية على دينهم وتصميم إرادي على خدمة مبادئهم وإن بدوا في ظاهر سلوكهم غير ملتزمين.

إن زعيما كمناحيم بيجن وكيسنجريستحيل أن يكون لهما هدف أعلى خلال كثير من المتناقضات غير خدمة اليهودية وإسعاد حياة الصهاينة.

وثالثها: أن من مبادئ أيديولوجية المؤامرة الفكرية تحريم التزمت والتعصب للأديان ولهذا كان زعماء الأعداء ممن يظهر عليهم التسامح وعدم الالتزام الحرفي لدينهم، لأنهم واجهة التعامل مع العالم ولكن سياسة الأمة سواء أكانت أيديولوجية أم تحليلية ترسم من مجالس ذات عقيدة ودين.

ألا ترى أن دارسي السياسة الخارجية حكموا بأن السياسة الأمريكية سياسة تحليلية بيد أننا نرى في سياسة هذه الأمة حماية الأقلية من ذوي الأديان، والمقصود بالطبع اليهود والنصارى فهذه سياسة أيديولوجية من خارجية توصف بأنها تحليلية!

ورابعها: أن في الأديان المحرفة المبدلة سعة صدر لانحراف السلوك فيظل النصراني نصرانيا وإن لم يعاود الكنيسة كل يوم أحد، وبإمكانه أن يتجرد من كل ذنوبه في سن الشيخوخة أو الانعزال عن الحياة بالاعترافات وصك الغفران.

وخامسها: أن في الأديان المحرفة المبدلة سعة صدر لاصطناع الانحراف تصورا وسلوكا لخدمة غاية تملئها إرادة الأمة لاسيما دين اليهود فيإمكان اليهودي أن يظل سنين طويلة نصرانيا أو مسلما أو بوذيا أو طائفيا لخدمة أهداف أمته.

وليس هكذا أمة الإسلام فليس في المفهوم النصي من دينهم ولا في الواقع من تاريخهم أن يتنصر المسلم ظاهرا أو يتهود لخدمة غرض معين.

لا يؤثر شيء من ذلك مطلقا في تاريخ المسلمين بل كل أعمالهم في العلن لا يمكن أن يستروا شيئا من دينهم استحياء أو مكيدة، ولا يمكن أن يدعوا شيئا ليس من دينهم لنقص يحسون به، ولا يمكن أن يسعوا بالدس إلى تشويه أو تحريف معتقد أو مذهب لأحد الأمم ولكنهم يعلنون فسادهم وضلالهم في وضوح النهار.

محور الهوية الإسلامية

إنما أهدف إلى محور الهوية الإسلامية بمفهوم نصي لا بمفهوم تاريخي .
أهدف إلى مفهوم تحدده نصوص الشريعة الإسلامية بأمن وأصلب مناهج الفكر المستقيم
السليم من التناقض والإحالة والحسبانية أو المكابرة والعناد .
قد مهدت لذلك بشذرات أحسبها التصورات الأولية الضرورية لهذا المفهوم وعسى أن أعان على
هذا المفهوم في لحظات نشاط أخرى .

وإنما تجانفت عن المفهوم التاريخي ، لأن المفهوم النصي هو الأسوة الحقيقية الصحيحة ، أما
هفوات التاريخ فمنها الاجتهادي الذي يعذره ولا يؤجر ، ومنها الخطأ المتعمد الذي يرجى تكفيره
بجلائل أعمال أخرى ، إلا أن ما يلزمنا حيال هذا التاريخ أوضحت في معادلة تاريخية .
لهذا كان ابتغاء الهوية الكاملة من واقع المسيرة الفردية من مجموع السيرة العملية لعامة المسلمين
في تاريخهم نوعا من المغالطة ، لأن الإسلام شيء وواقع المسلمين شيء آخر .
إلا أن الهوية التي حددها المفهوم الشرعي تلمع نيرة في جماعات إسلامية عصم الله علنها من
الضلال .

ويعتري الفرد الذي هو لبنة خيرة في الجماعة الإسلامية حتمية الضعف البشري التي تتسلط
على سره أحيانا أو على ما يكتشف من سره فيغتش ذلك الضعف شيئا من جوهر هويته دون أن
يطغى هذا الضعف على علته لأن علن المسلمين معصوم .

ولهذا قلت إن هوية المسلم مفهوم نصي يوجد في علن كل مجتمع تكون فيه الحاكمية للإسلام .
والمسلم الحقيقي لا يستسلم للضعف في سره دائما ، بل جعل الله له من هذا الضعف وسيلة
ليجدد الصلة بربه دائما ، ولهذا قيل دموع العصاة قربات الأبرار .
وحيثما تحرص هذه الضميمة على جلاء الهوية الحقيقية للفرد المسلم — مع ما فيها من عزمة
وما في الفرد من ضعف — فإنما تطمح إلى أن تكون هذه الهوية رمزا واضحا وشعارا حقيقيا
للجماعة الإسلامية .

أما ظهور الانحراف علنا فلا يغني عنه وجود أفراد معتصمين بالشرع ، ولا يمكن وصف الجماعة

التي يوجد الانحراف في أفرادها علنا بالجماعة الإسلامية .

الجماعة الإسلامية هي التي يكون علنها كرمًا وتفرقها مرحومًا .

وعلى الفرد المسلم في حالة غياب الرقيب —سوى رقابة الله— أن يجاهد نفسه في إصلاح نيته ليصقل هويته التي يغطسها حالات ضعفه البشري حتى يكون شعار الجماعة الإسلامية شعاره الحقيقي في السر والعلن .

ولا مجال للمسلم في التنصل من عزيمته استسلامًا لضعفه ، لأن الذي خلقه —وهو اعلم بقوته وضعفه— هو الذي فرض عليه شرعًا يأخذه بالعزيمة فمادام خالق الخلق هو منزل الشرع فالبدئية أن خالق الخلق أعلم بما يصلحه .

لا مجال للمسلم في أن يتنصل عن عزيمة ربه الشرعية و يقول أبى علي ما يعلمه الله من شهوة وهوى ونفس أمارة بالسوء .. وكل هذه مغريات مغويات فوق طاقتي والله يشهد على ذلك !!

لا مجال للمسلم في هذا أبداً ، لأنه ليس بين المسلم وبين الانتصار الساحق على تلك المغريات المغويات إلا أن يستخدم حريته الفردية التي ملكها الله إياه .

والفرد المسلم يملك هذه الحرية في ثلاثة حقول :

١ — حقل النية لا سلطان لأحد عليها وقد بينت نصوص الشرع أن الشيطان يقذف في الصدر بوساوسه ولكنه لا يعلم ما في الصدر، ولا يعلم نية الفرد غير الله .
إذن الفرد يملك نيته بحرية مطلقة .

فمن ظلت نيته دائماً صالحة فمحال أن تنتصر عليه المغريات المغويات .
وبرهان ذلك التجربة .

٢ — حقل القول سرا وعلنا .

فكل فرد يملك الحرية في هذا الحقل ، والله لم يكلف الخلق إلا حسب قدرتهم .
يملك الفرد المسلم في هذا الحقل —دون أدنى مشقة— حرية دعاء الله وتقديسه والتضرع إليه .
ومن ترامي بين يدي الله بهذه الحرية فمحال أن تنتصر عليه المغريات المغويات .
والبرهان على ذلك التجربة .

٣ — حقل العمل سرا وعلنا .

فكل فرد يملك حرية في هذا الحقل ، والله لا يكلف الخلق إلا حسب قدرتهم .
يملك الفرد المسلم في هذا —إن بمشقة ما أودون مشقة— أن يؤدي الواجبات والنوافل .
والذي يستطيع عمل الشر يستطيع عمل الخير .
ولكن الذي يغالب عمل الشر بأعمال الخير —مع استثمار حريتي النية والقول— يستحيل أن يظل تحت عبودية المغريات والمغويات .
والبرهان على ذلك التجربة .

وهو ية المسلم تلتمس من موقفه حيال الشرع الذي يرد على منحيين لا ثالث لهما :

(أ) إخبار الله لعباده إما بحقيقة مجهولونها أو يغفلون عنها ، وإما بحقيقة يعتبرون بها لكشف حقيقة أخرى أو لكي لا يغفلوا عن حقيقة أخرى .

وها هنا تتحدد هوية المسلم من ناحية التصور تحدد لا مساعدة فيه فلا يقبل منه إلا التصديق المطلق جملة وتفصيلا يبين لا شك فيه ولن يحصل الفرد على هوية المسلم دون هذا الشرط .

والمنحى الشرعي الثاني الذي سيأتي بيانه لا خطر له في حياة الفرد إذا لم يكن ثمرة لهذا الموقف وهو الإيمان والتصديق بنية الدينونة لله سبحانه وتعالى ، ولهذا أحبط الله الأعمال الخيرة للكفار وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن جدعان — كما في صحيح مسلم — بأن أعماله الخيرة التي عملها لا تنفعه لأنه لم يقل يوما ما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ، كناية عن الإيمان .

وجرت سنة الله الكونية بأن الكافر الملمد لا يأخذه الله بذنبيه في الدنيا بل يمهله له ويسيطر له في زينتته إلا في حالات يكون فيها التحدي لسلطان الله الكوني فهذه سنة ماضية باقية إذ يأخذ الله الجبابرة أخذ عزيز مقتدر .

والمسلم يخاف عليه أن يؤخذ بذنبيه في الدنيا ولهذا يعتصم عصاة المسلمين بالاستغفار وتجديد التوبة والندم واستشعار العبودية لله دائما .

(ب) تكليفات من الله لعباده تتضمن الأمر بشيء أو النهي عن شيء .

وموقف الفرد من هذه التكليفات يحدد هويته من ناحية السلوك ، وهي هوية غير محصورة الرتبة بل هي رتب متفاوتة أعلاها رتبة المحسنين ثم رتبة من خلط عملا صالحا وآخر سيئا ما بين من رجحت حسناته بسيئاته ، أو تساوت الكفتان .

وأدنى هذه الرتب من رجحت سيئاته بحسناته .

وثمره هذه الرتب تكون في دار الجزاء وهي دار التغايب إلا أن الله ضمن للمؤمن العاصي ألا يخلده في النار ولكنه قد يعذبه أحقابا لا يعلمها إلا هو .

من هذين المنحيين الشرعيين ومن موقف الفرد منهما يتألق محور الهوية الإسلامية تصورا وسلوكا .

* * *

وهدة الوهود فلسفة أم دعوى ؟

يقول الحلوليون الاتحاديون — تعالى الله عما يقولون — لا خلق ولا خالق .
إذاً ماذا؟

يقول عبدالحق بن سبعين :

الله فقط ، والكثرة وهم . اهـ .

و يقول ابن سبعين :

رب مالك ، وعبد هالك .

قال أبو عبد الرحمن : إلى هنا صحيح .

ولكن ابن سبعين يقول بعد ذلك :

(وأنتم ذلك ، والله فقط ، والكثرة وهم) .

أي أن الخلق والخالق واحد ، هذا الواحد هو الله فقط — والكثرة أي التجزئة — وهم وظنون .

ولهذا الكفر الأصلع يستعمل ابن سبعين جملة :

(لا موجود إلا الله) مكان (لا إله إلا الله) .

مع أن الإلهية وجود وزيادة .

إن هذا كفر ، وليس وراء الكفر ذنب .

وعجبي من الدكتور أبي الوفاء الغنيمي التفتازاني كيف نصب من نفسه محامياً عن إيمان ابن سبعين ؟

وإذا فتشت في كلام رابعة العدوية والحلاج وابن سبعين والتلمساني وأشعار ابن عربي وابن الفارض رأيت هذياناً يشبه كلام السكاري .

وقد تسربت عدوى الحلول والاتحاد إلى الأدب العربي .

ويمثل هذا الاتجاه في الأدب الحديث ميخائيل نعيمة .

إن المنطق يطالب هؤلاء بإقامة البرهان على هذه الدعوى الباردة، ولكن منهج البحث قبل منطق البرهان يطالب بشرح هذه الدعوى وإيضاحها استكمالاً لتصورها لأنها غير مفهومة، والتصور قبل التصديق.

يقول أحد حميرهم :

(أنا في الجبة وليس في الجبة إلا الله ؟) .

و يقول رذل من أرذالهم وهو الحلاج :

(سبحان ربي الأسفل) .

ولولا أن الله نص على كفر الكافرين لما نقلنا هذا السخام .

ولقد انتفض شيخنا محمد بن داود الظاهري رحمه الله غضبا لله فأصدر حكما بسفك دم الحلاج ولنعم ما فعل طيب الله مثواه .

أعود مرة ثانية فأقول : ما معنى هذا الكفر الأصلع ؟

يقولون : الله هو الوجود وما نسميه خلقا إنما هو ظلاله !!

نعم تشبيه وتعطيل في آن واحد .

و يقولون : الخلق صور للحق .

و يقولون : المحيط واحد ، بحر يفصل منه نقطة ماء أو متصل به ، بيد أن المحيط والنقطة ماء .

الخلق مجتمع ليكون حقيقة الحق ؟

و يقولون — وقبح الله ما يقولون — كل روح بشرية ما هي إلا جنين إلهي ؟

ومن هنا قال النصارى : إن عيسى ابن الله ، لأنه روح الله في مريم .

ولم ير هؤلاء الأغبياء أن الإضافة تعني البعضية والملكية والتشريف .. إلخ .

ولو قدروا الله حق قدره لعلموا أن عيسى روح الله لأنه ملكه كقوله تعالى : (ناقة الله) [سورة الأعراف / ٧٣] .

وفي عقيدة التثليث عند النصارى في إنجيل يوحنا ١ / ٢٠ :

(تعلمون أنني أنا في أبي ، وأنتم في ، وأنا فيكم) . اهـ .

وجاء مهزومو العقيدة من المنتسبين إلى الإسلام ، وقالوا : هذا صحيح ، لأن الله خلق آدم على صورته فصورته هي نفسه .

قال أبو عبد الرحمن : إن الله خلق آدم على صورة آدم ثم يتغير خلقه . واستكمالاً لتصوره هذه

الخيالات نظل في إيراد تكهناتهم مع شرح دعواهم .

يزعم الرومانتيكيون أتباع جان جاك روسو ولامرتين بلغة أدبية :

أن عطر كل زهرة مظهر من مظهر الحق ، ولهذا كان أدبهم الوثني عبادة للطبيعة وابتهاالات في محرابها والحب بين جوليا ورفائيل ذو قداسة لأن الحب نور إلهي أو لأن الأرواح عنصر واحد من روح الله .

وتصفح ما شئت من الكتب التي تتمذهب بوحدة الوجود تجدها تتفنن في عرض الدعوى وغطرسها بشتى الصور وكلها تدور حول قضيتين كافرتين باطلتين :

إحدهما : وحدة الوجود ، أي أن الخلق مظهر للحق وهما شيء واحد .

وأخرهما : أن الحق حال في الخلق ، لأنه هو هو .

ومباحث هذين الأصلين الكافرين طويلة جدا ، بل هي متاهة للخيال البشري .

ولكنها لم تشفع ببرهان قط ، وإنما العلم الحديث يحاول الآن الاستدلال عليها شيء واحد هو أن الحلولية الاتحادية عقيدة مسيحية بعد تبديل الدين المسيحي ، والنصارى اليوم أكثر من ثلث سكان المعمورة .

إذن مغالطات العلم الحديث انتصار للنصرانية المبدلة .

قال الدكاترة زكي مبارك عفا الله عنه : (إن القول بوحدة الوجود له وجه ، فمنذ اكتشف اللاسلكي وأنا أعتقد أن العالم كله مربوط بوحدة كهر بائية لا تقبل الانقسام) . اهـ .

قال أبو عبد الرحمن : سبحان من ألهم الدكاترة هذه المعجزة !!

لقد كان الدكاترة ظريفا مع ستريس وذكريات باريس ولىلى المريضة في العراق وعلي الجارم الغلام في لحن الخلود .

أما هذه العقد الفكرية فمرتقى وعريثقل روحه الشفافة .

لقد وضع (هويتلي كارنجتون) النظرية الجماعية للتلبثة : أي تفسير الكيفية لانتقال الأفكار من عقل إلى عقل ، أو من روح إلى روح كقصّة (الجبل ياسارية) المروية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و يلخص هذه النظرية القول بوحدة العقول البشرية .

وقد أثبت الروس هذه النظرية معمليا بفكرة (الجسم الطاقى) أي مجال القوة ، وأثبتوا هذه النظرية بالعلم الروحي السيكولوجي .

كما اكتشف علم الفيزياء أن الكون كله يتألف من ستة ومئة عنصر .

فهذه وحدة في العناصر .

قال أبو عبد الرحمن : أمام حاقات أهل الحلول والاتحاد ، وأمام أغلوطات العلم الحديث أضع

بعض المعالم والصور في هذه المتاهة على هذا النحو:

- ١—أولا: أن الاتحاد كفر بنصوص الشرع قطعية الدلالة والثبوت على أن الوجود خلق وخالق وأن الخالق غير الخلق.
- ٢—ثانيا: أن الحلول كفر بنصوص الشرع قطعية الدلالة والثبوت على أن الله محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء.
- ٣—ثالثا: أن النصوص الشرعية قطعية الثبوت الواردة بنص المعية تفسر بالمعية الإلهية في الهيمنة: أي بأن الله مع الخلق بسمعه وبصره وعلمه وتديره.. إلخ. والمعية عامة لغة مخصصة لغة أيضا بالمجاز. وأهل السلف يقولون بالمعية الخاصة ركونا إلى السياق، وإلى تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى فهم الصدر الأول من الصحابة أقحاح العرب، وإلى النصوص قطعية الدلالة والثبوت النافية للحلول لفظا ومعنى.
- ٤—رابعا: أن الحلول والاتحاد كفر بأسماء الله سبحانه وصفاته جمع بين مجامع الكفر وهي تعطيل أسماء الله وصفاته، لأنه الاتحاد ينفي ما يليق بجلال الله وعظمته. إضافة إلى التشبيه إذ شبهوا الحق بالبحر المحيط والمرأة بالشمس. والحلول يفضي إلى القول بأن الله حال في كل شيء ولو سمعت كلبا ينبع وقلت إن صوت صديقنا زيد حال في نباح هذا الكلب لكان ذلك منتهى الاحتقار لزيد تعالى الله عن وساوس الظنون. قال أبو عبد الرحمن: إنني لم آخذ بعزائم الأمور في سيرتي العملية بهذه الحياة، ولكن لي عقيدة لا أفرط فيها أرجو أن تشفع لي عند الله أمام تقصيري يوم وحشتي في القبر، وأرجو أن تسرع بي إلى الفية.
- ٥—خامسا: أن كل من قال بالاتحاد قال بالحلول وفي هذا تناقض.
- ٦—سادسا: أن من تمذهبوا بالحلول والاتحاد وشرحوا فكرتهما لم يخرجوا عن نطاق الدعوى والتفنن في الخيال.
- ٧—سابعا: أن من دحضوا خيالات الحلول والاتحاد كابن تيمية تبرعوا بالبرهان من جانبهم على أن البرهان على النافي، تنزلا في الاستدلال. وقد أجادوا وأبدعوا في إقامة البرهان. وليس عليهم ذلك، فحسبهم أن يطالبوا بالبرهان فقط لأن الله أمرنا أن نقول

للمدعين: (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) [سورة النمل / ٦٤].

إنهم تبرعوا بالبرهان مأجورين مشكورين إن شاء الله .

٨— ثامنا: أن القول بالحلول والاتحاد يجبر إلى وشائج من الكفر والانحلال لا حصر لها .

فابن عربي أملى كرايس هي من باب الزيادة في الدين والنسخ له زعم أنه تلقاها عن
الرحمان جل جلاله وعن الرسول صلى الله عليه وسلم .

لأن ادعاءه الحلول والاتحاد جره إلى أن يدعي سببا بينه وبين ربه .

انظر إن شئت فصوص الحكم والفتوحات .

وابن عربي ادعى أن الإنسان يصل إلى درجة من الكرامة تسقط عنه التكاليف

الشرعية بموجبها ، وذلك بفضل نظرية الحلول والاتحاد !

٩— تاسعا: أننا نعلم بوجود الله وكماله ولا نعلم كيفيته ، ولكن نؤمن بموجب الخبر بأن الله الكمال

المطلق المنزه ، وأصحاب الحلول والاتحاد كيفوا صفات ربهم .

١٠— عاشرا: أننا لا ننكر على العلم الحديث أن يجد وحدة عنصرية يجتمع فيها ما اكتشفه العلم

الحديث من مخلوقات الله .

ولكن هذا لا يعني: أن الخلق يجتمع في عنصر واحد .

وعلى فرض اجتماعه فلا يعني ذلك أن الخلق والخالق شيء واحد ، وأن الخالق حل في الخلق

لأن العلم كشف شيئا عظيما من خلق الله ، ولكنه قليل جداً في علم الله ، وما أوتيتم من العلم إلا
قليلا ، والله غيب لا يطلع عليه أحد .

والعلم الحديث لا يزعم أنه عرف كل شيء .

وهذه الوحدة في الخلق وحدة فيما عرفناه من الخلق ، ولكن أين هي وحدة هؤلاء السموات .

هبوا أن الله خلق الخلق بقانون واحد ، أو عنصر واحد إن هذا يعني وحدة في خلق الله .

وأولئك يقولون بوحدة الحق والخلق .

وبعد هذا فابن عربي الحلولي الاتحادي يزعم أنه فقيه ظاهري ، ونحن معشر الظاهريين نبرأ إلى

الله منه ، لأن الظاهرية تأصيل قبل أن تكون تفريعا .

وشيخنا الأول محمد بن داود الظاهري هو الذي حكم بسفك دم أول جرثومة في العالم

الإسلامي من أصحاب الحلول والاتحاد وهو الحلاج .

صيدحيون عراقيون

لا مرأ أن العراق بما أنجبته من غريدين منذ الرصافي ووصفبه استلت زعامة الشعر من أرض الكنانة ومن كل البلاد العربية، ونزعت إلى هذا السبق من منطلق عريق، فاليعقوبي يشهد بأن أبناء الرافدين فضلوا الناس في العلم والفهم والأدب، فليس عالم أعلم من عالمهم، ولا راوية أروى من راويتهم ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من نحوهم، ولا أصح من قارئهم، ولا أمهر من متبهمهم، ولا أحق من مغنيهم، ولا أشعر من شاعرهم. اهـ.

وهب أن اليعقوبي دون من كذب الحديث أعذبه، فمما لا ريب فيه أن النحو كوفي وبصري، وفقه الرأي عراقي، وبعث النواصي ورقائنه طيبي الذكر والنظام وجدله، والجاحظ ونوادره، وأحمد ابن حنبل وزهده، وداود وظاهريته، كلها مآثر علمية وأدبية وفنية تضوعت من أجواء الرافدين، فهنيئاً لأبنائها قريحة صافية، وسجية مطاوعة، وفطرة كما تبوح الصبا، وذكرى كما تتنفس الربى، وطبع رقيق أتى، ومحضر طيب وظرافة معشر.

قال حافظ جميل يذكر ماضيهم الخالد:

على عتبات العلم منهم خلائق	وفي حجرات الدين من لهم حشد
تباركت يا بغداد للشعر أيكّة	كأنني بها حتى أفانيها تشدو
على كل فرع رقصة لمهلهل	وفي كل غصن من تهاليله ميد
جلا في مجالها ابن برد عرائسا	من الشعر يكسوه من سندس برد
ونادى بها الطائي رود خائلل	ماقطهن الطل والنمة الرود
إذا نزلت ساح الوليد تبخترت	وفي جيدها من كل نادرة عقد
وإن غشيت ظل الرضي تضوعت	أفاويه طيب من نداوته الند

هنيئاً للرافدين أولئك، وهنيئاً لمصحات النجف والحلة، وبغداد وأصقائها خيولها الجوامح، وفرسانها المصلون والمجلون من أمثال الرصافي والزهاوي، والجواهري، وبلند الجيدري، وحافظ جميل، ومحمد سعيد الحبوبي، وبدر شاكر السياب، وأحمد النحوي، ومحمد رضا النحوي، وهادي النحوي، ومحمد مهدي بحر العلوم، ومحمد زيني البغدادي، وموسى محيي الدين، وعلى زيني،

وعبد[رب] الحسين محيي الدين، وعبد[رب] الحسين شكر، وعبد[رب] الحسين الأعمس،
وعباس الملا علي، وحسين بحر العلوم، وموسى الطالقاني، وإبراهيم الطباطبائي، وجواد الشيبلي،
وصالح التميمي، وعبدالكريم الجزائري، وهادي عباس كاشف الغطاء، ومحمد السماوي،
وعبد[رب] الحسين الحويزي، وملا عباس الزبيدي، وجعفر كمال الدين الحلي، وعبد[رب]
الحسين الجواهري، وخيري الهنداوي، وعبدالرحمن البناء، والكاظمي، ويعقوب الحاج، ومحمد
الخضري، وعلي الشرقي، ومحمد علي اليعقوبي، وعبدالغني الحضري، وحيدر الحلي، وأحمد الصافي
النجفي، ورزوق فرج رزوق، وهلال ناجي، والوائلي، والصغير، والدويب، ومصطفى جمال
الدين، والعيوشي، والفاروقي.

هنيئاً لها من الجنس العطوف من برزن في الخلبة، كنازك الملائكة، وعاتكة الخزرجي، وجيلية
رضا، وليعة عباس عمارة، ومقبولة الحلي، وسلامة حجاوي، وروحية القليني.

ويزيدني حباً لأبناء الرافدين ذلاقة محمد لها لم لغة الضاد، وتعنوها النواظر ساهمة كما تمد
العيس أعناقها مسترخية مترنحة للحنينة الحادي ولحنه (ضاربات ما بين هجر وحجر)، والله أنتم ما
أعذب نبراتكم يا أهل العراق.

ويا ليت بلادي تجود بنبرة كنبرة شيخكم الوديع مصطفى جواد يستعرض لغيات الجواهري
والأزهري، وابن مكرم والخليل في برنامج المأسوف عليه (قل ولا تقل).

أو كنبرة شاعركم مصطفى جمال الدين وهويرجع:

لملم جراحك واعصف أيها الثأر ما بعد عار حزينان لنا عار

أو كنبرة جواهركم وهويرجع:

وما تخاف وما ترجو وقد دلفت سبعون مثل خيول السبق تطرد

أو كنبرة حسين بستانة — رحمه الله — أو كنبرة الوائلي أو كنبرة الصغير، وما أكثر من يزنون المحافل
من مفوهيكم ومغلقكم، ونحن أبناء الشيخ والخزما نحمد الله على الإفلاس الأدبي وطول العمر.

و يقول أبو عبد الرحمن: ولئن أخذتني كمة عن النجف ومناحاتها وحزنها وعويلها، فلا أملك
الأمر في طبع رقيق خشوع تأسر ملكات غير متوجات من جيد المأثور يهب ويحمل فغوه ربح شمالية
من التي قال فيها إسحاق الموصلي:

لم ينزل الناس من سهل ولا جبل	أصفى هواء ولا أعذى من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها	فالبر في طرف والبحر في طرف
وما يزال نسيم من يمانية	يأتيك منها برياً وروضة أنف
كأن تربته منك يفوح به	أو عنبر دافه العطار في صدف

وقد ألف فيها جعفر آل محبوبة كتباً طبع بصيحاء عام ١٣٥٣ هـ وهي المعروفة بالغري التي ألف

علي الخاقاني كتابا في شعرائها .

ولهؤلاء النجفيين عناية بالأدب .

قال إبراهيم العريض في كتيبه الشعر وقصيته :

ففي النجف مثلا لا نستغرب إذا انعقدت مسامراتهم ، فرأينا بعضهم يقترح على الحاضرين بأن
يجيزوا قول القائل :

(ما خاب من أم جوادا فهل ؟)

فينعكف كل في ركنه من المجلس يردد صداها في نفسه ثم يعرضون على المقترح نتيجة ما نظموه
مكتوبا في قصاصة من ورق فإذا هي أتعلمون ماذا ؟ هي اشتراكهم جميعا في التعجيز .

ما خاب من أم جوادا فهل يخيب من أم جواديسن

قال أبو عبد الرحمن : إن التصدير والتعجيز والتأريخ والتخميس والارتجال والمساجلات مما
يتلهون به في مساجدهم وبيوتهم ، واشتهر عندهم تشطير القصائد الطويلة .

وبيوت السمر لم تكن في النجف فحسب ، بل كانت مزدهرة في عواصم العراق ، فبيوت
عبد [رب] الحسين الجواهري ، وملا محمد سعيد الكردي ، وعبد الرحمن النقيب ، يؤمها الزهاوي
والرصافي والحويزي والكاظمي وجعفر الحلي ، وملا عباس الزبيدي ، وخيري الهنداوي ،
وعبد الرحمن البناء في أمسيات هي نعمة الأدب من الله على العراق .

* * *

بين الصافي والجواهري

قال أحمد الصافي النجفي بديوانه التيار يتحدث فيه عن بعوض أطار نومه يغطي عنه رجله
فبصرها من تحت الفطاء:

أُتبقِي النور في عيني بعوض

وتحرم منه عين أبي العلاء؟!

وهذا من سوء الأدب في مخاطبة رب العالمين، وأبو العلاء المعري أعمى، وعماء أحد محبيه،
والنجفي كثيرا ما يحاري أقطاب الشعر العراقي الثلاثة في موضوعاتهم فيحاري الرصافي في
موضوعاته الإنسانية، ويحاري الزهاوي في منكر ونكير وفي شعره الفلسفي ويحاري محمد مهدي
الجواهري في مثل قوله عن أبي العلاء المعري:

سل المقادير هل لا زلت سادرة

أم أنت خجل لما أرهقته نصبا

وهل تعمدت أن أعطيت سائبة

هذا الذي من عظيم مثله سلبا

هذا الضياء الذي يهدي لمكمنه

لصا ويرشد أفعى تنفث العطبا

ولو كانا يريدان حل الأمور على جدياتها لقلنا لهما ما قاله الله عن نفسه سبحانه: لا يسأل عما
يفعل، ولا معقب لحكمه.

مناغاة الجواهري لرهلة

تعلمون أن شاعر العربية الكبير محمد مهدي الجواهري مرشح لإمارة الشعر بعد شوقي وهو لقب مهما كان احتفاء النقد به لا يفرح به الجواهري وقد أخلقه شوقي .

وإن لم يشفع لشوقي كثرة مرذوله ورضى البلاط عنه ، فإن للجواهري دالات كثيرة من وطنية صادقة لولا تطرفه أخيراً ، ومن لغة منتقاة ارتادها من بطون المعاجم ، ومن ثقافة واسعة وشاعرية دافقة ، وبديهة مطاوعة ، وسجية سمحة ، ومعان مولدة ، ونفس طويلة ومقومات كثيرة يستقرها الذوق العربي الخالص من مجموع قصائده .

تعلمون هذا وأعلم أنا أن مقاييس النقد اليوم لم تعد تقنع بعبارات التقريظ هذه دون تأصيل وتقعيد وتمثيل !

لهذا اخترت قصيدة من شعر الجواهري قالها في العقدين الآخرين من عمره ، وأنا زعيم بأن أضع يد الناقد على تلك المقومات تتقراهن بلمس والعذر لأبي عبادة . هذه القصيدة قالها في مغتربه بإحدى الدول الشرقية متشوقاً إلى دجلة واخترتها لما فيها من وطنية صادقة .

ناجى بها دجلة فكثها بثه وتغنى بمحاسنها الطبيعية والتاريخية فذكر ما تعبق به التلاحين من أحاديث ألف ليلة وليلة التي هي وحي ما في بغداد في أزهى عصورها .

وذكر مستحم النؤاسي الغاسل الهم في ثغروفي حبيب والمنفق اليوم يفدى بالثلاثين منتشرة على الضفاف !

وتغنى يوماً عصوفاً جارفاً عرها يرد الحق إلى نصابه وتغنى بالشعر:

كهدير الحمام ما بين ترخيم وتلحين !

وذكر وفاء لوطنه ومناغاته حتى ضفادع دجلة مكسوة من الطحالب مزهو الفسائين .

وذكر شقاوته في مغتربه لأن آلام وطنه أشقته ، وذكر الساترين عري سواتهم بشتمه وعرج على الأعداء ينبزهم بواخز من القول وإليك هذه الرائعة على مقاطع :

حييت سفحك من بعد فحيني يا دجلة الخيرا أم البساتين

حييت سفحك ظمآننا ألود به
يا دجلة الخير يا نبعا أفارقه
إنني وردت عيون الماء صافية
وأنت يا قاربا تلوي الرياح به
وددت ذلك الشراع الرخص لو كفني
يا دجلة الخير قد هانت مطاعنا
أتضمنين مقيلا لي سواسية
خلوا من الهم إلا هم خافقة
تهزني فأجاريها فتدفعني
لوذ الحمام بين الماء والطين
على الكراهة بين الحين والحين
نبعا فنبعا فما كانت لترويني
لي النسائم أطراف الأفانين
يحاك منه غداة البين يطويني
حتى لأدنى طماح غير مضمون
بين الحشائش أوبين الرياحين
بين الجوانح أعنيها وتعنيني
كالريح تعجل في دفع الطواحين

ولا تعجلن بالنقد، فتطالب الشاعر بطرفي التسوية، لأن سواسية هنا بمعنى سواء المقضية عدم
التفريق بين متغيرين وليست بمعنى معا: أي سواء أكان ذلك المقيلا بين الحشائش أم بين الرياحين
وفي قوله:

يا دجلة الخير يا نبعا أفارقه
إشارة إلى تغرباته عن مسقط رأسه ومعق تمانه، فقد غادرها عام ١٩٤٩م إلى فرنسا
وعام ١٩٥٠م إلى مصر وعام ١٩٥٦ إلى سوريا وعام ١٩٦٠ إلى إحدى الدول الشرقية وظل
هناك سبع سنوات.

يا سكتة الموت يا إعصار زوبعة
يا خنجر الغدريا أغصان زيتون
ولك أن تتصور الجديد في قوله:

يا سكتة الموت يا إعصار.. إلخ فأي حال لو نضبت دجلة؟
وأي حال لو فاقت مياهها على غرة؟

يا أم تلك التي من ألف ليلتها
يا مستحم النؤاسي الذي لبت
الغاسل الهم في ثغروفي حبيب
فالحسن بن هانيء بحبه وفنه ونغمه مفخرة من مفاخر دجلة التاريخية، وقف عند قوله:

الغاسل الهم في ثغروفي حبيب
فأي ثوب قشيب اكتناه الحديث المعتاد عن حب النؤاسي وفنه، وأحال أن المحسنات المعنوية
مما أشاح عنه النقد الحديث، ولكنها على أي حال من الأوجه الجمالية في العمل الأدبي.
فقول الجواهري:

والراهن السابري الحزفي قدح
واللهم الفن من لهو أفانين

يوحى بأن أبا نواس رهن درعه في قدح من الجريال ، وليس هذا مقصودا ، فأبونواس ليس من فرسان الدروع ولا يحزنون .

بل المعنى أن أبا نواس يحبس السابري ، وهو أحد أنواع التمور في قدح حتى يكون حامضا أي خزا فيكون جريالا .

وتأمل قوله : اللهم الفن من لهو أفانين :

مفتاح معناه أن نقول : اللهم الفن أفانين من اللهو ، والمخرج من كسر النون في أفانين إما حمله على ضرورة الشعر وإما على لغة من لغات العرب :

يا دجلة الخير ما يغليك من حنق	يا دجلة الخير ما يغليك من حنق
ووالغات خيول البغي مصبحة	ووالغات خيول البغي مصبحة
يا دجلة الخير أدري بالذي طففت	يا دجلة الخير أدري بالذي طففت
أدري على أي قيثار قد انفجرت	أدري على أي قيثار قد انفجرت
تهزين من خصب جنات مثرة	تهزين من خصب جنات مثرة
تهزين من عتقاء يوم ملحمة	تهزين من عتقاء يوم ملحمة
الضارعين لأقذار تحمل بهم	الضارعين لأقذار تحمل بهم
يرون سود الرزايا في حقيقتها	يرون سود الرزايا في حقيقتها
والخائفين اجتداع الفقر ما لهم	والخائفين اجتداع الفقر ما لهم
واللائذين بدعوى الصبر مجبة	واللائذين بدعوى الصبر مجبة
والصبر ما انفك مرداة لمحترب	والصبر ما انفك مرداة لمحترب
يا دجلة الخير والدينا مفارقة	يا دجلة الخير والدينا مفارقة
وأي خير بلا شر يلحقه	وأي خير بلا شر يلحقه
يا دجلة الخير كم من كنز موهبة	يا دجلة الخير كم من كنز موهبة
لعل تلك العفاريث التي احتجزت	لعل تلك العفاريث التي احتجزت
لعل يوما عصوفا جارفا عرها	لعل يوما عصوفا جارفا عرها
يا دجلة الخير إن الشعر هدهدة	يا دجلة الخير إن الشعر هدهدة
عفوا يردد في رفه وفي علل	عفوا يردد في رفه وفي علل
يا دجلة الخير كان الشعر مذرسمت	يا دجلة الخير كان الشعر مذرسمت
مزمار داود أقبوى من نبوته	مزمار داود أقبوى من نبوته

فحوى وأبلغ منها في التضامين (٣٧)

(٣٧) هذا افتراء على دين الله وغيبه ، وهو من أوجه العلمانية في الأدب الحديث .

يا دجلة الخير لم تصحب لمسكنة
هذي الخلائق أسفار مجدة
إذا دجا الخطب شعت في ضمائرهم
دين لزّام ومحمود بنعمته
يا دجلة الخير ما أبقيت جازية
ما كنت في مشهد يعنيك متهما
وكان جرحك إلهامي مشاركة
وكان ساحك من ساحي إذا نزلت
حتى الضفادع في سفحك سارية
غازلتهم خليعات وإن لبت
يا دجلة الخير هلا بعض عارفة
يا دجلة الخير منيني بعاطفة
يا دجلة الخير خلي الموج مرتفعا
وحليه بحيث الثلج يغمري

وأنت تعرف أن النخاسين ينفعون سياطهم في الماء لتلين فلا تنبوع عن ظهور مملوكيهم فيستحي
من هذا المعنى ما عبر عنه بقوله :

ما إن تزال سياط البغي ناقعة في مائك الطهريين الحين والحين
أما المقابلة بين الأنغام السمر وأنات المحزون ، فلأن النغم لا يعذب إلا على السمر بحكم ذوقه
العراقي ، روى لي صديق كريم هذين البيتين الشعبيين :

ول ول يا الأبيض كنك وغف صابون
وش محلا الأسمر وأبذتي العيون

(و) كنك : كأنك ، وغف : رغبة . وش محلا : ما أحلا . وأبذتي : وبهذه) .

وبيتا الشعر :

واللائذين بدعوى الصبر مجبنة مستعصمين بجبل منه موهون
والصبر ما انفك مرداة لمحترب ومستميت ومنجاة لمكين
يذكرنا بيت أبي الطيب :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللام
والدلفين دابة بحرية وتأمل :

مزمار داود أقوى من نبوته فحوى وأبلغ منها في التضام

وهو تضمنين جيد، ولكن لا قيمة له إذا امتحنت الحقيقة العلمية وكان جمال الفن على حساب العقيدة، فهذا نوع من العلمانية. وقد قيل: إن أعذب الشعر أكذبه.
وأخال أن هذا المعنى طري:

هذي الخلائق أسفار مجسدة الملهمون عليها كالعناوين
ولا يعترض معترض بكثرة ما قيل من الشعر في ندرة الملهمين، فهذا معنى مطروق بلا ريب،
ولكن الجديد تأليف المعنى من أسفار وعناوين وفي ملاحظة الوضوح في العنوان.
ولا تستغربن قوله خليصا فهي قاموسية آتية على القاعدة من تخلص وصيغة المبالغة من هذا الفعل
على وزن فعيل، أما خلوص فتأتي من خلص، فخليص مبالغة في التخلص أي الرجل المتخلص،
والخلوص مبالغة في الشيء الخالص، وفرق بين هذا وذاك لفظا ومعنى.
أقروه و يقروني: أتبعه و يتبعني وفي قوله:

حتى الضفادع في سفحيك ساربة عاطيتها فائنات حب مفتون
غازلتهم خليعات وإن لبست من الطحالب مزهوا الفاتين
وطنية صادقة متناهية ومفتاح البيت هكذا:

حتى الضفادع — وهن ساربات فائنات — عاطيتها حب مفتون.

من شعر علي الشرقي

أبوه جعفر الشرقي شاعر نجفي، وأمّه نجمة محمد الجواهري، وكان بيت والد الجواهري عبد[رب] الحسين منتدى يحضره جواد الشبيبي، وباقر الهندي، وجعفر الحلي، والجواهري، والشرقي.

وهكذا كانت بيوت الوجهاء في العراق يحضرها الرصافي والزهاوي، ويعمران المجالس بالنقائض والروائع، فيتلقفها السمار في المقاهي والبيوت فالصحف، ثم يدوي صداها في صحف سوريا ومصر، فكانت العراق تربة خصبة لروائع الشعر والنثر حتى انتزعت في الأخير زعامة الشعر من مصر، وباهت بفضاحل لهم شهرة عالمية من أمثال: محمد الجواهري، وأحمد الصافي، وليعة، ونازك، وعاتكة، والسياب، والبياتي، والحبوبي، وحافظ جيل، وبلند الحيدري.

وكان للنجف نصيب الأسد، فكانت ماجدهم ومجالهم منتديات تطرح بها الأراجيز والتخميمات والإجازات والمعارضات والمساجلات.

ولا تنس نبرة العراقي وذلاقتة ومن منا لا يرقصه إلقاء حسين بستانة رحمه الله أو مصطفى جمال الدين أو الجواهري أو الوائلي.

ولهؤلاء الشيعة بالنجف قوامه صالحة على الأدب بما ينشرونه من روائع، وبما يقيمونه من أسواق وجمعيات ومحافل.

ولم يحظ الشرقي بشهرة زملائه النجفيين مع أنه صاحب مدرسة هناك ومن شواذ القواعد أن له عروسة ماتت ليلة الزفاف فأسرجت الشموع المعدة لزفافها في تشييعها إلى القبر وكان ذلك سنة ١٩٢١ فقال في ذلك قصيدة مطلعها:

شمعة العرس ما أجدت التآسي

إلا أنها متبلدة الإحساس ميتة الشعور تشي بعدم فداحة الخطب في نفسه.

وفي قصيدته (قفص الليل) و(أوهام) مثل هذه اللمحة:

نحن صدنا العنقاء في الزوراء

وبينا باريس في حضر موت

ومن حسناته الفنية قوله في قصيدة (طيور الخريف) :

الليل في بغداد ظل سجج
ركدت هواجسه ونمن همومه
والورد قبله الصباح ففضه
غيران تقعده الصبا وتقيمه

إن الورود الكبيرة نهيأت لمعانقة الصباح وقد بقيت صفارها الفضة تهزها ريح الصبا هزا فترته
مخيلة الشرقي الخلوب بالغيرة، وكأنها تحاول النهوض لتقبل الصباح، ولنلاحظ أن غيران ترادفها
غيور وغيرى كما في المعاجم، ونمن همومه على لغة أكلوني البراغيث.
ولها شاهد من قوله تعالى: (وأسروا النجوى الذين ظلموا) [سورة الأنبياء/ ٣] وقوله صلى الله
عليه وسلم: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار.

وتأمل هذه المغازلة بين الأقحوانة والشقيقات، وهي من حسنات ريح الصبا:
ذابت بشفر الأقحوانة قبلة
بغم الشقيق يرومها وترومها

ولا تستغرب قولنا: إن هذا الوصال من حسنات الصبا، فقد قال الزمخشري في كشافه: إن ريح
الصبا هي التي تبلغ الأنباء للأنبياء.

وقال الواحدي: هي التي أرسلت ريح يوسف إلى يعقوب عليهما السلام.
وقال محمد الموسوي في رحلة الشتاء والصيف: وبذلك نجد العشاق يستخدمونها في حمل
السلام.

ولا يخلو شعر الشرقي من غضة وطنية كقوله:

وسمت أرضنا السماء ولكن
وسم القوم أرضنا وسمانا
إن هذا الضباب بث ونفث
وزفير وحسرة من ثرائنا
وكان الوسمي قد بخ نيراننا
لأوطاننا فمادت دخاننا
ولا تقولوا السماء قد أمطرنا
إنها قد بكّت علينا حنانا

ومن حسناته أيضا قوله في أحدهم:

انظـــــر إلى سبـــــحه

تـرى الذى أقول لك
شيطانـه كخـيـطـها
بين الشـقـوب قد سلك
يـا ذرة من نفـخـنا
قد ارتقت إلى الفلك
ما اسودت البـحـة إلا
لـتـرىـنا عـمـلـك
واليك أخيراً رأي الشرقى في الشعر:
خذ الشعر من عفو القريحة إنه
إفاضات وحي لا اعتصار وتقطير

أنسودة الجمال لبودلير

قد يقترن السرور بالجمال ، ولكنه زينة رخيصة له (٣٨) بيد أن الشقاء والخفاء والهالة من أهم عناصره .

والخفاء فيه : أن يتساءل بودلير في أنسودة الجمال — بتعريب زينة الأدب الحديث وأريج الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي ، برد الله مضجعه —: أجاها الجمال من أعماق السماء فتلك عظمتها وقديسيتها ، أم انبعث من الهاوية فتلك مخاوفه بما فيها من شقاء وحرمان .

إذن لقد يجيء من حفرة سوداء وقد يهبط من النجوم وبهذين الوجهين كان في مقتلتي الغروب والفجر معا ، فترى حظوظ العاشقين البائسة تتعلق بأذياله ، وهو على هواه غير ملتفت إلى ذل من يتعلق بأذياله يوزع المرات والكوارث .

ولا عاطفة أحر من عاطفة بودلير إذ يمثل له صرعى الجمال ، فيبدو له أنه يمشي على رفات الأموات .

وإذا كان في قاموس بودلير أن الحب شمس حمراء ففي معانيه أن الملهوف كعاشقة النور تحترق ولسان حالها يقول : بارك الله في الله !!

وحقي عليك أن تقرأ هذه الرائعة بتعريب الدكتور ناجي ، وتحيل طرفك أكثر من مرة ، وسيدو لك في كل قراءة جديد ، وسترى تحت خيوط الرمز الخفيفة شيئا يفسده الشرح ، قال شارل بودلير :

أيها الجمال : أجنحت من أعماق السماء أم صعدت من هاوية ، في مقتلتيك جحيم و.... ، يخلطان الخير بالإثم خلطا مبهما ، ولهذا يكون فعلهما فعل السلاف في مقتلتيك الغروب والفجر معا ، وإنك لتسكب العطر كمساء ممطر ، وشفثاك شراب سحري .

وفمك قنينة يبعثان الشجاع جباناً والطفل شجاعاً .

أجنحت من حفرة سوداء أم هبطت من النجوم .

إن القدر المحظوظ يتبع أذيالك ككلب ذليل .

(٣٨) أزهار الشر ص ٣١ .

وأنت تبذر على هواك المرات والكوارث .
أنت تحكم كل شيء ولست مسؤولاً عن شيء .
وأنت أيها الجمال تطأ الموتى ساخراً منهم .
والرهب ليس أقل جواهر كفتنة .
والقتل بين حلاك الثمينة يرقص على صدرك المتكبر بشغف .
تطير الفراشة المفتونة نحوك كما تطير نحو الشمعة .
فتحترق وهي تقول : بارك الله في اللهب .. وأما العاشق فهو إذ يلهث على صدر جميلته فهو إنما
يشبه ميتاً يشاغب قبره .
وماذا يهمهم أيها الجمال العملاق المخيف الساذج ؟!
ماذا يهمهم مادامت عينك وقدمك وابتسامتك ؟!
مادامت أيتها الحورية ذات العينين الناعمتين كالمخمل تجملين العالم أقل مشقة والأيام أخف
عبثاً !
يا لحنى ، يا عطري ، يا مليكتي الوحيدة . اهـ .
وانك إن تعرف علاقة القبر بالجمال فإنما تكشف عن معنى جديد في قاموس الرمزيين و بودلير
زعيمهم .
أما تشبيه عطر الجمال بالماء المطر فتلمسه إذا نعمت بأمية ترفض فيها دموع السماء لتعلم
أي متضوع مع ذائب الطل وصمت الأفق .

إبراهيم ناجي والمحب العائر

مقطع من ملحمة الأطلال للدكتور الشاعر إبراهيم ناجي رحمه الله شاهد لأعذب نغمة، ومثال لإخلاص الدكتور لفنه، وأتمودج لحبه العائر الذي كان فيه إماما وفيه آمال محبين كالخيال، ومتعة حب فيها كل البراءة: ضحك طفولة، ومسابقة للظل، وتعاقد في مقمر تشقه فرحة تشب، ولا غرو فالوئية ظاهرة مرح وخفة ونشاط، فكل شيء يشب في ذلك الطريق المقمر المتضوع بنفحات النسيب. ولقد أوحى إليّ ذلك المقطع في وثبة من وثبات الفرحة أن أقتضب حديثا عن سكرة ناجي في حبه العائر.

كان عالما، وكان فنانا، كان طبييا بالتكسب، وكان فنانا ملهما بالطبع.

قال: شاء الله أن أكون طبييا، وليس بالطب من حرج، وإنما الحرج أن تكون طبيعة الإنسان أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر حيث ينصت إلى أنات الجسد.

وإبراهيم ناجي متعمق في دراسة علم النفس، وله في ذلك أبحاث، ولهذا رأى عبدالسميع المصري: أن ناجيا ما تعمق في دراسة علم النفس إلا باحثا وراء طريق يريجه من حيرته بين علمه الاكتسابي وفنه الإلهامي.

وهذا يرفضه أبو عبدالرحمن وإن كان عبدالسميع رأى إبراهيم وحادثه وعلم عنه الكثير، فما عرفت ولا عرف غيري قط: أن العلم والفن داعية حيرة وانقسام في خوالج النفس، وإنما وجد علماء أخلصوا لفنهم وآخرون ثقلت أرواحهم فأخلصوا لعلمهم.

وبالحب العائر أعنوا لمذهب إبراهيم ناجي في الحب البائس الحزين الذي يصور في شعره نفسا مضطربة قلقا، وعاشقا يخفق دائما في حبه، ولا أشرط أن يكون ناجي هو ذلك العاشق المخفق البائس لأن لي مذهبا لا يهمني أن ينشق عن إجماع النقاد، وهو أن الشعر العاطفي ما أثار عواطف الآخرين وتحكم في اختيارهم، فحرك شجونهم واستثار كوامنهم سواء أصحت تجربة الشاعر أم كانت زائفة؟

وما خلد كثير من شعر المناسبات والمديح إلا لأنه لامس عواطف الآخرين، وهو رأي لا أعجز عن تعزيزه في أي مكان وآن.

وأعلل هذه النزعة عند ناجي بأمرين :
أولهما : أن ناجيا عضو في جماعة (أبولو) التي كان من مناحيها التغني بالحرمان، ولقد كان ناجي
كما يقول أكثر الدارسين أشد تأثيرا في الشباب من المؤسس الدكتور أحمد زكي أبوشادي ،
وكان قبل هذا وثيق الصلة بالمدرسة الفرنسية التي تقدس (إخفاق الحب) وتغني
بـ(الحب اليائس).

وثانيهما : أنه عاش في بيئة ضاحكة مشرقة تزهدها فيها الموسيقى وتمتد حياة الليل على طول المقاهي
زاخرة بأسباب رخية سخية بين فن ورقة ووجوه شاعرية .. هكذا قال صديقه صالح
جودت وفي ظن أبي عبد الرحمن : أن تيسر النظرة وتعسر ما وراء النظرة هو ينبوع الإلهام
بالحب اليائس الحزين .

فلعل الدكتور الشاعر عانى شيئا من ذلك في هذا المجتمع الرخي السخي .
وإن صح أنه لم يعان ذلك فمما لا شك فيه أنه في هذا المضمار قوي التأثير كما ترى في ملحمة
الأطلال ، وفي الأطلال ، والسراب ، ورسائل محترقة ، والطائر الجريح ، وصخرة الملتقى ، وغيرها .
وما يضير إبراهيم أنه لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة ولا أن يرتفع في الجوارتفاعا بعيد
المدى — كما يقول الدكتور طه حسين — فما يحق لنا أن نظيره عن روضته بأريجها وفنوها ، فما فوق
مداه إلا لفح الهجير والسموم والجفاف والخفوف .
ومن مفارقات الله الدقيقة أن للغربان أجواء تحلق فيها غير الأجواء التي ترنق فيها الحمام ، وغير
الأفانين التي تشدو عليها البلابل ، وفي أجواء السموم والخفوف تنعق الغربان وعلى الرياض ترنق
الحمام مسبعة والبلابل شادية ، وما خلق إبراهيم ناجي إلا ليسبح ويشدو على أغصانه الرطبة
اللينة الهيئة القصيرة .
والحب العائر اليائس القلق الحزين ظاهرة لمحتها في كثير من أشعار ناجي ، ومنها قصيدته
(صخرة الملتقى) :

سألتك يا صخرة الملتقى	متى يجمع الدهر ما فرقا
فيا صخرة جمعت مهجتين	أفاء إلى حسنهما التلقى
إذا الدهر لج بأقداره	أجدا على ظهرها الوثقا
قرأنا عليك كتاب الحياة	وفض الهوى سرها الغلقا
نرى الشمس ذائبة في العباب	وننتظر البدر في المرتقى

وفي قصيدة (الطائر الجريح) يقول عن ليلاه (زازا) :

رأت وراء الصدر طيرا قلقا مضطربا

فيلقى القضا	في قفص يحلم بالأفق (م)
حائرا معذبا	إنني امرؤ عشت زماني (م)
موارد أن أشربا	وظامنا مهما تتج
دنياي يشفي الغبا	وجائعا لا زاد في
على الجمال والصبأ	فراشة حائمة
أغنية على الربي	تعرضت فاحترقت
رمادها ربح الصبا	تناثرت وبعثرت
في الريح متعبا	أمشي بمصباحي وحيدا (م)
كاد به أن ينضبا	أمشي به وزيتته

و يقول في قصيدته (الانتظار) :

وبالحرمان والذل ارتضينا	لعينيك احتملنا ما احتملنا
وأين خيالك ... أين؟	وهان إذا أعطففت ولوخيالا
وهومت المنازل بعد وهن	تعال فلم يعد في الحي سار
وقد كانت تطل كألغ عين	وران على نوافذها ظلام
كما انتظرتك أيامي جميعا	ومنظر بابصاري وسمعي
شتائي فيه ينتظر الربيعا	وهل كان الهوى إلا انتظارا

وناجي في حبه اليأس بين أمل ضائع وماض حزين :

بين حب طغى وجرح تمرد	أمل ضائع ولب مشرد
وشجاء وغردت حين غرد	قاسمتني الورقاء أحزان قلبي
يتيم الدموع واللحن مفرد	ثم ولت والقلب كالوتر السامي (م)
وانتهائي في صورة تتجدد	ما بقائي أرى اطراد فنائي

ومن الحب العاثر قوله :

قدرا كالسوت أوفي طعمه	يا غراما كان مني في دمي
وقضينا العمر في مأتمه	ما قضينا ساعة في عرسه
واغتصابي بمة من فمه	ما انتزاعي دمة من عينه
أين يمضي هارب من دمه؟	ليت شعري أين منه مهربي

ولكن الروعة والسبق الفني في قصيدة (رسائل محترقة) يحكي فيها قصة يأسه في ليلة مظلمة شاتية يرى فيها رزمة من رسائل ليله استحال لونها إلى زرقه رمادية ، فحلف لا ذاقته عينه شهى منامها حتى يحرقها لينساها وينسى شبابه وقد حكى شيخنا ابن حزم أحاديث من السلوك هذا

اللون. أحرقها ناجي وهو يقول:

أحرقتها ورميت قلبي في صميم ضرامها
وبكى الرماد الآدمي على رماد غرامها
وما كان ناجي رماداً آدمياً إلا لشيخوخته وهرمه ، وما كان غرامها رماداً إلا لأنها تصرمت
جذوته في قلبه سلوا بعد يأس .

وقد قال النقاد المتهكمين إبراهيم العريض: (فالضباية الذاتية إن هي إلا مقدمة الموت
البطيء) .. وإليك القصة بلسان الدكتور إبراهيم ناجي:

ذوت الصباية وانطوت	وفرغت من آلامها
لكنني ألقى المنايا (م)	من بقايا جامها
عادت لقلبي الذكريات (م)	بحثدها وزحامها
في ليلة نكراء أرقني (م)	طويل ظلامها
نامت رسائل حبها	كالطفل في أحلامها
زرقاء صيرها البلى	كحباية بغمامها
فحلفت لا رقدت ولا	ذاقت شهى منامها
أشعلت فيها النار ترى (م)	في عزيز حطامها
تفتال قصة حبنا	من بدئها لختامها
أحرقتها ورميت قلبي (م)	في صميم ضرامها
وبكى الرماد الآدمي	على رماد غرامها

عودة ناجي

العودة من أحلى قصائد الدكتور إبراهيم ناجي وأجلها، بيد أنها خروج على عروض الخليل قد تسميه تجديداً، ولكنني أسميه كسلا وثاقلاً عن العزعة استمد من التجديد حجته الواهية، والأذن الموسيقية تأباه وترفضه.

أما لو لحنت للغناء فقد تكون لها دندنة خاصة تريح من رتابة الوزن الواحد ولكنها تخالف المنهج العربي الذي استنبطه الخليل لأنها تحدث تنافراً وتباعداً في التناغم أسوأ من الرتابة، وقد حرص العرب على الوزن الواحد في القصيدة، واستعانوا على الرتابة بمباح الزحاف.

ولم يضق منهجهم عن تنوع القافية، ولا ريب أن تنوعها يعين على الرتابة.

أما الخلط بين البحور في قصيدة واحدة كما في مواكب جيران أو بين أنواع الأعاريض والأضرب فأمر يهرب منه الذوق العربي.

ومخالفات الدكتور ناجي ثم أن قصيدته من تام الرمل، وقد استعمل العروض تامة في البيت الأول إلى البيت الحادي عشر، وفي البيت السابع عشر والثاني عشر، وفي الحادي والعشرين والثاني والعشرين، وفي الخامس والعشرين والسادس والعشرين، والمعروف أن عروض الرمل في التام واحدة وهي العروض المحذوفة فتصير (فاعلاتن) فاعلن، والحذف علة نقص جارية مجرى الزحاف ولكنها لازمة في الرمل بالذات، فلا يجوز استعمال تام الرمل إلا محذوف العروض لا يستثنى سوى التصريح في البيت الأول، وقد سبق الدكتور إلى هذه البدعة أبو الطيب المتنبي في قوله:

إنما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

قال الثعالبي: عيب عليه لأنه أخرج الرمل على (فاعلاتن) وأجرى جميع القصيدة على ذلك في الأبيات غير المصرفة، وإنما جاء الشعر على (فاعلن) وإن كان أصله في الدائرة (فاعلاتن) (٣٩).

ومن تلك المخالفات أن القصير علة نقص واجبة، ولم يلاحظ الدكتور وجوبها فأجراها مجرى الزحاف، ومنها أن لعروض الرمل في التام أضرباً مختلفة وقد جمعها في هذه القصيدة، فكان يتخذ

لكل قافية ضربا ، وفي هذا فجاجة ، وثمة مؤاخذه في قوله :

أيها الوكر إذا طار الأليف لا يرى الآخر معنى للهناء
و يرى الأيام صفرا كالخريف نائحات كريح الصحراء
فلإقامة الوزن نضطر إلى تحريك الحاء في الصحراء ليصير الضرب على وزن (فعلات) فيجتمع
خبن وقصر ، والضرورة قبيحة جدا .

وثمة مؤاخذه في تعدية (طاف) مباشرة حيث قال (هذه الكعبة كنا طائفوها) والصواب لغة
الطائفين بها ، لأن طاف لا تتعدى مباشرة وقد تأكدت من هذا بتتبع الاستعمال في المعجمات .

جـ القصيدة :

هي بكاء دار الحبيب ، وبكاء الديار ليس غريبا في موضوعات شعرنا العربي ، فقد ألف مجد
الدولة الأمير أسامة بن مقذ كتابا ضخما في المنازل والديار شحنته بالقصائد العربية الواردة في هذا
الغرض ، بيد أن قصيدة ناجي تتميز بأنها تعبير نفسي بالصور عن طريق الإيحاء الرمزي والتصوير
البياضي ، وتلك حسنة جديدة في الشعر الحديث وإن كانت لها أصول غير مكتملة في أدبنا
القديم (٤٠) .

وقصة القصيدة :

أن ناجيا عاد إلى دار ملهمته فوجدها قد تغيرت حالتها فناجها بهذا الكثر النفسي ، و يؤكد
محققو الديوان أن لهذه الدار ذكرى واقعية صحيحة ، ودار ملهمته معروفة بشارع قصر العيني في
القاهرة .

استفتحتها في المقطوعة الأولى بمعنى وثني مألوف بين الرومانتيكيين في الغرب ، وأصل هذا
المعنى الوثني أن الرومانتيكيين يرون في الحب قداسة وأنه إيحاء سماوي .

قال أبو عبد الرحمن : هذا المعنى ذكرني بكلمة للدكاترة زكي مبارك يقول فيها (ونحن والله أرق
أكبادا من أن نرمي عشاق الجمال القاهر بالفسق والفجور ، فهم قوم مساكين منحهم الله عيوننا ننظر
وقلوبنا نشعر وأكباداً تتوجع وأحشاء تتفتت وقال لهم كونوا شعراء فكانوا ، وهو سبحانه يقول للشيء
كن فيكون ، فكيف بالإنسان الذي تغنيه الإشارة وتكفيه اللمحة ، إنه يفهم جيد الفهم أن الجمال
خلق ليعشق فليس بعيداً أن يسرف — بالبناء للمجهول — فيعبد الجمال من دون الله) (٤١) .

(٤٠) في فن الشعر لندور ص ٤٣ نماذج لهذه الأصول .

(٤١) ذكريات باريس ١٩ .

قال أبو عبد الرحمن: لو كان هذا مجال جدل لقلنا: ثمة أمران أحدهما ليس بيد الإنسان وهو جذوة الحب المتأججة.

يقول شيخنا أبو محمد بن حزم برد الله مضجعه:

وهل منعه في محكم الذكر ثابت	متى جاء تحريم الهوى عن محمد
مجئى يوم البعث والوجه باهت	إذا لم أواقع محرما أتقي به
سواء لعصري جاهر أو مخافت	فلست أبالي في الهوى قول لائم
وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت	وهل يلزم الإنسان إلا اختياره

وثانيهما عفة وتقوى وتوق لأسباب الحب، وقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: لك الأولى وليست لك الثانية.

وإذن نقول لهؤلاء اللاعين: ليس بيدكم ألا تحبوا ولكن بيدكم أن تعفوا وتتقوا، والمهم في كلام الدكتور قوله (فليس بعيدا أن يسرف فيعبد الجمال من دون الله) فترى الإسراف في الحب أصل هذا المعنى الوثني، وهذا صحيح فمن معاني الألوهية في ديننا الخفيف أن نحب الله، ونحب ما يحبه الله، ونحب في الله والله ونتخلص من كل الأعراض لنخلص لحب الله، وقد كان لحب الله معنى مجسم في فلسفتنا الإسلامية ولا أعني بهذا المعنى انحراف ابن عربي وأضرابه، وإنما أعني به فلسفة ابن قيم الجوزية وغيره من علماء السلف لمعنى حب الله والتفاني فيه وأنه يعني العبادة الخالصة، فمن أحب الله انقاد له، وإذن فهذا المعنى الوثني في شعر ناجي سريع الفهم.

وفي المقطوعة الثانية يفسر معنى الغربة التي أشار إليها في المقطوعة الأولى لأن هذا الطلل الصامت لم يري في ناجي أكثر من شيء جديد طارىء ككل ما طرأ عليه من تعاور الدهر، ولم يدرك أن له فيه أحلاما وحبا فاشلا لا يضحك له النور من بعيد في زمان مضى وانقضى ولم تشب صورته، وفي المقطوعة الثالثة تبدأ عملية الإرسال النفسي معبرا بهذه الصورة:

ورفرف القلب بجنبتي كالذبيح	وأنا أهتف يا قلب اتشد
فيجيب الدمع والماضي الجريح	لم عدنا؟ ليت أنا لم نعد
لم عدنا أولم نطو الغرام	وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام	وانتهينا لفسراغ كالعدم

قال أبو عبد الرحمن: لا بد من الحنين والألم وإن بعدت الذكريات وما كان الرضا فراغا كالعدم إلا تسليمًا للأمر الواقع، ومن هذا شأنه فعينه لا تطرف وإن سلا، فأدنى ذكرى تؤجج الأحلام اليائسة، يقول الدكتور:

أيها الوكر إذا طار الأليف	لا يرى الآخر معنى للهناء
و يرى الأيام صفرا كالخريف	نائحات كرياح الصحراء

وما هذا إلا من باب تسويغ الرضا بالأمر الواقع لأنه سيستلهم من هذا الوكر ذكريات ترقص
نعيمه المعبذب فأول إرسال نفسي لهذا الاستلهم قوله :

آه مما صنع الدهر بنا أو هذا الطلل العابس أنا
والخيال المطرق الرأس أنا شد ما بتنا على الضنك وبنا
وفي هذا تعبير بالصورة أيضاً ، فناجي يقف بعد حلم يائس أمام طلل عابس أفلا يكون حلمه
خيالاً؟!!

بل أفلا يكون هو الخيال المحض؟!!

هو يرى الوكر خالياً ، وفي عملية الإرسال النفسي تتجدد المعنويات فيلمسها ناجي بحسه لأنه
يرى البلى الجاثم والسأم في بهوداره رأي العيان كنسج العنكبوت ، وتعجب ناجي من البلى المتجدد
يبدو في مكان ذكريات حب لا تموت . يقول الدكتور:

وأنا أسمع أقدام الزمن وخطى الوحدة فوق الدرج

فهذا تعبير رمزي يشبه قول (ادجار الن بو) : إنني أسمع قدوم الليل .

وهذا التعبير الرمزي الهامس يوحي بأصداء الوعي الباطن ، و يتمثل الحرمان بأبعد دلالاته في
قول الدكتور:

وطنني أنت ولكني طريد أبدي النفي في عالم بؤسي
فإذا عدت فللنجم أعود ثم أمضي بعدما أفرغ كأسي

قال أبو عبد الرحمن : إنك ترى في البيان العربي تشبيه شيء بشيء لعلاقة شكلية يحصيها
البلاغيون في كتبهم ، أما المعبرون بالصورة على نهج الرمزيين — من أمثال ناجي في العودة —
فيلتمسون العلاقة من حالة وجدانية ، فقد تقول : ما علاقة الجسم ذي القدم بالزمن ، وهو معنوي مع
أن الناس ضحكوا من شاعر قال : إن صوت المال يح ، وقال للدهر قوم من أخدعك؟

وجوابي أن العلاقة حالة نفسية يختزنها الوعي الباطن فتمثل له ذكريات الزمن المنصرم ذات
وقع فيحسها بأذنه .

يقول الدكتور محمد غنيمي هلال عن هذه الحسنة الرمزية التي أصبحت عقدة عند ذوي الجفاء
والجفاف : (وبتراسل الحواس يتحول العالم الخارجي إلى مفهومات نفسية فكرية و يتجرد من
بعض خواصه المعهودة ليصير فكراً أو شعوراً^(١٢)) كما أن العودة أتمودج طيب للإيجاء الذي يمنح إليه
الرمزيون كقول الدكتور:

أين ناديدك؟ وأين السمر؟ أين أهلوك بساطاً وندامى؟

(١٢) الأدب القارئ ص ٤٠٠ .

فهذا التساؤل اتخذ الشعراء تقليدا ولكنه في لغة ناجي إيجاء بالعودة ، ونجد تفصيل هذا الإيجاء في النقد الأدبي (١٣) وتلخيص تعبيرات الرمزية فيها تجده في كتاب جماعة أبوللو (١٤).

قال أبوعبد الرحمن : تصدى لهذا البلبل الصداح الملهم عظيمان من عظماء القلم .

أحدهما : طه حسين وكان نقده لا يتفق ومنهجه ، ولم يقم على أسس صحيحة .

وثانيهما : عباس محمود العقاد وهو صاحب عقلية علمية ، ولكن يا ويح الموهبة والإلهام إذا لوثتهما منتقرات العلوم الجافة ، وكان في نقد العقاد خشونة وجفاء طبع ، ومهما كان جلد العقاد على قراءة الكتب الغربية وتطبيق المقاييس النفسية في دراساته التاريخية وقراءته لآراء المفكرين في القرن العشرين فحظه من الموهبة الفنية نزر ، وناجي يتكلم بلغة الأحلام والعاطفة ، وأسمح من ذلك أن العقاد اتهم ناجيا بأنه يسرق أشعاره من العقاد نفسه . قال أبوعبد الرحمن : ناجي يقول عن استرسال طبع ولم يكن العقاد في عينه غزالا .

* * *

(١٣) للدكتور محمد غنيمي هلال ص ٤٧٨ .

(١٤) للدسوقي ص ٤٢٩ .

إذا كان الانفعال مضماراً فلا تنسوا اللجام

تعريف الانفعال — بأدنى تجربة عادية للفرد العادي — أنه :
(جيشان القلب وتأثره بالصواب والخطأ ، والخير والشر ، والحسن والقبح) .
وللانفعال علامات في اصفرار الوجنة أو احمرارها ، في تفتح الأسارير أو انقباضها .
وكل من بلغ سن التمييز قد جرب في قلبه لذة الحق والخير والجمال .
وألم الباطل والشر والقبح .
وقدرات الفرد كاملة حتى يكون الانفعال مضماراً لها بل هي مضمار وسياط للقدرات البشرية
الكاملة في آن واحد .
ونحن نعرف أن الجواد الأصيل — وغير الأصيل بالبداهة — لا ينال سبق إلا في مضمار .
أي لا غناء لقدراتنا عن عواطفنا .
ونحن نعلم أن الجواد الأصيل — وغير الأصيل بداهة — لا يستغني عن السوط .
أي أن المدى الأبعد لقدراتنا قد يحتاج إلى ضم من العواطف .
ولكننا لم نضمن قط سبقاً ناجحاً لجواد أصيل أو غير أصيل دون عنان يكبح الجراح في الوقت
المناسب .
ما ذكرنا قط الفارس والجواد والسوط والمضمار إلا وفي ذهننا شيء اسمه اللجام .
إن قدراتنا ومواهنا خيول في مرابطها .
ومرابطها تستمد أختيتها وأغلاها من العاطفة المتبلدة الراكدة .
فإذا جاشت العواطف انطلقت الخيول .
ومن ضررها تكون السياط .
ولهذا قلت : إنها مضمار وسوط في آن واحد .
والعقل بمواهبه ومبادئه يجب أن يكون لجاما في اليد البشرية لأنه قد يحتاج إليه في كبح النشاط

الحيوي الذي يثيره الانفعال في الجسد .

ومواهب العقل ومبادؤه قانون لا يحيف سواء أسماها ابن حزم وديكارت فطرية خالصة ، أم جعلها هيوم ولوك منبثقة من الحس .

والعقل حفيظ أمين على حس البشر وتجربتهم وتوقعاتهم بمواهبه الثلاث :

موهبة التذكر في الطرف الخلفي من هذه الجمجمة العجيبة .

قالوا : إن الدليل على ذلك : أن المتذكر يرفع رأسه كأنه يشيم السحاب .

وموهبة التفكير في الطرف الأمامي من الجمجمة .

قالوا : إن الدليل على ذلك : أن المتفكر يطأطأ برأسه .

وموهبة التخيل وسط الجمجمة بدليل أن المتخيل يضرب وسط رأسه بأصبعه .

وموهبة التذكر يذخر العقل رصيذاً من التجربة لخلفيات الانفعال .

وموهبة التفكير والتخيل يخترع العقل منادح ومبادئ مجمعا عليها تنقذ القدرات البشرية الحيوية من اندفاع العواطف .

العقل إذن صمام الأمان .

وما أردت بهذا أن أتفلسف .

ولكنها مقدمة ضرورية لمناقشة من أحسنوا الظن بالعواطف فظنوا أن الحكم إليها ، وأن إليها الانتهاء .

ولا نزاع مطلقا في أن الإنسان يعجز عن إطلاق كل قدراته الكامنة إلا في ظروف الأزمة والانفعال .

نعم لا خلاف في هذا .

وأزيد هذه الدعوى الصحيحة بدعوى صحيحة أخرى وهي أن هذه القدرات الكامنة — إذا لم تبعثها الأزمة والانفعال — مجرد تخيل أو تفكير أو تذكر في ذهن صاحبها .

لا إعجاز قط في أي مجهود فكري ما لم يطبخه ضمير العواطف .

العقيدة إذا لم يحتضنها القلب بعاطفته وانفعالاته ثق بأنها فكرة لا عقيدة .

والذي نفس أبي عبد الرحمن بيده : ما إيمان أبي بكر الصديق كإيمان الفلاسفة .

أبو بكر — الذي رأى الإعجاز بعقله وحسه — تحول إيمانه الصادق الصحيح إلى عاطفة في قلبه ينفع في صلاته وقراءته فلا يسمع الناس صوته من بكائه .

إنه يناجي ربه بقلبه .

وأولئك لم يتحول ذرة من إيمانهم إلى قلوبهم .
يقولون : إن عرفنا الحكمة امتثلنا وإن لم نعرفها أولنا وحرقتنا .
وهذا باب آخر لا نلجّه وإنما فتحناه ليسفر علينا ببصيص من نور .
نعوذ فنقول : إن الإنسان يعجز عن إطلاق كل قدراته الكامنة إلا في ظروف الأزمة والانفعال .
وعندي على هذه الدعوى — وعند كولن ولسون أيضا — أكثر من برهان .
فمن هذه البراهين أن الخائف من لاحق وراءه يمنح قدرة غير عادية على الجري لأن بخار العاطفة — أزمة الخوف — تدفعه وتستثير كوامن قدرته على العدو السريع .
ومنها أن أحد الشعراء لا ينظم الشعر إلا بأعواد المساطر يتكلفه ولا يرتجله .
وفي لحظة لس معطس العزمه فعطس بقصيدة عصماء مرتجلة .
ولكن الانفعال — أزمة الغضب للنفس — يثير المواهب .
وقد قلت مرة : اضرب قلبك تحجد العبقريّة .
والكاتب — وهذا عن تجربة شخصية — لا يعتز بأثر من آثاره إلا إذا صدق مع قلبه فاستمد المداد من النياط .
وذلك حينما يجد جوا يعلن فيه ما قد يستحي منه العرف والعادة أو الحفاظ على المركز .
ولهذا أقول إن البيشة ذات أثر على نبوغ الأديب ومن قسوتها يقل النبوغ .
وما رأينا نابغة خلّت حياته من (تحد وتخط في آن واحد) .
وليس هذا على مذهب خالف تعرف .
فإن المعروفين بالوفاق والأمية أشهر من المعروفين بالخلاف .
وإنما يعلن المفكر الحر خلافه ليعرف الخلاف ذاته و يتحدى و يتخطى المخاوف فلا يستسلم لغير البرهان اللائح .
ولقد حفظنا في الورد المأثور :
(اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه) .
إن أحد أبطال الرواية في الغرب : (يتحدى رجلا موسرا في المبارزة) . لماذا؟
يقول (كولن ولسون) :
(الحياة المريحة تنقص من قدرة الإنسان على المقاومة والصمود وبالتالي يجد الإنسان نفسه مترددا في حماة تنعدم فيها البطولة .

فلوجيىء بحىوان اعتاد أن يتناول نوعا صلبا من العلف وقدمت له عصيدة رخوة كي يعيش عليها لتقبل ذلك لكنه سرعان ما تأكلت أسنانه ونخرها السوس) اهـ.

والى هنا أرى أن فيما أوردته كفاية للتدليل على أن الأزمات جولة للبطولة.

وأن الانفعال يثير القدرة الكامنة.

وهذه نقطة وفاق لا خلاف فيها .

ولكننا نخالف في إعطاء العاطفة حريتها لتثير قدراتنا الكامنة .

ذلك أن عواطفنا كلها ليست خيرة ، ففي نفوسنا نوازع الخير والشر معا .

ولهذا ألف الغزالي نفرا من كتابه الإحياء في رياضة العواطف .

ولهذا أيضا قلنا :

إذا كان الانفعال مضمارا فلا تنسوا اللجام .

هل أنا في الكون أم الكون فيّ؟

لست أدري حلا لهذين الأمرين اللذين شوشا عليّ ذهني؟
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهداني أن أظن وأحدسا
لست أدري هل أنا ظرف في هذا الكون؟
وربما كان الكون نفسه لا يدري عما إذا كان هو ظرفا فيّ؟
وربما كان بين الأمرين خصوص وعموم كما يقول علماء الأصول .
ولكن لغة الخيال والأحلام لا تعترف برواسب الأثقال والقيود الأصولية .
إن قلت: إنني في الكون فذلك ظن وحس ، والحدس هنا بالمعنى اللغوي التخمين وليس هو
الرؤية القلبية المباشرة كما يقول الفلاسفة .
إن قلت: إنني في الكون فربما لم أبعد عن الواقع لأنني لست من كفرة الفلاسفة المثاليين الذين
يقولون:
أحداث هذا الكون صور وأمثال منطبعة عن النفس البشرية العاقلة .
يقول المثاليون: هذه الماسة الملساء ليست ملساء في الحقيقة والواقع .
وإنما حسنا بشري خلق لها هذه الصفة ولكننا لو سلطنا المكبر على الماسة لوجدناها أليفا
ووديانا؟
إن قلت: إنني في الكون فربما لم أبعد عن الواقع لأنني لست من كفرة الحلوليين الاتحاديين
الذين يعتبرون كل مظهر من مظاهر الكون ظرفا للكون نفسه .
إن قلت: إنني في الكون فربما لم أبعد عن الواقع لأنني لست من كفرة السوفسطائية الذين
يقولون: (لا حقيقة) .
ولا (لا حقيقة) .
أنا في الكون عنادا للمثاليين والحلوليين والسوفسطائيين .

ولكن يا ترى هل أستطيع أن أعاند خيالاتي وأحلامي فأقول :

إنني في الكون؟

يا دليل الحائرين .. هذه قاصمة الظهر .

إن بصمتي العقلية والانفعالية والخيالية تنقل الكون كله إلى وجداني فأكون ظرفا له .

وربما خلعت عليه من رؤيتي حلية ينسب بها إليّ .

ودعوني من المغالطة فأني أمقتها .

وخذوا ما أدلي به فلعله يشفع لي .

لقد حسبت — في البداية — هذا الكون منفصلا عن ذاتي ورأيت فيه قلوبا تخفق وعيوننا تنظر،
وأكبادا تتفتت .

وهذا طبيعة اللحم والدم بعد انفصاله عن عناصره الأربعة وقبل انحلاله إليها .

ودون هذه القلوب المذبذبة حواجز من الكون ذاته تحول دون الوصال أو تعوقه أو تنغصه .

وإن لي قلبا من هذه القلوب لا ينبض نياطه إلا شرراً أحرقانيا .

فلو كنت في الكون — أيها الأذكىاء — لكان حتماً عليّ أن أحب وأعشق وأنعم بلذة الحب
أو عذابه، فهل يستطيع ابن الكون أن يتخلص من سنة الكون؟

وربما كانت هذه الحتمية هي التي أوحى لغيث الدين الحيام بهذين البيتين :

أولى بهذا القلب أن يخفقا وفي ضرام الحب أن يحرقا
ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشقا؟!

وربما كان أبو الفتح عمر يتغزل غزلاً صوفياً خارجاً عن هذا الباب .

قال أبو عبد الرحمن : ولكننا جربنا : أن نهزم الحب ، ونحجزه في القمقم .

فما معنى هذا إذن ؟

صدقوني : إنه لا حور، ولا لعل ولا أسوق يزهبها الدمليج في هذا الكون .

إنما هي موجودات ميتة والكون أشمل من وجود لأن الكون حركة وحياة .

ومجرد (موجود) مجرد سكون .

لقد خلطنا على الحور واللعل والدعج والدمليج والأرداف شبق النفس، وهفوة الروح وانفعال
النفس، وقلق العقل، وتهويمات الخيال، وطمع الغدد الجنسية فبعثنا فيهن الحركة والحياة حتى ظننا
أننا في الكون .

حتى ظننا أن آمال الحب وآلامه أصداء جاءتنا من الكون .
والواقع أن هذه الآمال والآلام أكوان لا تنفصل عن ذاتنا وأنها — إن كانت كونا — فإنما هي داخل ذاتنا .

قال أبو عبد الرحمن : برهان ذلك أننا نهزم الحب ونقابله بعناد وإباء واستعلاء ونقول : ما الفرق بين حرمة أرداف القرد وحرمة ذات الدملج ؟

إننا نسلب من المفاتن انفعالاتنا فلا تكون كونا ذا حياة وحركة منفصلة عنا .
و برهان آخر : وهوانك تجذب في شرق المعمورة — من ذوي اللون الأصفر — أناساً يتعشقون فطس الأنوف و يتيمون بها .

وتجذب في القارة الإفريقية : من يتيمون بتهدل الشفة ، وتقلقل الشعر ، وامتلاء الخصر .
وتجذب في غرب المعمورة : من يتيمون بسحنات كوتها الشمس وسودتها .
وأبناء سبأ بن يشجب ومعد بن عدنان يشترطون دقة الخصر ، و حور العيون ، وبضاضة الخد ، وحرمة العافية ، وطول الطلى مع بياضها ، وسواد الشفة (اللعس) وصغر الأقدام .
وأن يكون الأنف أشم حلو القنا .

فلو كانت هذه الصفات أكوانا منفصلة عنا لاتحدت فيها مآربنا .
ولكن انفعالاتنا المختلفة خلعت على هاته الموجودات الميتة حياة وحركة وبصمة خاصة فكانت كوننا الذاتي غير منفصلة عنا .

و برهان آخر : وهو أننا نسمي الموجودات ونفهمها ونتذوقها ونفعل بها وفق إحساسنا وتأمّلنا وتخيلنا لا نستطيع أن نتعامل مع الأشياء بغير ذلك وإلا أصبحت مغيبة عنا .
إذن من شرط معرفتنا بالأشياء أن نخلع عليها وجودنا .

والأديب المعتبر لا يسمى أديبا حتى يكون مبتكرا ، والمبتكر لا يخلو من أمرين :

أ — أن يفسر لنا الأشياء .

ب — أن يتخيل لنا الأشياء .

ولا عبرة بتفسيره حتى يخلع على الأشياء وجوده أعني خصائصه العقلية والعاطفية .

ولا عبرة بتخيله حتى يبدع لنا كونا جديدا .

إذن :

أنا في الكون لأنني جاد مستيقن .

ولست في الكون لأنني عابث مخمن .

لهجيري الذات

ماذا بعد أيها الظاهري ماذا؟

أبعد أربعين عاما ونيفا لا تزال عائماً في بحر لم تهتد إلى شاطئه؟

أبعد الأربعين تقذفك الحقيقة على الهامش، فتذهب إلى عبقرية ابن حزم وبلاغة الزيات وطراوة ابن فارس ولوثة زكي مبارك وسخرية مارون عبود لتقيم من كل هذه العناصر بلاغة متلاعبة وتنفخ في كهوف الأحلام والأوهام روحاً جدلية لتؤكد للناس أنك لا تعيش في كبد الوهم على هامش الحقيقة؟

وإن التي سرقت قلبك هي التي لونت مشاعرك بكل ثوابات الطفولة!!

وإن التي سرقت قلبك — با ظاهري — تتنفس برئتين سليميتين، وتوقع على الكورنيش بساقها الخلدتين أحلى إيقاع لأحلى رقصة شرقية!!

بينما أنت بين أحراش الضباب يزكم أنفك غبار الأوراق الصفرة فيحشرج في رئتيك المكدودتين فحيح الأموات من سرقات ابن حجة إلى بديع التلعفري!!
كأنك برمت بالناظر فتلفعت بالغابر!!

وإن التي سرقت قلبك تكبرك بسنين فلا تزداد إلا شباباً وبضاضة!

وأنت — على صغر سنك — تدنو من الشيخوخة رويداً رويداً، وإن غالطت أترابك بأصابع الحناء والكتم!!

وكلما كبر هواها في قلبك كبرت مساحة حرفك، وإن كنت مجرد شبح في لطافة الروح وكثافة الكبرياء.

وإن التي سرقت قلبك لا تحمل شيئاً من أعبائك، ولا تعرف أن عيناً في الظلام تغمر!!

ولكنك لطفولتك الرومانسية تدفن رأسك في الرمل، وترغم أنك ملء السمع والبصر وتصر على هذا الوهم، وتقسم عليه ولا ترى أنك تحنث، لأن (الطير المسافر) تأوهات انسابت إليك رغم شماريخ طويق الأرعن، وخلت أنك المتلهف عليه في الغربة، وأن القوم يشغلهم فرحك أو حزنك، وراحتك أو تعبك!!

وقديما قيل : (لست حبيبها وحدك) .

والشناوي الدحاح ذو الأنف الأفطس هو القاتل : لا تكذبي إني رأيتكما معا .
ولقد جرح كبرياءه الدمع الآفك فقال : ودعي البكاء فقد كرهت الأدمعا .

إلى متى أيها الظاهري تبقى في الظل ينحسر عنك الفياء فلا تصحو؟

ستقول إن قلبك مغمم بعواطف لا تدري بدايتها من نهايتها ، وإن أشجانك لو تفجرت
لاكتسحت كل ديوان شعر روماني على وجه المعمورة!!

نعم نعرف هذا!!

نعرف أن حروف الهجاء ثمانية وعشرون حرفا فقط ، وأنها أقل وأعجز من أن تعبر عما تريد
أن لا تقوله!!

لله درك إن كل سنة من سني حياتك في عمل عمر من الأعمار العبقريّة النادرة ، وإذا كان هذا
الحب العارم يدنيك للشيخوخة ، فإن فكرك يتدقق شابا!!

أما التي سرقت قلبك فقد أحسنت أنت للفن غاية الإحسان عندما قلت : كبر الهوى وبحكمة
أنت الصغيرة!!

هذه صباوات قلبك ، فهل لك أن تسمعنا صلواته ؟

أجل ستمعون صلوات هذا القلب ، وإنا بالله على هواها لمستعينون!!

هجيرى الذات أيضاً

قالوا: قروي كان في شملته ، ولكنه أحب فرق طبعه وخفقت روحه وقالوا: لا تلوموه، لأنه قروي حديث العهد بالبلور وحق العاج والتفاح المتضرج .

ثم أرادوا الإنصاف —زعموا— بين المذرة والمذلة فقالوا: أما كان الأستر له أن يكتم حبه ، يأخذ من قساوة القرية ما يتفوق به على المأساة؟

وزادوا على الحجر عقدة ، ولم يخلو عقده برقية فقالوا: عهدنا به في الثمانينات إمام مسجد يؤم الناس فرضاً وتراويحاً وقياماً و يتخول عوام المسلمين بالموعظة .

أفيليق به بعد هذا أن يجب ؟

وعهدنا به مع شلة من المشايخ وطلبة العلم يسامرهم و يؤانسهم معظم الأوقات بزاد المعاد ومنهاج السنة وأعلام الموقعين إلى أن استحوذ عليه جند الصحافة ومهومو الأدب وكان مشايخه يحدرونه من رقة الأدباء وتهويمات العواطف .

أفلا يليق به أن يصون علمه من جرعة الحب ؟

وعهدنا به في مراحل الدراسة العالية يزاحم أترابه على مائدة فقه أحمد بن حنبل ثم افتقرت بهم السبل هم في أمور القضاء وملحقاته وهو منغمس في هواظرفاء .

وعهدنا به يرقص الأستاذ أحمد محمود بوصية ابن عقيل و يقول : شيبطني هود وأخواتها .

فما عدا بما بدا؟

وقد احتججت بقولي: (أعدلنا أعدرنا لصاحبه) في كتيب لي اسمه (نظرات لاهية غير عازمة) .

وهو أول فرقة فنية، وإن كان سبقها ومضات في مقالة (ليت للبراق عينا) .
وذلك لعلمي بأن العالم يجب أن يكون فيه شيء من طبع الأديب ليلج إلى القلوب دون استئذان .

لا جرم أنهم صادقون ، ولهذا فساكون فوق المأساة وإن كان لي عين تنظر وقلب يخفق وروح

ترفرق ونياط تنبض وكبد تتفتت وموق يدعم وعاطفة تحشع وأحلام لا تشبع وأضلاع لا تدفع .
سأكون فوق المأساة، فإذا رأيت أهداباً محتشدات ترف بكل معاني السعادة فسأقول : ثم ماذا؟
إنها مجرد شعيرات يوجد مثلها في إلية الكبش! ؟
وإن رأيت حقين متوثبين معربدين مدورين منورين فسأنحني عن اتجاههما وأقول : اللهم
حوالينا ولا علينا .
وإن سمعت حنجرة تسيل بالحنان والدفء فسأرقبها بديوان الشناوي (لا تكذبي) لأنه
عتاب، والعتاب يفضل الأشجان .
فإن تجددت كل مظاهر الحسن أمامي ورأيت هضماً تظلمه الأرداف فلن أمه بسوء سوى أن
أقول :

أجبل الطرف مبتهلاً يبح حد مختفرك
وأتمعنه بثانية وشاحاً دون مهتصرك^(١٥)
ولعل ما نلاقه من حرمان كفارة ما نشغل به من وسواس والله المتعان .

• • •

(١٥) البيتان للمؤلف .

آن له أن يحجم

عزمة من عزومات ربنا قضت بأن تكون هذه الكلمة آخر ما سأكتبه في هذه الصحف ألتقي فيها بأحبائي وخصوصي لقيًا وداع .

وأستدبر عالم الصحافة غير آسف إلا على سنوات ثلاث نهب الطقطقة والثروة .
وقد آليت منذ اللحظة أن أعجم سنة هذا القلم الشرود الطموح المتوثب ذي النزوات المكبوتة .
فلن يرى بعد اليوم في صيال أو غثاتلة .

وعهدي به غزل مدلل يضمخ الطرس بتهويمات النسيب يحدوه قلب عرم الشبوب .
فاعذروني أيها الأحباب إن طلقت صاحبة الجلالة ثلاثا متفرقات بعد أطهار، حتى لا أجد في فتوى الفقيه ابن حزم ما يغريني بمراجعتها، فثفي في هذا الفراق الأبدى أن سنوات الطقطقة الصحفية غير مباركات، فقد قعدت عن التحصيل العلمي، ولم أعد أسمع ضعف ما أتكلم :

لم تعط مع أذنيك نطقا واحدا إلا لتسمع ضعف ما تتكلم
وصرت أستجر معارف الطفولة حتى نصب المعين وجف النبع .
أما قبل أن أعرف هؤلاء الصحفيين وقبل أن يعرفوني فقد كانت لحظاتي مباركة، وكنت في بحث دؤوب وكنت في متعة علمية وقد قال إمامنا ابن حزم: لذة العالم بعلمه .
وما تلقيت الإهانة في حياتي قط إلا بعد ما جنت عليّ الصحافة فقعدت عن مجالسة العلماء فهذه واحدة .

وكتبت هذرا كثيرا فهذه ثانية .

وكان ما كتبناه غير نافع ولا يراد به وجه الله فهذه ثالثة .

والرابعة: أنني منذ كتبت بأجر أحسست بذل الاستجداء، وأبرز ما في هذه الإهانة أن هؤلاء الصحفيين يزوروني في بيتي و يطلبون مني أن أكتب وأن ألتزم، فلما لمع بريق الأجر الذي نتقاضاه أصبحت طالبا، ولم أكن ذلك المطلوب، فإذا تأخر نشر يومية ما، وعقبت عليها كان ذلك تعقيا على المادة بطريق غير مباشر .

وهذا أمر لا أقوى عليه ، وقد احتجت إلى نفسي فلم أجدها .

فطالب علم مثلي تخرج منذ سنوات لا يحفظ أحاديث الأحكام ، ولا يحفظ ألفية ابن مالك ولا يحفظ الرحبية ، ولا يحفظ منظومة ابن عبد القوي ، ولا يحفظ متون المنطق والعقائد وهلم جرا ألف لا يحفظ ، إنه يجب أن يعود إلى المكاتب بدأة .

وفي نصيحة الأفاضل : احفظ فكل حافظ إمام ، وشيخي أبو محمد اسمه الحافظ ولا فخر ، وإذن فلا بد من مهاتفة الحفاظ في طروسهم الصفر ، وقبل الرمي تملأ الكنائس .

فيا معشر الصحفيين : اتركوني ما تركتكم ، فإنني ملازم بيتي غير مبارحه إلا للكسب الحلال ، فإن أحسست من نفسي نشاطا فلن أكتب إلا ما ينفع في صفحة جديدة سأفتحها إن شاء الله في عالم التأليف وتحقيق المخطوطات .

و ينفرنني من عالم الصحافة أنني أحترم مع هذه الزمرة ، فيقال : السيف أمضى من العصا !!

لقد أسن الدفق ، ونقت فيه الضفادع ، ولنا عنه منتزه ، وهو منتزه يبارك العمر و يزكيه .

وحقي على أصحاب تحرشوا بي ، وتحرشت بهم أن يمتنوا بصفحهم ، وسأدعو وأستغفر لهم حتى أحسب أنني كفرت (١٦) .

(١٦) نشرت بجريدة الرياض في ١٦/٦/١٣٩١ هـ وتلاها انقطاع عن الكتابة لمدة عام كامل .

إن أبستم فصومعتي أرصم لي (٤٧)

دكاكة الظهر التي نقلها شيخنا أبو تراب الظاهري عن الإمام جابر الله الزعشري: أخافها وأشفق منها لما أرى الشيخ أبا تراب مهدفا إهداف النواعير!!

يهش بعصاه على محبيه تارة و يثقل عليها الاتكاء تارة.

وأظنني امتطيت أربعة وأربعين عاما منها ما نفر كالجواد الأصيل زعلا مستنا يتميز خفة وحركة.

ومنها ما يخطو ويثقل يلهث وتسيخ قوائمه مثقلة بأوضاري وأوزاري يشتكي الشيخوخة على عجل.

وما أظن تلك الخيول المخفة — طيب الله ذكرها — إلا في أوقات البراءة الطفولية، وأظنني منذ الجواد الخامس والأربعين امتطيت جوادا يعربيا أكثر استنانا وزعلا يحمل ذا شعيرات بيضاء وحمراء تحلى بها زينة، وكنت أظنها نذيرا بدكاكة الظهر.

ولكنني دعوتها الجفل فلم يند منها شاردة فبت على يقين بأنها لا تنذر بدكاكة الظهر لأن الحدث لا يتخلف عن باعته.

و يشهد الله أن الخيول السابقة — وهي من مرابط يعربية — ما اشتكت من ذات المخلوق هزيمة قط سوى كبوات يسيرة في حلبة الصحافة إذ تردى الفارس فتقره ديك الجن ونطحه تيس الحن — بالحاء المهملة —.

وحل الشيخ نقيرا نطيجا وغرمة يتعذر مطلبه فبقي في مصحته سنوات يعوده ويعوده — بالواو — المشددة والذال المتقطعة — (حذق لقف ثقف) من أهل الفيحاء من القضاة ذو دربة ومهارة على سياسة القلوب وحل المقد.

فأركبني جوادي الخامس والأربعين يتموج عرفه ويفح منخره!

و بيدي صلت يمانني وعضب حزمي إن سولم أضاء و برق وإن غولب قطع وفتق!

(٤٧) هذه المقالة أول معاودة لي للكتابة بالجزيرة سنة ١٤٠٣ هـ.

و بيد القاضي — سدّد الله خطواته — عنان الجواد يقوده إلى المعصية والفارس مثلث حياء كأنه من
فرسان الفتح الأولى .

وفتحت الستارة والشيخ المعمم يشيم البرق يعلـن تودده وتعوذه من أصناف الجن الثلاثة — التي
رؤايتها شيخه محمد بن إبراهيم البواردي حفظه الله عن ابن حبان — :

من يطير ، ومن يظن ، وحيات وعقارب !

فإلى كل من ينقر أو ينطح أو يطير أبسط حرزي وأمد تعوذتي .

ولا تزال وجنتاي معلمتين بنقرات ابن رغبان وقد اصطفيته خليصا وما دريت أن اللطيف
يتكشف إذا عجز الكثيف عن اللطافة .

أقول قولي هذا ولا أتزكى فبئس خصلة المرء أن يزكي نفسه .

وإنما هو إدلال الوامق وقد ارتدى نصف عقد بعد الأشد .

قع في صوامع الطرس ما شاءت له وحشته ، وكرع في نير الحرف ما شاءت له نغبته .

فابترد والتمظ وخضد الكلمة فامتحن حلوها ومرها .

وخلع بردا محبرا كأنه زي أبي براقش فخنق به كل حنين روماني وكل تشاؤب سرت عدواه
من أدب الظرفاء .

ولكم تشاءب عمرو إذ تشاءب خالد .

وما برده اليوم — على الجواد الخامس والأربعين — غير الزهادة والبساطة والحنين إلى أشواق
الروح في دار الأزل .

إنه منصلت في درب سمقت له معالم حتمية فسمت الجادة ممتدة غير منعطفة ولا مرتدة ، فأول
معلم من هذه الحتميات أن الله أعذر إلى ذي الشيبة .

وما لدي اليوم إنما هوشيب لا شيبة ، وإن أعجل إليّ فهو تكرمة من الله لأنه وقار وإنذار .

وثاني معلم أن شباب أهل المدينة المنورة — في القرون المدوحة — تأولوا الآية الكريمة عن بلوغ
الأشد وبلوغ الأربعين .

فكان أحدهم إذا بلغ الأشد شد المزروطوى بساط اللذة واجتهد في العبادة ، وكانوا قبل الأشد
من أظرف عباد الله لكثرة ما في صقبيهم من مبكيات القلوب !

وقد نفت اليوم على الأشد بنصف عقد .

وثالث معلم أن الأربعين هي السن المعتاد لبعثة الأنبياء عليهم السلام ، وهي السن التي تزوج
فيها إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله .

فلا بد أن نرفع خسيمة العمر بعد الأربعين !
ورابع معلم أن ما بين الأربعين والخمسين كصحوة الموت في عمر من كتب الله له أن يعيش
المعتاد من أعمار أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
وهي فترة الكهولة في عرف اللغويين .
وما بعد ذلك انحدار للشيوخة — وهي أتمس من الطفولة — حيث تعظم منة الشيخ على أهله
وولده ، و يضيق حلمه ويحن إلى الدلال والإدلال .
إلا أن صدق المعاملة لمانح العمر جل جلاله يزكي الشيوخة و يقويها ، ولهذا ترى العباد يتمتعون
بحواسهم ونشاطهم .
وخامس معلم أن من حل علما شرعيا وقد خلغ الأشد فقد أقام الحجة على نفسه أمام ربه .
وبئس والله إيمان الشيخ الذي لا يطمع به إلا في النجاة من الخلود في النار وإن عذب أحقابا .
إنما الإيمان الحقيقي ما منى النفس بالنجاة من النار بدءا والفوز ببجاي الفردوس في يوم التغابن
والنفس اللوامة .
قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا
وعلى ربهم يتوكلون • الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون • أولئك هم المؤمنون حقا لهم
درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) [سورة الأنفال / ٢ — ٤] .
والله إنني لا أقوى على عذاب الله لحظة من ثانية وأنا العبد الضعيف في الدنيا .
فيا قراء الجزيرة ضحوا رويدا وثقوا بعرك ظاهري منجب فيه — إن شاء الله — ذكاء متدروش ،
وعاطفة صادقة ، وجمال مفرد .
وإياكم أن تتوقعوا مني ما استحي منه عند ربي !
فإن ذكرتكم (النغم الذي أحببته) فاعلموا أنني عليه لمن النادمين .
وقد أحرقت بقايا من بقاياها وقلت :
ما أمر الرجوع إليه !!
فإن قبلتم مني جديتي ودعابتي ووعظي على استحياء : فذاك أرفق بي وأعود لكم . وإن أبيتم
إلا الثانية فصومعتي أرحم بي وأنا لها من الشاكرين .
وما هذه غير خطبة الزفاف والله المستعان .

الاحية بين الاتباع والاستماع

صح لنا باللفظ قطعي الدلالة والثبوت من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خلق اللحية حرام وليس في الشرع المطهر عقوبة دنيوية على خلق اللحية، ولكن هذا لا يعني أن خلق اللحية سهل فالربا من أمهات الكبائر وهو محاربة لله ومحادة له وليست فيه عقوبة دنيوية ولكن التعزير وحقوق الولاية في استصلاح الناس باب واسع فيما يسمونه في الأصول بالمصالح المرسلة.

إذن إعفاء اللحية واجب وحلقها حرام، وإحفاء الشارب سنة، وإحفاء الشارب وسطية بين عنترية ابن شداد ورقة نصر بن حجاج، ومن خاض المعركة واستعار من أبي زيد الهلالي معكوف شنباته فلا إثم عليه إن شاء الله لأنه في موقف إظهار العنترية وارهاب الأعداء.

وفي تلمس الآثار من سيرة القوم ما يدعم ذلك، وشيخنا قرة العين أبو محمد يسقط عدالة من يأخذ من لحيته فلا يقبل شهادته وذلك في كتابه مراتب الإجماع.

وقد مرت بنا مرحلة في العمر كنا نجلم اللحية جلما وربما خلعتنا الدثار عن قناتها ثم بدا لنا أن نرسلها إرضاء لربنا وامتنالا لسنة نبينا، ولا يصرفنا عن هذه السنة الطاهرة أن يوجد من ضعفاء الدين من يتخذ اللحية مصيدة.

نعم سنقول: لا إله إلا الله وإن قالها كارل ماركس وهو أكفر من حمار.

ويضل كثيرا من يجعل للدين الله مقاييس زمنية فيقول: إعفاء اللحية آخر شيء وليس أول شيء.

لا ثم لا، إن اللحية من الحق والصواب الذي أقدر عليه، ولا يعفني من إعفائها أن تكون ذنوبي أثقل من جبال الحملايا.

إنني ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وليس أمامي إن اخترت قبل توبة نصوح إلا الإكثار من الصواب السهل الميسور نضمه إلى كلمة لا إله إلا الله ليحاج لنا صاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم عند ربنا.

قال عالم فاضل سيرته كسيرة الصحابة: أحب الصالحين ولست منهم.

قالها تواضعا لربه واستمطارا لرحته.

أما عصرنا فقد بلي بأجواء لا تعين على الطاعة وبتوثبات شاعرية لا تعرف العزيمة ومن نوى الخير فهو بخير وإن حال دون العمل عائق .

وكان جلم اللحية يستر لنا عيبا يغيظ الجنس العطوف ألا وهو الشيب وما بعد شبهي بسمي أبي : عمر بن أبي ربيعة كان إذا رأى شابا شد شعره وصاح : واشباباه .. واشباباه .

وإنني لأعرف أن الشيب نذير ووقار ولكن ذلك لمن تمضي به السنين ، أما أن يطن الشباب مني ثغرة الميلاد فذلك ما يزعجني .

إنني أرسل اللحية وفيها بقايا من أصباغ لثمتها تحت مغيب الشمس فإن كان لحاف الأصباغ عاريا فنداء الواجب خير من نداء الجمال ، وقبلني من وخطه الشيب في سني فكان عزائي .

هذا أبوقام أشد الشعراء إخلاصا في بكاء الشباب لأن الشيب وخطه في ريعان الشباب فسماه : غبار الوقائع .

نحن نسميه : سهام القلوب المتورمة التي لا ترحم ، ونسميه حرب الهينمات المدندنة ، ورماد الجذوة المكبوتة .

وهذا النواصي — عفا الله عنا وعنه — أنساني العطف عليه عطفاً على نفسي عندما قال :

وإذا عددت سنيى كم هي لم أجد للشيب عذرا في النزول برأسي
وقال آخر :

أرى المرء ما يلقي التراب بوجهه إلى أن يوارى فيه رهن المعاطب
وإن لم يصب إلا بشرخ شبابه لكان قد استوفى جميع المصائب
ولنعرج في نهاية المطاف على أبي الطيب المتنبي — وقد كانت له هم مطوحة — إنه يقول في استسلام :

ولقد بكيت على الشباب ولتي مودة ولماء وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق
أدام الله لنا ولكم الصحة والعافية .

أنا والشيب

بماذا يوحى الشيب وهو حريق الأحقاب التي احتطبناها ؟
إنه طلائع التقاعد عن عمل العتفوان ، وإنه النذارة بالآخرة ، وقد نغالبه في البداية بالنتف والتنفية ، ولكننا لا نستطيع التغلب عليه ، لأن مدده يتضاعف ولا ينقطع ، وربما خانت الناتف يد كيد يحيى بن جراح القائل :

أمد كفي إلى البيضاء أقلمها
من لحيتي فتفديها بسوداء
هذي يدي - وهي مني - لا تطاوعني
على مرادي فما ظني بأعدائي
ولو فرض أنا نغلبه بالملاحقة أو الأصباغ فلا نعدو مخادعة أنفسنا نخادع أنفسنا عندما نعتبر الحضاب عقابا له ، ونحن لم نخضب آثاره وظاهراته .

يقول الإمام أبو علي الفارسي :

خضبت الشيب لما كان عيبا
وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل
ولا عيبا خشيت ولا عتابا
ولكن الشيب بدا ذميما
فصيرت الحضاب له عقابا

إن الشيب يسلطنا إلى واقع من العذاب النفسي الجاحم .
الشيب يقول لنا : أرف الرحيل ، ووراءنا واجبات لله ومستحبات نشري بها مرضاة الله ، فقعد بنا عنها الكسل والتسويق ، وواعظ الشيب يدلف بنا إلى حيرة المفاجأة .
ووراءنا واجبات علمية نراوح في العمل بينها ، يهمننا أن تبرز مكتملة على مسرح الذكر ، ويحيي السمعة بعاطر القول . فإذا كانت مسيرتنا في الشباب رملاً ولم ينته إلا أقلها فكيف ينتهي في

الشيخوخة أكثرها ومسيرتنا حبوا .

و يقال : إن حاجة من مات لا تنقضي ، أوميوت الفتى ولا تنقضي حاجاته ، وكم حال الشيب بين الأحبه واللقاء .

قال سيف الدولة بن زماخ من ذرية سيف الدولة ابن حمدان :

فاحلف لولا المهجر ما شاب مفرقي

وتقسم لولا الشيب ما كرهت قربي

ياإلاهي تكون هي سبب الشيب ثم تجعله مسوغا للتمادي في المهجر، وإن تأنف الخرد الرعايب من احتراق اللمة فلن نعبأ لذلك ، لأتنا نحب أن نبقى في عذاب الحب وهونعيم ، ولا يسرنا أن ننعيم بلذة الوصال ، ولن يخلص الموق كما أخضل موق ناظم الغزالي على جسر المسيب يتهدج قلبه ميحانا ، و يقول في سذاجة أوبراءة : واخير اثينا نشيب !!

وأظنها غير العيسوية التي عذبت العندليب العراقي بشدويز كرنا بشبابنا .

رأى ناظم الغزالي —ولته مشتعلة— خالاً على صفحات خد كنقطة عنبر في صحن مرمر، وفاته أن أبا سعيد الرستمي استكثر على ذي العارض الأشيب أن يقابل العارض الأشيب .

ولا يهم —يا ناظم— أن تريش سهام لحاظها لعاصي الهوى ، فأنت لم تعص ، لأنه لم يطلب منك طاعة .

والطاعة لشرخ الشباب ، لقد عيرتك ميحانا بالشيب وهو وقار، ولكم وددت لوردت عليها بمثل رد أبي دلف إذ يقول :

تهزأت أن رأيت شيبى فقلت لها

لا تهزئي من يطل عمره يشب

شيب الرجال لهم عز ومكرمة

وشيبكن لكن الويل فاكتسبي

فينا لكن وإن شيب بدا أرب

وليس فيكن بعد الشيب من أرب

نعم لا يهمنأ أنف الخرد الرعايب ولا كرامة فحسبنا ما أكلنا وألبينا .

و يرينا من أنف ميحانا لمسة معنوية جارحة إذ يفضل غيرنا علينا ممن لم يطعن الشيب منه تفره الميلاد ، ولهذا ترى شاعث الرأس في موقف الاعتذار دائماً بشيء من أكاذيب الأقاويل يسمونه حسن التعليل ، فالشيب وقار وليس بعار، والليالي تزينها الأقمار كنوار الشيب في حلك الفودين .

هذا أبوقام يعتذر فيقول :

ولا يروعك إيماض القتير به
فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب
ثم ماذا؟ إن لسان النار أكثر من الابتسام، إنه ضحك وقهقهة، ولكنها تحرق.
إن من تمتع بالهنيدة—وهي مئة سنة كما يقول اللغويون— ولم يتسم الرأي والأدب في شعره
لذو راحة ونعمة.

إنما الميت من يعيش كئيبا
كاسفا باله قليل الرجاء
لماذا لا يكون الرأس يحترق من فرق الفراق كاصفرار الشمس عند غروبها؟
فالشمس عند غروبها
تصفر من فرق الفراق
لماذا لا يكون السواد عمر الفتى والمشيبي فيه كالأجل؟
ومن هذه الأعذار قول الفرزدق:

تفارق شيب في الشباب لوامع
وما حن ليل ليس فيه نجوم
ولعل الحنظلي تناسى أن النجوم منذ الخلق زينة للسماء ليست طارئة، وأن الشيب نذير طارئ
يعقبه التقوس وبعد القريب وملازمة العصا، ولكنهم ينحنون ويتعللون بما حقيقته المفض.

لا يظن العدو أن انحنائي
كبراً عندما عدمت شبابي
ضاع مني أجل ما كان عندي
فأنا طالب له في التراب

ولقد قالها أبو العتاهية صريحة:

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب
وبعد شافع بن علي الكتاني المسقلاني اعتبر نذارة الشيب يقينا عندما قال:
قال لي من رأى صباح مشيبي
عن شمال من لمستي ويميني
أي شيء هذا فقلست مجيبا
ليل شك محاه صبح يقيني

وآخر يرى أن الشيب انتقل إليه بالعدوى من معانقة صهب الببال :

فظلال السيوف شيين رأسي

واعتناقي في الحرب صهب الببال

وهذا العقيلي أستاذ علي بن الجهم يعلل بعله غير كافية ولا واضحة فيقول :

أرى ألفات قد كتبن على رأسي

بأقلام شيب في صحائف أنفاس

فإن تسأليني من يمل حروفها

فكف الليالي تتمد بأنفاس

جری في جلود الغانيات لشييتي

قشعريرة من بعد لين وإيناس

وقد كنت أجري من هواهن مرة

مجارى نعيم الماء من قضب الآس

وهذا ثالث يتعلل بأنه نصل جارج لا يضره الشيب فيقول :

فإن أك بدلت البياض وأنكرت

مطالعه مني العيون اللوامع

فقد يستجد المرء حالا بحالة

وقد يستثن الجفن والنصل جارج

و يروع مرهف الحس أن يعالجه الوخط قبل الإبان :

يا شيب كيف وما انقضى زمن الصبا

عاجلت مني اللحية السوداء

لو أنها يوم المعاد صحيفتي

ما سر قلبي كونها بيضاء

ولقد شاب أبو حامد بهاء الدين أحمد بن علي البكي وهو ابن عشرين سنة . قال ابن حجر : إنه أنقى وهو في حدود العشرين .

وقال آخر :

أفي أربع من بعد عشرين عشتها

طلوع مشيب إن ذا العجيب

ولئن قيل : الشيب بداية النصف الثاني من العمر، فإن أحسن النصفين ما ذهب :

إذا ما مات بعضك فابك بعضا

فبعض الشيء من بعض قريب

قال شاعر لا يحضرني اسمه :

شعرات في الرأس بيض ودعج

حل رأسي خيلان روم وزنج

طار عن لمتي غراب شبابي

وعلاني من بعده شاه مرج

أيها الشيب لم ولعت برأسي

إنما لي عشر وعشر وبنج

وكفى بالشيب بلية أنه إحدى الميتين . قال يحيى بن خالد :

والشيب إحدى الميتين تقدمت

أولاهما وتأخرت أخراهما

نقل التوحيدي عن بعضهم : أن المشيب خطام المنية ، ووافد الحمام ، وتاريخ الكتاب في عنوان
العمر، و يريد الفناء ، ورائد الموت ، وتمهيد الهلاك ، وأول مراحل الآخرة .

ألا ليت الشيب لا يرونا قلنا في غيره عبرة :

إذا قلت لم يبلغ بي السن مبلغا

وعظت بطفل صار قلبي إلى الترب

و يقول دعبل الخزاعي :

أهلا وسهلا بالمشيب فإنه

سمة العفيف وحلية المتحرج

ضيف أحل بك النهى فقريته

رفض الغواية واقتصاد المنهج

آه لو قرينا هذا الأبيض اللعاع (رفض الغواية) لكان هذا البيت أصدق ما قيل في التعليل .

ولكن القرن العشرين لا ينبغ فيه الغواية إلا بعد الوخط ، وعندكم خبر الأشيمط العاصي في
الحديث الشريف .

إن هذا الأبيض اللعاع لا يأتي غالبا إلا بعد انفساح في العمر وانبساط في رزق الله .

وخير انفعال نفسي حول هاتين الظاهرتين ما يعنيه سعيد بن إبراهيم بن حذبر القرطبي الأموي

ولاء ففي آخر عمره تزهّد وانقبض عن الناس فقال :

أمن بعد غوصي في علوم الحقائق
وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته
أرى طالبا رزقا إلى غير خالقي
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها
وأسرع في سوقي إلى الموت سائقي
واني وإن أوغلت أوسرت هاربا
من الموت في الأنفاق فالموت لاحقني

هذا الرجل الصالح وعظ ابن أخيه أبا عمر ابن عبدربه وكان يشكّو ضره فقال له : هذه أرحاء
القطرة لا تصبر على الطحن أكثر من عام ثم تضمحل ، وربما بدلت قبل العام ، أفلا تعذر أضرارك
على طحنها سبعين عاما ولم تبدلها ؟
قال أبو عمر: فوعظني وسلاني وأضحكني ، ويقول سليمان بن موسى الكلاعي وهو من باب
التلاعب بتجنيس القوافي :

أنفقت عمرك في غي تربيته
مجمعا من قبيح الفعل أو شابا
وللفتني في الشباب النضر محتمل
إن داخل المرأ في الأعمال أو شابا
فهل وراء مشيب حل معذرة
سيان مات لدى التحقيق أو شابا

لا والله لا معذرة وقد خلفنا المحتمل في أنقاء شقراء الحبيبة .

و يقول سليمان وهو أندلسي من بلنسية :

تولت ليال للغواية جـون
وواهي صباح للرشاد مـبين
ركاب شباب أزمعت عنك رحلة
وجيش مشيب جهزته منـون
ولا أكذب الرحمن مما أجـنه
وكيف وما يخفى عليه جنين

ومن لم يخل أن الرياء يشينه
فمن مذهبي أن الرياء يشين
لقد ريع قلبي للشباب وفقده
كما ريع بالعلق الفقيد ضنين
وآلني وخط المشيب بلمتي
فخطت بقلبي للشجون فنون
وليل شبابي كان أنضر منظرا
وأنق مما لاحظته عيون
فآه على عيش تكدر صفوه
وأنس خلا منه صفاء وحجون
ويا ويح فودي أو فؤادي كلما
تنزبد شيبي كيف بعد يكون
حرام على قلبي سكون يقره
وكيف مع الشيب الممض سكون
وقالوا شباب المرء شعبة جنة
فمالي غراني بالشيب جنون
وقالوا شجاك الشيب حدثان ما أتى
ولم يعلموا أن الحديث شجون
نعم جيش مشيب جهزته منون ، هذه هي النتائج الطبيعية للشيب لا ما يتعللون به من التلاعب
بحسن التعليل .
والنتيجة الطبيعية ما يقوله سهل بن محمد الأزدی الغرناطي :
إذا كنت في سن النهى غير صالح
ففي أي سن بعد ذلك تصلح ؟
ولسهل هذا تلميذ اسمه أبوعبدالله ابن الجنان له من أحاسيس الشيب شعرا ونثرا مرثية لنفسه
كتبها لبنیه (١٨) .

وكان أبو الفضل بن عياض من أتراب عبدالله بن الحسن الأنصاري المشهور بأبي محمد القرطبي
إلا أن الشيب قد جار عليه ولم يجر على أبي محمد وهو من أترابه فقال أبو الفضل : يا أستاذ شبا وما

(٤٨) تجدها في الذيل والتكملة لابن عبد الملك في بقية السفر الرابع تحقيق إحسان عباس ص ١٠٨ - ١٢٤ .

شبتم ؟ فقال أبو محمد مرتجلاً :

وهل نافعني أن أخطأ الشيب مفرقي
وقد شاب أترابي وشاب لداتي
لئن كان خطب الشيب يوجد عنه
بتر بي فمعناه يقوم بذاتي
صحيح أن الموت غاية كل حي وإن لم يشب ، وهذا معنى قيام الشيب بذاته ، ولكن الشيب
يروعنا ، هذا هو الفارق .
ولذا كان الأندلسيون يلبون البياض على المتوفى فقال الحلواني :

لئن كان البياض لباس حزن
بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبني
لأنني قد حزنت على الشباب
ولقد أخذ هذا المعنى واختصره أحمد بن قاسم شيخ شيخنا ابن حزم فقال :
قالت وقد نظرت فروعها
شيب على فودي متشر
ما شأن هذا البيض قلت لها
مات الشباب فيض الشعر

وما بالنا ننسى بهجة الدنيا وزينة المجالس شيخنا أبا محمد بن حزم فقد قال لما وخطه الشيب :

ولما رأيت الشيب حل مفارقي
نذيراً بترحال الشباب المفارق
رجعت إلى نفسي وقلت لها انظري
إلى ما أتى هذا ابتداء الحقائق
دعي دعوات اللهو قد فات وقتها
كما قد أفاق الليل نور المشرق
دعي منزل اللذات ينزل أهله
وجدي لما تدعي إليه وسابقي

وهذا هو أحمد بن محمد بن جزي الكلبي يقول من قصيدة طويلة :

واعظي شيب سما فوق لمستي
سمو حباب الماء حالا على حال

أنار به ليل الشباب كأنه
مصاييح رهبان تشب لقفال
نهاني عن غي وقال منبها
ألست ترى السمار والناس أحوالي
يقولون غيره لتنعم برهة
يعمن به من كان في العصر الخالي
أغالط دهري وهو يعلم أنني
كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي
ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه
بأنسه كأنها خط تمثال

وللقاضي أبي القاسم الخضر بن أحمد الغرناطي قصيدة في الشيب نظمها على منهج ابن الرومي
في الإلحاح على الصورة، ويشبهها قصيدة لأحمد الصافي النجفي في وصف النجم:

يقول القاضي الخضر في وصف الشيب:
لاح الصباح صباح شيب المفرق
فاحد سراك نجوت مما تنقي
هي شيبة الإسلام فاقد رقدراها
قد اعتقتك وحق قدر المعق
خطت بفودك أبيضاً في أسود
بالعكس من معهود خط مهرق
كالبرق راع بسيفه طرف الدجا
فأعار دهمته شتات الأ بلق
كالفجر يرسل في الدجنة خيطه
وبجر ثوب ضيائه بالشرق
كالماء يستره بقعر طحلب
فتراه بين خلاله كالزئبق
كالحيمة الرقشاء إلا أنه
لا يبرأ الملسوع منه إذا رقي
كالنجم لرجم شيطان الصبا
يا ليت شيطان الصبا لم يحرق
كالزهر إلا أنه لم يتنم
إلا بغصن ذابل لم يورق

كتبتم الزنجي إلا أنه
يبكي العيون بدمعه المترق
وكذا البياض قذى العيون ولا ترى
للعين أبكى من بياض المفرق
ما للغواني وهولون خدودها
يجزعن عن الألائه التاللق
وأخلته لمع السيوف ومن يشم
لمع السيوف على المفارق يفرق
هو ليس ذاك ولا الذي أنكرته
فكن خائفا ما خفن منه واتق
داء يعز على الطبيب دواؤه
و يضيع خسرافيه مال المنفق
لكنه والحق أصدق مقول
شين الميء الفعل زين المتقي
وللأسف لم نجد هذه القصيدة كاملة .

وفيه من التشبيهات واللفات النفسية مالا يوجد غيرها ، وقائلها من فقهاء الأندلس الذين لا
يقولون بالتقليد .

ومن فقهاءنا الظاهرين — كثر الله سوادهم — الشيخ منذرين سعيد البلوطي يقول :

كم تصابى وقد علاك المشيب
وتعامى عمدا وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير
إن يوم الحمام منك قريب

و يقول

ثلاث وستون قد حزتها
فماذا تؤمل أو تنتظر
وحل عليك نذير المشيب
فما ترعوي بل وما تزدرجر

و يقول الوزير حسان بن مالك وهو من أصدقاء شيخنا الوزير أبي محمد بن حزم :

رأت طالعا للشيب بين ذوائبي
فعادت بأسراب الدموع السواكب

وقالت أشيب قلت صبح تجارب

أنار على أعقاب ليل تواب

وإن كانت للشيب حنة غير النذارة ، فذلك أنه مؤهل عال لم يطبع في السربون ، لأن ذا الشيبة
يسمى شيخا وإن كان أعبى من باقل ، فهو لقب علمي يرشحه الممارسة وطول الدربة .

الفنان يتألم ، لهذا ينفق

يتميز بعض الناس بالحساسية المفرطة ، ورهافة الحس ، وهذه تدل على صدق الانفعال ومن كانت هذه خليقته فليس برجوازيًا عادي التفكير، ميت الحس ، وإنما هو فنان بمعنى الكلمة .

والفن قمة التفوق والعبقرية ، ذلك أن الفن صفة جمالية ، كما أن العبقرية صفة للتفوق في العقلية ، والخيال ، والعاطفة ، والسلوك ، واللغة .

فإذا جاء الحق (عمل العقل) والخير (ما ينبغي أن يكون) بوجه فني فذلك قمة الفن في المنطق والأخلاق .

فإذا أضفت إلى ذلك جماليات الخيال ، واللغة والعاطفة ، فقد جمعت القيم الثلاث الحق ، والخير ، والجمال ، وذلك قمة العبقرية .

ومرهف الحس يتمتع أكثر من غيره بآيات الجمال ، ومتع الحياة .

وأخالكم ستقولون هنيا لمرهف الحس ، لأنه يتمتع بآيات الجمال أكثر من غيره .

وأخال أن هذا الكلام حق لو أن مرهف الحس يتمتع بالألم كما يتمتع باللذة ، أو أن لحظات المتعة في حياة الفنان أكثر من لحظات التنغيص ، ولكن الأمر بالعكس في كلتا الحالتين .

إن مرهف الحس في عذاب نفسي في مواجهة القبح ، بقدر ما هو في نعيم نفسي من متع الجمال ، وإن لحظات المتعة بالجمال في هذه الفانية تعد بالثواني بيد أن لحظات التعاسة تعد بتعاقب النيرين .

إن الفنان محسود بلا ريب ، وحاسدوه كثرة .

ولكن قلما نجد من يرثي له أو يرق ، ذلك أن ذكاء الفنان ورهافة حسه وذوقه يبعذبانه .

والنقاد يقولون : إن أمتع أثر أدبي وأصدق ما جاء عن رهافة حس ، وصدق انفعال .

فالفنان مغبوط بأن أثره أجود الآثار ، أما أن يكون هذا الأثر الجيد نتيجة عذاب نفسي ، يعيشه المرهفون في اللحظات الجاحمة فذلك أمر لا يقطن له .

ولو فطن الناس لذلك لكان الفنان العبقري أحق بالرحمة والرثاء .

أذكر على سبيل المثال أن قبح الصداقة وآلامها أشد عذاباً يلزم حياة الفنان .
إن الفنان المراهف يؤسس صداقته على تخايل جمالية ، يراها فيمن يبسط فيهم .
وهذه المخايل قد تكون حسية . كجمال الطلعة وصباحة الحيا ، ولطافة الهيئة ، وظرافة الحديث ، وقد تكون معنوية كاختصاص الخلقية الفاضلة .
والفنان المراهف بعد هذا سريع الاحتواء لأصدقائه ، لأنه يرفض الثنائية البغيضة أنا وأنت .
وينفص هذا الاحتواء أدنى ملمح للثنائية البغيضة ، ولو كان طفيفا .
ومهما كان شبح الثنائية المخيف خفيا ، أو رهيفا فإن الفنان المراهف يرى ذلك جهرة ، لأنه لا معنى لرهافة الحس إلا الرؤية الضاحية للأمور الخفية الدقيقة .
إن الفنان المثالم مرشح لأن يكون مفكرا ، بصور أعرض تجربة في الحياة ، ويكتب من نياط قلبه
أصدق ما تنطوي عليه المشاعر وكل ذلك عن وعي وحذق بمجالي الجمال في فكرته وعاطفته ،
ونخيله .

• • •

لو كنا أغبياء ؛ لكننا عظماء

ليتذكر كل واحد منا مدى الزهو الذي يجنح به إذا خايل ملامح الذكاء في لغة طفله .
فلعله يهتز طربا بأن ذلك الشبل من ذلك الأسد ، أو لعله يلتمس الأعراق الدفينة في ذكاء خاله ، أو عمه ، أو جده .

ولو عرف الناس مدى ما يعذبنا ذكاؤنا كما وكيفاً لكانوا يرتاعون من مخايل الذكاء في أطفالهم ، ولكانوا يقنعون رؤوسهم ، ولما كانوا يتمنون لأطفالهم عرض تجربة تكشف عن فضل الذكاء وحدته لدى أطفالهم .

ذلك أن الأذكىاء ليسوا سعيدين في حياتهم ، إن الذكاء نقمة بقدر ما هونعمة .
ولهذا ترى الأذكىاء المحنكين يهربون من ذكائهم في أكثر مناسبات حياتهم .
إن الذكي المحنك يتظاهر بالتغفيل أو الطيبة أو الجهل ، حتى يأمن الناس جانبه ، لأن كل مكر ونصب وخداع ومكيدة عوارض مرض تنتسب إلى الذكاء .

والذكي المثالي يهرب من ذكائه أمام أعذار صديقه الكاذبة ، لأنه يريد أن يجعل المناوح واسعة أمام صديقه حتى لا ينقطع خيط الصداقة ، وهو خيط شفقي شفاف .

والذكي المحنك يهرب من ذكائه ، أمام أكاذيب الناس في معاملاتهم وتصرفاتهم وخبثهم ، ليأخذ أكبر حظ من التجربة التي تكشف عن نوايا النفوس المريضة .

ولوقابل المكر بذكاء لكان الخبثاء يحتاطون لذكائه ، فلا يظهرن إلا بوجه مبرقع .
الذكي المحنك يقرأ أسفارا هائلة عن أعراق الناس ، وتمجيد الأقزام ، وتفسير أحداث التاريخ وفكرنة الأنظمة و يرى فيها من الغباء واختلال المنطق والتعمية ما يهيض جناح الفكر .
ولكنه يهرب من ذكائه و يقول سلمنا سلمنا ، ولو استعمل ذكاءه لحاقت به اللعنة ، ونابذه الرعاع وهم أهل الصولة في كل زمان ومكان .

والناس يرون مفارقات الحياة بين أمم مغرورة بماض لها غبي تعتبره أجدادا ، وبين أمم متواضعة للحقيقة شمالة في طلبها .. بين أمم متقاعسة مفرطة في ماض لها ذكي ، وبين أمم وثابة تسعى إلى

إحياء أجدادها ولا تعتر بذلك حتى تربط الماضي بالحاضر، وتتوثب للنظر الذي سيكون حاضرا ثم ماضيا .

ولكن الذكي المحنك يهرب من ذكائه فلا يرد هذه المفارقات إلى بواعثها وأسبابها .

إن ذكاه سيحرمه من فرصة العمل في مجتمعه، والذكي المحنك يرى في مآثر تنتسب إلى الفكر مالا يحصيه إلا الله من الرعونة والسفسطة والجهل والتعالم، ولكنه يهرب من ذكائه حتى لا يقال : إن فلانا على مذهب خالف تعرف .

أو إن فلانا عدا طوره .

أو إن فلانا تمنيه نفسه الغرور .

والذكي المحنك يتحداه معلومه وملقنوه بتكهنات لا يتقبلها الذكاء الفطري .

ولكنه يهزب من الذكاء حتى لا يسهف المعلمون أحلامه فيجمع الناس تقليدا على أنه غبي جاهل حتى لا يحرم من شهادة التفوق التي تتيح له العمل والكدح .

لماذا يهرب الأذكىء من ذكائهم، لو كان الذكاء نعمة؟

إن الحقيقة في هذا الوجود مغلفة بالمغالطات والأوهام والتكهنات والافتراضات .

والرعاع يقولون: كل الطرق توصل إلى روما .

ولكن الذكي يعذبه مليون طريق، لم توصله إلى روما بعد .

إنك لو محصت التاريخ ماضيه، وحاضره لوجدت أن أولى الناس بالترشيح لأخطر الأعمال ذلك الرجل الذي يقبل التلقين، و يتمتع بالعقل المعيشي .

ولوجدت أن الأذكىء بغير خبث هم الفاشلون في حياتهم العملية .

إن الذكاء كشاف بعيد المدى لزيف حياة مليئة بالأكاذيب والخداع والخبث .

ولو سألتكم أبا العلاء المعري لقص عليكم أخبارها، لأن أعمى المعرة عريض التجربة حاد الذكاء .

إن أمام الذكي ثلاث طرق ليس له الخيار في غيرها:

١— فإما أن يهرب من ذكائه، ويشيع عنه بعين رجيمة ويتغابي مع الأغبياء، وحينئذ يعيش محدودا سعيدا مأمون الجانب .

٢— وإما أن يكون ذكيا، ماكرا وحينئذ يقتصب الحظ اغتصابا ويقال: نفس عصام سودت عصاما .

٣— وإما أن يكون كما هو ذكيا غير مخادع يقابل الغباء بذكاء، و يقابل الخبث بذكاء، و يقابل الذكاء بذكاء .

وحيث لا يطمح بسعادة غير سعادة الساعة التي هو فيها إن كانت سعيدة .

إن الذكاء نقمة بقدر ما هو نعمة ، وإن الذكاء عذاب لا تحب ووقدته ، حتى تضعف هذه الملكة .

ليت للبراء عينا (٤٩)

هي فتاة من أرومة الشيمة العربية، يستكرهها الأهل في الأسر، فوضعت الأصول لمدرسة التمرد والرفض، وندبت أباها (براقا) تود لو كحلت عينيه بما أبدته من شهامة يتطامن دونها من ركز الله تحت نحورهن كحقي العاج .
دندنت بهذا (أسمهان) في هديل مسيل للدموع .

ليت للبراق عينا فيرى ما ألقى من عذاب وعنا
وقد استلهم منها الشاعر عبد الرحمن شكري مقطوعة جيدة افتتح بها مجموعة دواو يته .
قال أبو عبد الرحمن : ونحن نقول : ليت للبراق عينا فتكحل ببطولة طالما جابها بها ذكاء
جوحا .

ذلك أننا رأينا الذكاء نعمة بقدر ما يكون نقمة، وليس نعمة بإطلاق .
فمن العير على الأديب أو الفيلسوف .. إلخ : أن يعيش لذكائه ولواقعه معا .
إن ذكاءك يريك ما ينبغي بغير ما تراه في الواقع .
وواقعك يريك ما كان بغير ما تراه في الذي لم يمكن ؟
ولو كان لبراق أسمهان عين لتكحلت بثعلبية ظاهرية جديدة تقول للقرء : يا غزال .
ولو كانت الكلمة الفاصلة للذكاء الظاهري وحده لقلنا للقرء : يا قيطون .
لأن للغزال جيذا تليعا، وعينين ناعستين، وكل ذلك لا يلتبس في الذكاء الظاهري بعين
القيطون المشقوقة، وذيله القبيح .
ولو كان لبراق أسمهان عين لتكحلت بسذاجة ظاهرية فرضها الواقع، واغتصبها من الذكاء .
ولهذا فالنعامة طيب الله ذكرها واقعية أرادت ألا تكون ذكية، لأنها ظاهرية .

(٤٩) هذه المقالة من مهم أطروحة الماجستير .

تدس رأسها في الرمل ، وتكشف عن ساقها للعراء ولو كانت ذكية لعجز الربيع الخالي رغم
سرعتها عن أن يسمعها ولبقيت في عدو مستمر .

وهكذا المؤمن يجب أن يكون غراً في بعض الأمور .

إننا معذبون بذكائنا .

محسودون على عذابنا .

وربما ملك إرادة الأديب من خفافس الفكر من لا يملك ذكاءه .

وقديما قيل : إن الرأي لمن يملكه ، لا لمن يراه .

عانينا هذا كثيرا فيمن يسومنا رأيا أو مسألة أو يرفض لنا رأيا أو مسألة :

لا يستطيع إقناعنا بحجة ولا يستطيع أن يسمع منا بحجة .

وخطابه لنا بلسان :

افعل .

وخطابنا له بلسان :

ارحنا .

ومادامت (أفعل) حقيقة في الأمر مجازا في الالتماس فالحكم للحقيقة .

ولو كنت غير ظاهري غير ذكي لاتخذت من لا لا موسيقى رضية .

هم لا يفهمون ما نقول .

ولكن العقل المعيشي يقتضي منا : أننا نقول ما لا يفهم وأنف أبي تمام راغم .

إنهم طالما اتهمونا بالغموض .

وهي خصلة لا حيلة لنا فيها وقد ذهبنا ضحيتها في مراجعات التصحيح السريعة .

ولكن ميزة القلم الأصيل والفكر الأصيل ألا يفهمه إلا الفكر الأصيل .

وموهوبو كل أمة هم شعرة الثور البيضاء التي تذكر .

منحنا الله عقلا نروض به ذكاء عتيا .

أو أدركنا رزقا أنيا نعرمه صومعة رهين المحبين فإن الإبداع الجيد ابن الذكاء الحر .

ولا إبداع لعقل معيشي .

ألف تحية من السيرافادا

ولو قلت: ألف ألف قبلة، لكانت جزاء لغيرك يا شاشتي الفضية.
وإن قلت: ألف ألف تحية، فذلك لك من عقلي وإحساسي.
وإن قلت: ألف ألف قبلة فذلك لمن وراءك من مشاعري، ومن اللامشاعر.
ولا أدري كيف أضيفها إلى يائي وأنا المتكلم، وهي المتفتية باللام.
هي أول وأقل وأمتع دقائق عشتها.
فلا أدري والله كيف أصنف تلك اللحظات في قاموس السعادة، أهي الأمانى والأحلام التي
ترك الفتى ملكا ولم ترفع له رأسا؟
أم التي تجعله يخطر من غير طريقه ولا يعي؟!
حسبي: أنها انتصبت أمامي واقعا.
ربما كان ذلك لولا أن الواقع لا ينمحي، ولا يتبرأ منه شريط الزمان بدهوره وسنينه وشهوره،
وأيامه، وساعاته، ولحظاته.
ربما كان ذلك لولا أن الواقع لا يمسه الوعي.
ربما كان ذلك لولا أن سعادة الدكتور ناجي يروعها حريق الفجر.
لقد جعل الله لنا أعصابا من المخ تنصور، وتعني، وتمايز، وتحفظ، وتستعيد.
ولكن الأحلام اللذيذة تبقى بهجة في القلب، وشهدا في المذاق، ولا تطيع عنها أعصاب المخ
شيئا.
ربما كان ذلك لولا أن الواقع يموت، ولا يبقى في حياة المولدين إلا أحلامهم.
ألم يبلغك خبر ذيلك الثعلب الذي يقول: والحب إن تنكحه فسد.
إنما أراد هذا الأرمي أن يتمتع بأحلامه وينقي صحيفته عن درن الواقع.
ربما، ربما.

ياإلهي:إنما (ربما) كمغراف الظمآن إذا غرف من السراب لا ينفع أوامه، ولا يدع السراب مغازلته بلمعانه، بل أقول وأنف ربما التقليلية راغم: إنه عنفوان الواقع، وحيوية الشباب، وأريحية الفيلسوف إذا غازله السراب تجسدت في تلك اللحظة، وكانت عصارة الشباب.

وليس على الله بمستكثر أن يجمع العمر في لحظة، وكم من عابث فدى الثلاثين وبلغتها بلحظة. لا أقول يا شاشتي الفضية وحاشاك أن أقول: إنك مسلطة على ناسك في صومعته اعتزل الناس، وثنى ركبته في بيته فجددت جرحا كاد يجف نديبه.

وعاودت بالأحلام يائسا كاد يسلو.

بل كنت بشيرا يسمح الدمعة، و يبشر بالأريحية، و يسلي بأيسر ما يقنع به من اختار السراب على العلل.

فإذا لم يبق إلا حواء الخيال والوهم غسلناها بجذ العزيمة والفضيلة.

ألف ألف تحية ودعك من الملايين فلسنا نحذق عدها لقلب إذا عاودته صوته نهز بدلوه من الأحلام، فلا يرى واله يفري فريه.

ثم يعود إلى جده كالسيف يعود إلى قرابه، و يستمد من صوته طاقته.

وألف ألف تحية لشاشة تلحس صدأ السهر والقلق وهموم كجبال الهملايا في لحظة الصفر الحاسمة.

وألف ألف قبلة من مراشف الوهم للتعديل الذي يواصل بوهم الطيف الأعيب الحرق والأشواق.

أقول هذا من الشباك شباك السيرانادا.

وكنت أظن أنني أجدف قرب الكورنيش وأرى أشباحا تعزف السيرانادا، لا أدري شيئا عن الصفات العشر التي يتفلسف بها من يتشبثون بالواقع.

ذلك أن لحظات الأحلام لا تعرف أين ومتى وكيف وما يتفرع من ذلك من صفات ست.

ولكن ثقوا أنني عشت الحقيقة.

وإنما مطمحننا الحقيقة مجردة من الزمان والمكان.

و يارب غفرا قد طفت أفلامنا وكتبته لكم من مجداف السيرانادا بأول أسلوب رمزي في الوجدانيات.

* * *

لا تقل سُنّا

لو كان له جناحان يطير بهما بسرعة الصوت أو الضوء : ما خرج عن ملكوت الله .
وإن عمر عمر لبد .

تقياً المشرق ، واختزن ثقافة القوم الشعبية الميتة ، ورأى أنه استول على الأمد كالصفدة لا يتجاوز بصرها جدران الجابية وتحسب أنها عبرت المحيطات .
وبخلت عليه ظروف حياته قبل عقدين ونصف عقد من مراغمة تنائف طويق وأحراش الضباب .

فلم يحدق شيئا من هذه اللغات العالمية .
وعلمه بالأوكسجين والحليات والكريات ومزارع الحشرات والأطباق والمذنبات واللاشعور والطاقة .. إلخ كعمرة شيخنا حمد الجاسر باللغة الفرنسية .
وفاته فرصة التجنيد الإجباري ليستوفي بالتألم ما عجز عنه المقال .
ولو أتاحت له الفرصة لرفضه العرافون ، لأن قدميه مستويتان ملتصقتان بالأرض خاليتان من العضل .

ورمت به الظروف في غير رحمة إلى جاحم الحياة في المدينة ، فكانه درج في غير عشه .
ورأى تراثا يزدرى مواله .
ولم يبخسه ربه حظه من الموهبة ، ولكنها رهينة محبين فكان أبو العلاء أعذر منه .
وكان أجلى ما في مواهبه : عين تشناق وتدمع ، وقلب يرق وتكسره علامة الجر الباطنة ، وكبد تنفتت في ليالي التشرين .
وهو يخشى ضيعة الشباب كما وخطته شيبة تهدد متعته وتنقص طموحه .
فاتخذ حشرة الأموات في الطروس الصفرسيمير وكان رفاقه شهاب الدين وتقي الدين وجلال الدين .

ولم يعد يعبأ ببلاط كامب ديفيد سواء ألعب فيه اللاعبون بكعب أو بكعبين .

ووجد في مساحيق طيبة الذكر (الكواكب) قضيته الضائعة يلحس لها، و يشرب حورا،
و يلتوي نطاقا لكشع ضامر خدره الهيام .

لا تعذله فتوجمه .

ولا تقولوا شئنا فإن الحظ شاء .

إما النبوغ وإما ..

يقول الأطباء : إذا استؤصلت إحدى الكليتين تضخمت الأخرى حتى تقوم بوظيفة الاثنين .
وهكذا كل عضو إذا أصيب بضعف قام عنه عضو آخر بأداء وظيفته .
ومن هذه الظاهرة البيولوجية صفع أدلر نظرية فرويد التي تقول بأن الغريزة الجنسية أساس السلوك .

وقال أدلر وكان قد انفصل عن مدرسة فرويد سنة ١٩١٢م :
إن شعور الإنسان بالنقص هو الذي يدفعه إلى تعويضه بغريزة النزعة إلى القوة والسيطرة والتفوق . ١هـ .

وكل الناس يشعرون بالنقص ، ويتجه سلوكهم إلى التعويض بنزعة التفوق .
ولكنهم لا يستطيعون كلهم التفوق .

وإذا لم يستطيعوا كلهم ذلك فلا بد من أحد أمور ثلاثة لا رابع لها :
إما النبوغ .

وإما الانحلال .

وإما الأعصاب .

قال أبو عبد الرحمن : إننا معشر الظاهريين أشد عباد الله نزوعاً إلى النبوغ لأننا أشدهم شعوراً بالنقص .

إن شيئاً لا نقدر عليه .

وإن شيئاً نقدر عليه لا نأتيه .

ففي الثانية نحن أقوياء ، لأن إرادتنا بفضل الله حرة نقدر ونأبى !!

وفي الأولى نحن نوابغ لأننا نرقص اللاشعور ثم نجعله مستراحاً لأحلامنا .

أذكر صديقاً لي ظاهرياً كانت جاكليين عنده أخت الدموع ؟!

وكان المال بعيداً وكان وازع الضمير قويا إلا أنه رقص اللاشعور بأحلام أسرها إليّ ، وممرت

بأبي عبدالرحمن فترة كان يسمع فيها هينمات ما فيخضل دمعته ، و يفص بريقه .
وكان وكفى بالله حسيبا يقظ الضمير والوجدان الديني فأيقظ اللاشعور ورقصه بالأوهام
والأحلام شعراً ونثراً فقهر الشعور بالنقص .
وهكذا كل من لاقبته وأجزم لي بأنه ظاهري أجزم لك بأنه نابعة له في مجانين بني عامر مراضع غير
محرمة .
اللهم إني أسألك لي ولمن أراد أن يكون ظاهرياً النبوغ لا أريد إلا النبوغ وحده بديلاً من أمرين
أحلاهما مر!!

ولهـم الحب ١

كثيرا ما تختلف المذاهب وتصطرح الآراء في حكم مسألة من المسائل ، ولا سبب لذلك إلا سوء القسمة العقلية ، وفساد جهتها .

ذلك أن سوء القسمة نقص وفساد في التصور، فلا يحق لك مثلا أن تقول :

التأمين حلال أو حرام .

أو الغناء حلال أو حرام .

بل عليك أن تحصر صورته وألوانه في الواقع وعليك أن تحصر صورته وألوانه في العقل .

ثم تعطي كل صورة حكمها .

ولك أن تأخذ بجماع القسمة ، فإذا رأيت الربا محرما ، ورأيت الأكل بالباطل محرما ، ورأيت الغرر محرما .

فلك أن تأخذ الصور المندرجة تحت هذه الأمور الثلاثة وتقول :

صور التأمين لا تخلو من أن تكون ربا أو غررا ، أو أكلا بالباطل ، أو إلخ .

فيكون تقسيمك للمجامع لا للصور .

هذا هو المنهج التحليلي الديكارتي .

وهذا هو المنهج الجيد لصحة التصور، وعليه سأحاكم دعوى الحب الصوفي فأقول :

الحب الصوفي مجرد وهم أو دجل .

الحب بهجة في القلب وللقلب بالحب أكثر من لذة ، ولكل لذة مذاق خاص .

ولنما يميز بين مذاقات هذه اللذات ، الشعور الباطن ، ويعجز اللسان والقلم ، عن تشخيص ذلك وبناء على اختلاف هذه المذاقات تختلف أقسام الحب وتتمايز .

فثمة حب تبعته الشفقة والرحمة والولاء والوفاء والمنافع كمحبة الابن لأمه وأخيه وأبيه وولده ، وكمحبة الصديق لصديقه وكمحبة المشاهد لمهرج يسلية أو مطرب يغني له .

وثمة حب الشهوة كمحبة الجنس والأكل والطيب واللباس الجميل والآنية الفاخرة .

فهذا نسميه الحب الشهواني ، و يدخل فيه الحب الجنسي .
وثمة حب لا علة له ولا باعث ، كأن يعلق قلبك بمحبة من تراه لأول مرة لا عن شهوة ولا جنس
ولا شفقة ولا منفعة .

فهذا هو الحب الروحي لا سبب له ، إلا ائتلاف الأرواح وتمازجها .
وقد غلط قوم فزعموا أن هذا الحب ، الروحي هو الحب الصوفي .

قال أبو عبد الرحمن : ونحن ننكر ذلك من وجوه جمّة :

أولها : أن للحب الصوفي اصطلاحاً خاصاً وفلسفة خاصة ، تخرجه عن الحب الروحي .
وثانيها : أن الحب من أعمال القلوب ، وحب هؤلاء الصوفية إما عقلي وإما خيالي .
وثالثها : أن محبة الله ومحبة حزه ، ومحبة شرعه مزيج من العواطف يجتمع في القلب ، فلا تتميز
عاطفة الأشواق إلى الله ووعدته عن عاطفة الشفقة من غضب الله ، ووعدته عن عاطفة
الخشية والعبرة عن عاطفة الشكر والولاء عن عاطفة التأمل في عظمة الله وملاحظة آثار
لطفه وتدبيره عن عاطفة الاستهانة بكل أشواق غير الشوق إلى الله : أي تجسيد معنى
العبودية في القلب .

فهذا المزيج من العواطف هو حب الله ، وهذا لا يحصل إلا بإيمان ، وصلاح وقربة .
والصوفية يدعون وسائل إلى هذا هي الكفر والضلال كالوحدة ، والخلول ، وسقوط التكليف
والكذب على الله بدعوى الولاية والمكاشفة .

فكيف تحصل محبة الله ، بوسائل كافرة ؟

وإن قلوبهم أفرغ من قواد أم موسى .

الحب على لسان أبي زهرة

ثنا صالح جودت كتابة في حواء عن الشيخ محمد أبوزهرة قال: زارني طالب في قسم الصحافة بكلية الآداب وطلب مني حديثاً عن الحب ورفضت، فظل يطاردني ويلح لأن أستاذة الدكتور عبداللطيف حمزة قال له: إذا استطعت أن تظفر بحديث عن الحب من الشيخ أبي زهرة فأعطيك درجة الامتياز في الصحافة.

فرق قلب الشيخ أبي زهرة لتوكل الشاب وقال له: اكتب يا سيدي: الحب ثلاثة أنواع:

- الأول: الحب العذري وهو وهم لا وجود له على الأرض .
الثاني: حب الممثلين والممثلات والراقصين والراقصات وهو حب جنس يلعنه الله في كل كتاب .
الثالث: حب الزواج وهو الحب الطاهر المبارك الدائم إن شاء الله .

قال أبو عبد الرحمن: صدق شيخنا أبوزهرة —متع الله بحياته(٥٠)— إلا أننا نقول: إن الحب العذري حقيقي أكيد فقد أحب أبو محمد بن حزم ومحمد بن داود حبا عذريا ولم يتورطا رغم قدرتهما .

وتبعهما أبو عبد الرحمن في هذه الفضيلة .
قال أبو عبد الرحمن: الدليل على ذلك أنه شاب فوداي ما تجاوزت سهوب نجد وتنائفها ولم أحل بأي بلد لا ترد يد لأمس رغم مقدرتي على السفر .
وقد أضمرت في نفسي ألا أسافر إلا بصحبة أهلي أو من أستحي منه وذلك منتهى العذرية(٥١) .

(٥٠) الآن أقول: رحمه الله .

(٥١) نشرت هذه المعابة قبل أسفاري خارج المملكة .

عندما ينهزم الحب مرة

ترك الشاعر الغزي قول الشعر، وغسل كثيرا منه من ديوانه وتعلل بتعللات منها قوله :

خلت البلاد فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ولا أحسب أن الغزي صادق لأنني لا أحسب أن هذه المعمورة مادامت الدنيا ستخلو من مليح أو
مليحة .

ولن تخلو من قلوب تهفو .

ولا أقول ذلك رجما بالغيب ، لأن مذهبي في نظرية الجمال أنه لا مواصفات للجمال .

أعني أننا لا نسمي المليح مليحا لكيت وكيت .. إلخ .

ولكن المليح من يهفو إليه القلب .

الجمال ذاتي لا موضوعي .

إذن لن تخلو البلاد من مليح يعشق .

ولكن ربما خلا القلب من عشق المليح .

يخلو القلب من عشق المليح عندما ينهزم الحب في العمر مرة واحدة .

وربما فست أيتها القارئة هزعة الحب بتعذر الوصل أو تعمره .

وهو تفسير خاطيء ، لأن الوصل إذا تعسر أو تعذر انتصار ساحق للحب .

والمحجوب في هذه الحالة يتضخم في مشاعر المحب إلى أن يكون مثالا خياليا ، وتضفي عليه الرغبة
المكبوتة هالة القداسة .

وإنما يفسر انهزام الحب بالوصل حينما تنطفئ جذوة الحب في أحضان الوصال .

يومها يستهتر المحب بكل حب جديد .

و يومها يعرف المتيمون أنهم غارقون في الخيال .

وعندما ينهزم الحب مرة واحدة فإنك لن تحب أبدا .

ليلة حب

سيرة الحب وأنت الحب، وظلمنا الحب، وأنت فين والحب فين، والحب كله، والحب كده،
وليلة حب: رصيد هائل من الدغدغات يجمعه (حب الحب) وهي ظاهرة احتفى بنقائها حسين
السيد، وعبد الوهاب محمد في مهاتفة (ألو.. ألو) وقد طوحت بهم الظنون.
وعندي أن بني آدم صنفان لا ثالث لهما ولا رابطة بين الصنفين إلا الحب فهو لغة التفاهم
بينهما.

وقد عايشنا موسم بنت ابراهيم ابتداء بليلة الجمعة الفائتة، بين دفلجة محمد وتهويمات أحمد
وأنغام بنت ابراهيم، وكانت لحظة أنس لا ينقصها إلا صغير الخنافس من خلال المذياع.
وكان لثومة خرجات جمهورية يبدو فيها التكلف أحيانا كمطلع سلوا كؤوس الطلي هل لامست
فاها، وكالحب كده.
وأحيانا تتألق ولا يبدو للتكلف أثر كهات عينيك.

أما ليلة الحب فلا يأخذ فيها نفس الكوكب مجراه الطبيعي، فلو كانت قبل أوانها بعشرة أعوام
وتخللها انفصالات جمهورية عند المقاطع اليتيمة لكانت أعز أنموذج لفنها، ولا نفسر هذا بأنها لمست
حاجة الشرقيين إلى الهدوء احتذاء للغربيين الذين باتوا يرتاحون تحت الضوء الخافت والسمفونية
المهادنة، وإنما ذلك لأنها لا تقوى على ما كانت تقوى عليه في الأطلال، والر باعيات وفكروني، فقد
أنفقت عمرا مديدا وهن فيه العظم وانكششت خلاله الرثتان وكنت أستمع باشفاق إلى قولها
(نخلصه حب) فأخاها تنطق الصاد من مخرج الثاء.

وكنت أتصور أن مقطع (تعال.. حب العمر.. إلخ) كمعازاة الخطيب، أو الواعظ، وأشفقت
ألا يكون فيها جمال غير ذلك، فإذا بنا ننقل إلى عوالم صوتية انطلاقا من مقطع (لو كل حب).
ألا ترى أن مقطع (أنا حبي أكثر) و(ويايا ويايا) و(انت بعيد ويايا ويايا) دفلجة ترقص
الإبل على ضخامة أجسامها وضخالة عواطفها، لأنها لحن شرقي خالص.

وكان في الكلمة التي كتبها شفيق (الربيع الورد، النبع اللي جاري، الجيتار، الممس).
وقد استعيض عن الجيتار والممس كلمة (النسيم الحلو) وهذا تصرف في منتهى التوفيق.

فالنسيم هو المناسب لسياق مظاهر طبيعية سبقت يطرّب لها العشاق ، ولا معنى للهمس بين النبع الجاري ، وإنما يهمس المتدلي الفرزدق ، وابن ربعة صاحب نعم وامرؤ القيس صاحب عنيزة يحاذرون أن يندربهم الحي ولا معنى للجيتار مع اللقيا ، وإنما يتعلل به عند الغيبة .

وظني أن هذا التصرف من الكوكب فهي صاحبة ذوق أدبي رفيع ، تصرفت في الأطلال ، وإلى عرفات الله والرباعيات ، وغيرها تصرفا يدل على سمو ذوقها .

وقول شفيق (أنا حبي أكثر) دعوى إنما قدم برهانها الذي فقد وعيه لما تلا : (بربك هل ضمنت إليك ليل) وقدم البرهان خنافس ذوو رخاوة في إيطاليا استمرأوا الانتحار لأجل روايات غرامية مجنونة مستعجلين طريقهم إلى النار .

وقدمه ظرفاء بني عامر طيبي الذكر وفي صفهم عصفور الشكوك إمامنا محمد بن داود .

و يكون الحب أكثر في المجتمعات الوقورة المحروسة .

أما المجتمع الذي لا يرد يد لأمس فحبه زائف وقاح .

الكتابة بمدار الموسيقى

صدق أولا تصدق أن أبا عبدالرحمن إذ لم يمنح جمالا في الخط سعى في دأب إلى تعويض ذلك بورق أزرق أو أخضر مزري صقيل غالي الثمن مبروز بهوامش حمراء ونجوم ولم يرض الأسلوب المهلهل فكانت أسوته بلاغة القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الصحابة والبلغاء ونثرات الشافعي وابن جرير والجاحظ والتوحيدى وأهل المغرب إلى الزيات والدكاترة زكي حتى لا يجمع الله لنا بين رداءة الخط وتهلله الأسلوب .

وما كنا ننتقي من الأقلام إلا أئمنها وأجلها عملاً بنصيحة الكتاب كل هذا تخولناه .

فلم يكشف ذلك عما في عواطفنا من جيشان .

إن من أعير لسان سحبان وخط ابن مقلة وترسل عبدالحميد وفحولة الزيات وظرافة زكي مبارك وسخرية مارون عبود لن يعبر عن أدغال نفسه كما في نفسه .

ولما يكشف عن أدغال النفس وحرارة العواطف طريقة في الرسم لم تحذفها الشانتر والبراجم بعد ولكنه رسم صامت ينقش القلب على الخنايا إنه مداد الموسيقى .

أخ ثم بخ لو استطعنا أن نكتب بالموسيقى بدلا من الدفلة بها .

هذا أمير العود العربي وشيخ الأطارشة إذا امتد في إجهاشته لا يزيدنا بزجلته شيئا لا نجده في بلاغة الفصحاء ولا يحركنا بقلبه العطوف الألوف بما لا يحركنا به عطوفون ألوفون عندنا .

إنها الموسيقى التي تصاحب فريد الأطرش في زجله وفي قصيدة (عش أنت) .

ربما علق بالخيال أو العقل صورة من نقش القلب على الخنايا فيذل لنا شيء من المستحيل وهو الكتابة بالموسيقى ، كما فعل المأسوف عليه فريد على طرس جوانحننا .

إن من لم ترطب حياته دفلجات من الموسيقى سيكون ناقص الحظ من البلاغة والتعبير الموسقى الصادق .

يقول طيب الذكر كشاجم :

الألحان فائدة ونفعا	إن كنت تنكر أن في
هي ويسك أغلظ منك طبعها	فانظر إلى الإبل التي

تصغي لأصوات الحداة فتقطع الفلوات قطعاً
ومن العجائب أنهم يظمنها خماساً ورباعاً
فإذا توردت الحياض وحاولت في الماء كرعاً
وتشوقت للصوت من حاد تصيح إليه سمعاً
ذهلت عن الماء الذي تلتذ به برداً ونقعاً
شوقاً إلى النغم الذي أطر بها لحننا وسمعاً

ستر الله عن عواطفنا ما تلوكة ألانة المستترين وتغمز به الهمزة اللمزة ولا نزع عنا ظل العافية
والحياء .

* * *

فليكنوا شاهدين (٥٢)

فايزة أحد الرواس قبل الدفلة أوفائزة أحمد بيكوبعد الدفلة خايلت لي لا أدري أيقظة أم مناما
وقالت : أنت يا أبا عبد الرحمن كثيرا التشكي على هذه الجماهير سلامات ؟
قلت : بعثر اتراني الذي بعثر صفائك لما مشيت وسط الغيطاني والهوى — والله حسيبه — ماشي .
قالت : كيف يا شيخنا ؟
قلت : إنني مصاب بداء القلب ، وأريد أن أقول لهؤلاء الناس كل يوم شيئا أشهدهم بأن دمي لا
يطل ، فلا نذوب في أضحوكة ابن عباس رضي الله عنه إذ قال (قثيل الهوى لا عقل ولا قود) .
فنحن نرفض هذه الفتوى .
وأبشرك أنني أحص الرأس ولو كانت عندي عقدة لفكها وقام طائرا ذلك الذي بعثر صفائك ؟
وعلى أي حال لست أدري ماذا أقول مع مذر الشمس كل يوم ؟
قالت : أو ما سمعت مجدي نجيب فيما دفلجه زوجي محمد سلطان ؟
قلت : نسي .
قالت : (أولوا لكل الناس احنا حيينا) .
قلت : لا يستقيم هذا الترف على لساني وإلا فأكرمي بها من لهجة .
وكفى زوجك فخرا هذه الموسيقى التي تأخذ بتلايب القلوب .
وكفأك فخرا أنك فائزة .
قالت : الأمر يسير قل (نحن حيينا) أو نحن أحبيننا .
قلت : سأحدث بلغة البزل القناعيس والأنا واللا أنا والاستصحاب والاستحسان والمكروه

(٥٢) هذه فلسفة لعمود كنت أكتبه بهذا العنوان في جريدة الرياض ، وكان صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز — حفظه الله — يكت علي بهذا العنوان .

والمباح وهكذا .. وهكذا.

فالموضوع — يا بنت أحمد — أشمل من (أحنا حيننا).

قالت: قل لهم كل يوم (خليكوا شاهدين) فيحضر القراء زاويتك هذه و يشهدوا لك أو عليك.

قلت: إذن خليكوا شاهدين مع مذكر شمس في كل يوم وليسمح لنا سيبيو به والحريري هذه المرة.

الجمال الفريقت

صالح علي الشرنوبى من الشعراء الرقيقة قلوبهم الخشوعة مشاعرهم بلغه وهويقضي الإجازة عام ١٩٤٤ وفاة أسمهان فكانت فادحة صدمت قلبه ، وأثار حزنه الدفين أنه شاهد رواية سينمائية مثلت فيها الفقيدة المأسوف عليها ، فاستلهم من وحي التراب هذه الميمنة .

هات الدموع فأنت شاعر ما للدموع لديك آخر
لم تلهم الأبراج قلبك بعض إلهام المقابر
ثم قال عن الفقيدة :

عاشت كما شاء الطموح	لها فمن وثب لخنض
وهوت كما تهوى الكواكب	بعد إشراق وومض
يا زهرة رفت رفيف النسيم	في السروض المريع
هذا شبابك في الربيع	فهل بسمت إلى الربيع
جافتك أفراح الحياة	وضمك الألم الوجيع
ما نفع آفاق الوجود	تضييق بالأمل الوسع
سيان في شرع القضاء	الشيخ والطفل الرضيع
هذا شبابك في العيون	الناظرات وفي الأثير
ذويته نغما يرنح	شجوه سمع الطيور
والصورة الخرساء	ملحمة مغلدة الطور
حجبت شجونك بابتسام	ليس من وحي السرور
كالواحة الجواء في	أحشائها سر الهجير
مثلت دورك في روايتهم	كما شاءوا عشيقه
قدرتمثل مرتين	على اختلاف في الطريقه
في شاشة الفن الجميل	وشاشة الموت الصفيقه
أبكيك هل ألهمت	أنك بعد أيام غريقه ؟
فنقصت دورك في	الخيال لتكمله في الحقيقه

وعبر روحها ذكره بأن قضاء الله لا يرحم الملاح ، لأن هذا العمر كالزورق الهيمان يضل طريقه
فيخبو الشعاع .

وقصة هذا التبر المترب أنه قلب تشيعه المعاني رزقنا الله الصبر على البلاء والمكاره !!

قاموس الفزل

وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟

إنها لفئة جادة صادقة تكشف لنا عن حكمة الخلق جادين أو عابثين .

وما الحنايا من هذه الأضالع إلا عناية إلهية لولاها لطارت قلوبنا في أدنى خفقة من الخفقات حينما يزحنا المنعطف بهذب متحشدة تريش سهامها؟

وهذه القلوب الضعيفة لا تهرب هروب الغزالة حتى لا تقع فريسة .

ولكنها ترمي بنفسها على السهم كما قال الشاعر أحمد العناياتي النابلسي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ:

يطير قلبي إلى الأخاطيه شغفا فاعجب له كيف يرمي السهم بالهدف؟

قال أبو عبد الرحمن: هذا نوع من البديع لذيذ يسمونه العكس .

بيد أنه تغطرس عليه المعاصرون عن سذاجة أو سماجة .

ولقد طرق هذا المعنى ابن لؤلؤة الذهبي وابن نباتة وسل عني كل منعطف بأرض الكنانة فلطالما أعيتني صيانة هذا القلب المتوثب:

وخشيت من قلبي الفرار إليهم حتى لقد طالبت به بضمين

إنهم كثيرا ما يتحدثون عن (العيون الخاطئة) لأنها آثمة بتوسلاتها .

وربما حل من لم يذق طعم الهوى بكاءنا بأنه الطهور عن نجاسة حكيمية .

وهذا على مذهب القائل:

نجس العيون فإن رأيتهم مقلتي طهرتها فزحت ماء جفوني

قال ابن عمر الظاهري: يأبى الله أن نصف بالنجاسة رموشا تجرح وتبلسم، ولا ذنب لها إلا أنها حبيبة لقلوبنا، وإن كانت قلوبنا فريستها .

ولا عجب فالفراسة حبيبة النار، ولكن الهدف أسمى، إنما الخاطيء الخاطئا، وخطيئة العين النظر، ولهذا فبالدموع تقتسل .

قاله الثعالبي وابن هندو.

وما نقول إلا ما قاله الشاب الظريف ابن العفيف :

أعز الله أنصار العيون وخلد ملك هاتيك الجفون
وأصبع ظل ذاك الشعر دوماً على قدبه هيف الغصون
ولقد كنت أعيب القاضي وأتندر عليه يوم هددنا بأنه سيجلدنا بسياط حبه ، ولم أدر أنه على بينة
من أمره ، فقد علمت من القاسمي (ت ١٠٥٤) : أن من أسكرته الأحاظ وجب على قلبه الحد :
سكران من الحاظه قامت على قلبي حدوده

كما تذكرت تقيماً أظنه لعثمان العمير استصعب فيه حيرة الشيخ ، حتى جازله أن يقول : إن
هذا الظاهري ليس في العير ولا في النير ، وقد صدق هذا الشاب الأنيق المتغرب في بلاد الثلوج .
فلم تدركني حرفة الأدب فحسب بل قعد بي عن حظوظ الدنيا هوى العامرية ، ولن أحتل لو
قلت :

قما لو أن العامري معمّر ما جن إلا معجبا بجنوني
ومن ذا يلومنا : وفي القدر مريح ؟
ومن الجفن سهم لا يطيش ؟
يقول أبو المرعث :
إن في بردي جسماً ناحلاً .

ما ذلك إلا حوب الخصر الناحل الواهن .
وإذا رأينا هذا التلازم بين الجسم المعنى وبين الخصر الناحل ، فكذلك نجد التلازم بين دمع
العشاق وتضرج الوجنة فإنها بدم العشاق تختضب .
ولهذه الظاهرة لا نطلب من دموعنا أن تكون شفيعة ، بل نعكس من احمرار الموق ذكريات طيب
الله صداها ، وليست إلا كما قال الحفاجي :

ولقد أطلت إلى احمرار خدوده نظري فمكس خيالها في ناظري
ولقد أحسن بنا الظن بعض الأصحاب فقالوا :

ما لبس هذا الظاهري عويناته إلا لأن نظره كليل من كثرة القراءة .
أنا أقول :

أهل مكة أدرى بشعابها ، ما كل نظري إلا من سحر الأحاظ ، ولا عجب فقد قيل :
كذا الشمس مهما شامها المرء لم يعد وإن صح منه الطرف غير عليل
ولا نعيم بني سبأ بن يشجب إلا بعقوب بين واضح لزرقه العيون ، حتى جاء المولد الظريف

مبكتا لهم بقوله :

وقد قيل في زرق العيون شامة وعندي أن اليمن في عينها الزرقا
وما كل من خفقت جوانحه يباح له شم أو ضم ، لاسيما إن انتسب إلى العلم بسبب ولا يصلح
أن يكون الود شفيعا إلا أن يصح العقد الشرعي ، لأنه الطرف الثالث الذي يشترط رضاه . يقول
الخبيلي (ت ٩٧١) :

يلومونني في ترك ضم قوامه ولا إذن للنسك في الضم واللثم
نعم بيننا جنسية الود والصفاء ولكنني لم ألفها علة الضم

ومن عجبني أن القصاص وهو شرعة عادلة مطلوب في قاموس الغزل .

فليس في شرعة القاتلات بلا عقل ولا قود أن يعرض من عض وجنة غضة بدم المولمين على أن
فتوى فقيه المالكية القاضي عبد الوهاب رحمه الله : (وما حكموا في غاصب بسوى الرد) .

وإذا كان الجزاء من جنس العمل فمن الواجب أن تعض لسان كل مليحة كاذبة ، فمن لي
بعض لسان الكاذبة لو كان قانون الغزل يصني لهاتف العدالة .

وعندما أطر بوني بنعيم الحب قالوا : إن الوصل بعد الصد يحلو !

وأنا أقول :

ما أمر الصد ولومرة ، وما أمر الوصل بعد الصد ، لأنه منطبع بذكريات الصد أبدا .

قال حين بن أحمد الجزري الحلبي (ت ١٠٣٣) :

وإذا منعت الماء أول مرة وورده أخرى تذكرت الظما

قال أبو عبد الرحمن : ولا يحسب من قرأ كلامنا هذا أننا نرسل المعاني ، إرسالا لا نلحن بها عن
معين في الموق خياله ، وفي القلب حرقته ، وعلى اللسان عذوبته ، وفي احديداب العرين شميمه .

كلا .. إن نعماته تسري في وحشة الليل فتطير السعادة طيران عنقاء مغرب .

تمن علينا تهويماته ولكنه كما قال الأربيلي :

قد أنزل السلى على قلبه وأنزل المن على فيه
يؤنسي منه أنه كما قال ابن مطروح :

وأقول يا أخت الغزال ملاحاة فتقول لا عاش الغزال ولا بقى
و يوحشي أنني :

أبكسي إناء شبيبة في وقت ما امتلا أنكفا

نون النسوة

كنا نضحك على أخيات (هدى شعراوي) لما طالبن بحذف نون النسوة؟
وقلنا نحن: يا كل موال في حناجرنا: إن في خلقكن التكويني مرتفعات ومنخفضات تميزكن،
وستظل نون النسوة فارقا في التعبير ما ظلت تلك الظاهرات فارقا في الخلق.
قال أبو عبد الرحمن: هبكن تردن حذف نون النسوة للمساواة فذلك من دعابتكن.

قال الظاهري: إلهي إلهي أقص عليكن بعض القصص:
يتوثب تحت الجيد التليع متردان لعوبان، فنبصق على كل غال ونفيس، ونقول تف وبف
على أجواء لا يتنفس فيهن هذان اللعوبان فيرشدان فراخ الأوكار إلى معانقة الرياح و يتعلم منهما
الحبيس في الصدر القفر من ضلع إلى ضلع، وهو كهيتها في الحلقة.
لو لم يكن هذان اللعوبان لم تكن نون النسوة ولولم تكن نون النسوة ما بعنا عصافير القلوب
بدعابة متعجرفين ظالمين.

لقد رضعناهما حتى تنثر العظم، ثم كان الفطام الحازم، فظل الحنين يداعبنا إلى ظل طالما
وجدنا الحنان والدفء بأفيائه.
إلا أن حنان ما قبل الفطام أنثر العظم، وأن حنان ما بعد الفطام غادر الجسم شبحا لو توكلات
عليه شعراوية لانهدم.

ونحن أمة شמושة نجالد القرن، ونحاول التعف ونرد من سامنا خفا.
إلا أننا تركنا لكن ملك قلوبنا تتربعن عليها فما منكن إلا ملكة أكثر من قلب، ولولا نون
النسوة لحررنا قلوبنا بظبا سيوفنا من عبوديتكن.

لقد بكت عشرات الأجيال بعد المخزومي على جبداء نقصدها السهم من يد غير قاصدة فذرنا
مع كل تفعيلة دمعة:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول
ألا ما أرحم قلوبنا وأكرمها ونحن المكفهرين الدمويون، وما أقسى قلوبكن وإن لانت

ملا مسكن وترنحت نبراتكن .

إننا نكحل العينين بعرق الجبين من مذر الغزاة إلى تأو يبيها النهب لكن الجوعبقا والماء مقطرا
والنسيم عليلا .

فإذا متع الأصيل تماسكنا وتجلدنا وإن لم يكن فينا عرق نابض لنرقص لكن ساعة بعد العتمة .
قال تلميذ ابن حزم الظاهري :

لقد نصصناكن على (نون النسوة) وهي تعبئة من الحب والحنين والموال والتفدية والنحيب
والسهر لولائها ما استحققتن هذه التعبئة .

ثم تطلبن التنازل عنها .

وهذا من ضعف عقولكن .

وما مثلكن إلا كمثل الغرأو كمن ، أو من يقادون إلى الجنة بالسلال ، إن الجمال ملك كل ما
فيكن من شعرة داجية وهذب متحشد ، ولحاظ تمراحة .

ومن كمال جمالكن ألا تكن كاملات العقل .

ولهذا فليس لمخضوب البنان يمين ، وإنما العقل لنا ، لكي نرعى به ما فيكن من حباء خالق
الجمال سبحانه .

فحذار حذار أن تفرطن في (نون النسوة) فإن لها فرحتين إلا إن استطعتن تحرير قلوبنا .

ألف لا .. إنكن لا تقدرن على ذلك لأنكن لا تقدرن على تغيير خلق الله لكن الذي أخذ من كل
غناء وردّها وتفاحها ونرجسها وعليها الرقراق .

إلى حضرة المأسوف عليه (فرتر)

من أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري إلى جناب المأسوف عليه (فرتر).

السلام على من اتبع الهدى .

أما بعد .

فأحمد الله على نعمة الإسلام ، وأصلي وأسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان أرأف منا بأنفسنا .

ما ترك لنا دقيقة من أمور الخير والشر إلا بينها حتى تركنا على المحجة .

وامتدت رحمته بنا إلى يوم القيامة بشفاعاته الخمس ، وبنداآته المبتهلة على جنبات الصراط .

بأبي هو وأمي جزاه الله عن أمته خير الجزاء .

وأشهد أن عيسى بن مريم عبدالله ورسوله .

ومن نعمة الإسلام علينا الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حرم ربنا علينا الانتحار، وبين لنا أن قاتل نفسه في النار، وجعل العاقبة للمتقين الصابرين المحسنين .

ولا أحسب رسول الله عيسى عليه السلام إلا قد أخبر بذلك ، لأن الصبر خلق وعقيدة ، وهذه الأمور لا تنسخ .

ولكنك يا مترفرتر— كما قلت لقرائك— طفل كبير .

وزعمت أنت أن عيسى عليه السلام قال عن الأطفال الكبار: يؤمنون ولا يصغون .

وزعمت أنك تضحك لسذاجة المسكينة على قلة ما فيها من بواعث الضحك .

ولو كنت القاتل بلا عقل ولا قود لكانت سنة العاشقين .

أما أن تكون هي القتيلة فذلك مالا تحتمله قلوبنا !!

كتب القتل والقتال علينا

وعلى الغانيات جسر الذبول

وقد قلت كلاما له علاقة بعدم مبالا تك بالمسكينة ليونرا:

إن اللامبالاة تسبب من الخلل في علاقات الناس أكثر مما يسببه الخبث والاحتيال .

ولا يشفع لك أنهما أندرو قوعا أو أنك تعامل قلبك معاملة طفل عليل ، ولكن ربما شفعت لك الأقدار التي اخترمت (فرولين فون روسيون) وأنا أعرف مكانتها في قلبك ومن فشل حبه مرة واحدة بتعذر أو تعثر فستأخذ النزعة الفرارية بأقصى غلواتها ، ورأيتك في نزعتك الفرارية تستعذب نبرات عاشق مثلك حرقتة سحنات فانتته ، ثم لا تطمح إلى العيان وربما روعك أن الخبر ليس كالعيان ، وإن العيان قد يصدق أو يكذب ولذا احتضنت نبرات صاحبك بقلبك وقلت : ولم أشوه هذه الصورة الجميلة ؟

وما الحب بالوصف إلا نزعة فرارية وكم رأينا في هذا المنزع تسلية وحبورا .

إن صاحب هذه النزعة لا يغنيه من أي زهرة إلا أن يمتص رحيقها ولكن ذلك كالفراشة تدنومن النار ولا تحترق إلا إذا تهيأت الظروف لتتحد بمحبوبها .

فهبك معذور في نزعتك الفرارية هذه بسبب حب يائس يائس بيد أنك لم تفهم التاموس الطبيعي لنزعة الفرار لاسيما أنك تزعم الطهر والبراءة .

أليس معنى ذلك التاموس أن يهفو لللب لكل ملمح جذاب ، فإذا رأى تعذرا ، اكتفى بما يسمح به ذلك الطهر والبراءة من وصال أو لقاء فإذا وُجد المقتضى وتحلف المانع كما يقول المنطقيون مصصت كل الرحيق ؟

والمحب الواقى يكون فارا بقلبه الطفل كلما وجدت الموانع وإن كانت المقتضيات مضنية هكذا خرقت التاموس وأنت تقع في شرك (شرلوت) .

ألم تقل لك في أول لقاء أخاذ : سيحزنني كثيرا أن تكون أسوأ أفراد الأسرة جميعا .

إن من يعرف الهوى يرحم القلوب ولا يعذرهما وأنت أحق بالمرحة ما ظللت تقاوم سحر الشفتين الكرزيتين والوجنتين النصيرتين .

وأنت أحق بالمرحة ما ظللت تتحسر على الشاعر الألماني (كلوبسنوك) لأنه لم ير جلاله ولم يتذوق غمرات مجده خلال هذه العيون .

أنت أحق بالمرحة لأنه لن يغمض لك جفن ما بقيت تلك العيون مفتحة .

أنت أحق بالمرحة ما ظللت إنسانيتها تعذبك وهي تلاطف الشيخ الكبير ، وتكون بجانب صديقتها المحترمة وبجانب السيدة (م) التي يقتر عليها زوجها العجوز ونحن على إخوانها وأخواتها الصغار منذ نذرت نفسها أمأ لهم تنفيذا لعهد أمها .

وأنت أحق بالمرحة لأنك قرأت في عينيها السوداء ين انشغالها بك .

نعم أنت أحق بالمرحة في كل هذا، ولست أحق بالمعذرة لأجل كل هذا، لست معذورا في مطامح تلوث قداسة العقد الذي يربط البير بشرلوت.

ولست معذورا في الانتحار الجنوني وأنت غير محروم.

ألم تقل إن التي تحبها لن ترقد مع سواك ولوفيت؟

ألم ترعينها صفاء وطهرا؟!

وهل الطهر سوى الوفاء لمخلوق آخر له مثل قلبك وهما في طريقهما إلى عقد مقدس؟

ألم تلطمك شرلوت في لعبة جماعية لطمتين طبعتا على قلبك سرورا داخليا؟

ألم تطلب منك غيرة عليك وثأرا لك؟! أن تكون أقل ظرفا وتلطفا مع ذلك العابس المقطب؟!

ألم تقع في وثنية الحب بمشاعرك لا بحواسك و بخلت بأقل مطلوب وهو غمرة عين فلم تفعل؟

ألم تستحوذ عليك النرجسية منذ شعرت بأنها تحبك؟

كفى بهذا قنوعا يا مستر فرتر.

ما الحب إلا أن تحب وأن يحبك من تحبه

ألم تداعبك عن فرط براءة تقوم بها من غير كلفة وأنت تكتم مشاعرك عن حيك فلم لا تقابل الطهر بالطهر والبراءة بالبراءة؟

ألم تلامس يدها يدك من غير رية؟

ألم ينعشك برد أنفاسها؟!

لقد كان صاحبك الشرقي يحلم بدون هذا عندما تغنى بأنفاس السحر وليست سوى ترتيل حنجرة لها منا مكانة شرلوت منك :

أقدر فيها عريق النقا و ينعشني برد أنفاسها

ألم تكن تخفف عن أشجانك بلحنها العازف على البيانو؟

أقول مرة أخرى : كفى يا فرتر.

نعم لا أرضى أن يكون قلبك الطفل كالفانوس السحري من غير ضوء ، ولا أحرمه من شعلة ترسم على لوحته الصور ولكن حذار أن تتحرك هذه الصور فتجرح طهرو براءة شرلوت .

إنك في لحظة ما يعز فيها الوصال ترى بقربك من رآها وقد قلت : إن الحجر البولوني إذا عرض للشمس امتص نورها وشع مضيئا في الليل بعض الزمن .

إن من تغذى بهذا الغذاء الروحي لم يعيش أوهاما ولا خيالات إنما الوهم والخيال في الطموح إلى إطفاء الجذوة بأحضان يحرسها العقد المقدس .

إنك يا فرتر كثيرا ما تفسر الحقائق بالأوهام فتروي عن جدتك :

أن السفن التي تدنو من الجبل الممغنط : تنفك و يتطاير حديدتها فيسقط ملاحوها في اليم بين الألواح المتداعية وكأنك تفسر بهذا الإجحاف جاذبية شلوت إذا لم يفصلك عنها سوى ميل ونصف .

كلأيا مستر فرتر إن نيوتن أصدق من جدتك وقد قال : إن الجاذبية تضم ولا تبدد .

إنك لحري أن تغتبط بهذه الجاذبية وإنما الخوف على من لفظته الجاذبية فظل يسبح في الأثير .

وما كان يحق لك أن تتجاوز حدود الاحتمال للبير وهو رفيق صباك وشريك حياة شلوت وذلك احتراماً للعقد وترفعاً بكبريائك ، وغيره على طهرها وعفافها ، وشكراً لأوجه القنوع التي يتيحها لك .

كنت أتمنى أن تكون ذلك الأنف الأفتس دون الأنف الأفتى منذ علمت أن شلوت محروسة بعقد مقدس أما أن تكون ذا الأنف الأفتى فذلك ما يسلكك في نظام (الفريسين) الملاعين الذين كشف المسيح عليه السلام قناعهم لاسيما أنك دخلت أول ما دخلت بأنف أفتس .

حري بك أن تغتبط بعقد وردي بعثت به إليك شلوت في بدعة عيد ميلادك وهو من الشريط الذي يزين صدرها عند أول لقاء بينكما .

حري بك أن تغتبط بألف قبلة قبلت بها العقد فنفتحك بذكرى المباحج . حري بك أن تغتبط بهدية ليست على شرط الهدايا التي يمس غرور أصحابها من عزتك .

ولكنك تتكلم بمنطق متشائم رغم كل هذه النفحات .

حري أن تغتبط بأنكما في كل مناسبة تتكاشفان حبا مشتركا للبقعة المسحورة .

حري أن تغتبط بالأمل الذي لا ينقطع في لقاءات شابة .

حري أن تغتبط بميتافيزيقتك عن اللقاء والاتحاد في الآخرة وهذا ما تسلي به لا مرتين عندما اخترم السل جولياه .

تذكريا فرتر ما قلته عن بعض الجياد الكريمة ، التي تفصد بدافع الغريزة عرقا من عروقها إذا أجهدها التعب ليتيسر لها التنفس .

إنها تنفس ولا تنتحر وما أراك بحاجة إلى التنفس بله الانتحار وشلوت الطيبة تنفك بالأكسجين الكافي في كل لحظة .

ألم يلشمك الكناري بمنقاره رغم مداعبته للشفتين الكرزيتين ؟

كان عليك إذن أن تقول ما قاله الشاعر الشرقي سليمان العيسى : خذي شفتي يا داروليرجع الحب .

إن من ينال هذه الأوجه من أوجه الفنون لا يعتبر محروماً وإن العاشقين لوناوا بعض هذا لما وجد فيهم مجنون أو قتيل ولا تعجب إذا عتبت عليك بعض الشيء شريطة أن تتناسى الفوارق بين شرقي مسلم وغربي مسيحي، لأن لنا لغة من المنطق موحدة وحوالج قلوبنا الخافقة قد لا تختلف كبير اختلاف، فإذا كانت قرينك (ولهم) غذاء لأشجان قلبك فإن لي قرية على خط المرج لها نفس السحر والهالة.

وإذا كان يؤذك الرجل البورجوازي وأعني به الرجل الخامل العادي في معارفه وعواطفه فإنني أول من يمتقه و يبارك الرجل الفنان.

ولكنك أسرفت في تفسير الحجز التي تفصل بين الفنان البورجوازي تفسيرا وقع في حباله (هردس) و(ويلاند) عندما دعوتهم إلى تغليب العاطفة والخيال على العقل والرجوع إلى الطبيعة.

قلت: إن للعبقري حقا في تجاوز القواعد والقوانين لمصلحة عبقريته وفنه ولعلك جحدت ألف حسنة وأثبت واحدة عندما قلت: إن الرجل الذي يتبع العرف والقواعد الاجتماعية المقررة يندر أن يكون جارا ثقيلا أو مسيئا.

كلا يا مستر فرتر إنك لا تعيش أمة وحدك ولا تفقد الروابط والعلاقات المنطقية بمن حولك وليس العقل أحق بالسخط، لأن العقل والقلب والخيال يعتورهم عامل واحد من النقص والكمال أي ما يعتور كل حادث فإنهن حادثات فانيات.

وأنت يا فرتر لم تنتقد ظاهرة الخلق في أي مجلى من مجالي الكون، لأنك تؤمن بالعناية الإلهية، وما الإنسان بعقله وعاطفته وخياله إلا مجلى من مجالي الطبيعة الإلهية -

إن العقل لم يخلق عبثا بل جاء لينظم مسيرة العاطفة والخيال.

إنك لتسعد قراءك جدا لو عرفت أن عواطفك المؤلمة مادة خام يجب أن يصنع منها العقل خطوطا فزحية تستمد من العاطفة والخيال ذاتهما لتكون مأثرة فكرية على مدى الأيام.

ورأيتك تذكر فتاة طيبة ذات حظ من الجمال إلا أنها نافهة وغير جذابة فهذه نزعة ذاتية لا تختلف فيها.

وأنت تقول انطلاقا من فلسفة أبيقورية خيامية ماجنة : أنا أتألم خاصة إذا أرى شبابا في ربيع الصبا وزهرة العمر حري بقلوبهم أن تظل منفتحة لتقبل اللذات كلها وهم يكذبون بحماقتهم صفاء أيامهم الجميلة القليلة على الأرض إلا أن يدركوا بعد فوات الأوان: أنهم فرطوا بما لا يعوض.

كلا إنك لا تحكم بحماقاتهم إلا بعقلك ونحن نقول: لا يستطيع أي فنان تنغم عقله مع عاطفته أن يخزق ناموسا هو شرط حياته.

إن لحظات اللذة لا تتم إلا بلحظات قاسية كادحة تحميها وتهيؤها ، ونحن نبارك لذائد العمر إذا لم يكن ثمة مجبنة أو مبخله تحول دون عزائم الأمور أو تخيف على فطرة الخالق وشريعته .

إنك رجل مؤمن بلا ريب ولكن العيب أنك لا تصني ، ولكنك ستشكر ولا بد على فلسفات حليت بها الآلام ، فشيخنا الشرقي ابن حزم لم يدر بخلده أن يصور الجوحالة طلوع الرقيب والواشي وقد قلت أنت :

وإنه لطبيعي عندما يفاجئنا طارئ أو خوف مباغت ونحن في حالة فرح أن يكون أقوى منه في غيرها ، للخلف بين الحالتين ولأن حواسنا المتنبهة تكون أكثر قابلية للتأثر والانفعال .

ولك اللفتة البارة عن سحر الخيال وأن التشذيب يفسده عندما قلت : وقد رأيت في هذا أن الكاتب الذي يدخل بعض التحوير في طبعة ثانية لمؤلف من نسج الخيال إنما يسعى إلى هذا المؤلف ولو كان التحوير قد حسنه بالفعل لأن الطبعة الأولى تلقى منا الاستسلام والرضى .

وأبارك لك هذه الملاحظة وإن لم تكن بعيدة عن مشاهداتنا :

إن أية نزهة بريئة نقوم بها تكلف حياة آلاف من الحشرات والهوام وخطوة واحدة من خطانا تخرب جهود النمل الشاقة وترسل بعالم صغير إلى لجة القبر .

إلا أنه ليحيرني بعض المرات أنك تكتب جفافاً لا يناسب رقة الغربيين وقد طلبت من شلوت ألا تحذف رسائلها بالرمل حتى لا ينجرس الرمل تحت أسنانك فأين هذا عن جورك باللطمتين ؟

أين هذه الوصية المجحفة عن عواطف الشرقيين الصادقة ؟

يقول الطبيب من علماء المشرق : إسقاط التراب على الرسالة يعني الاعتماد على الله في إيصالها .
و يقول غيره : المراد بالترتيب المبالغة في التواضع .

ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو داود عن جابر أنه قال : إذا كتب أحدكم كتاباً فليتربه فإنه أنجح للحاجة .

وقال المهذب الموصلي :

لم يحسن إلا تراب فوق سطورها

إلا لأن الجيش يعقد عشيها

وقال الخفاجي :

مسطر الجند على وجهها

تربها النقع فلاح الفلاح

إن الترتيب يا فرتز فال وما فعلت لك شلوت إلا الفأل وكفى بها غبطة أن تجرس أسنانك بحبيبات لامستها بيدها الناصعة البريئة .

ولست أدري كيف تتلاشى في رخاء الحياة الصافية الآمنة .

ومثار الاستغراب أنني لا أعلم أنك تعتمد الحديث بلغة سريالية لقد غذاك روسوبشيء من الرومانسية الهاربة إلى الأوهام والأحلام .

وحسنا فعلت وأنت تقص على الأطفال قصصا من نسج الخيال دافعا في نحر من يقول : هذا من شأنه أن يولد في الأطفال أوهاما وأباطيل لا نهاية لها و يفتح أمام أذهانهم طريق الخرافة ، وذلك بقولك : لا يتاح لنا أن نهنأ ونسعد إلا بأوهام حلوة نتيه في بيدائها ، وما أنت بأحق من صنوك الفنان الشرقي بهذا الهروب الرومانسي في عصر يسوده المتر المكعب .

ومن سرياليتك غير المتعمدة قطعاً أنك تمهد لنهايتك الفاشلة بقصة فتاة ساذجة محدودة الفكر رمت بنفسها في البحر ، فلما خنقك (البير) بهذه الحجة تذرعت بسريالية تقول : إن القليل من الفكر والذكاء الذي يملكه أحدنا زيادة عن أخيه ليس له شأن في الميزان عندما تصطخب العواطف وتغلي وتحس بالحدود الضيقة المرسومة أمام الكائن البشري .

يا سبحان الله إذن لماذا تشرطون استثناء العبقرى بالأحقية في خرق القوانين المحترمة ؟!

لقد سنيت للشباب الألماني سنة سيئة بالآلامك هذه ومهما كان التقدير فهم من البورجوازيين الخاملين وليسوا من الفنانين الملهمين ، لأنهم اتبعوك عن أعمية وأرادوا شيئا يؤثر و يقال ، وما أفدحها خسارة لهم ولذكراهم والله المستعان .

روائح الجنة في الشباب

اقبلوا البشرى يا بني تميم وإياكم أعني يا أتراب أبي عبد الرحمن ولداته يا من رنقوا وحلقوا على خضرة ونضرة ليس فيها رام من بني ثعل أينعت لكم الأرض بنعيمها وتلطفت لكم الأصلاب والأرحام بالهوى المتبغدد، وكان الفكر البشري قيما على حاسة الجمال لدى العباد بحيث يصفوهم ما يأكلون ويشربون ويرق لهم ما يشمون أو يضمنون فهي ظلال وألوان وأضواء قرchie فيما نرى ونسمع.

واطمئني يا عشة الغار: إنك لم تتبتي كإهاب ابن حنبل وابن أدهم وابن المبارك وبشر الحافي.

فما أشبهنا وإياكم بطيب الذكر أبي نواس أحصى لحظات عمره الجادة المخبئة فإذا هي:
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشابه فإذا عصارة كل ذاك أثام
حيا الله محياكم لقد سررتهم وأبهجتهم، ومن سره بنوه ساءته نفسه.

ولا تزعجكم العصارة النواسية فهذا الرجل الصالح أبو العاتية وسع لكم المخرج ورفع عنكم حوب المدخل ومأثمه فقال:

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

ولست آخذ لكم الحكم بجملته ولست أرتاح إلى أن للمتصابي حجة من شبابه ولكنني أشم فيكم روائح الجنة إن لم تلوثوا الفطرة في أنقاء الجزيرة.

إن الشباب جمع بنا إلى التصابي ولنا من بقيته ما ينهض بنا إلى العزيمة لتقعد عن العصارة قبل أن تقعد عنا وعصارة الشباب صفحة في سجل أعمالنا لا نستطيع جحدها ولكننا نتوسل إلى ربنا بمحوها إن استجبنا لنذارة منه تنغم في الفودين وتشتعل في الناصية واللمة.

وإن غرر بكم العتاهي وقال (الشباب حجة التصابي) فما هي حجة الأشميط إذا انحسر عن الأشد، ولم تنضج منه روائح الجنة؟

اللهم إنك أعذرت لنا بالحجة فلا تحرمنا من العزيمه ونقنا برحمتك فرحمتك أوسع ولا تهلكنا بعدلك
وكلنا ظالم لنفسه ولا جلد لنا على حسابك إذا كان سؤالك عدلا وجوابنا ظلما .
آمين يا رب العالمين .

ابن اللبون

لو كنت غصة في حلق كل شاب واعد يفزو يهتز لأدب حديث بمفهومه المعاصر إلى هذه اللحظة التي أخط فيها هذه الحروف مما بلوره المثقف العربي غير العادي من الآداب العالمية وبالأخص الأمم ذات اللغات الحية .

أقول لو كنت غصة في حلق أحدهم لشفع لي ما أنا بسبيل الحديث عنه بعد قليل إن شاء الله .

وإنما فكرتني الأغيلة بما أحله من أثقال وأعباء الماضي العتيق كما زعموا!!

وهيهات يأبى الله ما زعموا، وإنما كنت — لو أنصفوا — نافورة تمج من قعر التاريخ ما هو أعذب وأصفى من قطرات الندى مع ألوان زاهية يتضاحك في جهوريتها تعانق المعارف البشرية وتآلفها!!

وما وعيت قط أن المثال والكمال رهين عصر ومصر حتى بليت بمن ولدوا بعد الثمانين!!

يشفع لي عند هؤلاء إن كنت غصة في حلقهم — وعسى أن أكون — غربتي التي لونت مشاعري وأفكاري وسلوكي!!

ولاحظوا أنني سميتها غربة — وهي رومانسية بكائية بلا ريب — لأن لهذه الكلمة جرسها عند أولئك، لأنها مما رده مفلسوثالوث الحدائة القبيح من أمثال غالي شكري والجزائري والرفاق!!

وليست هذه الغربة غربة من يتكلفها ليضاف إلى قاموس الحدائة!!

وإنما هي غربة قدرية كونية ماتمتيتها أبدا ولا سعدت بها قط!!

لقد حاولت أن أربي فكري — منذ أول تمييزي — على الحرية التي لا يحد منها إلا صدق النية في تحري الحق والخير والجمال!!

وكان زهرة حياتي الأدبية ما بين ١٣٨٦ هـ و ١٣٩٨ هـ حيث كنت ولداتي نغني غناء فكريا جاليا مع معطيات الرومانسية الشائعة عالمية وعربية نحيا بها كما نحيا بالهواء، وننشقها كما ننشق الأريج في إبداع وترجمات صاحب الرسالة ورفاقه، وفيما يصدق به عمالقة الطرب من شعر ناجي والمهندس وعمود حسن إسماعيل والديب وصوفية المهجر وما ترجم بالأخص عن الرومانسية الفرنسية من روايات.

ونجد في أنماط الغنائية التراثية — من أمثال شعر العباس بن الأحنف والبحثري ومهيار

والعذرين ومتميمي المدينة المنورة والمترفهين في الأندلس - ما يلون حاضرننا الأدبي، فكنا في نعيم وعافية وشفافية!

وأينعت الساحة الأدبية بمعطيات رومانسية متوثبة حضارية متطورة وجدناها في تجديد صاحب (مدينة بلا قلب) وهي غربة رومانسية وفي بكائيات الشاوي.

ولم تضق الصدور بتجديد في شكل القصيدة ما ظلت الفئائية الجمالية والفكرية عنصرا رئيسيا في معماريتها.

ثم تداعت هذه القمم واحدا بعد واحد، وعرض في السوق بأبخس الأثمان أقبح ما انتهى إليه ثالث الحداثة من هيبية وهسترة وتحطيم للثوابت ومعاياة وروث على المبادئ الكيانية والخلقية والجمالية والعقلية.

لقد كنا نشكو من تلوث البيئة فجاء جشأ العلمانيين والطائفين ليجهز على ما بقي في بيتنا من صفاء على قلته!!

أنتن الله منقلبهم ومثواهم!

فما لنا لا نشكو الغربة وقد عدنا الأنيس والمسامر منذ وجد كثير من مواليد الثمانين؟!

وما لنا لا نشكو الغربة والأغبياء الصغار من أبناء أمتنا يريدون منا أن نستعير غير عقولنا ومشارعنا ومعاناتنا وكياننا وجيلنا!

وأن نعيش غير مقبول ولا معقول ولا مفهوم ولا خير ولا جميل!!

إن في جيل الأدب الحديث رواداً قمما أحسنوا التفاهم مع الكبار من زملائهم المحافظين نأفادوا واستفادوا كالياب والبياتي وعبد الصبور.

ولا عجب فهؤلاء علماء قبل أن يكونوا أدباء، وكانوا على وعي بحاضرهم وماضيتهم، وقد اطلعوا على بعض الآداب العالمية بلغة أهلها، واستمتعوا منها بمتع يعجز التعريب عن أدائها.

وقد علم هؤلاء الرواد الكبار أن عرض الثقافة وطولها شرط لفهم الأدب العالمي الحديث قبل التفكير في إمداده.

ففشقتهم الرومانسية السالفة وتناغمت معهم، ووجدت لديهم كثيرا يتشرف به الأدب العربي، لأن الرومانسية ظاهرة أدبية وليست إطارا لجميع الأدب.

ثم جاء الصغار من أبنا بلدي وهم لم ينفقوا عمرا يسمح لهم بهذا الحجم العريض من الادعاء، وليس لهم عمق في تراثهم وليس لهم بُعد موفق مسدد في الآداب العالمية ولوطريق المغرب، وليس لهم من الممارسة والتجربة ومغامرات الحياة ما يحقق لهم إبداعا فطريا.

يعادون ما يجهلون، و يدعون ما لا يعلمونه، ولا يملكون رؤية كونتها خيرة ثقافية، ولا يملكون رأيا

كونه فكر نير، وإنما يقتضون منذ عرفوا الهجاء كلمات نقاد محترفين في مجلة أو جريدة أو كتاب استعراضي، و يأتون بالأساليب الإنشائية التي يراوغ بها الناقد المحترف إذا كان في ثنايا النقد نص لأديب حديث مشهور.

فاكبجوا جاحكم أيها الصغار فلن نشكو الغربة بعد اليوم — على رغمكم — بعد هذه الصحوه الكريمة التي تبلجت في أفقنا العربي والإسلامي.

فإن أردتم أن تقولوا شيئاً فمن حقي أن أطالبكم برؤية تملكونها وأصول مطردة تحققونها ولكن هذا بعد أن أعلم أنكم علمتم!!

فإن رطنتم بأسماء أعلام من قمم الأدب العالمي فعليكم أولاً أن تتوسلوا بالجامعات وأساتذة الكراسي ليؤلفوا لكم — بأسلوب تعليمي بحث — دراسات لنصوص أجنبية.

فليس في ساحتكم كتاب تعليمي ألته، مع أن الكبار في مصر والعراق لم يأنفوا من البدء بكتب تعليمية في الأدب الأجنبي.

ولقد اقترحت على الدكتور الوديع محمد ابراهيم الشوش أن يعيد تأليف كتابه (شيء من الشعر) بأسلوب تعليمي لعله يكون نواة لكتب تعليمية أخرى في مختلف الآداب الأجنبية.

فما أحوجكم إلى هذا قبل أن تستعجلوا الريادة ولما تطعنوا في العقد الثالث بعد.

وإنني على ثقة إن شاء الله بأنكم إن ازددتم علماً فستزدادوا تعقلاً وتواضعاً.

فإن بقيتم على صلفكم فوافضيتاه ممن سيؤرخ لأدبنا في العقد العاشر من القرن الرابع عشر والعقد الأول من القرن الخامس عشر والله المستعان.

مقومات الشعر الحر وفنائه

هذه دراسة عروضية شكلية بحتة لا تدرس الشعر الحر إلا من منظور صياغته العروضية ، وهي دراسة تعليمية بحتة أيضا اقتضاها جهل كثيرين من المحافظين لطبيعة الشعر الحر.

وخلال هذه الدراسة التعليمية وجدت خرجات نقدية اقتضاها جهل فئتين من مبتغي التجديد إما بالشعر الحر وإما بمقتضى المعمارية الفنية .

فالفئة الأولى جهلت أن الشعر الحر صياغة جديدة ذات أصول فمزجت به المتشور وشوهت جماله . و يدخل في هذه الفئة أناس سمق مستواهم في الشعر الحر فلما امتدت مساحة شهرتهم تعمدوا إفساد شكله ومضمونه من منطلق علماني أو طائفي لمزج الشبية العربية بالريح وعلى رأسهم المحتال الكبير أدونيس .

والفئة الثانية أناس اشتبه عليهم الأمر حول قيم الأدب العربي والأدبي العالمي ، فاحتدوا الأدب الأجنبي شكلا ومضمونا ولم يؤصلوا شكلا فنيا يتفاعل مع طبيعة العربي الذي يأبى ذوقه وطبعه الاصطلاح بالشعر على مأثور ليس فيه اثارة من موسيقى أو نظام .

هذه الدراسة الشكلية العروضية التعليمية كتبتها فيما بين ٢٢ / ١١ / ١٣٩٣ هـ و ١٢ / ١٩ / ١٣٩٣ هـ وألقيتها في مؤتمر الأدب السعودي الذي أقامته جامعة الملك عبدالعزيز سنة ١٣٩٤ هـ .

وقد اطلعت عليه الشاعرة الرائدة والناقدة البليغة نازك الملائكة وكاتبها ولم أجد عندها كبير معارضة ولو بقيت رسائلها لدي لسقت وجهة نظرها في معارضاتها الطفيفة .

وفي هذه الدراسة العروضية التعليمية راعيت مقتضيات المنهج إلى حد قد يوصف بالترمت ! فمن أهداف التربية التعليمية الحديثة أن تعلم طلاب الجامعات المنهج الجيد للبحث . وأهم ظاهرة للمنهج الجيد أن يرتبط الباحث ارتباطا محكما بالعنوان الذي يفرضه على نفسه أو يفرضه عليه غيره .

ليكون شديد الارتباط بموضوعه فلا يتورط في طرفين ذميين هما الاستطراد . والبتر .

فالمستطرد خارج عن موضوعه .

والباتر مقصر في موضوعه .

وقد يكون المستطرد باتراً للموضوع ، إلا أنه يحاول تغطية ذلك بالاستطراد .
ولأجل هذا أحكمت الصلة فيما بيني وبين العنوان حتى لا أخرج عنه فأكون متكلفاً ما لا
يعنيني !

ولا أترك منه شيئاً فأكون مقصراً فيما يعنيني !
و يراد مني هنا أن أذكر المقومات والخصائص للشعر الحر تلبية لدعوة هذه الجامعة الكريمة جامعة
الملك عبدالعزيز غفر الله له ، وامثالاً لقيدها الحريري في اختيار العنوان .
وإن عطف الخصائص على المقومات في هذا العنوان يعني أن المقومات والخصائص شيان
متغايران .

والفرق بينهما أن قام الشيء بمعنى انتصب ، والانتصاب هو الاستواء سواء أكان حياً
كاستقامة البناء ، أم معنوياً كاستقامة النظام ، والقانون .
وقام فعل ماض لازم فإذا أردت تعديته عديته إما بالهمزة فقلت أقام أبو عبد الرحمن البناء ، وإما
بالتضعيف فقلت قوم أبو عبد الرحمن البناء .

وعلى هذا يجوز أن نقول : مقيمات الشعر الحر .

وأن نقول : مقومات الشعر الحر .

والمراد في كلا الصيغتين العناصر التي يستوي بها هيكل الشعر الحر بحيث لو تخلف منها واحد
لفقد الشعر الحر ذاتيته ، ثم بالتالي لم يصح أن يسمى شعراً حراً .

أما الخصائص فهي جمع خصيصة .

والخصيصة الصفة التي تميز الشيء وتحدده .

ولا تكون كذلك إلا إذا كان ذلك الشيء منفرداً بتلك الصفة .

وهذا الفرق بين المقومات والخصائص يعني أن مقومات الشيء هي كيانه وماهيته .

ومعنى ذلك أن قولنا مقومات الشعر الحريساوي قولنا حقيقة الشعر الحر .

وإذن فسندرس حقيقة الشعر الحر .

أما الخصائص فتلمح بعد تركيب الشيء من مقوماته ، لأنها أوصاف تظهر بعد اكتمال حقيقة
الشعر ، ونصوع ذاتيته .

وإذ قلنا إن الخصيصة هي الصفة التي يتميز بها الشيء عن غيره فمعنى ذلك أننا لا نحكم بأن
هذه خصيصة ، حتى نجزم بأنها لا توجد في غير ذلك الشيء وهذا مستحيل لأننا لا نستطيع أن نستقرأ

كل ما في البرمن بعة، وكل ما في البحر من درة!!
فلا مناص إذن من القول: بأن الحكم نسبي، وذلك باضافة الشيء إلى غيره.
فإذا قارنا الشعر الحربا لشعر العربي القديم تميز كل واحد منهما بخصيسته.
ولا ضير ثم إذا حكمنا للشيء بخصيصة ما، وهي في الواقع مشتركة مع غيره، لأن الحكم نسبي.
ألا ترى أن زيدا قد يكون من خصائصه التصرف في المفاجآت ومع هذا فالمحتكون كثيرون،
لأن الحنكة حظ مشاع بين عدد من البشر.
وإنما ميزنا زيدا عن أفراد معينين، ولم نميزه عن كل البشر.
وهكذا نحن في بحث خصائص الشعر الحر لا نحكم بأن هذه الظاهرة خصيصة، إلا بمقارنة
الشعر بغيره.
وقد أثرت بيان خصائص الشعر الحربا بالمقارنة بينه وبين الشعر العربي القديم لأن الشعر العربي
القديم هو الأصل لكل تجديد، أو نحو يرتبناه شعراء عرب.
ولأن ناظمي الشعر الحر ينسبونهم للشعر العربي القديم.
ولقد قننت للشعر الحروف ما قننته الناقدة البليغة الشاعرة نازك الملائكة في كتابها قضايا الشعر
المعاصر عن اقتناع بوجهة نظرها غير مستميت في تقليدها لأنني استدركت عليها أبحراً يستخدمها
الشعر الحر، وهي تأبى ذلك.
كما استدركت عليها التقنين لنظم قصيدة الشعر الحر على قافية واحدة.
إلى غير ذلك من الأمور التي استدركتها مخالفاً، أو مضيقاً، أو مستثنياً!
وفي محاكمة الشعر الحر، ومحاكمة نقاده كتبت بأسلوب الأصوليين، والفقهاء وأصحاب
الجدل، لأن الموضوع يقتضي ذلك، ولأنني ورثت عن شيخي الأجل أبي محمد بن حزم رحمه الله هذا
الأسلوب في المباحث العلمية.
والشعر العربي القديم الذي نظمته أقحاح العرب ينظر إليه من ناحيتين:
أولاهما: باعتبار أنه قالب أو هيكل، فيعرف بأنه كلام عربي موزون وزنا معيناً ومقفى.
وأخرها: باعتبار أنه مضمون أو مادة، فيعرف بما يتناول عناصر العمل الأدبي من خيال ومعنى،
وعاطفة، وأسلوب وفق مدارس النقد والأدب المتباينة في اعتبار جميع هذه العناصر. أو
الاقتصار على بعضها (٥٣).

(٥٣) حل محل العناصر عند ثالث الحدائة مصطلح المعاصرة والرؤية الفنية والروفا. وأصبحت الدعوى لدى دارسي أدب هذا
الثالث ومقتنبيه أكبر من حجم الواقع الأدبي من إبداع الثالث نفسه.

والشعر العربي القديم قد يتخلف فيه الاعتبار الثاني بأن يكون ردىء المضمون والشكل ولكن عنصري النظم من وزن وقافية وهما الاعتبار الأول لم يتخلفا عنه ، فلم نجد شعراً عربياً قديماً غير موزون أو مقفى .

والشعر الحر شعر عربي ، لأن لغته عربية ووزنه عربي وقد يكون له قافية كالشعر العربي .
و يتفاضل في مادته ومضمونه بما يتفاضل به الشعر العربي القديم .
فإذا أردنا أن نعرف الشعر الحرناظرين إلى قلبه قلنا :

إنه كلام عربي موزون مقفى ، إلا أنه في وزنه استخدام جديد لبعض أوزان الشعر العربي .
وإذا أردنا أن نعرف الشعر الحرناظرين إلى مادته فكل تعريف له من هذا الجانب يصدق على الشعر العربي القديم ، وإنما تختلف التعريفات في أخذ التعريف من أحد العناصر الأدبية باختلاف المدارس النقدية وتتفق كل التعريفات على أنها تعريف للشعر لا فرق بين القديم والحر .

ومن تعريفنا للشعر الحر بالنظر إلى قلبه نرى أن الشعر الحر يلتقي بالشعر العربي القديم في جوانب ، ويفترق عنه في جوانب .
واليك البيان :

فصدق العاطفة ، ومدى ما فيها من إثارة لعواطف الآخرين ، وخصوبة الخيال ، وتدويمه وصحة المعنى ، وبراعة الأسلوب ، وما يقدمان به من محسنات لفظية ومعنوية .

كل هذه الأمور هي مادة الشعر ، ومضمونه .
وهي مادة الشعر العربي القديم ، والشعر الحر على السواء (٥٤) .
فلا اختلاف بينهما من ناحية المضمون والمادة .

فهذا أول لقاء بين الشعرين .

أما القالب فقد قلنا إن الشعر الحر وزن ، وقافية .

وقلنا إنه استخدام لبعض أوزان الشعر ، فهذه البعضية هي نقطة اللقاء الآخر .

وأوزان الشعر العربي القديم وردت وفق تفعيلات مبثوثة في ستة عشر بحراً جاءت على ثلاثة أنحاء :

(٥٤) مادة النقد الأدبي تلفيق من الفلسفات والنظريات ومعطيات علم الاجتماع والنفس ، ولكنك لا تجد نموذجاً من إبداع نالوث الحداد يلبى نظريات النقد الأدبي الحديث إلا يتكلف .
وما أقرته ذاتقة الجماهير فهو وشيخ القريبى بالفنانية العربية .

فالنحو الأول: أبحر متحدة التفعيلات كالرمل تفعيلاته على وزن فاعلاتن ، فاعلاتن فاعلاتن .

والنحو الثاني: أبحر مختلفة التفعيلات إلا أن إحدى هذه التفعيلات لا ترد إلا في نهاية الشطر من البيت بحيث تكون عروضاً أو ضرباً ولا ترد في الحشو كالسريع تفعيلاته على وزن مستفعِلن مستفعِلن مفعولات .

والنحو الثالث: أبحر مختلفة التفعيلات إلا أن إحدى هذه التفعيلات ترد في الحشو، ولا ترد عروضاً، ولا ضرباً كالطويل تفعيلاته على وزن فَعولن، مفاعِلن، فَعولن، مفاعِلن .

ففعولن لا ترد إلا في الحشو.

والشعر الحر لا يستعمل من هذه الأنحاء إلا النحويين الأولين .

أما النحو الثالث كالطويل، والبسيط، والخفيف فلا يندرج استعماله تحت اسم الشعر الحر لأن من خصائص الشعر الحر أن تكون أشطره حرة التفعيلات فقد يكون الشطر من تفعيلة واحدة، وقد يكون من ثلاث، أو أربع أو خمس .

والبحر الطويل مثلاً أو الخفيف لابد أن يختم الشطر منه لو أريد منه شعر حرباً لتفعيلة التي ترد عروضاً أو ضرباً، وحينئذ لا يمكن للشاعر أن يجعل تفعيلاته من واحدة أو ثلاث، أو خمس، أو سبع، بل لابد أن يكون الشطر من تفعيلتين، أو أربع، أو ست . وحينئذ يكون متساوي الشطرين في صورة البحر التام، أو المجزئ، أو المنهوك (٥٥) .

واللقاء الثالث بين الشعر الحر، والشعر العربي القديم أن قصيدة الشعر الحر لا تتألف من أشطر، كبعض الشعر العربي الوارد على شطر واحد .

ومن هذا البعض شعر الأراجيز .

وكذلك كل بحر يتحد عروضه، وضربه .

واللقاء الرابع بين الشعرين أن الشاعر في القصيدة الحرة مقيد في الحشو، والضرب بقيود العلل في الشعر القديم ومترخص بمبتدأ الزحاف المعتبر في الشعر القديم .

واللقاء الخامس بين الشعرين أن الشاعر في كليهما يلتزم بحراً واحداً في قصيدته .

(٥٥) هذا التفتين بالنظر إلى نزعة الطلائع الأولى لزيادة الشعر الحر، وبالنسبة للقاء بالشعر العربي القديم .

أما بالمنظار الفني فهو به الشعر في مصطلح العرب ووجدانهم أن يكون غنائياً أي ذا موسيقى حركية .

وليست هذه الموسيقى محصورة في أوزان العرب التي استبطلها الخليل . بل المهم أن يكون ذا وحدات وريبه وذلك من أحد أوطر نضبطه الأذن، بحيث تكون هذه الوحدات — وإن كانت مبتكرة — موسيقى خارجية معهودة .

واللقاء السادس أنهما يلتزمان ضرباً واحداً في القصيدة فلا تعدد الأضرب .

واللقاء السابع : أن الشعر الحريكتب حسب الوزن (٥٦) كالشعر العربي القديم .

وعلى ضوء ما حررناه في تعريف الشعر الحر عن استخدام الشعر الحربعض أوزان الشعر العربي تبين لنا أن البحور التي تصلح للشعر الحرائثا عشر بحراً فقط وهي :

المديد، والوافر، والكامل، والرمل، والرجز، والهزج، والسريع، والمجث، والمقتضب، والمضارع، والمتقارب، والمتدارك .

واعتبرنا المجث، والمتقضب، والمضارع من البحور التي تصلح للشعر الحر لأن هذه البحور لم تستعمل إلا بمجزوءة .

والبحور التي لا تصلح للشعر الحر أربعة هي :

الطويل، والبسيط، والخفيف، والمنسرح .

أما الشعر العربي القديم فينظم على جميع هذه البحور .

فهذه أول مخالفة للشعر الحر .

والمخالفة الثانية : أن الشعر الحر لا يأتي إلا على الشطر ذي الضرب الواحد ولا يأتي على شطرين بعروض، وضرب .

والمخالفة الثالثة : أن الشطر من الشعر العربي القديم لا يزيد على أربع تفعيلات ولا يقل عن تفعيلتين .

أما الشعر الحر فلا يلتزم عدداً معيناً فله أن يجعل الشطر من تفعيلية واحدة وله أن يجعله من خمس تفعيلات .

والمخالفة الرابعة : أن الشعر العربي القديم يراعي المساواة بين الأشطري، فلا يجعل شطراً من تفعيلتين، وشطراً من ثلاث .

أما الشعر الحر فلا يراعي التسوية فله أن يجعل شطراً من تفعيلتين ويجعل الشطر الآخر من ثلاث، أو أربع، أو واحدة .

والمخالفة الخامسة : أن الشعر العربي القديم يأتي على قافية واحدة، أما الشعر الحر فقد لا تأتي فيه القافية ألثة (٥٧) وقد يبدو لها أثر ضعيف وقد ترد القافية منتظمة ولكنها متنوعة .

(٥٦) انظر الآثار السببة لكتابة الشعر حسب المعنى دون الوزن في قضايا الشعر المعاصر لنازك ص ١٣٧-١٤٦ .

(٥٧) نمي بالقافية الروي .

هذا هو الأغلب وقد ترد في النادر بقافية واحدة . وما يهم بحث خصائص الشعر الحر بالنسبة للشعر العربي القديم .

ومن خلال المقارنة رأينا أن ما يعتبرونه خصائص للشعر ينظر إليه من ثلاث جهات :

أولاهن : من ناحية الهيكل وهو أوزان الشعر الحر وتصميمه الشكلي .

وهذا مضى فيما بحثناه عن أوجه مخالفة الشعر الحر للشعر العربي القديم .

وثانيتهن : من ناحية نتائج النظم على أوزان الشعر الحر .

وثالثتهن : خصائص تاريخية لازمت الشعر الحر في الغالب منذ بدأ وليست هي نتيجة طبيعية لهيكل الشعر الحر .

وهذه لا أعتبرها خصائص ، لأنها ليست نتيجة لهيكل الشعر الحر دون الشعر العربي القديم .

وإنما أعتبرها من قضايا الشعر المعاصر عموديه وحره ، مثال ذلك أن الشعر العربي القديم يحافظ على وحدة البيت ، إذ تنتهي الألفاظ والمعاني بنهاية الشطر الثاني ، بل إن الشطر أحياناً يستقل بلفظه ومعناه ، كقول أبي الحسن التهامي :

حكم المنية في البرية جاري

ما هذه الدنيا بدار قرار

فكل شطر من هذا البيت مستقل بلفظه ومعناه .

أما شاعر القصيدة الحرة فله الحرية في أن ينهي اللفظ والمعنى في أي شطر .

لا يحده إلا لازمة الشطر أعني الضرب .

فلا بد وأن ينتهي اللفظ بنهاية الضرب .

أما المعنى فله الحرية التامة ينهي متى شاء !

وإليك هذا المثال من قصيدة حفار القبور للسياح :

درب كأفواه اللهود—

لولا التماعات الكواكب ، وانعكاس من ضياء .

تلقية نافذة— ووقع خطي تهاوى في عياء (٥٨) .

فتجد معنى الشطر الثاني لم ينته إلا في نصف الشطر الثالث فإن كانت الخبيصة في تدفق تفعيلات الشعر الحر الذي أسمته نازك الملائكة بميزة التدفق الخادعة فتلك خبيصة في الشكل وقد تكلمنا عن خصائص الشكل .

ومنها حرية الشاعر في مقدار التفاعيل وتساويها .

وإن كانت الخصيصة في أن ظاهرة عدم اكتمال المعنى في الشطر الواحد أكثر تجلياً في الشعر الحر فعندي على ذلك جوابان :

أولهما : أن وحدة البيت ، أو الشطر قضية من قضايا الشعر على عمومها لا فرق بين حرة وعمودية .
وثانيهما : أن الشاعر الحر أقدر من شاعر القصيدة العمودية على وحدة الشطر ، لأن الشاعر العربي القديم محكوم بعدد محصور من التفاعيل كما أنه محكوم بتساوي الأَشْطَر .

أما شاعر القصيدة الحرة فالتفاعيل طوع معانيه .

وليست المعاني طوع تفاعيله .

ولهذا فلا نفسر ظاهرة عدم اكتمال المعنى في قصيدة الشعر الحر بأنها خصيصة للشعر الحر .

وإنما نفسرها بأنها ظاهرة ضعف وعجز لدى بعض شعراء القصيدة الحرة .

وبالتالي نستطيع القول بأن شاعر القصيدة العمودية أقدر على النظم .

وإذا كانت وحدة البيت ضرورة لازمة عند أناس فالشعر الحر أقدر على تحقيق ذلك .

لأن الشاعر غير مقيد بعدد من التفعيلات وغير مقيد بتساوي الأَشْطَر .

وإن كانت وحدة البيت مما يأتباه النقد الحديث فالشعر الحر أيضاً أقدر على ذلك .

لأن تساوي الأَشْطَر وحصر عدد معين من التفعيلات قد يرغم الشاعر في بعض الأبيات على إنهاء الموضوع فتكون وحدة البيت .

وليس ذلك في الشعر الحر .

فهذه الميزة نتيجة الحرية في تساوي الأَشْطَر وعدد التفعيلات .

والشعر الحر أسعد بالموضوعات القصصية ، لأن القصة متدفقة ترهقها الوقفات الحاسمة في الشعر القديم .

أما الشعر الحر فوقفاته الحاسمة وفق القصة أعني أنها ملك للشاعر وليس الشاعر ملكاً لها .

وشاعر القصيدة الحرة أقدر من شاعر القصيدة العمودية على إطالة النفس .

فإذا كان بإمكان ابن الرومي أن ينظم ثلاث مئة بيت فباستطاعة السياب أن ينظم ألف شطر من الشعر الحر .

ولكن الواقع خلاف ذلك !

فالشعراء الأحرار لا يطيلون النفس كما ينبغي بل هم أقصر نفساً من الفحول المقيدين .

وليس ذلك عجزاً منهم وإنما هم مختارون .
لأن من خصائص الشعر الحر ألا تطول قصيدته !
والسر في ذلك أن شاعر القصيدة العمودية لا يحس برتابة في قصيدته وإن طالت ، ويجد في نهاية كل بيت متعة موسيقية .

ولأنه في الغالب يبدد الرتابة بتنويع التفعيلات في الشطر كما في بحري الطويل والبسيط .
ولأن إيقاع العروض ثم الضرب ليس متقارباً بالمرة ، فيقف وقوفاً سريعاً يجلب الملل .
وليس متباعداً بالمرة ، فيتعب نفسه ثم بالتالي يمل .
ولهذا نقول : ميزة الشعر الحر أنه لا يصلح للملاحم الطويلة .
والشاعر العربي القديم يقول على لسان المتنبّي على سبيل المثال :
أنام ملء جفوني عن شواردها .
والشعر العربي القديم أبو الشوارد في الحكمة والموعظة والطرفة .. إلخ .
وكان من مناقب الأديب في القديم أن يستشهد بالشعر ، ويورد لكل مقام مقالاً من شوارد الشعر العربي .

ولقد ألف الإمام ابن فارس كتابه أبيات الاستشهاد وقبله الإمام أبو العباس المبرد ألف رسالته في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها .
وبعدهما شيخنا أبو عبد العزيز عبد الله بن خيس يعكف على جمع سفر في الشوارد .
وإن هذه الشوارد التي اعتنى بها المتأدبون تعين الذاكرة على تلقنها وحفظها .
ولكن الذاكرة إن وجدت في الشعر الحر مثلاً شروداً أو حكمة رصينة ، أو فكرة حصيفة أو خيالاً بعيداً لا تستطيع أن تستحضره وتورده فهذه الميزة نتيجة لهيكل الشعر الحر في حرية التفعيلات عدداً وتساوياً .

وورود مضامين الشعر الحر مبددة على مثال بحر الكيش يعجز الذاكرة أن تناله !
ولقد حتمت الناقدة البليغة نازك الملائكة على الشاعر هذه الظاهرة أن يبذل جهداً متعباً في تنويع اللغة وتوزيع مراكز الثقل فيها ، وترتيب الأفكار (٥٩)
ولتنوع القافية في الشعر الحر وتفاوت الأشرطة والحرية في عدد التفعيلات أصبح الشعر الحر أسعد بالغناء الحديث وأيسر طواعية للأنامل العازفة على القيثارة !

(٥٩) قضايا الشعر المعاصر ص ٣٤ .

وأصبح جيل الطرب الحديث يجد في قصيدة الشعر الحر ملاذاً من رتابة القصيدة العمودية .
وإذا نظرنا إلى مشروعية الشعر الحر حسب حساسية المحافظين نجد أن هدفهم الالتزام لقانون التراث .

والواقع أن المخالفة عموماً لا تكون معصية حتى تجب الطاعة ، أو تستحب فتكون المخالفة محرمة أو مكروهة .

بل ربما كانت المخالفة طاعة وفضيلة لأن الامتثال معصية وذلك حيث تحرم الموافقة أو تكره .
لهذا فلا نفترض وجوب أو حتى استحباب موافقة العرب الأقحاح في كل شيء لأننا لا نفترض عصمة الذوق العربي ، والعقلية العربية ، والموهبة العربية !

وإنما ننظر ما كان وشيخاً بالعرب فنرى لغتهم وعقيدتهم ، وممتلكاتهم في الرقعة والتراث فهذه أمور لا يجوز التفريط فيها بحال فلا نقبل لتنته اللغة العربية لأن لغتنا ضمان لعقيدتنا وشريعتنا وتراثنا .

ولا نقبل التنازل عن شبر من ممتلكات العرب لأنه من حقوق مورثينا ونحن وراثتهم .
ولا نقبل جحد شيء من تراثنا في المد الحضاري لأن ذلك يعني القبح في حظنا من الموهبة ، والمساهمة في إمداد الحضارة البشرية .

ولا نقبل المساومة في عقيدتنا وشريعتنا لأنها تستمد وجودها من مصدر الكمال وهو الله سبحانه .

وما عدا ذلك فلا يلزمنا أن نكون مقلدين لكل ما ارتبط بالعرب من تراث وفكر وسكّلة .
لأن مفاجآت التاريخ سترغمننا على تراث جديد ، وستغير ضرورة ولابد من تفكيرنا وسيكلوجيتنا .

ومن هذه القاعدة العامة عن خطورة الخروج على تراث العرب أقرر أنه لا يجوز بإطلاق أن يعادى الشعر العربي القديم ، فننقل دواوينه إلى المتاحف ، والخزانات وتفصل محتوياتها عن الوجدان العربي ، والذوق العربي .

لأن الشعر العربي سجل حافل بأيام أمتنا ، وصورة ملونة لعواطفنا ، وعقليتنا وخيالنا ومعلمة للفتنا .

فصل هذا الشعر عن الوجدان العربي ، والذاكرة العربية يعني إغماض عيون الأجيال عن دراسة تاريخها ، وتفهم لغتها وهذا أول ثقب في الذاتية العربية والكيان العربي .

والذي يجرم النظم على المنهج العربي القبح ويحتم النظم على المنهج الحر مجرم في حق أمته ، لأن ذلك عزوف بالأمة عن تذوق الشعر القبح ، الذي ذكرنا ضرورته للكيان العربي وذلك هو معادة

الشعر العربي، والصد عنه .

أما من يستجيب لحاجة جديدة ضرورية أو تحسينية تضاد التراث القديم، ولا تناقضه فلا مانع من ذلك .

لأن الضدين مجتمعان، أما النقيضان فلا .

فإن كان هذا المضاد مشتقا من التراث القديم فذلك أدعى لقبوله كالشعر الحر نقول إنه مضاد للشعر القديم، لأنه غيره وليس بديلاً عنه !

ولا يناقض الشعر القديم لأنهما سيعملان معا، ولأن كلاً منهما يؤدي مهمته .

إذن فمن يحتم النظم على المنهج القديم، و يرفض التجديد، أو الجديد الذي يلبي حاجة جديدة للأمة مع بقاء القديم يؤدي رسالته نعتبره مجرماً في مستقبل أمته !

فالمعتبر حاجة الأمة و يشترط لهذه الحاجة الجديدة ألا توجد ثغرة بتعطيل حاجة قائمة لأن النقص لا يعالج بنقص مثله .

واليك: هذه النماذج عن الحاجة القديمة، والجديدة:

ثبت أن العرب يعتمدون في أول نشأتهم على الحفظ دون الكتابة .

فاستعانوا على الحفظ بأوزان ينظمون عليها كلامهم لأن هذه الأوزان تجمع الذاكرة، فقد ثبت أن حفظ المنظوم أيسر بكثير من حفظ المنثور .

فالشعر العربي إذن تلبية لحاجة أمتنا في صدر تاريخها .

فلا غصاصة علينا نحن الخلف إذا زدنا أوزانا جديدة للاستعانة على الحفظ .

ولكن المهم ألا نلغي الأوزان القديمة، ونصد الناس عنها، لأنها استوعبت لغتنا وتاريخنا فلا بد من تذوقها، والنظم عليها .

والعرب يحبون الخطابة، و يستهويهم الإيقاع والنبهة فنظموا الشعر الموزون المقفى لوفائه بهذه الخصائص .

فلا غصاصة علينا نحن الخلف إذا لم يستهونا الشعر الخطابي بنبراته وإيقاعه .

ولكن لا يجوز لنا أن نصد الجيل الجديد عن الشعر الخطابي، لأنه سجل تاريخنا ولغتنا، بل يجب أن ننظم عليه وإن لم نقصد به الخطابة ليأنس الشاب لتراث أمته .

والواقع أن الشعر الخطابي ضرورة في يومنا الراهن لأن السابقين والمصلين والمجلين في المؤتمرات الشعرية هم أصحاب الشعر العمودي .

والشعر العربي القديم لبي ذوق العرب في الغناء فغنوا منه أصواتاً كثيرة ولكن الخلف اليوم

يحسون بالرتابة في القصيدة العمودية .

فجمعوا التام والجزوء والمنهوك في القصيدة الواحدة بل جمعوا بين البحور .

ونوعوا في القافية وفارقوا بين الأشطر !

ألا ترى أن من أحلى أغاني أم كلثوم للشعر العربي نهج البردة ، والأطلال والرباعيات ، وأقبل الليل .

إلا أنك تحس بالرتابة في نهج البردة وترتاح للتقلات في الأطلال ، والرباعيات لتنوع القافية . وترتاح للتقلات في أقبل الليل لتنوع القافية وتفاوت الأشطر :

أجل إن العازفين وأصحاب التخت سيحتمون علينا أسلوبا جديداً في الشعر قافية ووزنا فلا غصاصة علينا إذا لبينا حاجتهم .

المهم أن يبقى شعرنا القح .

فمجرد المخالفة للقديم لا يروعنا .

بل إن جواز المخالفة مشروط بمدى الحاجة وبألا يكون الجديد بديلا من القديم إن كان القديم ضروريا .

ولوفرضنا فرضا مستحيلا أن الشعر الحر لا يستمد وجوده من جذور الشعر العربي القديم ، وأنه كما يقول المتشرعون شعر غربي ، لا عربي فلا يعني ذلك اعتبار الشعر الحر معصية ، وتنكراً للتراث ، وذلك لناحيتين :

أولاهما : أن الشعر الحر لا يراد منه أن يكون بديلا للشعر العربي القديم ، وإنما يراد منه أن يعمل عمله بجانب الشعر القديم .

وأخراهما : أن الشعر الحر ضرورة اجتماعية لأنه تلبية لحاجة الجيل الذي بعثه وقتن له (٦) .

(٦٠) لقد استدلت الناقدة البليغة نازك الملائكة على صحة هذا بأن تيار الشعر الحر جرف كل المعارضات العنيفة وانتصر على كل الحملات التي شنها عليه المحافظون راجع باستيعاب كتابها قضايا الشعر المعاصر ص ٣٧ - ٥١ .

ووجه الاستدلال أنه لا يثبت للتيار العنيف ، والحملات الشديدة إلا الضرورات الاجتماعية .

ومثل هذا الاستنتاج الذي استنتجته نازك ، واعتبرته دليلا أظنه من أضعف الأدلة ، لأن بعض المبادئ والظفرات الفكرية تفرض على الأمة وتصمد لتيار المعارضة وهي في الواقع لا تلبي حاجة ، ولا تند نقصا .

فليست العبرة بالواقع المفروض .

وإنما العبرة باقتناع المفكرين ورضاهم بهذا الواقع .

فاتفاق المفكرين على الاقتناع بالواقعة الجديدة هو الدليل على ما هدفت إليه نازك .

و بهذا نفرق بين واقع مفروض معتبر وبين واقع مفروض غير معتبر .

بدليل أن قصيدة الشعر الحر تلبي النزعة الواقعية في الأدب الحديث .
وهذا قالت نازك الملائكة إن الشعر الحر يصلح للتعبير عن حياة ليس الجمال الحسي غايتها !
ذلك أن الشاعر الواقعي يأبى إضاعة الجهد في إقامة هياكل شعرية معقدة تبدو في بطن القافية
الموحدة وفيما يطلبه الوزن من تزويق وفيما يضطرنا إليه من حشو وتكرار .
ولهذا فشاعر القصيدة الحرة يؤثر المضمون على المياكل (٦١) .
وبدليل أن جريان الشعر العربي خلال ستة عشر قرناً على وتيرة واحدة يبعث السأم والملل .
في حين أن هذا العصر عصر الطموح الفكري والنزوع إلى الاستقلال والتجديد .
فواقع الشعر القديم حافز على التجديد .
وواقع العصر الراهن حافز آخر .
والحاجة في ذينك هي طرد الملل .
وبدليل أن الشعر الحر يلبي حاجة التجديد ، والتنوع في الغناء .
وإذ قررنا أن الشعر الحر حاجة اجتماعية وهذا كاف لتسويغه على فرض أنه لا يستمد جذوره
من الشعر القديم فإننا نعود مرة ثانية ونقرر أن الشعر الحر يستمد وجوده من الشعر القديم وذلك واضح
من ثلاث نواح :
أولاهن : ما ذكرناه عن موافقة الشعر الحر للشعر العربي القديم .
وثانيتهن : أن أوجه مخالفة الشعر الحر للشعر القديم لم تكن كلها من استحداث الشعر الحر حسبما
سنبينه عن أولية الشعر الحر .
ومعنى ذلك أن هذه الأوجه لم تنكرها الحاسة العربية إبان المجد العربي .
وثالثتهن : أن أوجه هذه المخالفة على فرض أنها كلها من إحداث الشعر الحر لم تخرج الشعر الحر عن
حقيقة الشعر العربي القديم ، وإنما هي قولية له كالباذنجان الأسود تعطيه أنامل ماهرة
فتصنع منه أكثر من أكلة ذات نكهة خاصة ، وطعم خاص .
وأنت في كل هذا تأكل باذنجان أسود !
وهكذا أوزان الخليل بن أحمد تفرق تفعيلاًتها كبحر الكبحش فتكون شعراً حراً .

(٦١) راجع المصدر السابق مع مقدمة ديوانها شظايا ورماد .

قال أبو عبد الرحمن : واقعية المضمون البعيدة عن التزويق تلتمس في الفلسفة والمنطق والفقه والقانون !
أما الشعر فهو مقتضى جمالي ، والجمال إحدى القيم الثلاث المحصورة .

وترصها على وحدتين متساويتين فتكون شعراً عمودياً !
وأنت في هذه وتلك تنظم بحوراً خليلية من تراث الأجداد !
ومن أوجه المخالفة أن الشاعر الحر لا يتقيد بعدد معين لتفعيلات الشطر الواحد .
ولسنا نرى أدنى خطورة في هذا الوجه شريطة أن يلتزم بما هو مقنن مما سيأتي بيانه بعد قليل من
وجهة نظر فنية لا تحكيمية .
ومن أوجه المخالفة أن الشاعر الحر استبعد أربعة من بحور الخليل بن أحمد ونظم على الشطردون
الشطرين فهاتان مخالفتان .
إلا أنهما مخالفتا اكتفاء ، وليستا مخالفتي مغايرة ولا خطر في هذا الاكتفاء .
وهذا الاكتفاء اقتضته الضرورة لأن الشعر الحر لا يستقيم على هذه الأبحر المرفوضة .
وبذلك على أن هذا الاكتفاء غير خطير ، ولا يمس أخلاقية الأديب في الغيرة على التراث أن
شاعر القصيدة العمودية غير ملزم بالنظم على جميع البحور ، ولكنه مخير .
فلو نظم شاعر ديوانه على بحر واحد ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، أو خمسة لما صح وصفه بأنه متكرر
لتراث أمته فمع التخيير افعل ولا حرج .
وفي رفع الشريب يدخل الشعر الحر من باب أولى .
فالشاعر الحر انتهج بعض ما يباح له ، وترك بعض ما يباح له .
وبصورة أخرى نقول :
إن المخالفة بين الشعر العربي نفسه وليست بين الحر والعمودي .
فبعض الشعر العربي تيسر لأن يكون شعراً حرّاً وبعضه أبى أن يكون شعراً حرّاً .
وليس معنى تلك المخالفة أن ما نظم به الشعر الحر من أوزان وأشطر غير ما لم ينظم به من أوزان
وأشطر .
لأن الشعر العربي بمجموعه يشمل الشطر والشطرين ويشمل جميع هذه البحور فيدخل الشعر
الحر في هذا الشمول .
ومن أوجه المخالفة أن الشاعر الحر لا يتقيد بتساوي الأشطر فله أن يجعل الشطر الأول من أربع
تفعيلات ، ويجعل الثاني من ثلاث تفعيلات !
فهذه مخالفة لعادة القدماء في النظم لم تخرج الشعر الحر عن حقيقة الشعر العربي لأن الشطر إذا
لم يزد على أكثر تفعيلات الشعر القديم لا يخرج عن تام البحر أو مجزؤه ، أو منهوكه وكل هذه نظم
عليها العرب .

فهي تنفي بموسيقى الشعر العربي كما أنها تكفل وضع الكلم مواضعه وفق المعنى فيسلم الشاعر من الخشواؤ البتر، الذي تفرضه الأشرط المتساوية .

ومن أوجه المخالفة أن الشعر الحر لا يتقيد بروي واحد (٦٢) ، وقد يرد بدون روي .

فإن نظرنا إلى أنه ورد بروي متنوع فلنا أن نقول :

إنه سنة المجددين القدماء حتى لقد أصبح تنوع الروي مما لا بأس به عند جمهرة الأدباء ، ثم إن تنوع الروي ضرورة للتخلص من رتابة الروي الواحد .

وإذا نظرنا إلى خلوه من الروي مطلقاً فإننا نعتبر ذلك خسارة لما يضيفه الروي من جمال موسيقي .

إلا أن هذه الخسارة مهما فدحت لا تلب الشعر الحر حقيقته الشعرية .

و يغتفر في الشعر الحر ما لا يغتفر في الشعر العمودي .

ولست أريد بالأولية أول يوم قيل فيه شعر حر ولست أريد الفصل بين دعوى نازك الملائكة ودعوى مخالفيها ، لأن ذلك بحث مستقل خارج عن نطاق المقومات والخصائص و يقتضي جهداً مفرداً في التتبع والاستقراء .

وإنما أريد بالأولية معرفة ما إذا كان الشعر الحر أول تغيير في الشعر العربي القديم .

وبين هذين الأمرين فرق .

ففي الأولية الأولى نحكم بين الشعراء أيهم أسبق إلى هذا المسمى شعراً حراً سواء أكان تغييراً جديداً أم قديماً .

وفي الأولية الثانية نقارن بين أنواع من الشعر غايرت الشعر العربي القديم لنعرف أيها أسبق في الوجود فتحكم لها بالسبق فيما اتفقت فيه مع الشعر الحر كالتنوع في الروي وعلى هذا نحكم بأن الشعر الحر ليس جديداً في تفصيله ولكنه جديد بالنظر إلى مجلته .

فنقول : إنه أول شعر جمع بين هذه المخالفات غير الجديدة فلا نعرف شعراً جمع بين كل هذه المخالفات غيره .

أما كل مخالفة على حدتها فليست جديدة .

فليس الشعر الحر أول شعر اقتصر على بعض البحور الخليلية وليس الشعر الحر أول شعر لم يتقيد بعدم التفعيلات في أشطره ولم يلتزم التسوية بين الأشرط لأن البند قبل الشعر اكتفي ببحري

(٦٢) يفلط من يقول : إن الشعر الحر يتخلل من القافية ، إذ لا يتصور ذلك مادام أن للتقصيدة ضرباً لا رماً .

وإنما ورد دون روي بيد أن أكثر الباحثين لا يفرق بين الروي والقافية ، ولهذا استعملت القافية بمعنى الروي في هذا البحث حراً على العرف الخاطئ ، فلما وجب التفريق كتبت هذه التحشية .

الرمل، والمزج، ولم يتقيد بعدد التفعيلات ولم يساو بين الأشرط.

وليس الشعر الحر أول شعر شطري لأن الأراجيز قديمة جداً.

كذلك تنوع الروي أو التحرر منه كان أسبق من الشعر الحر.

لقد بينت مسوغات الشعر الحر وبينت حكم مخالفة التراث ويفهم من كل ما ذكرته ثمة: أن تلبية الحاجة الجديدة مع الإبقاء على روح التراث القديم خير ما يطمح له المجدد إن أمكن ذلك.

وأن ذلك يتوج أخلاقية المجدد بالوفاء لتاريخ أمته إن كان مجيداً.

ومن هذا المبدأ يقتن للشعر الحر بما لا يبعده عن السليقة العربية.

فأول ما نلاحظه عند التقنين أن أطول شطروود به الشعر العربي القديم أربع تفعيلات كالبحر الطويل والمتقارب.

أما في الشعر الحر فالشاعر حر في رص ما شاء من التفعيلات.

قال خليل حاوي من قصيدة عنوانها عند البصرة:

هيهات لن يختمر الصمت .. ويعطي ثمرات .. جزراً تهزج عبر الصحو السكون.

وربما أنشق ضمير الصمت عن شمس بلا ضوء وحى أنجم محمرة يغزلها الجنون (١٣).

فهذان شطران من الرجز.

الأول من ثمان تفعيلات ينتهي بكلمة السكون.

والثاني من تسع تفعيلات ينتهي بكلمة الجنون.

إلا أن هذا العدد من التفعيلات فوق قدرة النفس البشري.

ولا نظن أن صوتاً موسيقياً يستمر إلى هذا النفس يريح الأذن.

فإن كان هذا النفس الموسيقي الطويل يشنف الأسماع في يوم ما ووجد المطرب الذي يساير هذا النفس أباح العصر للشاعر الحرية في تطويل الشطر ما شاء تلبية لهذه الحاجة الجديدة.

أما الآن فمن الضروري ألا يزيد الشاعر عن أقصى عدد ورد به الشطر القديم وهو أربع تفعيلات — على الأكثر — (١٤).

(١٣) عن كتاب الشعر العربي المعاصر للدكتور عز الدين اسماعيل وراجع من هذا المصدر ص ٧٤ — ٧٥ .. وص ١١١ — ١٢١

وص ١٠٣ — ١٠٥ مع كتاب نازك.

(١٤) قد يرض الشاعر الحديث خمس عشرة تفعيلة في الشطر الواحد وهذا يسميه الدكتور عز الدين اسماعيل بالجملة الشعرية ولقد ذكر من رواد هذا النهج السياب، والبياتي وصالح عبد الصبور، و خليل حاوي وصالح أحمد إبراهيم ولنا نرى لهذا ضرورة بل ولا حاجة تحسية وهذا اللون يخرج بالشعر عن حقيقته، لأننا سنضطر مع الطول إلى الوقوف وفترات غير صوتية.

وللشاعر الحر أن يجعل الشطر من تفعيلة واحدة .
ولكننا نقنن لذلك فلا نبیح له أن يجعل جميع أشطر القصيدة من تفعيلة واحدة وألا يوالي كثيراً :
بين الأشطر ذات التفعيلة الواحدة .

لأن ذلك يحدث إيقاعاً سريعاً مملاً .
فإن كان الروي واحداً كان ذلك سجعاً لا شعراً .
وأنموذج ذلك قول سلم الخاسر :

موسى المطر .

غيث بكر .

ثم انهمر .

ألوى المرر .

كم اغتسر .

ثم اتسر .

وكم قدر .

ثما غفر (٦٥) .

فهذه قصيدة ذات شطر واحد ، وتفعيلة واحدة وقافية واحدة تصلح أن تكون شعراً حراً .
إلا أنك لا تجد أي أذن موسيقية ترتاح لهذه الوقفات القريبة وهذا الإيقاع السريع .

وإنما تحلو هذه الوقفات القريبة وسط عدد من الأشطر المتباعدة الإيقاع أي الأشطر الطويلة
شريطة ألا تزيد هذه الوقفات القريبة عن ثلاث ، أو أربع تفعيلات .
وأراهن على أن أعظم الملحنين عبقرية لا يستطيع أن يأخذ من قصيدة سلم الخاسر لحناً عربياً إذا
ما أراد أن يقف عند كل تفعيلة .

فتقارب الوقفات الذي أحدث سرعة الإيقاع عيب من عيوب اللحن يجب أن يصاب عنه الشعر .
فإن أضيف إلى ذلك وحدة الروي كما في قصيدة سلم الخاسر فتلك هي الرتبة المملة .
وهذا اللون ألصق بالسجع .

وللسجع عند العرب حقيقة غير حقيقة الشعر .
وبطول تتبع لم أجد من شعراء القصيدة الحرة من بنى كل قصيدته على شطر ذي تفعيلة واحدة .

(٦٥) هذه القصيدة عن كتاب فن التقطيع للدكتور صفاء خلوصي ص ١٢٣ .

سواء أكانت القافية واحدة، أم متنوعة .

وإنما ترد مبثوثة بعد عدد من الأشرطة لا تزيد عن شطرين أو ثلاثة .

وإذا كان من المباح للشاعر الحر أن يتحرر من الروي مطلقاً، أو من وحدة الروي فالأفضل عندي ألا يكون للقصيدة روي واحد، لأنني أعتبر الروي الواحد حسنة في الشعر العمودي وأعتبره سيئة في الشعر الحر!

لأن قصر بعض الأشرطة، وعدم تساويها مع وحدة الروي يسرع بالإيقاع و يقارب بين الوقفات .
ومن ثم تكون القصيدة الحرة شبيهة بالسجع .

ولقد فات ذلك الشاعرة نازك الملائكة إذ قالت : لا مانع من أن يكون الشعر الحر موحد القافية تعني الروي (٦٦) .

ومما جاء من الشعر الحر بروي واحد قصيدة طوق الياسمين لنزار قباني .

فإن لم تقل تفعيلات الشطر عن أقل شطر ورد في الشعر القديم فلا مانع من وحدة الروي .

ومما يلاحظ في التقنين للشعر الحر أن الضرب يجب أن يلتزم في القصيدة .

ولا يجوز تعدد الأضرب لأن السليقة العربية أثبت ذلك والشاهد شعر العرب .

وربما جر الجمع بين الأضرب إلى المزج بين الأبحر كتفعيلة مستفعلن إذا استعملنا جميع أضربها نكون خلطنا بين الرجز والسريع، والمنسرح .

وإنما يفتقر من تعدد الأضرب في القصيدة الواحدة ما يتطلبه اللحن كأغنية لا تكذبي تعددت أضربها فكانت مرقصة .

ولكنها نشاز عند القراءة المجردة !

ومما يلاحظ في التقنين للشعر الحر حظر التدوير فإذا وردت التفعيلة المدورة فلا بد من اعتبارها حشواً لا ضرباً !

لأن التدوير يفسد الوقفة ولأن التدوير يباح في العروض دون الضرب ولا عروض للشعر الحر .

وعن معركة الشعر الحر قال الدكتور صفاء خلوصي :

الشعر الحر لون من السجع الموزون في أكثر الحالات ولا سيما عند الناشئين أسبغ عليه مظهر الشعر .

وتنقصه المقومات ليصبح شعراً عمودياً !

(٦٦) قضايا الشعر المعاصر لنازك ص ١١٧ .

ومنها الانتظام في التفاعيل والقوافي وتوقيت الأشر ووحدة التفكير.

فهو طريقة في التأليف الشعري مفككة وغامضة.

بل يصح أن نقول عنه إنه محاولات أشخاص لهم إمكانيات شعرية بدائية لم تشذب ولم تهذب ضمن قواعد فنية معقولة (٦٧).

قال أبو عبد الرحمن: هذا أتموزج من الأحكام المجلطة الناتجة عن الجهل بالشعر الحر.

فالدكتور صفاء يشير إلى ما ينقص الشعر الحر من مقومات يجب أن تنهض به، ليصبح شعراً عمودياً.

في حين أن بناء الشعر يعلمون ذلك.

فليسوا بحاجة إلى هذه الفتنة وهم يعلنون أن شعرهم شعر حر وليس شعراً عمودياً.

وهم لا يريدونه شعراً عمودياً.

ووحدة التفكير لا نعتبرها من المقومات، التي تنقص الشعر الحر لأنه حر.

فلا تأثير لحرية الشعر على وحدة التفكير.

وإنما تبدد الفكر واضطرابه قد يكون عيباً يلام أو يعذره الشاعر سواء أكان شاعراً عمودياً، أم شاعراً حراً.

وكونه طريقة مفككة في التأليف الشعري ليس عيباً.

لأنه يريد بالتفكك عدم الانتظام ونحن نزعم أن للشعر الحر نظاماً، ولكنه ليس كنظام الشعر العمودي حسبما بيناه في حقيقة الشعر الحر.

ولا غموض في هذه الطريقة التأليفية كما يدعي الدكتور صفاء لأن للشعر الحر قانوناً واضحاً في تفريق التفعيلات وإقامة الأضرب والأشطر.

والحكم الأظهر سذاجة في تقرير الخلوصي زعمه أن الشعر الحر محاولات ذوي بداية في الشعر وهذا غير صحيح.

فنازك الملائكة والبياتي والسياب من رواد الشعر الحر وهم من فحول الشعراء.

والدليل على أن الخلوصي لم يفهم الشعر الحر أنه بنى هذه الأحكام على ثلاث قصائد إحداهن عمودية من البحر الخفيف والأخرى من الشعر المنثور المرسل.

ولم يقف الخلوصي عند هذا فقال:

(٦٧) فن التعليل الشعري والثقافية ص ٤٠٩-٤١٨.

إنه اقتبس من كل فن الجانب السائب أو الفوضوي منه فقد اقتبس من النثر فوضى القافية ومن الرجز فوضى التفاعيل وفوضى ازدواج الأَشْطَر ومن الموشحات والبند فوضى طول الأَشْطَر ومن السريالية فوضى الأفكار والمعاني (٦٨).

وقال: إنه أقرب إلى الموشحات منه إلى البند (٦٩).

وكل هذه أحكام مجملة ناتجة عن الجهل بالشعر الحر فجميع الشعر الحر له قافية لا فوضوية فيها. وجهرته له روي منع، وقليل منه على روي واحد أو لا روي له.

وجميع الشعر الحر مقيد بتفعيلة واحدة وضرب واحد فلا فوضوية ثم.

أما ازدواج الأَشْطَر عدداً وتساويًا فلا يعيب الشعر الحر لأن هذا الازدواج لبي حاجات جديدة.

أما فوضى الأفكار والمعاني التي تحفل بها السريالية فلا يتميز بها الشعر الحر دون العمودي.

فإن الشاعر قد يكون سرياليا سواء أكان عموديا أم حراً.

إن الشعر الحر استخدام جديد لبعض أوزان الشعر العربي القديم ولا يستعمل فيه من بحور الخليل بن أحمد إلا البحور ذات التفعيلتين المختلفتين اللتين ترد إحداهن في الحشوا ولا ترد عروضاً ولا ضرباً.

فلا يصلح للشعر الحر الطويل والبسيط والخفيف، والمنسرح.

والشاعر مقيد في الحشو والضرب بقيود العلل مترخص بمبتدأ الزحاف.

وقصيدة الشعر الحر من بحر واحد على ضرب واحد وبشطر واحد لا عروض له.

والشاعر حر في عدد التفعيلات، وفي تساوي الأَشْطَر.

والقافية حتمية.

ولكن الشاعر الحر غير في تنوع الروي كما هو الأكثر.

وقد ترد القصيدة بروي واحد أو دون روي وهذان هما الأقل.

ومن خصائص النظم على أوزان الشعر الحر أنه أقدر على تحقيق وحدة البيت.

كما أنه أقدر على الهروب من هذه الوحدة.

والشعر الحر أسعد بالموضوعات القصصية.

(٦٨) المصدر السابق ص ٤١٠.

(٦٩) المصدر السابق ص ٤١١.

ولكنه لا يصلح للملاحم الطويلة .

والشعر الحر يند عن الذاكرة فلا يصلح للحفظ !

والشعر الحر تلبية لحاجات جديدة منها التفنن في الألحان للغناء ومنها النزوع إلى الواقعية .

والشعر الحر ليس بديلاً للشعر القديم ولكنه يعمل معه .

وأعرف بعد هذا أنني كتبت بحثاً مضغوطاً شبيهاً بالعناصر ورؤوس المسائل وإلا فإنه من الواجب التبسط بالأمثلة واستيفاء محصول معركة الشعر الحر ومناقشتها .

والوقوف بتبسط أيضاً عند جمال البيت القديم والاستفاضة في فلسفة الأوزان الخليلية عند العرب من ناحية ضرورتها ، وارتباطها بحاجتهم وقل مثل ذلك عن فلسفة الروي .

ومن كمال تصور الشعر الحر أن نقارن بينه وبين كل الفنون الشعرية بما في ذلك الفنون الملحونة من أزجال ومواليا .. إلخ .

ومن الكماليات إن لم يكن من الضروريات دراسة بعض الموضوعات العاطفية والعقلية والخيالية التي طرقها الشعراء .

ثم الممايزة بينها من شتى وجوه النقد لنرى مدى تأثير الحرية في أحكام هذه الممايزة .

ومن ثم نكون درسنا الشعر الحر تطبيقاً لا تقعيداً .

ولا بد من الاستفاضة في مناقشة المرح بين البحور وتعدد الأضرب وما أشبه ذلك .

صلوات قلب

إلهي يا أكرم الأكرمين لقد ابتهلت إليك وأنا أحس ديب خطاي في هذه الفانية .
لا أدري كم أبقيت من فضلة هذا العمر، ولعل ما بقي إن شاء الله أكثر وأزكى مما مضى .
ولكنني أدري أنني أستقبل قبلك بغضون يحشرج فيها فحيح السنين ، ولقد حزرتها بأربعة عقود وزيادة .

ولو استسلمت لمخاوف الشعيرات البيضاء لقلت إنها تعكس الهنيدة ولا مطمع لأبناء الستين وراء الهنيدة .

ولو استسلمت لما يشجيني من تقوس المرفق وتشطي الركبة لقلت قربت من الثمالة .
فما أرى هذه السنين في صخب الحياة إلا جربالا يسلم إلى الثمالة .
حسبي حسبي أربعة عقود ونصف عقد أرى فيهن الكفاية لاستقامة الأود والتلفع بالروحانية التي تبارك العمر وتزكيه وحسبي أنها الأشد .
وحسبي أن صاحبها جد وعبدك الصالح أبوحنيفة يستحي أن يحجر عليه وإن كان طفلاً كبيراً .
وحسبي أنك أعذرت لصاحبها إن هو ظل على صبوته .
حسبي حسبي أن عقلي المفعم ببراهين وجودك وقدرتك وعنايتك لا يكف عن عدل هذا القلب في غلوائه .

على أن القلوب تشيب وإن حشرجت السنين وتقوس الظهر .
إلهي يشفع لهذا القلب — إذ يفني إلى رحابك أنه لم ينقطع عن عبادتك حتى في لحظات جنوحه .

لأنه يستشعر مقامك ويخافه فلا يصحو إلا على وخز وألم وانكسار .
وقد علمنا من دينك أن دموع العاصين التائبين أشرف موقف نتحرى فيه نفحتك ونستمطر به رحمتك .

يشفع لهذا القلب إذ يناجيك وإن جرحته الآهات وابتلعتة اللذات أنه مؤمن عاص .

وهو على ثقة بأنك لن تخلده في النار حيث لم تخطربه لحيلة جحد أوشك ، وما دام فيه أكثر من حبة خردل من إيمان ، كيف وهو المغمم إيماناً بك رغم معصيته وغلوائه .
إنها ضمانه لن تخيس ، لأن وعدك الحق .

أعلم يا إلهي أنك لن تخلد المؤمنين العاصين في النار .
ولكنني أعلم أيضاً أنك قد تعذب المؤمن العاصي عذاباً يفوق عمره ، أو تبلغ سنه عدد رمل عالج ، فأنى لمخلوق مثلي أن يحتمل عذابك طرفه عين فما جلد على النار بجليد .
وأنى لمخلوق مثلي أن يحتمل وحشة القبر وضغطته وعذابه ، وإنها لتخيفنا الأشباح في الظلام في هذه الغاية .

ولئن صحت العزمة مني الآن بإقلاع من الذنب ، وعزيمة على عدم العودة إليه ، وندم على ما فات منه فلا أضمن أنني أفي بذلك ، ولا أضمن أنني أسابق بخيرات تبدد ما سبق لهذا القلب من غواية طالما أن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن الحسنه بعشرة أمثالها إلى مائة ضعف .
لأن صلوات هذا القلب وتيقظاته في حساب عمري كالأفاويق بين إدرار الناقه .
رحماك رحماك يا مقلب القلوب بفيضة سريعة وثبات على العزيمة وبرحة منك وقبول يغمر عملي وبيد معصيتي .

ولا أنس يا رب آثار أطفائك فلولاك ما اهتدينا .
إننا نتوب في اليوم ألف مرة ، ونعصي ألف مرة فتوباتنا في كل لحظة تعذب قلوبنا ومعصيتنا في كل مرة لا تترجم نوابنا .
إلهي إن المؤمن لا يكره لقاءك ، ولكن القلب كلما خايل له شبح الموت بمرض وهمي تمزق هلعاً من خوف اللقاء .
ولو قلت معاصينا لهانت علينا نفوسنا .

إلهي امنحني فضلة من العمر تبدد مخاوفي من سالفته ، ولا تأخذني إليك إلا وأنا مشتاق للقائك .

واعذني من عذاب القبر ووحشته ضمن بذلك السلامة من أطباق نيرانك .

فإنك تعلم أن عبدك من أضعف جندك في هذه الغاية .

وامنحني من لذة خلدك ما يتمتعني بلذة النظر إلى وجهك الكريم ، فإن ذلك يوم التغابن ، وأنت تعلم أن عبدك الضعيف عاجز عن تحمل الغبن في أعراض الدنيا .

إلهي إن من لطفك بي أن برأتني في قرية بين جيل من العوام الصالحين يخفون إلى بيوت عبادتك ، ويحيون مواسم نفحاتك ، وكان عبدك الضعيف لبنة في صفهم .

فما يدريني لعلها غشيتني رحمتك لهم وأنا في بداية الحلم ، وفي أول أويقات التكليف .
فما كان يومها ثمة أهواء تغمس قلوبنا .

ولا فلسفات تلوث عقولنا .

ولقد مربى برهة من الدهر وأنا أقول : أحمد الله أنني لم أرتكب ذلك الذنب .

ثم صرت أقول : لئن ارتكبت كيت وكيت ، فأنا لم أرتكب كيت وكيت .

أما الآن ، أما هذه اللحظة فماذا عساي أن أقول وقد تمرغت في الوحل ، ولم يبق معي إلا عقيدة
التوحيد ومجة أوليائك .

أحب الصالحين ولست منهم .

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . لئن لم يغفر لنا ربنا ويرحمنا لكونن من
الخاسرين .

* * *

مؤخرة

لا بد من اللهو لذات المرء، ولغيره .
أما لذاته فلا أنه ضرورة، ولولاه لتبلدت النفوس وضافت بالواجب .
وأما لغيره فلأن الجدية الفعالة في مثل هذا العصر يجب أن يصحبها حذق للهو المباح في غير تفريط
ولا صلف، بل بقدر ما يلائن به عصره .
واللهو المباح تذرعت به حتى أصبح ضرورة في حياتي لناحيتين .

أولاهما : أن وسطي يرفض الجدية الصارمة .
وأخرهما : أن لي قلبا خشوعا ونفسا طروبيا وروحا رفاقة، أطرب للكلمة العابثة البريئة، وأسترخي
للنغمة الهادئة، وتأسرني اللمحة الشاعرية في غير هياج عاطفي، أو نهيق كنهيق الحمير،
أو صفير لا يتقي مغبته من يأمن مكر الله .

وقوى هذا الطبع الجلي تجربة عاطفية عنيفة انفصمت بفراق أبدي ورزقت بمن ترقصان
ذكرياتي البائسة، ولا عجب فقد قال شاعرهن نزار:

أخذتها مقبلا باكيًا أما بها من أمها رائحة
فتحول حيي إلى عواطف جياشة مكبوتة، فلهوت لأتنفس ولولا ذلك لاخترت، وليس من
حق مشايخي الذين يريدون مني أن أكون جادا أن يرضوا باختناقي .
فإن رضوا ولم أكن شيئا مهما في وجدانهم، فلن أراعي شعورهم .
فأعدلنا أعذرنا لصاحبه .

وتحولت من اللهو ما لم يضق به سلفنا الصالح، وقد كانوا أوسع صدرا وأمتن دينا .

دفعني إلى هذا اللهو فريه ما زال أحبابي لا يذكروني إلا بها، يقولون إنني متختر لا أحسن سوى
التعمر في اللغة، ولم يدر هؤلاء الأحباب أن بين جانحي قلبا خفوقا رمضته شمس بودلر الحمراء،

فلهث وراء كل ملمح شاعري يداعب فيه ذكريات أمر ما فيها اليأس .
قلت لهم في حينها :

أنا إن نفجت عليكم غاشنا أنفضتم رؤوسكم ، وإن تجليت لكم متصايا وقعتم في أسرى
وخليبي .

إذن فأنت واجد في هذا السفر حبا ونغما ، ومعابثة وملاينة ، غير فاحشين ولا صاخبين ، ومادمت
أنوي الخير فأنا بخير ، وإن تخلل الجدد هو مباح .

تم السفر الأول من الفنون ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على عباده المرسلين .

١٤٠٣/٨/١ هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الاستفتاح والإهداء	٩
فلسفة الإهداء	١٠
فلسفة الفنون الصغرى	١١
مقدمة الطبعة التي لم تنشر	١٣
المقدمة	١٥
التأليف السبعة	١٦
الطفل الكبير وكفر أبي صير	١٧
هكذا علمني ورد زورث	٢٥
أنا مفترب والراحلون هو	٣٠
كيف نبرهن على التجربة ؟	٣٥
كلام الله يحمل على معنى كلام العرب وقت نزوله	٤٣
حكمة الشرع وحكمة الامثال	٤٩
ظاهرة الخلق والحدوث	٥١
قوى المعرفة الثلاث	٥٦
أصل الماء (مأى)	٦٠
القوة بمفهوم نصي	٦٢
حجة داحضة أبداً	٧٢
العلم بالوجود والعلم بالكيفية	٧٧
الغر الكريم	٧٩
مدلول أفعال	٨٢
من أخبار غندر	٨٧
ثالوث المؤرخ الحديث	٨٨

٩٣	الموسوعية وتصنيف العلوم
٩٧	شاة الحلف
١٠٠	شيء من علاقات المعاني اللغوية
١٠٥	أنا شرقي إذن أنا أبكي
١٠٨	عصر الإرهاب الفكري ، أو أصنام سيكون
١١٣	فذلكة الأفلام
١١٥	يحيا الحب
١١٨	فيلم لحن الخلود
١٢٣	فيلم عريس بنت الوزير
١٢٥	دموع الحب
١٢٧	ظلموني الناس
١٣٢	فيلم ارحم حبي
١٣٣	بين العبقرية والجنون
١٤١	التقد الجمالي
١٥٣	نبذة عن المذهب الرمزي
١٥٩	الخيال العربي
١٦٢	اضافة الخيال
١٦٣	منهجان في النقد
١٦٤	تراسل الحواس
١٦٥	على رسلكم أيها الشعراء
١٦٧	العلمانية في الشعر العربي الحديث
١٧٢	الجمال بين النظرية والتطبيق
١٧٤	عاشقة النور
١٧٦	تهويمات النابلسي
١٧٩	الحب الإلهي ، أو الجمال المطلق
١٨٧	الحرية الفكرية
١٨٩	الإيجابية الفكرية
١٩٤	الثوابت الفكرية
١٩٦	الاطرادات الفكرية
١٩٧	الحتمية الفكرية تابعة للحتمية الكونية
٢٠٠	سيادة النص وحق التفكير

٢٠٨	المعادلة الشرعية
٢١٢	المعادلة التاريخية
٢١٤	شعار الهوية الإسلامية
٢٢٠	وحدة الوجود فلسفة أم دعوى ؟ !
٢٢٥	صيدحيون عراقيون
٢٢٨	بين الصافي والجواهري
٢٢٩	مناغاة الجواهري لدجلة
٢٣٤	من شعر علي الشرقي
٢٣٧	أنشودة الجمال لبودلير
٢٣٩	إبراهيم ناجي والحب العائر
٢٤٣	عودة ناجي
٢٤٨	إذا كان الانفعال مضماراً فلا تنسوا اللجام
٢٥٢	هل أنا في الكون أم الكون في ؟
٢٥٥	هجيري الذات
٢٥٧	هجيري الذات أيضاً
٢٥٩	آن له أن يعجم
٢٦١	إن أبيتم فصومعتي أرحم بي
٢٦٤	الliche بين الاتباع والابتداع
٢٦٦	أنا والشيب
٢٧٧	الفنان يتألم لهذا يتفوق
٢٧٩	لو كنا أغبياء لكننا عظماء
٢٨٢	ليت للبراق عينا
٢٨٤	ألف تحية من السيرانادا
٢٨٦	لا تقل شئنا
٢٨٨	إما النبوغ وإما
٢٩٠	وهم الحب
٢٩٢	الحب على لسان أبي زهرة
٢٩٣	عندما ينهزم الحب مرة
٢٩٤	ليلة حب
٢٩٦	الكتابة بمداد الموسيقى
٢٩٨	خليكوا شاهدين

٣٠٠	الجمال الغريق
٣٠٢	قاموس الغزل
٣٠٥	نون النوة
٣٠٧	إلى حضرة المأسوف عليه فرتر
٣١٤	روائع الجنة في الشباب
٣١٦	ابن اللبون
٣١٩	خصائص الشعر الحر ومقوماته
٣٤٠	صلوات قلب
٣٤٣	مؤخرة

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

- الجبل الذي صار سهلاً (نقد)
- من ذكريات مسافر
- عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)
- التنمية قضية (نقد)
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد)
- الظلم (مجموعة قصصية)
- الدوام (قصة طويلة)
- غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد)
- موضوعات اقتصادية معاصرة
- أزمة الطاقة إلى أين؟
- نحو تربية إسلامية
- إلى ابنتي شيرين
- وفات عقل
- شرح قصيدة البردة
- عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد)
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (نقد)
- وقفة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد)
- أفكار بلا زمن
- كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)
- الإنجاز في ليل الشحن (ديوان شعر)
- طه حسين والشيخان
- التنمية وجهها لوجه
- الحضارة محمد (نقد)
- عبر الذكريات (ديوان شعر)
- لحظة ضعف (قصة طويلة)
- الرجولة عماد الخلق الفاضل
- ثمرات قلم
- بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)
- أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (ترجم)
- النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)
- مكانك نعمدي
- قال وقلت
- نبض
- نبت الأرض
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ محمد عمر توفيق
- الأستاذ عزيز ضياء
- الدكتور محمود محمد سفر
- الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- الدكتور عصام خوقير
- الدكتور أمل محمد شطا
- الدكتور علي بن طلال الجهني
- الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
- الأستاذ أحمد محمد جمال
- الأستاذ حمزة شحاتة
- الأستاذ حمزة شحاتة
- الدكتور محمود حسن زيني
- الدكتور مريم البغدادي
- الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- الأستاذ أحمد السباعي
- الأستاذ عبدالله الحصين
- الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- الأستاذ محمد الفهد العيسى
- الأستاذ محمد عمر توفيق
- الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الدكتور محمود محمد سفر
- الأستاذ طاهر زخشري
- الأستاذ فؤاد صادق مفتي
- الأستاذ حمزة شحاتة
- الأستاذ محمد حسين زبدان
- الأستاذ حمزة بوقري
- الأستاذ محمد علي مغربي
- الأستاذ عزيز ضياء
- الأستاذ أحمد محمد جمال
- الأستاذ أحمد السباعي
- الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- الدكتور فائز أمين شكري

- السعد وعد (مرحبة)
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)
- عن هذا وذلك (الطبعة الثالثة)
- الأصداف (ديوان شعر)
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (الطبعة الثانية)
- أفكار تربوية
- فلسفة المجانين
- خدعتني مجها (مجموعة قصصية)
- نقر العصافير (ديوان شعر)
- التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثالثة)
- المجازين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)
- خواطر جريئة
- السنيورة (قصة طويلة)
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)
- جسر إلى القعة (تراجم)
- تأملات في دروب الحق والباطل
- الحمى (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
- قضايا ومشكلات لغوية
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة
- زيد الخبز
- الشوق إليك (مرحبة شعرية)
- كلمة ونصف
- شيء من الحصاد
- أصداء قلم
- قضايا سياسية معاصرة
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي
- الإعلام موقف
- الجنس الناعم في ظل الإسلام
- ألحان مقتررب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
- غرام ولادة (مرحبة شعرية) (الطبعة الثانية)
- سبروتراجم (الطبعة الثالثة)
- الموزون والمزبون
- لجام الأقلام
- نقاد من الغرب
- حوار.. في الحزن الدافئ
- صحة الأسرة
- سباعيات (الجزء الثاني)
- خلافة أبي بكر الصديق
- البنرول والمسقبل العربي (الطبعة الثانية)
- إليها .. (ديوان شعر)
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)
- الدكتور عصام خوقير
- الأستاذ عز يز ضياء
- الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أحمد السباعي
- الدكتور ابراهيم عباس نتر
- الأستاذ سعد البواردي
- الأستاذ عبدالله بوقس
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أمين مدني
- الأستاذ عبدالله بن خيس
- الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- الدكتور عصام خوقير
- الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- الأستاذ عز يز ضياء
- الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- الأستاذ محمد علي مغربي
- الأستاذ عبدالعز يز الرفاعي
- الأستاذ حسين عبدالله سراج
- الأستاذ محمد حسين زيدان
- الأستاذ حامد حسن مطاوع
- الأستاذ محمود عارف
- الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- الأستاذ بدر أحمد كرم
- الدكتور محمود محمد سفر
- الشيخ سعيد عبدالعز يز الجندول
- الأستاذ طاهر زغشيري
- الأستاذ حسين عبدالله سراج
- الأستاذ عمر عبدالجبار
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- الدكتور زهير أحمد السباعي
- الأستاذ أحمد السباعي
- الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الأستاذ عبدالعز يز مؤمنة
- الأستاذ حسين عبدالله سراج
- الأستاذ محمد سعيد العامودي

الأستاذ أحمد السباعي
 الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
 الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
 الأستاذ محمد علي مغربي
 الدكتور أسامة عبدالرحمن
 الشيخ حسين عبدالله باسلامة
 الأستاذ سعد البواردي
 الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
 الأستاذ عبدالله بلخير }
 الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلاحي
 الأستاذ عزيز ضياء
 الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
 الدكتور عصام خوفير
 الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
 الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلاحي
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلاحي
 الدكتور عبدالله حسين باسلامة
 الأستاذ محمد سعيد العامودي
 الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
 الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
 الدكتور غازي عبدالرحمن القصبي
 الدكتور بهاء بن حسين عززي
 الأستاذ عبدالرحمن المعمر
 الدكتور محمد بن سعيد بن حسين
 الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
 الأستاذ عزيز ضياء
 الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

• أبيامي
 • التعلم في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)
 • أحاديث وقضايا إنسانية
 • البحث (مجموعة قصصية)
 • شمعة ظمأى (ديوان شعر)
 • الإسلام في نظراًعلام الغرب (الطبعة الثانية)
 • حتى لا ننفقد الذاكرة
 • مدارسنا والتربية (الطبعة الثالثة)
 • وحـ , الصحراء (الطبعة الثانية)
 • طيور الأبايل (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
 • قصص من تاغور (ترجمة)
 • التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)
 • زوجتي وأنا (قصة طويلة)
 • معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان
 • لن تلحد
 • عمر بن أبي ربيعة (الطبعة الثانية)
 • رجالات الحجاز (تراجم)
 • حكاية جبلين
 • من أوراقي
 • الإسلام في معترك الفكر
 • إليكم شباب الأمة
 • في رأيي المتواضع
 • العالم إلى أين والعرب إلى أين ؟
 • البرق والبريد والهاتف وصلتنا بالحب والأشواق والعواطف
 • محمد سعيد عبدالمقصود خوجه (حياته وآثاره)
 • جزء من حلم
 • ماما زبيدة (مجموعة قصصية)
 • هكذا علمني ورد زورث

تحت الطبع ،

الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
 الدكتور عبدالمهدي طاهر
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلاحي
 الأستاذ عبدالله عبدالجبار
 الأستاذ حسين عرب
 الأستاذ أحمد عبدالمعمر عطار
 الأستاذ محمد حسن ريدان
 الأستاذ حسين عبدالله سراح

• وجيز النقد عند العرب
 • الطاقة نظرة شاملة
 • لا رق في القرآن
 • من مقالات عبدالله عبدالجبار
 • ديوان حسين عرب
 • العقاد
 • خواطر مجتحة
 • ذات ليلة

- إنتاجه مجتمع
- من ذكريات مسافر (الجزء الثاني)
- التنمية قضيّة
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية
- غداً أنسى (قصة طويلة)
- تاريخ عمارة المسجد الحرام
- الحضارة نجد
- الجيل الذي صار سهلاً
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)
- من ذكريات مسافر (الجزء الثاني)
- الدكتور عمود محمد سفر
- الأستاذ محمد عمر توفيق
- الدكتور عمود محمد سفر
- الدكتور سليمان بن محمد الفنام
- الدكتور أمل محمد شطا
- الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الدكتور عمود محمد سفر
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أحمد السباعي
- الأستاذ محمد عمر توفيق
- (الطبعة الثانية)
- (الطبعة الثانية)
- (الطبعة الثانية)
- (الطبعة الثانية)
- (الطبعة الثانية)
- (الطبعة الثانية)
- (الطبعة الثانية)

سلسلة :

الكتاب العربي اليمني

تحت الطبع ،

- تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي
- بغية المرید وأنس الفريد
- الأستاذ أحمد الشامي
- الأستاذ عامر بن محمد بن عبدالله
- الأستاذ محمد محمد الشامي (تحت طبع)
- الأستاذ أحمد محمد الشامي (مراجعة ونظمت)

سلسلة : الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)
- التومن الطفولة إلى المراهقة (الطبعة الثالثة)
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا
- النفط العربي وصناعة تكريره
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) (الطبعة الثانية)
- مبادئ القانون لرجال الأعمال (الطبعة الثانية)
- الاتجاهاات العددية والتنوعية للدوريات السعودية
- قراءات في مشكلات الطفولة (الطبعة الثانية)
- شعراء التروبادور (ترجمة)
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين
- النظرية النسبية
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)
- المدخل في دراسة الأدب
- الرعاية التربوية للمكفوفين
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام
- الوحدات النقدية المملوكية
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)
- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم
- التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن
- مبادئ الطرق الإحصائية
- مبادئ الإحصاء
- المنظمات الاقتصادية الدولية
- التعلم الصفي

الدكتور منني عبدالقادر علاقي

الدكتور فؤاد زهران

الدكتور عدنان جيجوم

الدكتور محمد عيد

الدكتور محمد جبل منصور

الدكتور فاروق سيد عبدالسلام

الدكتور عبدالمنعم رسلان

الدكتور أحمد رمضان شقلية

الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر

الدكتورة سعاد ابراهيم صالح

الدكتور محمد ابراهيم أبو العنين

الأستاذ هاشم عبده هاشم

الدكتور محمد جبل منصور

الدكتورة مريم البغدادي

الدكتور لطفي بركات أحمد

الدكتور عبدالرحمن فكري

الدكتور محمد عبدالمهدي كامل

الدكتور أمين عبدالله سراج

الدكتور سراج مصطفى زقروق

الدكتورة مريم البغدادي

الدكتور لطفي بركات أحمد

الدكتورة سعاد ابراهيم صالح

الدكتور سامع عبدالرحمن فهمي

الدكتور عبدالوهاب علي الحكيمي

الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر

الدكتور خضير سعود الخضير

الدكتور جلال الصياد

الدكتور عبدالحميد محمد ربيع

الدكتور جلال الصياد

الأستاذ عادل سمرة

الدكتور حسين عمر

الدكتور محمد ز ياد حمدان

تحت الطبع ،

- الاقتصاد الاداري
- الاقتصاد الصناعي
- دراسات في الإعراب
- أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية
- أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية
- العلاقات الدولية
- التوجيه والارشاد
- الدكتور فرج عزت
- الدكتور سليم كامل درويش
- الدكتور عبدالمهدي الفضلي
- الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
- الأستاذ فاروق عبدالسلام

سلسلة :

اسائل جامعية

صدر منها ،

- صناعة النقل البحري والتنمية
- في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية)
- القصة في أدب الجاحظ
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف
- النظرية التربوية الإسلامية
- نظام الحبة في العراق .. حتى عصر المأمون
- المقصد العلمي في زوائد أبي يعلى الموصلي (تحقيق ودراسة)
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام
- دراسة اتوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية)
- عادات وتقاليذ الزواج بالمنطقة الغربية
- من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية اثنروبولوجية حديثة)
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء
- بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)
- تقوم التماثل الجسماني والنشوء
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة
- الدكتور بهاء حسين عزبي
- الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- الأستاذة أميرة علي المداح
- الأستاذ عبدالله باقازي
- الأستاذة فوزية حسين مطر
- الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- الأستاذ رشاد عباس معتوق
- الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الأستاذ نبيل عبدالحلي رضوان
- الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الأستاذة نورة بنت عبد الملك آل الشيخ
- الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- الأستاذ عبدالكريم علي باز
- الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- الدكتورة ظلال عمود رضا
- الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

تحت الطبع،

- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر
- التصنيع والتحضر في مدينة جدة
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار
- تعليم اللغة الإنجليزية (باللغة الإنجليزية)
- التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة

الأستاذ محمد فهد عبدالله الفهر
الأستاذة عواطف فيصل يباري
الدكتور فاروق صالح الخطيب
الأستاذ مأمون يوسف بنجر
الأستاذة سارة حامد محمد العبادي



صدر منها،

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية)
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الإنجليزية)
- التخلف الإيماني
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (دراسة وتحقيق)
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم
- واقع التعلم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية)
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية)
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية)
- النيش في جرح قديم (مجموعة قصصية)
- الرياضة عند الغرب في الجاهلية وصدور الإسلام
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية)
- أيام مبشرة (مجموعة قصصية)
- مواسم الشمس المقلبة (مجموعة قصصية)
- ماذا نعرف عن الأمراض؟
- جهاز الكلية الصناعية
- القرآن وبناء الإنسان
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية
- الأستاذ أحمد بن عبدالله القاري
- الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان
- الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- الأستاذ إبراهيم سريسق
- الدكتور عبدالله محمد الزيد
- الدكتور زهير أحمد السباعي
- الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدكتور عاطف فخري
- الأستاذ شكيب الأموي
- الأستاذ محمد علي الشيخ
- الأستاذ فؤاد عنقاوي
- الأستاذ محمد علي قدس
- الدكتور اسماعيل الملباوي
- الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- الأستاذ صلاح البكري
- الأستاذ علي عبد بركات

- الطب النفسي معناه وأبعاده
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية)
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر)
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)
- ديوان السلطانين
- الامكانات النورية للعرب وإسرائيل
- رحلة الربيع
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية)
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية)
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف
- الجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
- من فكرة لفكرة (الجزء الأول)
- رحلات وذكريات
- ذكريات لا تنسى
- تاريخ طب الأطفال عند العرب
- مشكلات بنات
- دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية
- نفحات من طيبة (ديوان شعر)
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية
- الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية)
- الدليل لكتابه البحوث الجامعية
- القطار والحبل (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)
- المذاهب الأدبية في الشعر الحديث جنوب المملكة العربية السعودية
- مسائل شخصية
- مجموعة النيل (دواوين شعر)
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)
- الزكاة في الميزان
- من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)

تحت الطبع :

- سرايا الإسلام
- انبجاعات نفسية وتربوية
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي
- ملامح وأفكار
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية
- الكشف الجامع بجملة المنهل
- ديوان حمام (ديوان شعر)
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الأستاذ فخري حسين عزري
- الأستاذ لطفي بركات أحمد
- الدكتور جميل حرب محمود حسين
- الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- الأستاذ محمد مصطفى حمام

- رحلة الأندلس
- فجر الأندلس
- قریش والاسلام
- الدفاع عن الثقافة
- في بيتك طبيب
- مجموعة فاروق جويدة (دواوین شعر)
- البساتین
- نسب الشریف الرضی: الحجازیات وقصائد آخر
- مشكلات لغویة
- دلیل مکة السباحی
- السبئیون وسد مأرب
- الشعر المعاصر علی ضوء النقد الحديث
- التلفزيون التجاری فی الولايات المتحدة
- صور وأفکار
- الدكتور حسین مؤنس
- الدكتور حسین مؤنس
- الدكتور حسین مؤنس
- الدكتور عبدالعزیز شرف
- الدكتور محمد عبدالله القصیمی
- الأستاذ فاروق جویدة
- الدكتور حسن نصیف
- الدكتور عاتكة الخزرجی
- الدكتور شوقی التجار
- اعداد تامة للنشر والمکتبات
- الأستاذ محمود جلال
- الأستاذ مصطفى عبداللطیف السحرقي
- الأستاذ غازی زین عوض الله
- الأستاذ عثمان حافظ

كتاب للأطفال

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال ينتقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- نورية الفراولة
- صيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- البيرة البحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

نحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم باسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الفرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- اليوم
- البجع
- المهدد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخنزير

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

نحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتل صاحبها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يجرق شجرة كاذبة

للأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة : التريفة الإسلامية

- الله أكبر
- الصلاة
- صلاة المسوق
- صلاة الجمعة
- أركان الإسلام
- الصوم
- صلاة الجنابة
- صلاة الكسوف والخسوف
- التيمم
- الوضوء
- الصدقات
- سجود التلاوة
- زكاة النقدین
- المسح على الخفين
- الزكاة
- زكاة بهيمة الأنعام
- المسح على الجبيرة والعصابة
- زكاة الفطر
- زكاة العروض

قصص متنوعة :

- الصرصر والتملة
- السمكات الثلاث
- النخلة الطيبة
- الككوت المتشرد
- المظهر الخادع
- بطوط وككت
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ اسماعيل دياب
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئ

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب

- جدة القديمة
- جدة الحديثة
- الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر
- الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المفرور والفلاح وحاره
- الطاقية العجيبة
- الزهرة والفراسة
- سلمان وسليمان
- زهور البابونج
- سنبله القمح وشجرة الزيتون
- نظيمة وغنيمة
- جزيرة السعادة
- الحديقة المهجورة
- اليد السفلى
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الدكتور محمد عبده بمانى

إعداد الأستاذ يعقوب محمد اسحق

الدكتور عبد الحنان اسماعيل شلبي
الدكتور سعد اسماعيل شلبي

• عقبه بن نافع

Books Published in English by TIHAMA

- **Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.**
By: F.M. Zahran/A.M.R. Jamjoom/M.D. EED
- **Zaki Mubarak: A Critical Study.**
By: Dr. Mahmud Al Shihabi
- **Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.**
- **Education in Saudi Arabia, A Model With Difference. (Second Edition)**
By: Dr. Abdulla Mohamed A. Zaid
- **The Health of the Family in A Changing Arabia. (Third Edition)**
By: Dr. Zohair A. Sebai
- **Diseases of Ear, Nose and Throat.**
By: Dr. Amin A. Siraj/Dr. Siraj A. Zakzouk
- **Shipping and Development in Saudi Arabia**
By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- **Tihama Economic Directory. (Second Edition)**
- **Riyadh Citiguide.**
- **Banking and Investment in Saudi Arabia.**
- **A Guide to Hotels in Saudi Arabia.**
- **Who's Who in Saudi Arabia. (Third Edition)**
- **An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.**
By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib.
- **The Role of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of the Al-Hasa Of Eastern Saudi Arabia.**
By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **An Analysis Of The Effect Of Capitalizing Exploration And Development Costs In The Petroleum Industry — With Emphasis On Possible Economic Consequences In Saudi Arabia.**
By: Mohiadin R. Tarabzune
- **An Evolving Typology Of Constructs Of Critical Thinking, Curriculum Planning And Decision Making In Teacher Education Programs Based On The Islamic Ideology. The Case Of Saudi Arabia.**
By: Ahmad Issam Al-Safadi
- **The Effect Of A Listening Comprehension Component on Saudi Secondary Students' EFL Skills.**
By: Mamoun Yousef Banjar

